المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

# ربما فى حلب ذات يوم
## وقصص أخرى

## مختارات من القصة القصيرة الأمريكية فى القرن العشرين

الطبعة الثانية

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمى

مراجعة وتحرير: طلعت الشايب

2/970

# ربما فى حلب ذات يوم

## (وقصص أخرى)

مختارات من القصة القصيرة الأمريكية فى القرن العشرين

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٧٠/ ٢
- ربما فى حلب ذات يوم (وقصص أخرى)
(مختارات من القصة القصيرة الأمريكية فى القرن العشرين)
- أحمد الشيمى
- طلعت الشايب
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة لمختارات من القصة القصيرة الأمريكية

---


شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

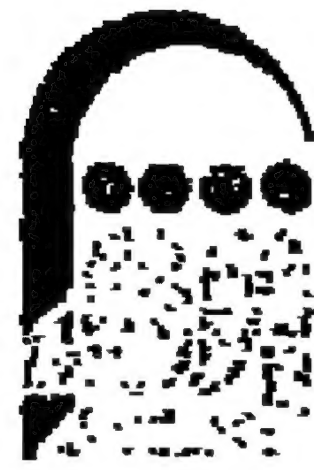
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

# ربما فى حلب ذات يوم
# (وقصص أخرى)

## مختارات من القصة القصيرة الأمريكية
## فى القرن العشرين

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمى

مراجعة وتحرير: طلعت الشايب



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٩٢٧ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 7 - 321 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

# المحتويات

# إهداء

إلى المترجم المبدع الأستاذ/ طلعت الشايب

# مقدمة المترجم

تستحق القصة القصيرة بوجه عام والأمريكية بصفة خاصة أن يُحتفى بها بمناسبة انقضاء قرن، شاركت دون ريب فى بناء صرحه الثقافى والاجتماعى. وهو القرن الذى فيه نضجت وفيه استقرت لتستقبل القرون التى سوف تجىء بعده بخطى واثقة بالمستقبل مطمئنة للخلود. وكتاب هذه القصص عاشوا خلال القرن العشرين وشهدوا أحداثه وتأثروا بها وعبروا عنها أو عن بعضها. والقرن العشرون هو قرن الانتقالات الكبرى فى تاريخ البشرية عامة وتاريخ أمريكا خاصة. فهو قرن الحروب المتصلة – أو يكاد أن يكون قرن الحروب المتصلة – التى لم تعرف البشرية مثلها عمقًا فى التدمير وبعدًا فى التغيير. فهو القرن الذى دالت فيه ممالك، وانهارت إمبراطوريات، وتبدلت خرائط، وقامت جمهوريات بسبب نشوب حربين عالميتين فى بدايته وفى منتصفه بالإضافة إلى حرب وصفت بأنها باردة مع أن ضحاياها من البشر زادوا على ضحايا الحربين العالميتين ومع أن التغيير الذى أحدثته تلك الحرب الباردة لم يكن أقل خطرًا من التغيير الذى أحدثته الحربان العالميتان والدليل على ذلك أن الحرب الباردة انتهت بسقوط الاتحاد السوفييتى الذى كانت مساحته أكثر من خمسة وعشرين مليونًا

من الكيلومترات المربعة المتصلة. كانت الولايات المتحدة القوة الحاسمة فى هذا السقوط مما زاد من نفوذها وأتاح لها التدخل فى الشئون الدولية للحفاظ على مصالحها أحيانًا وفرض هيمنتها أحيانًا أخرى.

شهد كتاب هذه القصص إذن الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية والحرب الأهلية فى إسبانيًا والكساد التجارى الكبير فى الثلاثينيات وظهور الأنظمة الشمولية فى ألمانيا وروسيا وغيرهما من دول المعسكر الشيوعى، ثم شهدوا الثورات المتتابعة السياسية والعلمية والاجتماعية والأدبية وغيرها. شهدوا ثورات التحرر الوطنى ونهاية عصر الاستعمار، وشهدوا الإنجازات العلمية الهائلة التى جعلت من القرن العشرين قرن السيارات والطائرات والصواريخ وانشطار النواة والكومبيوتر والصعود إلى الفضاء والنزول إلى أعماق الأرض. شهد كتاب هذه القصص هذا كله وعبروا عنه فى القصة القصيرة التى لقيت اهتمامًا من الأمريكيين يفوق اهتمامهم بسائر الفنون الأدبية الراسخة كالرواية والشعر والمسرحية.

ازدهرت القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى حين بدأ انحسارها فى الأدب الأوروبى فى العصر الفكتورى الذى سادت فيه الرواية الطويلة وعلا صوت الشعر. وقد شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر انتقال القصة القصيرة إلى الولايات المتحدة حين تجاهلها الإنجليز والفرنسيون. توقف الإنجليز عن تناول القصة القصيرة فى مناظراتهم وأنديتهم، وفى معرض حديثهم عن دور الأدب فى الحياة لم

نجد من النقاد الإنجليز من يبحث عن أى دور للقصة القصيرة، ولم نجد منهم من يتناولها بالنقد والتحليل مثلما كان الشأن مع الرواية والـشعر. وربما كان للصحافة دور فى الحط من قدر القصة القصيرة فـى نظـر قرائها وذلك للصلة الوثيقة بين الاثنتين، فلـم يكـن ديكنـز وموباسـان وكبلنج ينشرون قصصهم القصيرة والطويلة إلا من خلال الصحافة التى شهدت أيضا ازدهارًا لافتًا فى القرن التاسع عشر.

استقرت القصة الأمريكية القصيرة إذن فى القرن التاسع عشر على يد إدجار آلان بو وهوثورن وثورو وغيرهم. فقد كتب هوثـورن القصة القصيرة فى عام ١٨٤٢، وقدم بو تعريفه للقصة القصيرة فـى العام نفسه ومن قوله:

لا نستطيع أن نقرأ الرواية فى جلسة واحدة... الروايـة نظـرًا لطولها لا تحقق التأثير الشامل الذى تصبو إليه... لأن القـارئ الـذى يتوقف بعد قراءة فصل أو فصلين من الرواية لأن شئون حياته اليومية تحول بينه وبين مواصلة القراءة، إنما يهدم الانطباع الـشامل القـوى الذى يتركه العمل الأدبى فى الوهلة الأولى. والقـصة القـصيرة ــــ شأنها فى ذلك ــ شأن القصيدة القصيرة وكل عمل فنى مختصر تتـيح للكاتب أن يفرض رؤيته كاملة على القارئ. أثناء القراءة تـصبح روح القارئ فى قبضة المؤلف، فى مأمن من المؤثرات الخارجية والظروف الطارئة التى من شأنها أن توقف القراءة، وفى مأمن من الملل والـسأم أيضا اللذين قد يمنعان القارئ من مواصلة القراءة.

كان بو يعبر في الواقع عن المزاج الأمريكي الذي يتفق مع الأدب القصير. وكانت القصة القصيرة هي الشكل الطبيعي الذي وجد فيه الأمريكيون ضالتهم التي عبروا من خلالها عن طريقة حياتهم في مجتمع ليس الاستقرار من طبيعته. يقول البروفسور أ. والتون ليتز مؤكدًا:

وجد الأمريكيون ضالتهم في القصة القصيرة بسبب ضحالة الحياة الأمريكية وافتقارها للنسيج الاجتماعي الغني والمعقد الذي تمتاح منه الرواية عادة. الأدب الموجز كان الصيغة المثلى والطبيعية للتعبير عن تجاربهم التي كانت عميقة ولكنها كانت معزولة، وهو الصيغة المثلى للتعبير عن خبرة اجتماعية محلية ومجزأة برغم توافر رؤية كونية شاملة لدى هؤلاء الكتاب.

ولم تكن قصص بو مع ذلك مخلصة للحياة الأمريكية في تصويرها للشخصيات وتناولها للأحداث ورسمها للمشاهد، وإنما كانت تنطلق في ذلك كله من الحياة الأوروبية التي كان بو خبيرًا بها. اتصلت كتابات بو القصصية بالحياة الأوروبية أكثر من اتصالها بالحياة الأمريكية. وكان بو يكتب وفي ذهنه الحياة الأوروبية، وعينه على الرومانسية في أوروبا وليس على البراجماتية في أمريكا. وكان هوثورن يقول: إنه لا يستطيع أن يكتب رواية متخذًا من حياة قصيرة ضحلة كالحياة الأمريكية مادة لها، وكان يقول: إنه لا يستطيع أن يكتب رواية يكون فيها البطل أضخم من الحياة ذاتها. وحين كتب هوثورن

الرواية اتخذ من حياة الناس فى نيو إنجلاند موضوعًا لها وهى حياة بيوريتانية محافظة شديدة الصلة بالعصر الفكتورى الإنجليزى. ولكن بو وهوثورن هما رائدا القصة الأمريكية القصيرة دون منازع، وهما اللذان غرسا هذا الفن فى التربة الأمريكية وتولياه بالرعاية حتى أثمر بعد ذلك ثمارًا أمريكية خالصة إلى أن جاء هرمان ملفل الذى كان أكثر اقترابا من الحياة الأمريكية فى رواياته وقصصه القصيرة، فقد كانت شخصياته مغامرة شديدة الطموح ساعية لتحقيق أهدافها مهما كانت التكلفة وهى شخصيات تعبر أصدق تعبير عن الإنسان الجديد فى أمريكا، وهو إنسان مغامر طموح ماض فى طريقه لا يلوى على شىء ولا يكترث بعقبة ولا يقف أمام مبدأ. وملفل هو كاتب رواية موبى دك التى يعتبرها البعض أفضل رواية أمريكية على الإطلاق. وملفِل هو الذى صور فى قصصه القصيرة الصراع بين الأعراق المتباينة التى هى سمة من سمات المجتمع الأمريكى، وكان يتنبأ بثورة الأقليات الملونة وخاصة الزنوج على الأغلبية البيضاء. وكان ملفل ينطلق فى ذلك كله من حياته الغنية بالتجارب، فقد عمل موظفًا فى بنك وبائعًا فى متجر وأجيرًا فى مزرعة ومعلمًا فى مدرسة وبحارًا فى سفينة، ومارس أعمالا أخرى كثيرة مما زوده بمادة وفيرة استعملها فى قصصه.

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى برزت على الساحة أسماء كانت قادرة حقا على الدخول بالقصة القصيرة إلى آفاق القرن

العشرين. يسجل أول القرن العشرين أسماء أمبروز بيـرس وفرانـك هاريس وهاملن جارلاند وجاك لندن وستيفن كرين وأو هنرى وويـلا كاثر وشروود أندرسن وكاترين آن بورتر وسنكلير لويس. وكان يمكن لستيفن كرين أن يكون أعظمهم جميعًا لولا أن وافاه الأجـل بمـرض السل ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره. وستيفن كرين هو الذى كتب رواية نوط الشجاعة الأحمر، وعددًا من المجموعات القصـصية منها القارب المفتوح، والوحش، واللوكاندة الزرقاء.

ولعب جاك لندن وأو هنرى دورًا بارزًا فى تأصـيل القـصة القصيرة فى الأدب الأمريكى وجعلها أمريكية خالصة. وكان جاك لندن ماركسيا يؤمن بالصراع بين الطبقات وكان لنشأته فى سان فرانسيسكو مجهول الأب تأثير على أدبه وحياته، فقد تعلم كيف يكـون الاعتمـاد على النفس، وكان يحب السفر حتى حاز ثروة كبيرة وخبرة أكبر فـى شئون الحياة والعباد. وكرس بعد ذلك قلمه للكتابـة عـن المحبطـين والمقهورين بين مطرقة الرأسمالية وسندان البراجماتية، وكان يرى أن الحل يكمن فى الاشتراكية. وكان جاك لنـدن قارئـا جيـدا لـداروين وهكسلى وسبنسر وكبلنج ونيتشه وماركس. وكانت شخصيات لندن تبعًا لذلك أفرادًا يتحدون الظروف، ظروف الطبيعة والمجتمع فيغلِبون أحيانًا ويُغلبون أحيانا أخرى. ومن ناحية أخرى تمثل كتابات جاك لندن فتـرة الانتقال إلى القرن العشرين خير تمثيل، ففى قصصه القصيرة بالـذات نحس بانهيار عصر الإيمان بالدور الذى كانت تلعبـه الأرسـتقراطية

كحارس أمين على القيم، ونحس كذلك بانتهاء عصر البـراءة وبدايـة عصر جديد لا بقاء فيه للضعيف، وهو العصر الذى عبر عنه شـعراء الحداثة فى كتابات إزرا باوند وإيمى لويل وإدون إيرلنجتون روبنسون وإدجار لى ماسترز وربرت فروسـت و ت. إس. إليـوت وغيـرهم. وشهد هؤلاء الكتاب انتصار أفكارهم بنشوب الحرب العالمية الأولـى وحدوث الكساد التجارى الكبير والحرب فى إسبانيا وظهور الأنظمـة الشمولية وصولا إلى الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن الشعر وحده الذى علا صوته فى تلك الفترة، بل كانت القصة أكثر تعبيرًا عما سمته جرترود ستين بالجيـل الـضائع، وهـو الجيل الذى عبر عنه إرنست همنجواى فى رواياته وقصصه القـصيرة على الأخص. فى تلك الفترة كتب أو هنرى القصة القـصيرة بغـزارة وكان يعبر فيها عن هزائم هذا الجيل الضائع وعن معاناة المقهـورين والبؤساء. وفى تلك الفترة أيضا كتب تيودور دريزر روايتـه المأسـاة الأمريكية التى عبر فيها عن الحياة الأمريكية فى مرحلتها الانتقالية بين الفكتورية المحافظة والحداثة المتمردة. وكان يقول إن الأمريكيين أعداء أنفسهم لأن المادية هزمت نفوسهم وجردتهم مما يميز الإنـسان عـن الوحوش الضارية وهو الوازع القيمى والأخلاقى.

وكتبت ويلا كاثر أكثر من أربع مجموعات قصصية إلى جانب رواياتها التى تزيد على العشر. صورت ويلا كاثر الحياة فى نبراسـكا أبرع تصوير، وعبرت عن خيبة أمل جيلها فى العالم المادى وتنبـأت

بزوال هذا العالم. وكانت كاثر تهرب من هذا العالم إلى عوالم أخرى فى الزمن الماضى. ولدت ويلا كاثر فى عام ١٨٧٣ فى جبال شمال غرب فرجينيا حيث كانت أسرتها تعمل بالزراعة ولكن أسرتها انتقلت، عندما كانت فى السادسة، إلى مزرعة فى نبراساكا وكانت ولاية جديدة عندئذ يسكنها مهاجرون من ألمانيا والنرويج وتشيكوسلوفاكيا التى احتفت بهم فى قصصها. كانت كاثر تكن العداء للحياة الأمريكية الحديثة التى طغت عليها المادية وتراجعت فيها القيم الروحية، مما زاد من غربة الفرد وقضى على أمله فى حياة تقوم على الحب. ولذا عمدت كاثر فى رواياتها الأخيرة على الأخص إلى تذكر حياة الماضى القريب وإلى الإبحار بالقارئ إلى عوالم قديمة استطاعت بقلمها النابض أن تعود بها حية أمام القارئ.

وفى تلك الفترة أيضا كتب شروود أندرسن قصصه القصيرة التى عبر فيها عن عالم الحداثة خاصة فى مجموعته القصصية "وانسبرج أوهايو" التى رسم فيها شخصيات قلقة حائرة لا تصل إلى هدفها وإن وصلت لا ترضى عما حققته. شخصيات تبدو لها الحياة كابوسا طويلا لا فكاك منه تحاول الهرب منه إلى عالم مختلف لا يعرفونه، ومن ثم فهم معذبون ولا يحسون بالسلام النفسى. وشخصيات أندرسن تعانى من الأمراض الاجتماعية وتحس بالغربة وتحاول أن تتخلص من هذا القيد، وفى سعيها للخلاص تبدو أفضل من الذين يستكينون للظلم ويخضعون لرتابة الحياة العادية. وكان أندرسن

يستخدم لغة مألوفة لا تصعب على القارئ متوسط الثقافة ولكنه كان بارعًا مع ذلك فى استخدام تيار الوعى ورصد التقلبات النفسية لشخصياته. وكان فولكنر وهمنجواى يعترفان بتأثير أندرسن، وكان فولكنر يقول: إن أندرسن هو الأب الروحى لجيلنا.

جعل همنجواى من نفسه المتحدث الرسمى لما يسمى بالجيل الضائع فى رواياته وقصصه القصيرة. نشر أولى مجموعاته القصصية بعنوان "فى زماننا ١٩٢٤" و"رجال ونساء ١٩٢٧" التى أكد بها موهبته. وتميز أسلوب همنجواى بالحوار المقتضب السريع فى قصصه القصيرة بالذات كما هو واضح فى قصة "القتلة" التى قمنا هنا بترجمتها. ويأخذ عليه النقاد اهتمامه الزائد بمشاهد الدم فى رواياته وقصصه. وفى قصة القتلة نجد شخصياتها تواجه مصيرا غامضًا وبعضها لا يأبه بما سيحدث مثل الملاكم أول أندرسن. لقد خطا همنجواى بالقصة خطوات واسعة، ووجد الصلة بينها وبين السنوات الأولى من القرن العشرين، وهى سنوات تتميز بإحساس بالغربة وقلق وتمرد على الحياة. وذلك لما كان يبدو فى الأفق من اقتراب صراع مرير بين القوى الاستعمارية الكبيرة التى كانت تستعد لافتراس ما تبقى من دول العالم الثالث ووراثة الدولة العثمانية والهيمنة الكاملة على طرق التجارة ومصادر المواد الخام والسيطرة على أكبر مساحة من سوق الاستهلاك من أجل تصريف بضائعهم بعد أن فاضت وتجاوزت حد حاجتهم. وكان همنجواى، وغيره من الكتاب الكبار،

يعرف أن الصراع هذه المرة سوف يكون مريرًا ومهلكًا بسبب تطور آلة القتل وظهور أسلحة الدمار الشامل التى قضت على الثقة فى قدرة العلم على توفير الأمن للإنسان كما كان يعتقد الناس فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

والحق أن اسم همنجواى يرتبط برواياته الشهيرة أكثر من ارتباطه بقصصه القصيرة فما إن نسمع اسم همنجواى حتى يقفز إلى ذهنك رواياته "لمن تدق الأجراس"، و"وداعًا للسلاح"، و"العجوز والبحر"، و"الشمس أيضًا تشرق". ورغم ذلك فإن قصصه القصيرة تتفوق على رواياته الطويلة لما تتميز به هذه القصص من حيوية فى رسم الشخصيات وقدرة غريبة على شد انتباه القارئ من أول كلمة إلى آخر كلمة، وكذلك لأن شخصيات قصصه شخصيات أمريكية خالصة يعرفها القارئ من أول سطر يقرأه وهى ليست شخصيات نمطية متكررة ولكنها شخصيات مستحدثة تملؤها الرغبة فى الحياة أو تملؤها الرغبة فى الموت ولكنها صادقة لا تحتمل الشك.

وشهدت فترة العشرينيات إحياء الهارلم الذى أتاح للسود أن يكتبوا عن أنفسهم وعن معاناتهم فى مجتمع يفرق بينهم وبين الأغلبية البيضاء. وكانت كتابات جان تومر فى ذلك الإطار لافتة خاصة فى قصصه القصيرة وروايته التجريبية "كين" التى صور فيها مأساة السود بسبب التفرقة العنصرية من ناحية، وبسبب إهمال قضيتهم من قبل المجتمع والإعلام من ناحية ثانية، وبسبب استكانة السود وعجزهم عن

الدفاع عن قضيتهم من ناحية ثالثة. وكتب لانجستون هيوز ، بالإضافة إلى قصصه القصيرة وقصائده، رواية سماها "ليس بدون ضحك" تناولت حياة السود فى مجتمع يرفضهم. ولم تنته فترة العشرينيات حتى كان وليام فولكنر قد انتهى من نشر جل رواياته وقصصه القصيرة. وعرف فولكنر باستخدامه لتيار الوعى مع فرجينيا وولف وجيمس جويس وشروود أندرسن. وكان فولكنر يعبر عن القضايا التى عبر عنها معظم كتاب الحداثة مثل تداعى القيم، بل تداعى مجتمع كامل بكل تقاليده وعاداته، والصراع المقيت بين الأجناس وخاصة معاناة السود فى هذا الصراع غير المتكافئ مع البيض. ولكن فولكنر تميز بأسلوب خاص تخلص فيه من العبارة الثقيلة التى نجدها عند كتاب تيار الوعى. فقد كتب فولكنر باللغة العامية الأمريكية أحيانا. وكان فى وسعه أن يرسم أمام القارئ مجتمعًا كاملا ينبض بالحياة وخاصة المجتمع الأمريكى الذى يتفجر بالعنف والعنصرية والموت. وفى قصة "ذلك النزول عند الغروب" نجد نانسى لا تفعل شيئا حيال الموت الذى يتربص بها بسبب خيانتها لزوجها جوبا حين حملت من شخص آخر. ولكنا نحس فى الحوار بؤس السود وموقف البيض الذى يتجرد من العاطفة، بل نحس بالوجود الإنسانى القلق من خلال حوار ينجزه الأطفال أغلب الوقت، وهو ما يمنح القصة بعدًا فلسفيا حرا تشى به الأسئلة البريئة التى لا تبدو بريئة كل البراءة.

أما فترة الثلاثينيات فقد شهدت تقدما من ناحية الصنعة فى

الأدب عامة ولم تشهد تقدما كبيرًا فى الكم، وفى كم القصة القصيرة على الأخص، ولا يذكر النقاد غير قصص يودورا ولتى التى كتبتها فى بداية الأربعينيات. ولم يكتب جون تشيفر ورايت موريس وجان ستافورد إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وتوفرت القصة التى كتبت بعد الحرب على الهجوم على الحرب ونتائجها النفسية والمادية، وأنحى الكتاب باللائمة على المؤسسة العسكرية الأمريكية والسياسة الأمريكية بصفة عامة، ومن أشهر الأعمال فى هذا الصدد رواية كتبها جون دوس باسوس بعنوان "لماذا نحن فى فيتنام؟" ونشرها عام ١٩٦٧. ولم يكتب باسوس القصة القصيرة ولكنه كان يتمتع بأسلوب سهل جميل جعل سارتر يقول عنه فى عام ١٩٣٨: إنه أفضل كاتب فى القرن العشرين.

ونشرت فلانرى أوكنر مجموعتها القصصية "الرجل الطيب صعب أن تجده (١٩٥٥)"، وكانت أوكنر، التى قضت وهى فى التاسعة والثلاثين بمرض جلدى، تختار شخصياتها من بين البسطاء فى جورجيا الذين يتوقون للطمأنينة النفسية التى تأباها عليهم الحياة العصرية التى تغرق فى المادية وتقف موقفا معاديا للقيم ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان ضحايا هذه الحرب بالملايين فى ميادين القتال ولكن ضحاياها من المدنيين أكثر بسبب الأمراض النفسية التى انتشرت بعد وقف النار على الجبهة.

لقد أصبحت القصة القصيرة فى الأربعينيات والخمسينيات أسيرة الحرب العالمية الثانية، تتخذ موضوعاتها من الحديث حول أسبابها

ونتائجها، والعائدين من الجرحى الذين فقدوا الإيمان بكل شئ، وكان القلق النفسى والتشاؤم وسيطرة الخوف والبحث عن معبود جديد فى العلم تارة والخرافة تارة أخرى من المظاهر البارزة فى مجتمع ما بعد الحرب. وكان للقصة الأمريكية أن تشهد حقبة أخرى من الانحطاط مع التدهور الذى ساد المجتمع الغربى بعد الحرب؛ وهو تدهور أصاب العقل الأمريكى بسبب شك العلماء والمفكرين فى أن يوفر العلم حياة آمنة مستقرة لبنى البشر، وبعد أن أحس الأمريكيون أنهم يعيشون فى عالم يتربص بعضه بالبعض الآخر. عبرت القصة القصيرة عن الانحطاط الذى واكب الحرب وما بعدها وأثبتت الحرب أن الحداثيين كانوا على حق حين أقروا بفقر الحياة الأمريكية، وأن المؤسسة العسكرية الأمريكية هى التى سوف تدمر طموحاتهم فى حياة أفضل، حياة يسودها الحب والسلام.

ومن النتائج البارزة لفترة ما بعد الحداثة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية ظهور عدد كبير من الكتاب اليهود الذين راحوا يعبرون عن معاناة اليهود فى ألمانيا فيما يعرف بالمحرقة وآثار الحرب على هجرة اليهود من أوروبا إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. كان هؤلاء الكتاب يعرفون التقاليد اليهودية والديانة اليهودية. منهم سول بيلو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٦ والذى اختار له أبدايك قصة "الطبق الفضى" (١٩٧٩) وبيلو هو صاحب رواية "إلى القدس والعودة منها ١٩٧٦" التى يصور فيها الصراع فى الشرق الأوسط وتأثيره النفسى على اليهود. وله أيضا قصة يصور فيها الصراع بين اليهودى

المعاصر وماضيه. وكان بيلو يتخذ شخصياته من اليهود ويصور المعاناة التى يلقاها اليهودى فى مجتمع مسيحى رغم أنه لم يكن يحب أن ينعته النقاد بالكاتب اليهودى. وبعيدًا عن تقريظ كتاب الصحف ومقالاتهم الدعائية، ورغم الجوائز والأوسمة الكثيرة التى حصل عليها فإن سول بيلو يتمتع فى الواقع بمكانة متواضعة بين كتاب الأدب العالمى وذلك لأنه انحاز للدفاع عن دولة إسرائيل دون أن يتسلح بضمير المثقف الذى يجب أن يبحث عن العدل دون غيره، ولذلك جاءت كتبه أقرب للدعاية المباشرة منها إلى الأدب الحقيقى. وليس أدل على ذلك من شهادة الزمن، فالقارئ اليوم لا يقبل على كتب بيلو بقدر ما يقبل على كتب همنجواى وفولكنر وشروود آندرسن وغيرهم من الكتاب الكبار الذين انحازوا للفقراء والمقهورين ولم يصنعوا من أنفسهم أبواقًا لغير الحقيقة.

وبرنارد مالامود صاحب قصة "اللاجئ الألمانى" (١٩٦٤)، وكان يصور شخصيات محطمة مخيبة للآمال يمتاحها من التاريخ اليهودى ليدافع عن قضايا اليهود المهاجرين وأبنائهم. وإسحاق باشيفز سنجر الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٧٠ وكاتب قصة "المفتاح" (١٩٧٠) كان يكتب باللغة اليدية، وهى لهجة من العبرية، ولم يعرفه العالم إلا بعد أن ترجمت أعماله إلى الإنجليزية. ولم يتخل سنجر عن قضايا اليهود فى كل قصصه مثل هجرتهم إلى عالم غريب يتخذ منهم موقفًا معاديًا. وكان سنجر بسيطًا فى لغته سهلا فى تناوله وعرضه. ويلاحظ القارئ اهتمام محررى الكتاب بأدب اليهود فأدرجا

ما يقرب من ست قصص تتناول هجرة اليهود إلى أمريكا ومعاناتهم فى البلاد التى هاجروا منها. ومن أجل إدراج هذه القصص وإبراز هذه المعاناة كان عليهما التضحية بمعيار "الأحسن" عن المعايير الفنية التى رتبا هذه القصص على أساسها وتجاهل الكثير من القصص عالية الجودة لكتاب آخرين كان لهم الحق كل الحق فى أن تدرج أسماؤهم فى كتاب القرن.

وتميزت الستينيات ببروز عدد من أبرز كتاب القصة الأمريكية القصيرة مثل جاك كيرواك وفيليب روث وجون أبدايك وجون بارث ودونالد بارتليمى وفلاديمير نابوكوف وأليس مونرو وجويس كارول أوتس وروبرت أولن بتلر. واستطاع هؤلاء التعبير بجدارة عن فترة ما بعد الحداثة؛ إذ شهدوا انهيار البنيوية على يد جاك دريدا وانهيار كثير من دعاوى الحداثيين، مما جعل معظمهم يحاول إحياء الرومانسية وكانوا أكثر بغضا لما انتهت إليه السياسة الأمريكية وأكثر سخطا على الحياة نفسها وأكثر ميلا للغرابة وأكثر ثقافة. وكان يمثلهم فى تعدد الاهتمامات والثقافة الغزيرة فلاديمير نابوكوف الذى كتب الشعر والمسرحية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية ومارس الترجمة والنقد الأدبى إلى جانب اهتماماته العملية الواسعة. وكتب مقالات فى الشطرنج وكان نابوكوف يمثل الأديب فى عالم ما بعد الحداثة الذى يجب عليه أن يلم بالكثير. وكان معروفا بالتلاعب بالألفاظ. أما أليس مونرو فقد صورت فى قصصها عوالم تضرب فى القدم. عوالم أخذتها من العصر الفكتورى وأعادتها إلى القارئ تفيض بعبق التاريخ القريب

بأسلوب فذ يجمع بين الشاعرية والطرافة كما نرى فـــى قـصة "نهـر منستيونغ". أما جويس كارول أوتس فإنها من أكثـر كتـاب القـصة القصيرة غزارة فى الإنتاج وخير من فهم الحياة الأمريكية فـى فتـرة الخمسينيات والستينيات وعبرت عنها فى قصصها الكثيرة. وقصة "إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟" تبرز فهم أوتس للشباب الأمريكى فى نهاية الستينيات وجنوحه للعنف والجريمة وتعلقه بقيم جديدة تصدر من مادية مقيتة. وجويس كارول أوتس من أغزر كتاب القصة القصيرة إنتاجًـا فى الوقت الحاضر، كما وصل عدد رواياتها إلى أربع وعشرين رواية بالإضافة إلى إسهامها فى النقد الأدبى والقضايا العامة.

هذه المختارات التى أجمع النقاد على أنها من أحسن القـصص الأمريكية القصيرة فى القرن العشرين ترصد المجتمع الأمريكى خلال قرن كامل وتعطى فكرة مهمة عن التغييـرات الاجتماعيـة والنفـسية والسياسية التى اختبرها هذا المجتمع وتحملها وخرج منها أكثر تماسكًا وأكثر استعدادًا لتحمل غيرها من الأزمات. فى قصص هذه المجموعة يتلمس القارئ روح العصر الذى كتبت فيه ويقف عند اللحظات الفارقة فى تاريخ الأمريكيين ويعايش تجربة من تجارب هـذه الأمـة وهـى تجارب كثيرة وغنية: مثل تجربتى الهجرة. ونكـاد نقـول إن كلمتـى الهجرة والحرب هما المفتاح إلى فهم الشخصية الأمريكيـة؛ فـالهجرة تعنى ترك الوطن الأم والاستقرار فى عالم جديد والمهاجر مستعد فـى سبيل تحقيق هذا الهدف للقتال من أجله وإزاحة العقبات التـى تعرقـل مسيرته. وهكذا تم للأمريكيين إزاحة الهنود الحمر أصـحاب الأرض

الأصليين وحصارهم بين الأودية والمرارات وكأنهم ليسوا من البشر. وبدأت بعد ذلك الحروب بين هؤلاء المهاجرين الأوروبيين وبين الفرنسيين تارة والإنجليز تارة أخرى، ثم فيما بينهم هم أنفسهم تارة ثالثة فيما عرف بالحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال الثرى والجنوب المتخلف، وبعد النصر وتوحيد البلاد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية ذات المساحة الشاسعة تتمتع بقوة اقتصادية كبرى وفائض زراعى وصناعى كبير يجبرها على السعى للخروج من عزلتها لتصريف هذا الكم التجارى الضخم الذى فاض عن الحاجة وهذه القوة العسكرية الكبيرة التى تتعدى حدود غرض الدفاع عن النفس إلى القدرة على السيطرة على معظم مناطق العالم المهمة.

## زِلِج (١٩١٥)

**بنيامين روزنبلات**

كان زِلِج العجوز موضع ازدراء بنى قومه اليهود. لم يتنازل أحد ويدعوه بـ "رِب"(*) زلج، ولا أن يلحقوا باسمه كلمة "مستر" التى يستخدمها الأمريكيون، يقول جيرانه الذين يعرفون عنه كل شىء: "الرجل العجوز مثل برميل تحطم منه ضلع". إنه لا ينفق سنتاً ولا يدين بالولاء لمكان، فالانتماء فى ذلك الركن الشرقى من مدينة نيويورك لا يعنى شيئاً إلا أن تكون عضواً فى تجمعات دينية لا حصر لها. اليهودى المهذب هو الذى يلتحق بجمعية تتكفل بدفن الأعضاء الذين ينتمون إليها كى يتسنى له الحصول على لحد صغير فى نهاية الرحلة الشاقة. لم يلتحق زلج حتى بواحدة من تلك التجمعات، وكانت زوجته تعلق بين الحين والحين فى حسرة مكتومة: "ستظل وحيداً هكذا كالحجر".

---

(*) لقب يهودى يساوى «السيد» Mister فى اللغة الإنجليزية، وهى مشتقة من كلمة rabbi العبرية وتعنى الحاخام وهو الملم بالشريعة اليهودية والدين اليهودى ومؤهل للقيادة الدينية. (المترجم)

كنت تراه يقف كل يوم فى محل العباءات الذى يعمل به، يلـوح بمكواته الثقيلة على القماش الحار، لا ينظر حوله إلا فيما نـدر. كـان أصحاب الحرف يزدرونه لأنه بعد غياب يومين أثناء الإضراب عـاد إلى العمل. لم يكن يطيق البطالة ويفزع من أن يجيء يـوم سـبت ولا يتسلم فيه المظروف الذى يحتوى على أجره.

كان غريب الهيئة فى عيون إخوانه: قامة طويلة وجسد كأنه قُد من حديد. وعندما كان يمعن النظر ببلاهة فى شيء كان يبـدو مثـل شمشون الجبار. كان شعره الرمادى طويلاً ومرسـلاً فـى خـصلات يعوزها الترتيب على منكبين عظيمين فيهما انحنـاءة خفيفـة كأنهمـا لعملاق. ملابسه الرثة تعلو جسده كأنها الأهدام البالية، وتغطى رأسـه الضخم تلك القبعة العتيقة صيفًا وشتاءً.

كان قد قضى الجزء الأكبر من حياته فى قريـة منعزلـة فـى روسيا، يحرث الأرض ويرتدى زى الفلاحين الروس. وعندما هـاجر ابنه الوحيد إلى أمريكا، ولده الوحيد الذى ماتت زوجتـه هـاجر إلـى أمريكا (وفى يده ابنه الذى لم يتّجاوز الثانية عشرة) . انفطر قلب الأب حزنًا ومع ذلك قرر البقاء فى قريته، مسقط رأسه، مهما حدث. قـرر البقاء فى قريته حتى يلقى ربه. ولكن خطابًا وصله ذات يوم من الابن يقول فيه إن مرضًا ألم به، خفف من هذه الأخبار السيئة بضع كلمـات تبعث على التفاؤل: "... أما حفيدك موسى فإنه يـذهب إلـى مدرسـة حكومية. إنه الآن أمريكى الجنسية تقريبًا، ولم يجبره أحد على نـسيان

إله إسرائيل... لقد اقترب ميعاد عماده..."، وعندما انتهيا من قراءة الرسالة بكى زلج وبكت زوجته ثلاثة أيام بلياليها. لم يتكلم العجوز كثيرًا ولكنه راح يعرض متاعه القليل للبيع.

كان على الفلاح المسكين أن يواجه العالم خارج حدود قريته ويختبر الحزن المُمِض. طمأن نفسه بأنه سوف يألف البلاد الجديدة التى اختارها ابنه وطنًا. ولكن الرحلة الطويلة الغريبة بالقطار تارة والسفينة تارة أخرى ملأته بالحيرة البغيضة، وملأه بالذهول صخب المدينة التى وجد نفسه يتيه فى فوضاها واضطرابها. وبروح ملأتها الكآبة بدأ يتأمل الجحيم الجديد وقد أحس بأحشائه تتحجر. أصبح قريب الشبه بالبرميل المكسور حقا. ذهب عن عينيه بريق الحياة. خلا عقله إلا من فكرة واحدة تلح عليه، وخلا قلبه إلا من رغبة واحدة يخفق بها؛ أن يدخر من المال ما يكفى لعودته وأسرته فى أقرب وقت إلى قريته، مسقط رأسه.

حمل قلبه تلك الرغبة ومعها الألم المبرح فى صمت، لا يرى شيئًا غيرها ولا يحس بشيء غيرها: الرغبة فى العودة إلى الوطن. قبل أن يجد عملاً كان يذرع طرقات مانهاتن كل يوم جيئة وذهابًا بخطواته العملاقة، بينما كان الصبية وحتى الصغار ينحرفون إلى الممرات الجانبية ليفسحوا له الطريق. كان يبدو مثل حيوان خرافى شديد الرهبة، وكأن سهمًا يشير إلى رأسه وقلبه الكبيرين.

وفى المحل الذى وجد فيه وظيفة، كان العمال يخشونه فى

البداية، ولكنهم وجدوا فيه آخر الأمر عملاقًا لا يضر، وغير مرة رموه بتهكم لاذع لضخامة رأسه. ومن بين كل من كانوا يعملون فى المحل من النساء والرجال، لم يفز بصحبة زلج غير البواب المسيحى، وكان بولنديا قصير القامة مفتوح الفم وجل العينين. ما أكثر النكات التى استهدفت ذلك الثنائى الغريب. كان الرجل الذى يطلق النكات فى المحل يقول مازحًا: العجوز العملاق مثل الفيل الذى يطعم بالدراهم بدلاً من الفول السودانى".

وكان يقاطع المتحدث بنبرة الموافق ويقول: "آه، آه، إنه حتى لا يشم". وفى ساعة الغداء يسهب فى الحديث عن زِلج على هذا النحو: "أرأيتم، المال هو دمه ولحمه، يجوع نفسه لكى يجمع من الدولارات ما يضمن عودته إلى بلاده. أخبرنى البولندى بكل شىء. ولماذا يظل هنا؟ إن حرية العقيدة لا تعنى له شيئًا. لم أره فى المعبد، وحرية الصحافة... به! لم أره يقرأ حتى جريدة **التاجبلات** اليهودية".

كان زِلج يستقبل هذا الغمز واللمز بمسلك رواقى خبير، لم يحرك بياض عينيه إلا فيما ندر، ولكن سرعان ما كان يعقد جبينه الثقيل فى تقطيبة عابسة، وينزل بمكواته المتقدة بكل قوته على القماش. وعندما دوت أخبار مذابح اليهود فى روسيا عبر الأطلنطى، وتظاهر سكان الجيتو فى مانهاتن عبر الشوارع الضيقة التى اتشحت بالسواد، وعبر الطرقات التى كانت صاخبة بالحياة وقد لاذت بالصمت حينئذ، وأحكم رتاج المحلات فيها والدكاكين، كانت صرخات الحزن العميق

تنطلق من كل باب ونافذة، كان الشخص الوحيد الذى بقى فى محله فى ذلك اليوم هو زلج العجوز. لم يدعه زملاؤه للحاق بالموكب. أحسوا بتناقض هذا البهيم مع مشهد المعزين فى المسيرة الصامتة . قال البواب المسيحى فى اليوم التالى إنه فى لحظة انطلاق اللحن الجنائزى من الشارع البعيد، خلع زِلج قبعته المتسخة بسرعة، وأعادها إلى رأسه بسرعة وتوتر شديد. وقال البولندى فى نبرة استغراب واضحة: كان يبدو أكثر قسوة مما كان، ونزل بمكواته بقوة على القماش حتى خشيت أن يقع المبنى.

ولكن زِلج لم يعر كل ذلك اهتمامًا يذكر. أعطى كيانه ووجوده لجمع كل ما يكسب، وكان أخشى ما يخشاه أن يضطر إلى إنفاق بعض مما يدخر اضطرارًا. وغير مرة كانت زوجته تستيقظ فزعة من شبح العجوز زِلج فى ملابس النوم على سريره يحصى أوراق البنكنوت التى كان يعيدها دائمًا إلى مكانها تحت الوسادة. وكثيرًا ما كانت تلومه لشحه ولؤمه وإحجامه عن الإنفاق خلا المبلغ البسيط الذى كان يخصصه لمصاريف البيت. كانت تستجديه وتنصحه وتذرف الدموع وهى تشير إلى الجدران العاطلة من الطلاء والأثاث المتآكل وملابسهم البالية، وكان يقول لها بين الحين والحين: "لا أملك سنتًا واحدًا أقسم بربى".

قالت له فيما يشبه النواح: ابننا مريض ويحتاج لتغذية جيدة وراحة، وحفيدنا لم يعد طفلاً وقريبًا سيحتاج للمال ليكمل دراسته... يالأيامى الحالكة السواد... إنك تقتلهما".

تغير لون زلِج، ارتعشت يداه من كلام زوجته، وظنت المرأة المسكينة أنها أحرزت بعض النجاح، ولكن ما مرت برهة حتى أنشأ يقول بصوت لاهث: "لا أملك سنتًا واحدًا أقسم بربى".

وذات يوم وصل الخبر إلى زلِج العجوز وهو فى محل عمله بأن ابنه قد داهمه المرض الشديد. وبينما كان يرتقى درج البيت صاح أحد الجيران: "أسرع إلى الطبيب، المريض فقد الوعى". ورد زلج بصوت أشبه بصوت القادم من قبر: "لا أملك سنتًا واحدًا أحلف لكم بالله".

بدأ مدخل البيت يزدحم بالمستأجرين بأسمالهم البالية، أغلبهم من النساء والأطفال. ومن بعيد كنت تسمع الصرخات الإيقاعية الصادرة من الأم. صمت العجوز لحظات، اقشعر بدنه كله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ثم سمع الجيران تمتمته الحزينة التى تشى بالموت وهو ينزل الدرج: "سأذهب وأقترض من مكان ما... سأذهب وأقترض من شخص ما...". وجاء بطبيب، وعندما طلب منه حفيده نقودًا ليذهب لإحضار الدواء خطف منه الروشتة وأسرع خارج البيت وهو لا يزال يتمتم: "سأضطر إلى الاقتراض... سأضطر إلى التسول".

وفى وقت متأخر من تلك الليلة سمع الجيران صرخة تصدر من شقة زلِج العجوز، وفهموا منها أن الابن ودع الدنيا. كيس نقود زلِج ظل يزداد نحافة كل يوم. سحب منه بيدين مرتجفتين وأنفق على مراسم الجنازة وهو يتلفت بعينين زائغتين. وبشكل آلى حضر المراسم

اليهودية الخاصة بالدفن التى قام بها الجيران. تناول سكينًا وأحدث شقا عميقًا فى معطفه الرث ثم خلع خفيه وجلس على الأرض، وحنى رأسه الخالية من الشعر، وقد شله الحزن دون أن يذرف دمعة واحدة.

راح عمال المحل ينظرون إليه حين عاد بعد أيام الإجازة الثلاثة. حتى البولندى لم يجرؤ على الاقتراب منه. بدا كأن غشاوة تغطى عينيه المتوهجتين، اقتحمت التجاعيد العميقة وجهه وتضاءل جسده العملاق فى عيونهم. وبعد ذلك اليوم أمعن فى تجويع نفسه أكثر من السابق. ولكن الرغبة فى العودة إلى روسيا "ليموت فى وطنه فى نهاية المطاف" فقدت قليلاً من قوتها الأولى. ثمة شىء الآن يشده بخيط ضعيف إلى العالم الجديد.

على رابية صغيرة فى "دار الحياة"، وتحت شاهد نقشت عليه كتابة بالعبرية القديمة، يرقد جزء منه مدفونا فى الثرى. حاول جاهدا الابتعاد بأفكاره عن تلك الرابية. كم مضى من الزمن وهو يصر على الادخار دون ملل؟ العمر يلاحقه بخطوات متسارعة، وقوته على العمل بدأت تقل، ولكن حلمه فى الرجوع إلى الوطن بدا قريبًا من التحقق. أسابيع قليلة أو بضعة أشهر لا غير! أشاع اقتراب الموعد دفئًا فى هيكله البارد. فى وسعه أن يتعطف ويكلم زوجته بشأن الخطط التى أعدها من أجل مستقبلهما فى بلاده وخاصة كلما كانت تعيد على مسمعيه شكواها المالية. كانت كثيرًا ما تقول وهى تشير إلى حفيدها الذى لم يبلغ بعد طور المراهقة: "أرأيت ماذا صنعت بنا وبالصبى المسكين؟ منذ أن ترك المدرسة وهو يعمل لأجلك، وماذا فى النهاية؟"

حينذاك كان يقلب زِلج خفق فجأة كمنْ يشعر بخوف غامض مباغت. كان حديثه عن حفيده مبهمًا بعيدا عن التماسك، يتحدث عنه كمن يجيب عن سؤال لم يفهمه وهو يخشى أن يعرف محاوره ذلك. هواجس مريرة تتعلق بالصبى بدأت تتحرش بأحلام العجوز بعد أن كان لا يعيره اهتمامًا فى البداية. لقد كبر الصبى دون مشاكل. جرفه تيار الدراسة العلمانية المتعاظم فى الجانب الشرقى. كان يعد نفسه لدخول الجامعة فى هدوء. وفى غمرة حماسه ليكرس المبلغ المطلوب كان زِلج قليل الاهتمام بما يجرى حوله. والآن وهو على وشك النصر أصبح واعيًا بخوف زائد من شيء غريب يتشكل فى رحم المألوف، شهق بصدر ملأه الشك. وذات مساء تناهى إلى سمعه مصادفة حديث الصبى مع جدته عن كراهيته للاستبداد الروسى وعن عزمه البقاء فى الولايات المتحدة، وانتهى بعد ذلك للتوسل إليها للتوسط لدى جده ليمده بالمال الضرورى لإكمال دراسته فى الجامعة.

نظر إليهم العجوز زِلج بعينين قاسيتين وأنشأ يبرق ويرعد فى ثورة غضب جائحة وهو يقول: "سوف تكمل دراستك فى روسيا أيها الغبى الأحمق". أما زوجته المسالمة فقد استجمعت شجاعتها وانفجرتْ فيه: "نعم... من واجبك أن تعطى كل ما ادخرت لحفيدك هنا وليس فى روسيا... يا لحظى التعس... فى روسيا لا يقبلون اليهود فى جامعاتهم".

تحول لون وجه العجوز إلى اللون الأرجوانى. نهض من فوق

مقعده كالمجنون أخذ يلوح بيده ناحية الصبى مهددًا. كـان يـرى فيـه عدوا حقيقيا لا يحبه، العدو الذى طالما كان يخشاه منـذ زمـن بعيـد. ولكن زوجته سارعت بمقاطعته بصرخة حادة: "أنت رجـل مجنـون، انظر إلى الصبى المريض، أنت السبب فى موت ولدنا، جعلتـه يـذبل مثل شمعة ذوت أمام عيوننا". فى تلك الليلة كان زِلِج يتقلب فى فراشه كمن أصابته حمى. لم يذق للنوم طعمًا. ولأول مرة أدرك مـا كانـت تعنيه زوجته عندما أشارت إلى الصبى المعتل. لقد مات أبـوه بالـسل كما أخبرها الطبيب.

نهض على قدميه وقطرات من عرق بارد تلمـع علـى جبينـه وتسيل على وجنتيه ولحيته. وقف وقد علاه الـشحوب وراح يتـنفس بصعوبة. تمكنت منه الهواجس وسمع صوتًا ثقيلاً يناديه: "الـصبى... ماذا أنت فاعل مع الصبى؟"

كانت أضواء الفجر الأولى تطل عبر خصاص النوافذ. الصمت يغلف المدينة الراقدة فى سبات غريب. تذكر حين استيقظ رضيع مـن أطفال الجيران يصرخ من مرض ألم به وانتهى به الأمر إلـى سـعال خانق. حرّض الشيخ ذو الشعر الأشيب نفـسه ومـشى علـى رءوس أصابعه فى خطوات بطيئة إلى حيث كان يرقد الصبى. مكـث فتـرة يحدق فى ملامح الغلام الذابلة وجسده الضعيف، ثم رفع إحـدى يديـه ومس برفق شعر الصبى ولاطف خديه وذقنه. فتح الصبى عينيه وألقى نظرة سريعة على الهيكل المتداعى الذى يقف بجواره. أغلـق بعـدها عينيه على نحو ينم عن قسوة واضحة.

- هل كرهت النظر إلى وجه جدك؟ هو عدوك الآن... هه؟

كان صوت العجوز متهدجًا كصوت طفل استيقظ في منتــصف الليل. لم يجب الصبي، ولكن العجوز لاحظ كيف كان جــسده النحيــل يرتجف، وكيف كانت الدموع تنهمر من عينيه، وكيف غارت خــدوده. لبث هنيهة صامتًا ثم أقبل على الصبي ودنا من أذنيه وهمس بــصوت متهدج: أنت تبكي، إه؟ جدك هو عدوك الآن. يا أحمق! غدًا ســأعطيك نقود الجامعة، أكرهت النظر إلى جدك! هو الآن عدوك، إه؟

## نفوس صغيرة (١٩١٦)

**ماري ليرنر**

عمة زوجي، مارجريت أوبراين، في الخامسة والسبعين. عرفت أنها كانت تدنو من النهاية. لم تكن تشكو أو تتذمر، فلقد عاشت حياة طويلة صعبة، والآن تحس بالتعب. حضر قس شاب أدار جميع الطقوس الخاصة بعشائها الرباني، كان يضع الزيت المقدس على جفنيها ويقول: "يا رب اغفر لها خطايا النظر"، ويضع الزيت المقدس على شفتيها ويقول: "يا رب اغفر لها خطايا اللسان". ويضع الزيت المقدس على أذنيها وعلى يديها اللتين امتلأتا بالعقد، وعلى قدميها الكليلتين. أصبحت جاهزة، بيد أنها كانت تخاف من معاناة أكثر ضراوة مع دنو ساعتها. ولذا بسطت يديها في هدوء تحت قلبها، هنالك حيث لم تتحرك في أحشائها نسمة، واستكانت لقدرتها الغريبة على التحمل، وبدا أنها استسلمت لحلم جميل. حضر الجيران لرؤيتها. نهضت قليلاً وأقبلت عليهم مرحبة. كانت تخص كل واحد منهم بكلمة: "وهل ذهبت ابنتك جوليا إلى نيويورك يا مسز كارتي؟ لن يثنيها شيء، بل ستذهب على ما أعتقد. لقد فعلت الشيء نفسه عندما جئت من وطني القديم. كنت أظن أن الشوارع ملأى بالنقود. ياه... ياه... لازلت

أرى التلال الخضراء فى بلادى". أو تتجه إلى المسز دلفن وتقول: "فعلها تيرنس مرة أخرى، أعرف ذلك من نظرة عينيك. يا للمسكين! أليس من شىء يقنعه بالتراجع؟ إيه يا عزيزتى! العطش نهاية الشراب والحزن عاقبة كل حب". وإذا بقى زوارها أكثر من دقائق معدودة فإن انتباهها يتشتت وتصبح إجاباتها غريبة ملغزة. إنها مثلاً تغمغم بشىء مثل: "كل الأبرشيات السبع" أو: "تلال ويكلو". أو تقول: "كهف كورك الجميل يمتد حتى المحيط". ثم تغرق فى النوم وعلى شفتيها ابتسامة معلقة، وعيناها مقفلتان تتسلل منهما، مع ذلك، نظرة غريبة تشى ببعض انتباه. فى مثل هذه الأوقات يهمس زوارها: "يا الله، إنها على وشك النهاية لا ريب". ثم ينسحبون فى هدوء حزين إلى داخل المطبخ.

أنا لينان، ابنة أخيها، ربة بيت وأم لعدد من الأطفال، كانت نتوقف عن أعمال البيت أحيانًا التماسًا للراحة وتبادل الحديث.

صاحت المسز هانلى ذات يوم:

- ألم يتوقف قلب هذه السيدة المسكينة المريضة؟ هل يعود لها عقلها فعلاً؟
- هل أنت من هذا الرأى؟ أنا أيضًا أظن أن عقلها يعود، عندما تريد هى، ولكنها فى الغالب تنسحب إلى ذاتها، تبدو أشبه بنحلة مشغولة بشىء ما، شىء يملأ رأسها يومًا ويخلو منه يومًا آخر. ورغم أنها ترقد أغلب الوقت فإن النوم لا يزور عينيها إلا لحظات معدودات، وفى الليل أسمعها أنا وزوجى

تناجي نفسها كأن تقول: "لا، لا، لقد أصبحت ماضـيًا، إنـي عائدة إلى البداية الأولى لا محالة". أو تقول فى أحيان أخرى: "ها هو... قد جاء... لو أستطيع أن أستوقفه!".

- وهل عرفتم ماذا تقول فى تلك الهينمة السرية؟

- لم نفهم شيئًا، زوجى يقول إنها تتخيل نفسها فى مصعد. ولكن ذلك لأن زوجى يقضى يومه فى صـعود وهبـوط كالقربـة المخضوضة داخل مصعد، فماذا نتوقع منه غير هذا التفسير؟ لا شىء غير الصعود والهبوط، حتى فى أحلامه طوال الليل، مثلها تمامًا. أما أنا فإنى ممزقة بين سفرها الـدائم ووعيهـا المتقطع، أصيح أحيانًا فى أذنيها: "هل تحتاجين شيئًا يا عمتى مارجريت؟. وتجيبنى فى عصبية ونفاد صبر: "لا، ولكن لماذا لا تكفين عن هذه الثرثرة والصياح؟".

- يا الله! يا الله!

- وهل تحسبين أنها تحب وجود الصغار؟ إنها تمكـث معهـم دقيقة أو دقيقتين ثم تقول إنها تريد أن تبقى وحـدها، وتقـول وهى تغلق عينيها: "خذيهم بعيدًا عنى، لدى مـن هـم أكثـر قربًا!".

- أو تظنين بعد ذلك أن عقلها سليم؟

- أجل، عقلها سليم. هو شىء غامض فـى رأسـها تريـد أن

تتذكره فحسب. أقرب مثال عندما كان الأب فلنت هنا. كانــت مؤدبة ووقورًا فى البداية، ثم بدأ تبرمها ونفاد صــبرها، لــم ينتبه المسكين لتلميحاتها، أغلقت عينيها وغابت فى أطوارهــا الغريبة مرة أخرى. عندئذ كان فى وسعى أن أقسم أنها تخشى أن تفقد شيئًا.

ولأن الزائرة، كانت زوجة شابة، كان لديها تفسيرها الذى أحبت أن تجازف بطرحه:

- لو كانت أرملة أو متزوجة لكانت الآن متعلقة بشخص مــا أو أناس تحبهم. أو لعلها تجتر الآن أيام الشباب من جديد. وهــل تظنين أن الشباب يمكن أن يعود؟

هزت آنا رأسها وقالت:

- قالت لى أمى إنها سيدة ناضجة من يومها. كل ما كانت تريده هو العمل وادخار المال والذهاب إلى الكنيسة كلما فرغت من العمل.

- ليس الأمر كما تظنين.

كانت عمة زوجى تصيح أحيانًا:

- لو أنى عدت إلى سن الخامسة والعشرين ثانية، لبدأت بدايــة جديدة مختلفة!

- ربما... ربما... ولو أنى أشك فى هذا.

لم يكن الأمر على ذلك النحو. كانت العجوز ترقد وسط وسائدها وعيناها مقفلتان تتسلل منهما، رغم ذلك، نظرة تشى بتركيز وانتباه غريبين. لم تكن تبحث عن حبيب شبابها الضائع، رغم أنها أحبت رجلاً ذات يوم، وكان طيفه يمر بأحلامها من حين إلى آخر وتحاول، كما كانت تفعل فى الواقع، أن تصده. عندئذ كانت تنطق بهذا التعليق الغريب: "ها أنا ذى قد أصبحت ماضيًا! لابد أنى عائدة إلى نقطة البداية". وعندما كانت تبدأ فى اجترار ذكريات وعيها الأول، فإنها لا تلبث أن تمتطى سنين عمرها المتدفق وتحاول، فى كل مرة، الإتيان بالمزيد؛ بيد أن المشاهد الأبعد زمنا كانت تستعصى عليها. وإذا آنست منها قربا حقيقيا فإنها لا تلبث تلك المشاهد أن تزول. كان نزولها نهر الذكريات مباغتًا لا ينتظر. كم كان هذا النزول مصدر عذابها ما بين القرب والبعد. تتوخى البقاء ولكن شيئًا غامضًا يبحر بها بسرعة خاطفة تفوق توقها لضوء النهار الردىء. عندئذ كانت تغير اتجاه الشراع دائمًا وتجتهد فى استعادة الصعود.

واليوم قالت ابنة أخيها شيئًا عن سوق دونى بروك، فآنا أيضًا غادرت الوطن القديم منذ أن كانت طفلة، ملأت أشرعة مركبها الخيالى بريح طيب وأغلقت أبوابها جميعًا أمام مألوف اللحظة. استنفرت جماع قوتها من أجل الحلم، وما مضت برهة حتى حلقت روحها فى مكان يكثر فيه الناس. لم تنزعج لأنها كانت قد خبرت ذلك الشىء من قبل. كان ذلك يعنى فى الواقع أنها صادفت النبع الذى منه تكرع حتى الثمالة. الصور تتوالى بعد ذلك فى عز الترقب والشوق، باهتة يكتنفها

الغموض فى البداية، ثم لا تلبث أن تبدأ كل صورة فى ظهورها المتجسد وممارسة دورها الكاشف. أحيانًا تأتى فى صورة سحابة أيرلندية فى هيئة يمامة ومرجة نضرة، أو انهمار مباغت لمطر غزير، أو انقشاع سريع لغيوم كثيفة لا يبقى بعدها غير تساقط حبات من مطر تعلقت بأوراق الشجر على مرأى من الشمس الساطعة.

اقتحمت أضواء الصيف البيت لتغمر حجرتها الصغيرة المرتبة. ثم ها هى فتاة صغيرة فى الرابعة ترقص على مرأى من الجميع، وترتدى فستانًا زين بألوان قرنفلية غامقة يضيق عند أعلاه ويتسع عند أسفله. شقت طريقها إلى منزل جديد صغير تصدر منه أصوات الشواكيش الإيقاعية تمتزج بأصوات الرجال الذين يشيدون بيتًا. يملأ الأرضيات ما فاض من قطع الخشب. ارتقت الفتاة الصغيرة الدرج ثم ألقت نظرة سريعة اتجهت بعدها ناحية الدرج الضيق الجديد. صاح أحدهم:

- أين ذهبت مارجريت؟ لم ننته من الطابق العلوى بعد، قد يقع بالفتاة الصغيرة.

صاح بها أكبرهم:

- بيجى... تعالى هنا!

سمعوا صوتًا حادا أشبه بالصياح ممتزجًا بالبهجة. وسرعان ما ظهر الفستان القرنفلى عند الدرج.

- أوه... تعالى... الرجل القصير العجوز غريب الشكل هنا يـا أبى! العجوز الذى يرتدى القبعة الطويلـة! تعـالى بـسرعة لتتفرجى.

أسرع الرجلان إلى الدرج لمساعدتها على النزول.

- أين هو؟

استدارت لتبحث عنه، ثم علت وجهها الكآبة عندما لم تجده.

- ذهب.. الرجل القصير ذهب!

ضحك أبوها وهو يحملها بين ذراعيه ويقول:

- إنه صغير جدا يا بيج، ترى هو فى حجمك؟

- لا... لا... أصغر.

- فى حجم الطفل الرضيع؟

عندئذ فكرت هنيهة وقالت:

- نعم، فى حجم الطفل الرضيع، ولكنه رجل يا أبى...

- حسناً، ولماذا لا تفكرين فى ملاحقته والإمساك به والاحتفـاظ به رهينة عندك حتى يفتدوه؟ إنهم يخفون قوارير إلى جـوار قوارير من الذهب، هؤلاء الأقزام مستعدون لـدفع أى شـىء لمن يتركهم وشأنهم.

تجهمت حزناً وقد تعلقت عبرة بين أهداب عينيها كادت تسقط:

- أريده أن يعود.

- لست واثقًا من عودته، ذلك الجنى اللئيم، ما إن تتجاهليه مرة فلن يعود مرة أخرى.

هزت مارجريت أوبراين منكبيها فى غبطة غامرة. ذلك الماضى البعيد كان جديدًا على أحلامها. لم يحدث أن غاصت كل هذه المسافة الموغلة فى القدم. بيد أنها تتذكر كل شىء كأنه يحدث الآن. بدت كأنها تشم رائحة بقايا الخشب وقطع الأثاث المتناثرة والرائحة الجيرية للدهانات القادمة من القبو الحجرى.

واصلت العجوز حلمها، تستعين عليه بمخزون ماضيها الذى لا ينضب. منه تستدعى أحب الذكريات إلى قلبها واحدة تلو أخرى. هنالك أتت مارجريت الصغيرة ذات الضفيرة القصيرة المتدلية من مؤخرة رأسها، والقلنسوة الصغيرة، والشال الذى تزين به عنقها، تسعى مجهدة إلى مدرستها فى أحد أيام الشتاء الماطرة. لقد شهدت الكثير من هذه الأيام الشتوية القاسية خلال عامها الدراسى. ولكن بقى هذا اليوم محفورًا فى ذاكرتها بسبب ما ذرفته من دموع. رأت المقاعد الطويلة، وألواح الكتابة الإردوازية، والخرائط المعلقة، والمعلم طويل القامة يقف عند منضدته ويسمع الفتاة الصغيرة تعلن عن نيتها من خلال النشيج:

- لا أريد أن أرجع إلى المدرسة مرة أخرى يا مستر وايلد.

- ماذا بك يا مارجريت؟ ولماذا لا تريدين العودة؟ ألم أكن لطيفًا معك؟

قالت وقد خنقتها الدموع:

- لا يا مستر وايلد، بالعكس لقد كنت لطيفًا معي للغاية، ولكنهم يقولون إنك تسعى لتحويلي إلى البروتستانتية؛ لذلك لن أعود مرة أخرى.

سحب الرجل الطويل الفتاة الصغيرة إلى حجره وراح يؤكد لها أنه لن يفعل، لن يجبرها أحد على ترك مدرستها التي أحبتها. شرح لها السيد وايلد أن زملاءها يريدون مضايقتها فقط؛ لأنها أكثر استجابة منهم للدروس... ومحبوبة.

كانت مارجريت الصغيرة تجثو على ركبتيها على الأرض الحجرية الباردة للكنيسة وتمعن النظر في صور القديسين، أو تصيخ السمع لخشخشة أفرع الشجر الغضة في حديقة الكنيسة.

وهذه مارجريت أخرى أطول قليلاً تناشد أباها أن يشتري لها جريدة الأغاني الشعبية في كل مرة يذهب إلى السوق. جرائد طويلة ذات ورق رقيق وأسطر الشعر فيها متقاربة. تلك الأشعار التي كانت تضاهيها بالألحان المعروفة. مارجريت هذه كانت تنظف المدفأة وتكوم جذور العشب وتغني وهي على منضدتها قريبًا من المدخنة. كانت تغني أحيانًا عن "المعطف القصير القديم الأحمر الذي كان أبي يرتديه" والذي كان على حد قولها: "أزرار أزرار أزرار". أو تصدح بأغنية أخرى لها بداية مختلفة: "آه يا حبيبي، ما خطبك، طال غيابك. ذهب

جونى إلى السوق. وعدنى بشراء عقدة من شريط أزرق لأربط بها شعرى البنى الجميل".

ثم مرت صورة الجنى الذى سحر ممخضة اللبن ومنع تكون السمن رغم كل المحاولات، لم تتكون نقطة واحدة منه!! ففككت مارجريت وأمها الممخضة وفحصا كل جزء فيها... لم يجدا شيئًا. قالت الأم:

- لا شيء غير الجنى حل بها. عيد الموتى سيكون يوم الجمعة. ضعى طبقًا من القشدة هذه الليلة لسكان المكان.

وحملت الفتاة التى كانت ترتدى عباءة قطنية زرقاء، والتى كانت تغازل جدائل شعرها الطويل الداكن رياح المساء فتضرب منكبيها، حملت القشدة على لوح حجرى ووضعته أمام مدخل الباب وقفلت راجعة. وفى الصباح... كيف جاء السمن! ما إن بدءا فى خضخضة اللبن حتى شعرا به يتشكل داخل القربة. وعندما غسلت مارجريت الممخضة تجنبت النظر فى أركان الحجرة المظلمة، إذ الهواء مثقل بالحركة ورصدت أذناها همسات غامضة.

ثم تمر صورة الفتاة طويلة القامة فى العباءة الزرقاء ذاتها يغطى رأسها شال هذه المرة. أخذت حبات من ثمار البطاطس التى تم استخراجها وطرحها فى الفضاء. التقطت ثمرة صغيرة مستوية من دلو. ثمرة مستطيلة وملساء أعجبها تناسقها الذى تميزت به من بين جميع الثمار. هتفت لأمها:

- ثمرة غاية فى الجمال.

تركت الأم مغزل الصوف لتلقى نظرة على الثمرة وقالت:

- معك حق! إنها من موائد الجان. فتشى جيدًا وستجدين مقاعدهم الصغيرة أيضًا.

وحدث ما قالته الأم، وجدت مارجريت أربع ثمرات من الشكل نفسه أصغر حجمًا تصورت أنها مقاعد صغار الجن.

- هل أعطيهم للنحلة الصغيرة تلعب بهم يا أمي؟

- لا تفعلى ذلك. بل ضعيهم خارج الباب. وفى الصباح حين تذهبين إلى الحقل لن تجدى لهم أثرًا. سوف يأخذها الجنى مرة أخرى.

ومن ثم رتبت مارجريت المائدة الجنية والمقاعد على عتبة باب البيت. وفى الصباح أرادت أن ترى النتيجة بين إقبال وإحجام؛ كانت تخشى أن تجد الثمرات هناك وتفسد القصة. ولكن... كلا... لقد ذهبت، ولم تجد لها أثرًا رغم أنها بحثت عنها فى كل مكان. وحتى هذه لم تكن آخر الثمرات الغريبة التى تعثر عليها.

مارجريت تنتقل من مشهد إلى مشهد. تظهر الآن وسط حشد من بنات وصبية يلعبون.

- ماذا نلعب؟

- نجرب اختبار اللبلاب.

- هاكم الورق.

كتب كل واحد اسما على ورقة وأسقطها فى جرة الماء. وفى الصباح تسللت مارجريت التى تستولى عليها الهواجس وبحثت عن ورقتها. لقد سبق السيف العذل!، طالعت سطحها المرضوض ففاضت عيناها بالدموع. لقد كتبت اسم جدتها لأمها وأنذرت حالة الورقة بموت الجدة فى غضون العام. كانت الأوراق الأخرى سليمة. عمدت مارجريت لإخفاء ورقتها التى تنذر بشؤم، ولم تتفوه بكلمة لأحد رغم أن الأطفال راحوا يتذمرون: هناك ورقة ناقصة، هناك ورقة ناقصة!! ورقة من؟ ورقتى هنا، هل هى ورقتك يا جون؟ هل هى ورقتك يا أستر؟ ولكن مارجريت لم تبح بالسر. وفى هذا العام كانت الجدة قد رحلت، كانت عجوزًا طاعنة فى السن رغم حيويتها البادية. وتوقفت مارجريت عن ممارسة هذه اللعبة التى كانت أشبه بالرهان على الأقدار، بقية حياتها.

وكشأن الفتيات لا يمسكن بزمام الزمن، استوت مارجريت – بسرعة ورسوخ قدم – امرأةً كاملة النضج. طالت تنورتها وأصبح لزاما عليها أن تعقص جدائل شعرها وترسله خلف ظهرها ولكنها تركتها تتدلى كيفما اتفق، وظلت تعدو مع الصبية بحثًا فى الأحراش، تتسلق أشجار التفاح، وتندفع عبر التلال التى تخفق فيها الرياح. كانت الأم تضرب المثل بأختها مارى التى كانت، رغم أنها أصغر سنا،

تجلس فى هدوء بجوار المدفأة وتقوم بالتطريز علامـــة علـــى الأدب. وكان في وسع مارى أن تشتغل بالإبرة وتحتفظ بنماذج منها. كانت الأم توبخ مارجريت بقولها:

- أى نوع من الفتيات أنت؟ ألا تملين مـــن الجـــرى والوثـــب كالغزلان؟ لقد حان الوقت لتعقلى وتتعلمى شـــيئًا. كـــل مـــا تعرفينه هو الصفارات وبنادق الكشافة التى لا نفع فيها؟

ويالها من أصوات صفيرية ألفتها من الأعواد الصغيرة التـــى جمعتها من أشجار الصفصاف وقت الربيع. وبنـــادق الكـــشافة التـــى صنعتها من سيقان نزعت منها اللب وملأتها بماء الجدول بأعواد تعمل عمل المكبس. كانوا يختبئون خلف جذوع الـــشجر ويرشـــقون بالمـــاء العدو والصديق. وكثيرًا ما كانوا يعودون إلى منازلهم وقـــد احمـــرت آذانهم وينامون دون عشاء زاعمين أنهم لم يلحظوا المائدة وقد قـــدمت عليها البطاطس المحمصة التى كانوا يسمونها البطـــاطس الـــضاحكة لانشطار وجهها، إلى جانب اللبن المخضوض والبيض الجديد وفطيـــر الشوفان والزبد الطازج. كانت الأم تقول وعلى فمها ابتـــسامة خفيفـــة عندما تراهم فى الصباح يلتهمون العصيدة التهامًا.

- الطفل الذى لا يتناول عشاءه يصبح اثنين على مائدة الإفطار.

- كم كانت الحياة تملأ هذه المخلوقات! أتصير إلـــى شـــيخوخة مقيتة تلك المخلوقة التى كانت ترفل فى العافية؟ كيف تتم هذه الأشياء؟ لقد بدا تقدمها الرزين نحو النضج بعيدًا عـــن ذلـــك

المصير المحتوم، قعيدة إلى رحيل تتكئ على بوابة الخروج في ضوء القمر. ورغم أنها داخل جدران البيت فإنها لا تبدى اعتراضًا على الخروج. بيد أن أحدًا لم يلحظ الخوف في عينيها.

قالت الأم دون قصد ذات مرة:

- هو ذا ابن مكمورى طويل الساقين يبحث عن مارى، وأراهن على ذلك.

ولكن جيرى مكمورى لم يأت من أجل مارى، رغم أنها تزوجته آخر الأمر، وهاجرا إلى الولايات المتحدة بأطفالهما بعد بضع سنوات من رحلة أختها دون رفيق إلى تلك البلاد البعيدة.

إن دخول جيرى مكمورى المفاجئ دليل على قيام عالم حلمها المتقطع على ضحالة الواقع. من كان ليهتم بحياة مخططة سلفًا لامرأة ناضجة؟ الفتنة تقع الآن على مبعدة منها، وإن أتاحت لها فجوات بين نوبات الألم قدرًا من سعادة، كانت على الفور تدير وجهًا ممتلئًا بالترقب صوب رؤى الطفولة الأولى. أحيانًا كان في وسعها القيام بالرحلة مرتين دون أن يستولى عليها التعب. ولكن نوبات راحتها كانت تقصر، وكثيرًا ما كان الواقع يقطع الحلم قبل أن يكتمل ليحرمها لحظات بهجتها. وكثيرًا ما تظهر رؤية أكثر حضورًا من مثيلاتها اللاتى تريد الإمساك بهن. وأخيرًا عادت بها كلمات آنا العرضية إلى ممرها الوعر على النحو الذى سبق.

وكما تقول ابنة أخيها: عندما تكون فى يقظتها بعيدًا عن الأحلام تفعل آنا ما فى وسعها مما يصرفها عــن الحلــم، ترســل الــصغار ليسألوها: "هل تريدين كوبًا من الشاى الآن يا جــدتى؟ أو شــيئًا مــن حلوى العنب؟"

وذات يوم، بعد أن قضت المريضة يوما آخر تــصارع نوبــات الغياب، أحضرت آنا سترتها الجديدة المصنوعة من الحرير لتأخذ رأى عمتها. كانت العجوز متأنقة فى ملبسها وتتمتع بذوق عال. وكانت أيام الصبا الأول تحيك لنفسها ما ترتديــه. راحــت العينــان المتهالكتــان الحادتان تحدقان فى الأشرطة الرائعة التى كانت تزين صدر الفــستان وسألت بنبرة انتقاص:

- ما كل هذه الأشرطة الملصقة؟

وردت آنا فى حنق:

- لعلك تريدين مثله، ترتدينه مثل ســويتر الجرســى الملــئ بالأزرار من أعلاه إلى أسفله.

التمع وجه العجوز بضوء مباغت وهتفت:

- هذا ما كنت أبحث عنه منذ زمن... سيأتى الآن... المعطــف الأحمر! لابد أنى راجعة إلى نقطة البداية.

وغابت من جديد، تراخى جسدها كأنها تهيــئ نفــسها لمنــوم مغناطيسى. ولكى تصل إلى الصورة التى تبتغى رؤيتها فــى صــالة

عرض عقلها، كان عليها أن تبحث عن نقطة للبداية ثم تنثال الصور بعد ذلك في ترتيب مقصود.

باقة من الفتيات فى أول الصبا يرفلن فى ثيابهن الوردية أو الزرقاء بأرجلهن العارية من الجوارب، أو يرتدين البروغ(*)، ويعبثن بأطراف تنوراتهن خفضًا ورفعًا، أو يطوين جدائل شعورهن الثقيلة فى دلال فاتن. وفى منتصف الطريق يلوح طيف آخر يشق طريقه، فتاة فى التاسعة أو فى العاشرة تنثنى يمينًا وشمالاً أمام بقايا مرآة قديمة لا تكاد تعينها على الرؤية. تقطب جبينها لرؤية الفستان الأحمر الذى يغازل كاحليها. اشترته الأم أكبر من مقاسها حتى لا يسبقه جسد الفتاة فينمو بعيدًا عنه. كانت أكمامه تبتلع ذراعيها الصغيرتين السمراوين، وكأن منكبيها قد دسا فى كيس فضفاض. وكان صدر الفستان ناتئًا بشكل غريب يبعث على الضحك، قالت: إنى أبدو فيه أشبه بذكر البط، لن أرتديه هكذا. وقطبت مارجريت جبينها فيما يشى بعزم مباغت: "فى وسعى أن أصلح من شأنه كما أصلحت معطف جون ليصبح على مقاس مارتن".

تناولت إبرة ومقصا وخيطًا وتسللت إلى غرفة نومها الصغيرة. كان النهار فى أوله عندما بدأت القص والفتق. ذهب الصباح واقتربت ساعة الغداء.

- بيجى، ترى أين ذهبت البنت؟

---

(*) حذاء أيرلندى غليظ. (المترجم)

- لعلها ذهبت إلى عمتها تيريزا.

- أحسن أنها ابتعدت عن عينى الآن لأن يدى تأكلنى على ضربها "علقة"؛ تقف يمينًا وشمالاً أمام المرآة وتثرثر عن مقاس المعطف الذى اشتريته لها لأنه أكبر قليلاً!

وبخطى متسارعة مضى الظهر والخياطة الصغيرة الجالسة فى غرفتها مشغولة بالفتق والرتق والتجريب والفتق والرتق من جديد: "يجب أن أصغره بقدر ما أستطيع".

اضطرت لاعتلاء النافذة كى تلحق بآخر أضواء النهار. وعندما حل الغسق أزاحت شعرها الأسود عن خديها الحمراوين، وأقحمت جسدها الرقيق فى الفستان الأحمر. أصبح على القد تمامًا. أصبح أشبه بزى الفروسية الذى كانت ترتديه سيدة رأتها تجوب الريف من أجل الصيد. بدا ضيقًا عندما زررته عند صدرها الطفولى الأمسح. وكان خصرها أشبه بالمربع محشوا فيه حشوًا. وقريبًا من وركيها الهزيلين كان يرفرف فى رقص مبتسر. وتحته كانت تنورتها القطنية تغطى ساقيها اللتين سفعتهما الشمس بآثار الجروح التى سببتها حشائش العليق الخشنة.

نزلت الدرج بخطوات واثقة وهى منتشية بالنصر. كانت الأم وواحدة من الجيران تجلسان أمام المدفأة التى استعرت بوقود الخث.(*)

---

(*) نسيج نباتى نصف متفحم يتخذ وقودا. (المترجم)

وقفت أمامهما بنفس مطمئنة لم تلبث أن دبت فيها الريبة حين رأت الدهشة تعلو وجهيهما. دارت حول المرآة بينما صاحت بها الأم:

- يا نهارك أسود، ما جلد السجق هذا الذى ترتدينه؟

وأردفت بعد أن عرفت ما كان من أمر الفستان:

- يا رب ارحمنى، أرأيت يا إلين، إنه بقايا الفستان الجميل الذى اشتريته لها واسعًا لكى يكفيها خمس السنوات القادمة!!

قالت الفتاة وقد همت بالبكاء:

- كان أكبر من اللازم، أبدو فيه مثل ذكر البط.

ثم فى نبرة تملق:

- لقد ضيقته قليلاً يا أمى، إنه يبدو رائعًا الآن، ثم إننى قد لا أسمن كثيرًا فى المستقبل. انظرى إلى مقاسه الآن، بالضبط.

- بالضبط! احفظ عقلى يا رب.

سألت الجارة:

- هل هى التى قامت بإصلاحه بنفسها؟

فقالت مارجريت فى نبرة تحد:

- نعم، أنا، أنا الذى قصصته.

فقالت الجارة لأم مارجريت:

- ماجى، إنه عمل ممتاز لطفلة فى سنها؟ يجب ألا تلومينها، لقد قصته كأحسن ما يكون. ثم انفجرت فى ضحك لم تستطع لــه دفعًا وقالت:

- إنها هى التى ستلبسه، يا ربى، كل مــا تحتاجـــه الآن جــواد وسرج وتصبح فارسة!

وبهذا التبكيت انتهى النقاش حول التدمير الجائر للفستان الجميل، حيث يندر وجود الفساتين الجميلة فى ذلك البيت.

كم من الزمن ارتدت ذلك الفستان (المحزق)، وكم بــدت فيــه جميلة رغم ما كان من ضحك الصبية واستهزائهم.

يا لها من متعة وجدتها العجوز فى استعادة تلك الحادثــة بمــا احتوت عليه من تفصيلات دقيقة. لقد زودها ذلك بإحــساس بــالوجود. كانت مارجريت أوبراين ترى بعين الحلم كل هذه الكائنات الطيفية دون أن تأبه لها. ولكن الفتاة الصغيرة ذات الفستان الأحمر هى كل ما علق بذاكرتها حقا. لقد أصلحت الكثير من الفــساتين بعــد هــذه الحادثــة، وارتدى من صنع يدها كثير من الفتيات المولعات بالمتع والمغــامرة. قصت الفساتين الجميلة لعرائس يرتدينها فى الكنيسة يوم زفــافهن، لــم يتبق شىء فى ذاكرتها غير ذكرى الفستان الأحمر. فى وسعها الآن أن تحس بالملمس الناعم لقماشه الكرزى(*) الجميل وهى تعمل فيه بإبرتها،

(*) قماش صوفى خشن. (المترجم)

بإصبعيها الصغيرتين، وفى وسعها أن ترى وهج ألوانه الغنيـــة علـــى وجنتيها السمراوين من سفع الرياح. هتفت متهللة:

- إلى الحياة إذن!

وسألتها آنا بشيء من الأسى:

- أية حياة يا عمتى مارجريت؟ أتخشين من النهاية المحتومة يا عمتى العزيزة؟

- لا... لا... البتة. لقد أسلمت وجهى لله منذ زمن بعيـــد رغـــم المرارة التى يختبرها المرء فى البداية. إن الله غفور رحـــيم. ثم إننا لن نخلد فى هذه الدنيا.

طرفت عيناها المفتوحتان على موقدى الجاز المشتعلين وكأنهـــا تأنس للضوء الخافت. تساءلت فى رنة سخرية:

- لم كل هذه الأضواء؟ ألا تعلمون أن زوجة الشماع قد رحلت ولا يزال ضوء النهار، الذى لن أعدل به ضوءًا آخـــر، لـــم يرحل بعد؟

أذعنت آنا وجلست بجوار الفراش فى غسق يوم من أيام الربيع المعتدلة. تسللت نسمات خفيفة من تحت الـــستائر البيـــضاء الناعمـــة أرسلت معها عبق العشب المستجد، وأريج زهور الكمثرى من الفنـــاء. بدت اللحظة استثناء منبت الصلة بساعات النهار المهرولة والمقطوعة

للراحة والتفكير والإفضاءات، لحظة طليقة لابد أن العجـوز أحـست بأهميتها فاستدارت ناحية ابنة أخيها ومدت إليها يدًا حذرة وهى تقول:

- آنا يا ابنتى، تعرفين أننى فى آخر لحظات العمر، أنا أعرف. ولكن ليس هناك امرأة فى كامل عقلها أكثر منى. هل تريدين أن أخبرك بما فكرت فيه وأزمعت عمله خلال الأيام والليالى الماضية؟ قد تضحكين، سوف أفك أسر النقوس الصغيرة.

وحاولت آنا أن تتمثل خيالات العجوز فلم تضحك، ولكنها بكل ما تحمله من حب وفهم لثقافة السلت(*) اغرورقت عيناهـا بالـدموع. قالت: إنه تفكير يجيئنى أنا نفسى أحيانًا، فكل الفتيات الصغار اللاتـى كنتهن أصبحن فى ذمة الماضى. عندئذ هتفت العجـوز وقـد سـرتها استجابة آنا غير المتوقعة:

- لقد قلتها بنفسك إذن! ومعى أنا بالذات يصبح الأمـر مـدعاة للأسف حقا. ففتياتى الصغيرات الفاتنات اللاتى أحببـت لـن يذكرهن أحد سواى. وحتى أنا لن أذكـرهن فـى المـستقبل القريب. أحيانًا أراهن يناشدننى ألا أتوقف عن ذكراهن، فكان لزامًا على أن أبقى على حياتهن فى الذاكرة، إنى لاحقة بهن. صدقينى إن هذه الأطياف الصغيرة هى عزائى الحقيقى، وإن صغار الواقع هم الخيال.

---

(*) السلت هم أحد الشعوب الهندية الأوروبية التى استقرت فى وسط أوروبا وانتشرت إلـى أوروبا الغربية والجزر البريطانية خاصة. (المترجم)

بدا كأن آنا استعادت جمالها التليد بعد أن أتت عليه هموم البيت والأطفال. أقبلت على العجوز إقبال العاشقة، وقالت لها في همس حنون:

- عمتي الحبيبة، لقد فاتك الكثير منهن. سوف أجلس معك كل مساء وقت الغروب لأسمع منك عن أولئك الفتيات الفاتنات اللاتى يقطن عقلك. لقد حكت لى أمى كثيرًا عن الوطن القديم، وأستطيع أن أتذكره جيدًا رغم أنى كنت أصغر القوم. مارى ومارجريت وجون ومارتن وإستر والعم شميوس وغيرهم كثيرون. سأراهم معك بالوضوح نفسه، ففى رأسى ركن تتوالى فيه الصور متسارعة كثيفة كثافة النجوم فى ليالى الشتاء. ومعى سوف يرقصن ويقصفن إلى يوم الدين.

وكأن العجوز قد نالت منى قلبها. بدأت تعيد طرح مخلوقاتها الصغيرة سعيدة لأنها وجدت آخر الأمر من تأتمنه عليهن، وسعيدة لأنها أنقذتهن من وحش النسيان المهلك. كانت تسأل وتجيب فى سعادة غامرة وكأنها تحادث شخصًا ثالثًا: "هل تتذكرين تلك الفتاة الحمقاء التى كانت تعصب رأس ثورها بالمنديل؟ هل تتذكرينها الآن؟، والأخرى المؤذية التى قصت فستانها الأحمر الجميل؟"

كانت العجوز ما برحت تبطئ الخطو نحو القدر المحتوم. وقبل شهر من ساعة الفراق كان الربيع يقترب من نهايته. وبدأت ساعات النهار تطول إيذانًا بقدوم الصيف. وفى أوقات الشفق المتثاقلة راحت

المرأتان تعقدان الجلسات لاستحضار الذكريات. وعلى اللحاف الأبيض اهتزت الأطياف طربًا متألقة بريعان صبا لا يصدق. لقد ألفت هذه الكائنات الفاتنة فكن يأتين طوعًا ليسرين عنها ساعات الألم، يرفلن في الفتنة والبهجة ويعِنّها في لحظات نشوتها المقدسة.

حدث القس الشاب آنا بشأن العجوز في أيامها الأخيرة قال:

- إنها سيدة طاهرة، ستنال نهاية القديسين. من تأملاتها الصوفية يرى نور السماء المقدس يضيء وجهها، إنها تبدو كمن يسمع ترتيل الملائكة.

وافقت آنا على استنتاجات القس احترامًا له، ولكنها لم تطلعه على خطة العجوز الأخيرة. كان قسا ورعًا حسن النية. وتعلمت آنا كيف تحرض زوجها على أن يهتم بالنفوس الصغيرة. وعندما تنفض يدها من أمور الحياة الدنيا لا تلبث أن تعود بسرعة إلى الحلقة السحرية.

# المرأة الأخرى (١٩٢٠)

## شروود أندرسن

"أنا فى حالة حب مع زوجتى". ملاحظة غير ضرورية قالها، فلم أسأله عن علاقته بالمرأة التى تزوجها. مشينا حوالى عشر دقائق، قالها أثناء ذلك مرة أخرى. استدرت لأنظر إليه. بدأ يتحدث وحكى لى الحكاية التى أنوى أن أضعها أمامكم الآن.

كل ما كان يريد أن يحكيه حدث أثناء أكثر أسابيع حياته ازدحامًا بالأحداث. كان سيتزوج مساء يوم الجمعة. ويوم الجمعة السابق عليه تلقى برقية تزف إليه خبر تعيينه فى وظيفة حكومية. شئ آخر حدث جعله مزهوا بنفسه وسعيدًا، فقد كان يكتب الشعر سرا، وخلال السنة الماضية نشر الكثير من قصائده فى مجلات الشعر. أحد هذه الأندية التى تمنح الجوائز لما يرونه أحسن القصائد المنشورة خلال العام المنصرم وضعت اسمه على رأس قائمتها. نشرت قصة نجاحه فى الجرائد التى تصدر فى مدينته، مسقط رأسه. ونشرت إحداها صورته. وبطبيعة الحال كان سعيدًا غاية السعادة. وظل مشدود الأعصاب طوال الأسبوع. كان يزور خطيبته، وهى ابنة قاض، كل

يوم من أيام الأسبوع تقريبًا. وعندما كان يذهب إلى هناك كان المنزل يمتلئ بالناس. أصبح يتلقى الكثير من الرسائل والبرقيات والطرود. وما كان ليقف فى ركن يريد أن يخلو بنفسه قليلاً حتى يجد الكثير من الرجال والنساء يقبلون إليه لسماع حديثه وتهنئته على الوظيفة الحكومية وعلى إنجازه كشاعر. أصبح الكل يمتدحه. أصبح يجد صعوبة فى النوم كلما آوى إلى فراشه. فى مساء يوم الخميس ذهب إلى المسرح وبدا أن الجميع يعرفونه هناك. الجميع يحيونه. وبعد انتهاء الفصل الأول عمد خمسة أو ستة رجال وامرأتان لمغادرة مقاعدهم والالتفاف حوله. غرباء آخرون كانوا يجلسون فى الصف نفسه الذى كان يجلس فيه، مدوا أعناقهم ونظروا. لم يحدث أن كان موضعًا لمثل هذا القدر من الاهتمام من قبل.

وكما قال لى عندما حكى لى عن تجربته، كانت هذه الأوقات غير طبيعية تمامًا بالنسبة له. كان يشعر أنه يطفو فى الهواء. وعندما كان يأوى إلى فراشه بعد مقابلة الكثير من الناس وسماع الكثير من كلمات التقريظ كانت رأسه تهتز طربًا. وعندما يغلق عينيه كان يتخيل أن جموعًا غفيرة من الناس تقتحم عليه حجرته، وكأنما أصبح مركز اهتمام الناس جميعًا فى بلدته. استحوذت عليه أكثر الأفكار جموحًا وغرابة. رأى نفسه يركب عربة يجرها حصان عبر شوارع المدينة وقد فتحت النوافذ على مصاريعها، بينما الناس يتدافعون نحو الأبواب ويهتفون باسمه، يعقب ذلك صيحة ابتهاج عالية. تعبر العربة شارعًا

تسده الجماهير الغفيرة. مائة ألف من العيون تتطلع إليه ولسان حالها يقول: ها هو البطل، أنت الذى صنعت من نفسك بطلاً!.

لم يستطع صاحبى أن يشرح لى: هل كانت بهجة الناس به بسبب قصائده الغراء أو بسبب عمل خارق جاء به فى وظيفته الحكومية الجديدة؟. كانت الشقة التى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت تقع فى شارع فوق تل عند طرف المدينة، ومن نافذة حجرة نومه كان بوسعه النظر إلى أشجار وسقف مصنع ونهر. وإذ لم يستطع النوم، بسبب الأحلام التى ما فتئت تتزاحم على رأسه، وتحرمه لذة النوم، كان يغادر الفراش ويترك نفسه نهبًا للتفكير.

حاول السيطرة على أفكاره. ولكن عندما جلس إلى جوار النافذة، وكان فى كامل يقظته، حدث ما لم يتوقعه وما يمكن أن يحط من قدره. كان الليل خلوًا من الغيوم رقيق النسائم، وكان القمر بدرًا. أراد أن يحلم بالمرأة التى ستصبح زوجته، وراح يفكر فى أبيات لقصائد فخمة أو ابتداع خطط ترقيه فى عمله. أما عقله فقد رفض الكثير من هذه الخطط والقصائد وكان ذلك مفاجأة له.

على ناصية الشارع الذى يسكن فيه يقع محل سجائر وكشك جرائد يديره رجل سمين فى الأربعين وزوجته، امرأة نشيطة ضامرة الجسم ذات عينين فاتنتين رماديتين. كان من عادته أن يتوقف كل صباح لشراء جريدة قبل أن يذهب إلى المدينة. أحيانًا لم يكن يرى إلا الرجل السمين. ولكن فى أحيان أخرى كان الرجل يختفى وتبقى المرأة

لتعطيه ما يريد شراءه. كانت، كما أكد لى للمرة العشرين، وهو يحكى لى حكايته، امرأة عادية جدا لا يميزها شئ خاص. ولكن لأمر ما لـم يستطع أن يفهم لماذا كانت تثيره غاية الإثارة عندما يكون بجوارهـا. وأثناء ذلك الأسبوع، وسط فوضاه الأخيرة، كانت هى الشخص الوحيد الذى ظل متماسكًا خاليًا من العقد. عندما كان يفكر فى الأمور الفخمـة والقصائد العصماء كان خياله يذهب إليها. كان خياله يتوقف عند فكرة واحدة؛ وهى كيف تكون له علاقة غرامية بهذه السيدة!.

"عجزت عن فهم نفسى". قال وهو يسرد لى القصة: "فى الليـل عندما تهدأ المدينة، وفى الوقت الذى ينبغى أن أكون فيه نائمًـا، كنـت أفكر فيها طوال الوقت. وبعد يومين أو ثلاثة من هـذا التفكيـر بـدأ إحساسى بها يدخل فى أحلام يقظتى. أصبحت مشوش الذهن إلى درجة مخيفة. وعندما ذهبت لرؤية المرأة التى هى الآن زوجتى وجـدت أن حبى لها قد تأثر بأفكارى المضطربة تلك. هناك امرأة واحدة فى العالم كنت أريدها أن تعيش معى وتكون رفيقى فى رحلة الحيـاة. ولكنـى الآن، كما ترى، أردت هذه المرأة الأخرى أن تكون بين ذراعى. لقـد وجدت طريقها إلى كيانى. كان الناس يقولون: إننى رجل عظيم خليـق بالأمور العظيمة. فى ذلك المساء، عندما ذهبت إلى المسرح، عدت إلى البيت مشيًا لأنى كنت أعرف أنى لن أقدر على النوم. ولكـى أرضـى رغبة ملحة فى نفسى ذهبت وجلست على الرصـيف بجـوار دكـان السجائر. كان الدكان فى مبنى من طابقين. أعرف أن المرأة تعيش فى

الطابق الثانى مع زوجها. جلست ساعات طوالاً مستندًا إلى جدار بيتها، وما برحت أتخيلها هى وزوجها وهما على فراشهما وذلك ما أثار حفيظتى".

"ثم بدأت أغضب من نفسى. ذهبت إلى البيت ونمت وأنا أرتعش من الغضب. كان هناك الكثير من الكتب الشعرية والنثرية التى كنت أعجب بها، وضعت بعضها بجوار سريرى".

"كانت الأصوات القادمة من الكتب مثل أصوات الموتى. لم تستطع الحروف المطبوعة أن تنفذ إلى مشاعرى. حاولت التفكير فى المرأة التى أحببت، ولكن طيفها أضحى بعيدًا، شيئًا لا صلة لى به فى تلك اللحظات. رحت أتقلب فى الفراش وأقوم وأقعد. كانت تجربة قاسية".

"وفى صباح يوم الأربعاء دخلت المتجر. هناك كانت تقف المرأة بمفردها. أعتقد أنها كانت تعرف مشاعرى نحوها. ربما كانت تفكر فىَّ مثلما كنت أفكر فيها. داعبت أركان فمها ابتسامة غامضة. كانت ترتدى فستانًا من قماش رخيص به مزق عند الكتف. لابد أنها كانت أكبر سنا بعشر سنوات على الأقل. وعندما وضعت النقود على الطاولة الزجاجية التى كانت تجلس خلفها ارتعشت يداى حتى صدرت من النقود أصوات حادة مجلجلة. وعندما تحدثت كان صوتى الصادر من حنجرتى بعيدًا غريبًا عنى. لم يصل إلى مجرد الهمس. قلت لها: "أريدك، أريدك الآن. ألا تستطيعين الهرب من زوجك؟ تعالى إلى شقتى الليلة الساعة السابعة".

"وجاءت المرأة بالفعل إلى شقتى فى السابعة. فى ذلك الصباح لم تقل شيئًا. كان كلانا يرمق الآخر بنظراته. نسيت كل شئ فى هذا العالم فيما عداها. ثم أومأت برأسها وذهبت إلى حال سبيلها. والآن وأنا أفكر فى الموقف لا أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة مما قالته. جاءت إلى شقتى فى السابعة وكان الظلام يملأ الأركان. يجب أن تفهم أن ذلك كان فى شهر أكتوبر. لم أشعل النور وكنت قد صرفت خادمى".

"لم أكن على ما يرام فى ذلك اليوم. زارنى كثير من الناس فى مكتبى يبتغون رؤيتى، ولكنى كنت غاية فى الاضطراب وأنا أتحدث إليهم. عزوا اضطرابى إلى اقتراب زواجى وانصرفوا يضحكون".

"فى ذلك الصباح، قبل زواجى بيوم تسلمت خطابًا طويلاً غاية فى الرقة من خطيبتى. فى الليلة السابقة لم تستطع هى أيضًا أن تنام، فقد غادرت الفراش وراحت تكتب الرسالة. كل ما كتبته كان واضحًا وواقعيا. ولكنها كانت كإنسان حى، بدا أنها توارت على مسافة ما. بدت لى أشبه بطائر يحلق فى سماوات بعيدة. وكنت أشبه بصبى ريفى حافى القدمين ينظر إلى طيفها المتراجع. ترى هل فهمت ما أقصد؟".

"أما الخطاب فقد عبرت فيه عن كل خلجات قلبها. كانت فى الواقع غرة لا تعرف من أمور الحياة شيئًا، ولكنها كانت امرأة. أغلب الظن أنها نامت على سريرها وبدأت تكتب بعصبية كما أفعل أنا. كانت تدرك أن تغييرًا كبيرًا على وشك أن يلم بحياتها، وكانت سعيدة وكانت خائفة أيضًا. هناك كانت تفكر فى الأمر كله. ثم غادرت الفراش

وقررت أن تتحدث معى على الورق. أخبرتنى كم كانت خائفة وكم كانت سعيدة أيضًا. ومثل كل الفتيات الصغيرات كانت تسمع من يهمس لها. الرسالة كانت رقيقة وناعمة. ومما قالته: "سوف ننسى بعد الزواج ولفترة طويلة أننا كنا رجلاً وامرأة. سنكون كائنين بشريين فحسب. تذكر هذا. أنا امرأة جاهلة ولذا فسوف أبدو ساذجة وعبيطة فى كثير من الأحيان. يجب أن تحبنى وتكون حنونًا صبورًا معى. وعندما أعرف أكثر، وعندما تعلمنى مع مضى الوقت خبرات الحياة، سوف أسعى لأن أرد لك الجميل. سوف أحبك كل الحب. كيانى كله سوف يكون ملكك. إمكانية ذلك متوفرة لدى، وإلا لما فكرت فى الزواج مطلقًا. إنى خائفة ولكنى سعيدة فى الوقت نفسه. أوه، إنى سعيدة! أصبح زواجنا قاب قوسين أو أدنى".

"الآن ترى بوضوح أية ورطة أنا فيها. فى مكتبى، بعد أن قرأت رسالة خطيبتى، أصبحت فجأة أكثر عزمًا وقوة. أتذكر أنى غادرت مقعدى وتمشيت فخورًا بأنى سأكون زوجًا لامرأة بهذا النبل والكرم. بدأت أهتم بخطيبتى اهتمامًا بالغًا بعد أن عرفت ضعفى. وعقدت العزم على أن أتخلص منه. وفى الساعة التاسعة قررت أن أذهب لرؤية خطيبتى. "أنا على ما يرام الآن" قلت فى نفسى. إن روعة شخصيتها وجمالها الروحى أنقذنى من نفسى. سوف أذهب إلى البيت وأطرد المرأة الأخرى. "فى الصباح كنت قد كلمت خادمى فى التليفون وقلت له إنى لا أريده أن يكون فى الشقة ذلك المساء. أمسكت بسماعة

التليفون لأقول له ألا يغادر الشقة. ولكن فكرة ألحت على، فأنا لا أريده فى الشقة على أية حال، قلت فى نفسى: فماذا يقول عندما يرى امرأة فى شقتى فى مساء اليوم السابق ليوم زواجى؟ وضعت سماعة التليفون وقررت الذهاب إلى البيت. إذا كنت أريد لخادمى أن يبقى خارج الشقة، هذا لأنى لا أريده أن يسمعنى أحادث المرأة. لا يمكن أن أكون فظا معها. سوف يكون علىّ أن أجد بعض التفسير".

"جاءت المرأة فى السابعة بالضبط. وكما قد تتوقع سمحت لها بالدخول، ونسيت العزم الذى أضمرته. ربما لأن النية لم تكن متوفرة لأفعل شيئًا. لم تضغط على الجرس وطرقت الباب برقة بالغة. بدا لى أن كل ما فعلته فى ذلك المساء كان رقيقًا وهادئًا ولكنه كان محددًا وسريعًا. هل استطعت أن أشرح لك؟، عندما جاءت كنت أقف خلف الباب، كنت أقف منذ نصف ساعة. كانت يداى ترتعشان كما كانتا ترتعشان فى الصباح عندما نظرت عيناها إلى وعندما وضعت القروش على طاولة المحل. عندما فتحت الباب دخلت بسرعة وأخذتها بين ذراعى، ووقفنا هكذا فى الظلام. لم تعد يداى ترتعشان. شعرت بسعادة غامرة وقوة طارئة".

"رغم أنى حاولت أن أشرح لك كل شئ فلم أخبرك عن المرأة التى تزوجتها. كما ترى فقد ركزت على المرأة الأخرى. لقد قلت لك إنى أحب زوجتى. جملة نطقت بها بسرعة. بالنسبة لرجل فى ذكائك لا تعنى هذه الجملة شيئًا. والحق أنه لو لم أحدثك فى الأمر لكنت أكثر

سكينة الآن. فلا بد أنك تظن الآن أنى أحب زوجة بائع السجائر. هـذا ليس صحيحًا. كنت أحس بها خلال الأسبوع الذى سبق زواجى، ولكن بعد أن جاءت إلى شقتى سقطت من نظرى تمامًا".

"أتراني أقول الصدق؟ إننى أسعى جاهدًا لأن أقول لك ما حدث بالضبط. أريد أن أقول إنى لم أفكر فى المرأة التى جاءت إلى شقتى منذ ذلك المساء، والآن، ولكى أكون صادقا بالفعل، أقول إن هذا لم يحدث. فى ذلك المساء ذهبت إلى خطيبتى فى التاسعة، كما طلبت هى فى خطابها. لا أعرف كيف أقول لك إن المرأة الأخرى ذهبت معى. هذا ما أعنيه كنت أقول لو حدث شئ بينى وبين زوجة بائع السجائر، فلن أكون قادرًا على إتمام زواجى. كنت أقول لنفسى: "إما هذا وإما ذاك".

"والواقع أنى ذهبت لرؤية حبيبتى ذلك المساء يملؤنى إيمان جديد فى مستقبل حياتنا معًا. أخشى أن أكون قد خلطت الأمور وأنا أحاول أن أحكى لك كل شيء، فمنذ لحظات قلت لك إن المرأة الأخرى، زوجة بائع السجائر، ذهبت معى. لم أكن أعنى أنها ذهبت فعلاً. ما أريد أن أقوله: إن شيئًا من إيمانها بما تريد وشجاعتها فى رؤية الأمور ذهب معى. هل هذا واضح لك؟ عندما وصلت إلى منزل خطيبتى كان هناك حشد من الناس يقفون هنا وهناك. بعضهم كان أقارب جاءوا من أماكن بعيدة لم أرها من قبل. حدجتنى بنظرة سريعة عندما دخلت الحجرة. كانت تظن أن رسالتها أثرت فى بعمق. كان

لرسالتها تأثير كبير. نهضت بسرعة واتجهت ناحيتى. كانت مثل طفلة سعيدة. وقبل أن تتجه عيون الناس المستطلعة إلينا قالت الشئ الذى كانت تريد أن تقوله، قالت بصوت عال: "أوه، أنا سعيدة جدا أنك فهمت. سنكون إنسانين وليس مجرد زوج وزوجة".

"وكما قد تتوقع، ضحك الجميع. ولكنى لم أضحك. تعلقت الدموع بأهداب عينى. كنت أريد أن أهتف بأنى سعيد حقا. ربما فهمت ما أقصد. فى المكتب فى ذلك اليوم عندما قرأت رسالة خطيبتى، قلت لنفسى: سوف أعتنى بهذه السيدة الشابة، العزيزة لدى. ثمة شئ جميل فى هذا كما ترى. فى بيتها عندما صاحت بالطريقة التى أوضحتها لك، وعندما ضحك الجميع قلت لنفسى شيئًا كهذا: "سوف يعتنى كل منا بالآخر". ولقد همست فى أذنيها بشئ من هذا. والحق أقول لك إنى قد تخليت عن برجى العاجى. روح المرأة الأخرى فعلت ذلك بى. قبل أن يتجمهر الناس حولى ضممت خطيبتى إلىّ وتعانقنا. كانوا يعتقدون أن التأثر بلغ بنا حدا كبيرًا لمجرد رؤية كل منا الآخر. ماذا كانوا يظنون إذا عرفوا الحقيقة؟ الله وحده يعلم!

"مرتان الآن وأنا أقول لك إننى لم أفكر بعد ذلك المساء فى المرأة الأخرى. هذا صحيح، ولكن أحيانًا فى المساء عندما أتمشى وحدى فى الشارع كما نتمشى الآن، وعندما يأتى المساء ناعمًا سريعًا كما أتى تلك الليلة، فإن إحساسى بها يمتلك عقلى وجسدى. لم أرها بعد ذلك اللقاء. فى اليوم التالى تزوجت ولم أذهب إلى شارعها مرة أخرى.

ولكن كثيرًا ما يعتورنى إحساس حاد مباغت بأننى بذرة فــى الأرض غمرتها أمطار الربيع الدافئة، وكأنى لست رجلاً بل شجرة".

"وكما ترى فإنى رجل متزوج وكل شئ على مـــا يــرام الآن. زواجى بالنسبة لى واقع جميل. وإذا أردت أن تقول إنى لست ســعيدًا فى زواجى فإنى أقول لك إنك تكذب وأكون صادقًا فيمــا أقــول. لقــد حاولت أن أحكى لك عن تلك المرأة الأخرى. أشعر بــبعض الراحــة عندما أتحدث عنها. لم يحدث ذلك من قبل. ترى لمــاذا أصــبح مــن السذاجة بحيث أخشى أن أعطيك الانطباع بأنى لا أحب زوجتى. ولــو لم أكن أثق فى فهمك بشكل طبيعى لما تحدثت إليك. وبقدر ما تــسمح الظروف سوف أفكر في المرأة الأخرى هذه الليلة. هذا يحدث أحيانــا. يحدث بعد أن أذهب إلى الفراش. زوجتى تنام فــى الحجــرة المقابلــة لحجرتى والباب نتركه مفتوحا دائمًا. سيكون القمــر مــضيئا الليلــة. وعندما يضيء القمر فإن خيطًا من ضوئه يتسلل إلى سريرها. وسوف أستيقظ فى منتصف الليل. ستكون هى نائمة وإحــدى ذراعيهــا فــوق رأسها".

"ما هذا الذى أتحدث عنه؟ الرجل لا يتحدث عن زوجته الراقــدة على سريرها. ما أريد أن أقوله لك إنه بسبب هذا الحديث سوف أفكــر فى المرأة الأخرى الليلة. أفكارى لن تأخذ الشكل الــذى أخذتــه فــى الأسبوع السابق لزواجى. سوف أتساءل ماذا بقى من تلــك المــرأة؟. للحظة سوف أحس مرة أخرى أنى أضمها بقوة. سوف أفكر فى أننى،

ولمدة ساعة، كنت قريبًا منها أكثر من أي شخص آخر. ثم سوف أفكر في الوقت الذى أكون فيه قريبًا من زوجتى على ذلك النحو. لا زالت، كما ترى، امرأة مستيقظة. وللحظة سوف أغلق عينى وسوف تنظر هاتان العينان الحادتان الذكيتان الواثقتان لتلك المرأة الأخرى فى عينى. سيصاب رأسى بدوار. وعندئذ سوف أفتح عينى بسرعة وأرى مرة أخرى المرأة العزيزة التى قررت أن أعيش معها حياتى كلها. ثم سوف أنام، وعندما أستيقظ فى الصباح سيكون الأمر أشبه به عندما غادرت شقتى المظلمة بعد أن خضت أكثر تجارب حياتى استحقاقًا للتذكر. ما أريد أن أقوله، كما تستنتج الآن، هو أنه بالنسبة لى، عندما أستيقظ، ستكون المرأة الأخرى قد اختفت من حياتى تمامًا.

## قمر متقد بلون الدم (١٩٢٣)

**جان تومر**

١

من وسط جدران الحجر النحيلة، من وسط ألواح الأرضيات الخشبية المهترئة، وروافد الخشب الصلدة مبتورة الأذرع لأشجار البلوط القائمة فى مصنع قطن أقيم قبل الحرب، حل الغسق. ومن ظلمة الغسق ظهر القمر بدرًا مكتملاً يتوهج مثل عقدة ملتهبة فى خشبة صنوبر لينير البوابة الكبيرة، ويمطر بوابل رقيق من الضوء أكواخ الزنوج المتراصة على طول الشارع الوحيد فى حى المصنع. اكتمال البدر عند البوابة الكبيرة نذير معروف. عنده تصدح الزنجيات بأغنيات مرتجلة تحت تأثير سحره الطاغى.

كانت لويزا تغنى وهى قادمة من قمة التل من مطبخ البيض. كان لون جلدها فى لون أوراق البلوط على الأشجار الصغيرة وقت الخريف. كان ثدياها صلبين نافرين مثل حبات جوز البلوط الناضجة. وغناؤها أشبه بهمس الرياح الخفيض فى أشجار التين. بوب ستون، الابن الأصغر لمن تعمل عندهم، كان يحبها. والناس، بالمناسبة،

يظنون أنه نال رضاها أيضًا. وبالنظر إلى ذلك الدفء المتألق الذى يعتور قلبها عندما تفكر فيه يمكن القول إنه كان قد حاز رضاها فعلاً. توم بوريل الذى يسميه سكان البلدة بالصبى الضخم، كان يحبها أيضًا. ولكن العمل فى الحقول طوال اليوم بعيدًا عنها لم يمنحه الفرصة ليعبر لها عن حبه. رغم أنه سعى لذلك كثيرًا فى أمسيات كثيرة. ولكنه لم يفلح فى بلوغ غايته. وعلى قوته فى القبض على الفأس أو المحراث لم يجد سبيلا إلى امتلاك قلبها، أو هكذا كان يظن. إن الناس فى البلدة كانوا يظنون أنها له أكثر مما كان هو يظن. لونه الأسود كان يرجح كفته على بياض ستون حين تعقد بينهما المقارنة. كان عقلها يفكر فى الأمر على نحو لا يبين وهى قادمة من قمة التل فى إيابها من مطابخ البيض، وأثناء غنائها العذب وهى تتطلع إلى قرص القمر المحتجب وراء الغيوم.

كانت قلقة غاية القلق ومضطربة جدا. حاولت دون أن تتعجل أن تثبت على أحدهما، بوب أو توم. كانت تقابل بوب فى حقل القصب كما فعلت منذ ساعة أو نحو ذلك، وليس ذلك بجديد. وسعْى توم لطلب يدها الذى تحس به آتيا فى الطريق، يمكن تأجيله إلى أجل غير مسمى. لم يكن فى الواقع لأى منهما شأن خاص فى قلبها. ولأمر ما كانا يختلطان فى ذهنها عندما كانت تحدق فى بلاهة فى قرص القمر الساطع. ومن هذا الارتباك كان القلق والاضطراب يستوليان عليها. كانت شفتاها ترتجفان، وتزداد حركة عينيها فى محجريهما، قلقًا

وهياجًا. كلاب سوداء بلون الصدأ وكلاب مخططة باللون الأسود الضارب للأصفر، ترقد فى الزوايا والأركان المظلمة للمداخل المسقوفة، أو تنبح حول الأفنية الخلفية، ترفع الآن أنوفها فى الهواء، وتشم ارتعاشات شفتيها بالغناء. ظلت الكلاب تنبح أو تعوى فى نغمات حزينة كئيبة، على نحو متقطع، وكأنها تدشن لفجر مشئوم أو ليقظة شريرة. ارتجلت النساء أغنيات مفعمة بالشهوة. أغنياتهن حشوات قطنية على آذانهن كى لا يسمعن. أقبلت لويزا إلى البلدة وتعثرت فى خطواتها المتثاقلة أمام منزلها. كان القمر ينهض لملاقاة ركام كثيف من السحب سيخفيه عما قريب.

قمر زنجى أحمر. آثم!

قمر متقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

٢

ومن وسط ظلمة الغسق الداكنة، على فرجة بين أشجار الغابة نهض وهج رقيق منتشر على شكل مروحة تحت السماوات الوطيئة. وفى كل مكان كان الجو مثقلا برائحة القصب المغلى. على الأرض كومة ضخمة من أعواد القصب كالظلال المبقعة. وبغيل شد وثاقه بعمود يدور ببطء وقد نال منه التعب حول مجور الطاحونة. وعلى ضوء مترنح لمصباح زيتى كان هناك زنجى يسوط البغل تارة ويلقى بأعواد القصب فى فوهة الطاحونة تارة أخرى. وصبى سمين يمشى الهوينى، يحمل دلاء من عصير القصب الندى بين الطاحونة وموقد الغلى. كان البخار يتصاعد من إناء الغلى النحاسى. رائحة القصب المغلى كانت تنطلق من الإناء النحاسى وتبلل الغابة والتل اللذين مالا ناحية البلدة تحت شذاه المنتشر. حول الموقد ثمة من كان مشغولا بمص لباب أعواد القصب البيضاء، مع أنهم ليسوا مضطرين إلى ذلك، ففى وسعهم أن يمصوا القصب فى المصنع. وفى وسع المرء أن يرى الضباب الرقيق قد انتشر من الموقد المتقد نحو السماوات الخفيضة.

كان دافيد جورجيا العجوز يقلب العصير المتكاثف بمغرفة طويلة يمسك بها بكلتا يديه. كان دافيد جورجيا العجوز يلزم الموقد ويروى الحكايات عن البيض، وعن استقطار الويسكى سرا، وعن جمع القطن وعن الحسناوات الزنجيات. كان يحكى للرجال الذين تحلقوا

حول الموقد ليستمعوا له. كان توم بورويل هناك يمص عودًا من القصب ويغرق فى الضحك مع الآخرين إلى أن جاء ذكر لويزا على لسان أحد الجالسين. قال شيئًا عن لويزا وبوب ستون والجورب الحرير الذى أهداه لها. صعد الدم إلى عنق توم متقدًا، أشد اتقادا من نار الموقد. قام وحملق مغضبًا فى الجميع وقال: إنها فتاتى. وضحك ولماننج. ووثب توم نحوه وحمله بعنف من فوق الأرض ودفع به فوقع. ونهض أصدقاء ماننج للدفاع عنه. استل توم سكينًا طويلة وحمل عليهم يريد أن يفتك بهم لولا فرارهم إلى الأشجار القريبة. كان لدى توم ما يكفيه. حيا دافيد جورجيا العجوز وأدار وجهه صوب الطريق إلى البلدة. فى ذلك الوقت بدأت الكلاب تنبح وبدأت الديكة تصيح. أحس توم بغرابة مسلكه. أحس بلسعة البرد وهو بعيد عن العراك والموقد. ارتعش. ارتعد خوفًا عندما طالع البدر يمضى نحو الغمام. هو الذى لم يعر اهتمامًا لمخاوف الزنجيات العجائز. حاول أن يركز كل تفكيره فيما سيقوله للويزا. عندما استدار إلى الشارع رأى لويزا تجلس أمام منزلها. مضى ناحيتها، يمشى الهوينى وهو يمس بيده حرف قبعته الجميلة بألوانها الكثيرة، وملمسها الناعم. قال إنه يريد أن يتحدث إليها. لم يجد ما يقوله لها. حتى إذا وجد ما يقوله التصقت الكلمات فى حلقه. دفع بقبضة يده الضخمة فى جيب (أفروله) وشاعت فى وجهه ابتسامة عريضة واقترب منها:

- أنت تريدنى يا توم؟

- هذا ما أتمناه يا لويزا.

- حسنا، ها أنذا...

- وها أنذا أيضا، ولكن ماذا بعد؟

- كنت تريد أن تقول شيئًا.

- أريد أن أقول، لكن الكلمات مثل البقع على ورق النرد، لا طائل منها. إنها تتعثر في حلقي. هناك أوقات لا تطاوعني فيها الكلمات. لا أعرف لماذا. إنه الحب الذي أحس به نحوك هو الذي يسلبني لساني. سأخبرك الآن. نعم يا لويزا أنا أحبك! لم يكن الوقت مواتيًا لأطلعك على الأمر. كنت صغيرة وتذهبين إلى الكنيسة. وكان يمكن أن أفكر في غيرك. ولكن يا لويزا أنا أحبك. رأيتك هنا تجلسين أمام منزلكم قرب البئر بين نسوة أخريات وأحببتك. حملت صورتك معي إلى الحقول. كل يوم كنت أجد القدرة على حمل المحراث وجمع القطن. لقد كدت أطعن مارلو أمس بسببك. هممت بقتله. العام القادم، صدقيني، ستكون لدى مزرعتي الخاصة. سوف أشترى لك ما تأخذينه الآن من البيض. جوارب، فساتين وردية. بالطبع لا أعلم ماذا يفعل البيض عندما تأخذين أشياءهم. البيض يفعلون بالسود ما يريدون دائمًا. إنهم لا يملكون الحب يا لويزا. بوب ستون يحبك. طبعًا هو يحبك. ولكن ليس بالطريقة التي يهمس بها القوم. هل هذا صحيح يا حبيبتي؟

- لا أعرف ماذا تقصد يا توم.

- طبعًا أنت لا تعرفين. لقد كدت أطعن زنجيين بسببك اليوم. كان يجب أن أردعهما يا حبيبتى. الزنوج دائمًا يصنعون شيئًا من لا شئ. بالإضافة إلى ذلك فإن البيض مخادعون. لا أطيق أن يخدعك أحد. على الأقل لست أنت.

- ماذا أنت فاعل يا توم؟

- أقتله، كما كنت سأقتل الزنجيين.

- لا يا توم...

- قلت لك: سأفعل، ولن يردنى أحد. ولكن ليس هذا هو وقت الكلام فى هذا الأمر. الآن غنى لى يا لويزا. وبينما أن أسمع سأهيم فى حبك.

تناول توم يدها. أحس بملمس يدها ناعمًا رقيقًا فى يده الضخمة الخشنة. انزلق بجسمه الضخم ليجلس بجوارها أمام منزلها. كان القمر يتوارى وراء الغمام الأرجوانى الغامق. أحضرت سيدة عجوز مصباحًا مضاء وعلقته فوق البئر العمومى، فأقعى ظله الضخم وسط الطريق، فى مواجهة توم ولويزا. رفعت العجوز غطاء البئر وأمسكت بالسلسلة، وبدأت تسحب الدلو الثقيل وترفع عقيرتها بالغناء. حرك الصوت مشاعر أناس أقلقهم ضوء المصباح الذى تسلل إلى نوافذ الحجرات الأمامية للأكواخ. ثمة ظلال لأشخاص يتبادلون اللكمات على التراب الأبيض للطريق. آخرون فتحوا النوافذ وبدعوا يتجاوبون مع غناء العجوز. لويزا وتوم وأهل الشارع شرعوا يرفعون أصواتهم بالغناء.

قمر زنجي أحمر. آثم!

قمر يتقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

كان بوب ستون يسير متئدًا من شرفته إلى حيث العتمة التي تنهض من ظل أشجار التنوب والمغنوليا. بياض جلده الناصع يعلوه الشحوب، تحولت النضرة على خديه إلى اللون الأرجواني وكأنما أراد أن يتسق لون بشرته مع الأحداث. قرر أن يتصرف كما ينبغي لرجل أبيض. مر أمام البيت بموقده الضخم المفتوح الذي كان أيام الرق مطبخًا للمزرعة. هناك رأى لويزا منكبة على عملها. دخل كما يفعل السيد وأخذها. اتسم مسلكه بالوضوح والصراحة والجرأة. لم يختلس النظرات أو يتسلل. كان يكره التناقض. فقدت أسرته كل نفوذ. اللعنة! لا، فأسرته لم تزل تملك الزنوج في الواقع. فقدت أسرته كل نفوذ، ما عساهم يظنون به إذا علموا؟ أمه؟ أخته؟ يجب ألا يخبرهم بشيء. اختلطت حمرة الشفق بحمرة وجهه. لا يهم ما يقول لذاته في البلدة، ولكن ماذا عن أصدقائه هناك في الشمال؟ إنه يتصور دهشتهم واستياءهم. لم يعرفوا بعد. التفكير في إخبارهم يستثير ضحكه. يحس بالخجل عندما يتخيل عيونهم تحدق فيه. لابد من إيجاد تفسير، اللعنة، ماذا يفسر لهم؟ لن يفعل. ومتى كان الجنوبي يخفض جناح الذل لشمالي أو لشخص آخر. لا يا سيد. هو يحب لويزا وهو ذاهب الليلة لرؤيتها. إنها فتاة حسناء، على طريقتها: الطريقة الزنجية. وما الخطأ في

الطريقة الزنجية؟ لا يعرف. كان ينبغي أن يعرف. لقد عرفها منذ وقت طويل يكفي لمعرفة السر. كان ذلك شيئًا خاصا بالزنوج لا سبيل إلى معرفته. حين تستمع إليهم في الكنيسة، لا تستطيع الوقوف على هذا السر. وحين تنظر إلى وجوههم لا تطلع على أمرهم. وحين تتحدث إليهم لا تعرف شيئًا، اللهم إلا ترويج الإشاعات، إلا إذا كانوا هم يريدون الحديث معك. الزنجي أكثر من مجرد كونه زنجيا. كيف ذلك؟ شئ يبعث على الرهبة. شئ أكثر؟ من سمع عن أحد يخاف من زنجيا؟ أخبره كارتويل أن توم بيرويل لحق بلويزا بعد أن ذهبت إلى منزلها. لا يا سيد. لا يوجد زنجي يجرؤ على الاتصال بفتاته. يريد واحدًا يحاول ذلك. شخص حتى في منزلته. بوب ستون، من عائلة ستون العريقة، متورط في شجار مع زنجي! ومن أجل فتاة زنجية! في الأيام الخوالي، الأيام المجيدة... ها! كانت هي الأيام حقا. أسرته فقدت كل نفوذ. ليس إلى هذا الحد. ما زال يتمتع بنفوذ يكفيه لعبور حقل قصب العجوز لمون، ويجتاز الغابة ويقابلها هناك. هي جديرة بذلك. فتاة زنجية جميلة. ولماذا زنجية؟ ولماذا لا تكون فتاة وحسب؟ لا. كان يذهب إليها لأنها زنجية. حلوة... أحس برائحة القصب المغلي. رأى وهج الموقد، سمع أصوات الرجال المتحلقين حوله. هم بتجاوز الموقد لولا أنه سمع من يذكر اسمه. توقف. ارتعش. استند إلى شجرة وطفق يتسمع.

- زنجي سيئ. نعم يا سيد. كان زنجيا سيئًا منذ شب عن الطوق.

- كان توم بيرويل عضوًا فى عصابة قطاع طرق.

- ماذا تظنه فاعلاً ببوب ستون؟

- لا أدرى. لن تجدوه إذا فعل شيئًا يا حبيبى!

- هذا لا يحتاج إلى تفسير.

- الشاب ستون لن يترك الفتاة. أؤكد لكم ذلك. الدم الأزرق يجرى فى عروقه.

- هذا صحيح، سوف يدخل معه فى عراك.

- ولكنه يغضب الزنوج.

- اخرس يا زنجى. أنت لا تدرى عمن تتحدث.

اتقدت أذنا بوب ستون وكأنما وضعهما فى نار الموقد. الغضب المتقد اضطرم داخله وصعد إلى وجهه. أحس بقدميه وكأنهما داستا على جمرات فحم ملتهب مما دفعه لسرعة الحركة. دار حول المتحلقين حول الموقد. لم يسمع صوت غصن يتحطم تحت قدميه. وعندما وطئت قدماه أول الطريق إلى البلدة اندفع كالسهم. أصابه الغضب الشديد بعمى طارئ قبل أن يتجاوز الطريق. اصطدم بأجمة قصب على حدود الزراعات. أدمت أوراق القصب وجهه وشفتيه. أحس بطعم الدم فى فمه. ارتمى على الأرض وغرس أصابعه فى الطين. كانت الأرض باردة. جذور القصب الباردة سلبته النار التى اتقدت فى يديه.

وبعد هنيهة من التفكير ظنها طالت عقد العزم على رؤية لويزا. نهض على قدميه ومضى بتؤدة إلى المكان الذى سيقابلها فيه. لـيس للـويزا وجود. توم بيرويل أخذها. نتأت العروق فى رأسه وتمددت فى وجهه. بلل اللعاب الدم الناشف على شفتيه. عض على شفتيه. ذاق طعم الـدم. ليس دمه، إنه دم توم بيرويل. اجتاز بوب حقل القصب وخـرج مـرة أخرى إلى الطريق. كلب راح يتلوى أمامه على الطريق إلى البلدة. لم يره بوب. قفز الكلب إلى جانب الطريق كى يفسح الطريق أمام بـوب. اندفاع بوب الأعمى جعله ينقلب على قفاه مرة أخرى. أحدث سـقوطه على الأرض صوتًا مكتومًا. أصيب بدوار. نبح الكلب. تجاوبت معـه الكلاب فى أنحاء الريف. قوقأ الدجاج وصاحت الديكة منـذرة بثـورة جنونية من عيون محتقنة بالدم. لزم المغنـون فـى البلـدة الـصمت. أوصدوا النوافذ. سكون بارد بين صياح الديكة يغشى توم ولويزا فـى جلستهما أمام البيت. وفجأة اندفع شخص مـن الظلمـة ووقـف فـى وجهيهما. نهض توم على قدميه.

- ماذا تريد؟

- أنا بوب ستون.

- نعم يا سيد، وأنا توم بيرويل. ماذا تريد؟

اندفع بوب نحوه بقوة. خطا توم جانبًا خطوة وأمسك به من كتفه وطرحه أرضًا ووقف فوقه مفرشحا رجليه.

- دعنى أنهض.

- نعم يا سيد، ولكن انتبه لأفعالك يا بوب ستون.

أشخاص قلائل من السود دفعهم صوت الشجار تحلقوا حـولهم. نهض بوب على قدميه.

- قاتل رجل لرجل يا توم وسوف أريك.

واندفع بوب نحوه مرة أخرى. وتنحى توم جانبا خطوة وطرحه أرضًا مرة أخرى. ووقف فوقه.

- ابتعد عنى أيها الزنجى النذل.

- الآن أنت تشتم. انهض.

رفعه توم لأعلى وراح يضربه بقوة وعنف. كل ضربة كانـت تحدث دويا وكأنما تحطم شيئًا ثمينا رقيقًا لا يعوض. تهافت بوب تحت أقدام الوقوف. دس يده فى جيبه واستل سكينًا.

- هذه لعبتى يا حبيبى.

واستل توم مدية طويلة تلمع بلون أزرق ودفع بهـا فـى حلـق بوب. شعر بوب فى البداية بطعم الغثيان فى حلقه ثم بدأ الدم يتـدفق. شعر بعد ذلك بألم حاد مفاجئ جعله يترك سكينه تسقط علـى الأرض. لطم رقبته بيده ووضع الأخرى على رأسه وكأنه أراد أن يمنعها مـن السقوط. بدأ يتأوه. استدار مترنحًا ناحية قمة التل متجها إلـى مـساكن

البيض. تسلل الزنوج الذين شهدوا الشجار إلى بيوتهم وأطفأوا المصابيح. أما لويزا التى أذهلها الموقف فقد رفضت الذهاب إلى البيت. مضت تترنح هى الأخرى وتهادى جسدها فاستندت على ألواح البئر الخشبية. استند توم بيرويل على خشب البئر أيضا. وقف فى مكانه لم يحرك ساكنا، غاصت قدماه فى المكان.

وصل بوب شارع بروود. هرع البيض نحوه. أنكفأ على وجهه بين أيديهم.

"توم بيرويل"...

اندفع البيض فى كل اتجاه، مثل النمل الطواف فى بحثه عن الطعام. كان الصمت رفيقهم فيما عدا دبيب أقدامهم المتوتر. بنادق الخرطوش والمسدسات والحبال والكيروسين والمشاعل. وصلت فى وقت واحد سيارتان ضخمتان بكشافات ساطعة. ارتفع صوت وقع الأقدام المتوتر إلى هدير خفيض. ثم هدأ كل شئ ليفسح المجال لسماع وقع أقدامهم المتوتر على تراب الطريق الكثيف. صمتهم المحمل بالنذر على قمة التل سبقهم إلى سكنى الزنوج. أما الزنوج فقد سحقهم الخوف، اصطدم بجدران المصنع وتوقف هناك. كان توم يعلم أنهم آتون. عجز عن الحركة. اصطدمت أضواء كشافات السيارتين بوجهه فأحس بها تخترق جسده. تسمر فى مكانه. هم بالجرى. انطلقت صيحة مدوية من الجمع المحتشد. استدار توم. أحاطوا به. انهالوا عليه. اندفعوا نحوه بأعداد كبيرة. رجل ضخم بوجه أبيض جامد وخدين مترهلين، عارضه وصوب فوهة بندقيته (الخرطوش) إلى بطنه:

- يديك خلف ظهرك أيها الزنجي.

كان معصما توم مكبلين. كان الرجل الضخم يدفعه بعنف ناحية البئر. نحرقه فوق البئر، وعندما يحترق الخشب سيهوى جسده في القاع. يجب أن يموت مرتين هذا الزنجي اللعين. وجدت لويزا من يردها إلى البيت. اندفع الحشد. كان اندفاعهم رهيبًا. كانوا يجرونه إلى المصنع. كان توم يتحرك في الاتجاه المقصود. ولكنهم كانوا يضطرون إلى جره. وصلوا إلى البوابة الكبيرة. وصل الحشد قبلهم. دبيب الأقدام المتوتر. الصمت. دق الخازوق في الأرض. كومت حوله ألواح خشب الأرضيات المهترئ. صب الكيروسين على ألواح الخشب. شد وثاق توم بالخازوق. كان صدره عاريًا. دقت المسامير في جسده فسالت منه خيوط ضعيفة من الدم غمر شعره. تجمد وجهه وتحجرت عيناه. ظن الناس أنه قضى لولا بقية من أنفاس متقطعة. ألقيت المشاعل على الخشب. انطلقت أعمدة النار يشيعها دخان أبيض سميك. هتف الحشد. صمت الحشد. الآن يرى توم وسط النيران. انتصب رأسه مثل حجر أسود. برزت عينا توم. استقرت رأسه على صدره. علا الصياح. تردد الصياح عبر جدران الحجر الهيكلية فرجع مائة صرخة. صياح مائة حنجرة. تسلل ظل صيحة إلى النيران وخرج من بوابة المصنع الأمامية. راح يصفق بجناحيه مثل شبح ميت يتخبط عبر الشارع الوحيد. لويزا تجلس على درجة سلم أمام بيتها. لم تحس به، ولكنها فتحت عينيها ببطء. طالعت البدر يسطع أمام البوابة الكبيرة. البدر شر، نذير شؤم. راح يمطر منازل القوم الذين تعرفهم بوابل من نور. أين

كان أولئك الناس؟ شرعت تغنى لعلهم يخرجون ويرددون معها الغناء. ربما يأتى توم بيرويل. على أية حال البدر أمام البوابة الكبيـرة كـان ينذر بالشؤم، وكان يجب أن تغنى له:

قمر زنجى أحمر. آثم!

قمر متقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

## القتلة (١٩٢٧)

### إرنست همنجواي

فُتِح باب مطعم هنرى للوجبات السريعة ودخل رجلان وجلسا إلى منضدة طويلة. سألهما جورج:

- ماذا تريدان أن تأكلا؟

قال أحدهما:

- لا أدرى، ماذا تريد أن تأكل يا آل؟

قال آل:

- لا أدرى، لا أعرف ماذا أريد أن آكل.

كان الظلام يزداد رسوخاً خارج المطعم. ضوء الشارع لم يبرح النافذة. شرع الرجلان اللذان جلسا إلى الطاولة يقرآن القائمة. كان نك آدمز يراقبهما من موقعه عند الطرف الآخر من المنضدة. كان يتحدث مع جورج عندما دخلا، قال الأول:

- سآخذ قطعة مشوية من خاصرة الخنزير مع صلصة تفاح وبطاطس مهروسة.

- الخنزير المشوى ليس جاهزًا الآن.

- لماذا تضعون "الزفت" فى القائمة إذن؟

أخذ جورج يشرح له:

- إننا نعده للعشاء، تستطيع أن تجده فى الساعة السادسة.

نظر جورج إلى ساعة الحائط خلف الطاولة وقال:

- الساعة الخامسة الآن.

عندئذ قال الرجل الثانى:

- الساعة الخامسة والثلث.

فقال الأول:

- فيها ثلث ساعة تقديم.

- فى ستين داهية أنت والساعة. ماذا لديك من طعام؟

- أستطيع أن أحضر لك أى ساندويتشات، يمكنك أن تأخذ فخذ خنزير وبيض، أو خنزير مقدد وبيض، أو كبد خنزير مقدد، أو شريحة لحم بقرى.

- هات لى قطعة لحم دجاج مع بسلة خضراء وصلصة وبطاطس مهروسة.

- هذا فى العشاء.

- كل ما أطلبه تقول فى العشاء... إيه؟ هل هذه طريقتكم؟

- أستطيع إحضار فخذ خنزير وبيض أو لحم خنزير مقدد وبيض، كبد و.....

قال المدعو آل:

- سآخذ لحم خنزير وبيضًا.

كان يرتدى معطفا أسود مزررًا عند صدره. كان وجهه صغيرا أبيض وشفتاه مزمومتين. كان يضع لفاحًا من الحرير حول عنقه ويرتدى قفازين.

قال الآخر:

- هات لى لحم خنزير مقدد وبيضًا.

كان فى حجم آل تقريبًا. أما وجهاهما فمختلفان، ولكنهما يرتديان الأشياء نفسها كالتوأم. كانا يرتديان معطفين ضيقين على جسديهما. جلسا مائلين للأمام، وكان كلاهما يستند بمرفقيه على الطاولة. سأل آل:

- أعندك ما نشربه؟

- بيرة بيضاء ومشروبات غازية أخرى وجعة بالزنجبيل.

- مرة أخرى هل عندك شئ نشربه؟

- هذه التى ذكرت لك فحسب.

قال الآخر:

-هذه بلدة حارة، ماذا يسمونها؟

-سمت.

سأل آل زميله:

-هل سمعت عنها من قبل؟

قال الزميل:

-كلا.

سأله آل:

-ماذا تفعلون هنا أثناء الليل؟

يرد الزميل:

-يتعشون. كلهم يأتون إلى هنا ويتناولون العشاء الكبير.

قال جورج:

-هذا صحيح.

عندئذ سأله آل:

-إذن تعتقد أن هذا صحيح؟

-بالتأكيد.

- أنت ولد ذكي ورائع، أليس كذلك؟

قال جورج:

- بالتأكيد.

قال الآخر القصير:

- حسنًا، أنت لست ذكيا ولا رائعًا. هل هو كذلك يا آل؟

قال آل:

- إنه غبي. ثم تحول إلى نك وسأله:

- ما اسمك؟

- آدمز.

قال آل:

- ولد آخر ذكي.

- أليس هو كذلك يا ماكس؟

أجاب ماكس:

- يبدو أن المدينة تمتلئ بالصبية الأذكياء.

وضع جورج الطبقين، فخذ الخنزير والبيض، والآخر بلحم الخنزير المقدد والبيض، على الطاولة. ووضع أيضًا طبقين آخرين: بطاطس محمرة وأغلق الباب المفضي إلى المطبخ. وسأل آل:

- أيهما طبقك؟

- ألا تتذكر؟

- فخذ الخنزير مع البيض.

قال ماكس:

- ولد ذكي.

مال إلى الأمام وأخذ فخذ الخنزير والبيض. أكل الرجلان وقفازاهما على يديهما. راح جورج يراقبهما فيما كانا يأكلان.

نظر ماكس إلى جورج:

- إلام تنظر؟

- لا شئ.

- لا.. كنت تنظر إليّ.

قال آل:

- لعل الولد يقصد المزاح يا ماكس.

ضحك جورج.

قال له ماكس:

- لا ينبغي لك أن تضحك. يجب ألا تضحك البتة. أسمعت؟

قال جورج: حسناً.

تحول ماكس إلى آل وخاطبه:

-إذن هو يعتقد أن هذا حسن. إنه يظن أن هذا حسن. إنه ولد طيب.

قال آل:

-أوه إنه من المفكرين.

وواصلا الأكل. سأل آل ماكس:

-ما اسم الولد الذكى الذى يجلس عند طرف الطاولة؟

قال ماكس لنك:

-يا ولد يا ذكى، أراك تصول وتجول عند الناحيــة الأخــرى مــن الطاولة مع صاحبك.

سأله نك:

-ماذا تقصد؟

-ليس لى أى مقصد.

قال آل:

-الأحسن أن تبقى قريبًا أيها الولد الذكى.

وعاد نك إلى الطرف الآخر من الطاولة. سأله جورج.

-وما الحكمة فى ذلك؟

قال آل:

- ليس من... شأنك. من بداخل المطبخ؟

- الزنجي.

- ماذا تقصد بالزنجي؟

- الزنجي الذي يقوم بالطهي.

- مره أن يأتي إلى هنا.

- ولم يأتي إلى هنا؟

- أخبره أن يأتي إلى هنا.

- أين تظن نفسك؟

قال الرجل الذي يدعى ماكس:

- نعرف من نحن يا غبي، أتظننا أغبياء مثلك؟

قال له آل :

- كلامك ساذج، لماذا تجادل هذا الصبي؟ اسمع (موجهًا حديثه إلى جورج) أخبر الزنجي أن يأتي إلى هنا.

- ماذا تريد أن تفعل به؟

- لا شئ. ليكن عقلك في رأسك أيها الولد الذكي، ماذا نفعل بزنجي؟

فتح جورج الكوة المؤدية إلى المطبخ ونادى: سام، تعـال هنـا لحظة.

فتح باب المطبخ ودخل الزنجي وسأل:

- لم تنادون عليَّ؟

ألقى الرجلان الجالسان على الطاولة نظرة على الزنجي. وقال له آل:

- حسناً يا زنجي. عليك أن تقف هنا.

سام الزنجي يقف في (مريلته) ويبادل الجالسين النظرات ويقول:

- نعم يا سيدى.

نهض آل من فوق مقعده وقال:

- سأرجع إلى المطبخ مع الزنجي والولد الذكي. عد إلى المطبخ أيها الزنجي، عد معه يا ولد يا ذكي.

مشى الرجل القصير خلف نك وسام الطباخ عائدين إلى المطبخ وأغلق الباب خلفهم. جلس المدعو ماكس على الطاولة مواجها جورج. لم ينظر إلى جورج، بل نظر إلى المرآة المعلقة خلف الطاولـة. كـان محل هنرى قد تحول من حانة إلى مطعم يقدم وجبـات الغـداء. قـال ماكس وهو يحدق في المرآة:

- حسناً أيها الولد الذكي، لماذا لا تقول شيئاً؟

- فيم كل ذلك؟

- اسمع يا آل (صاح ماكس) الولد الذكى يريد أن يعرف فيم كل ذلك؟

سمع صوت آل من المطبخ يقول:

- ولماذا لا تخبره؟

- ماذا تظن؟

- لا أدرى.

كان ماكس ينظر فى المرآة طوال حديثه:

- لن أقول شيئًا.

- اسمع يا آل، الولد الذكى يقول إنه لن يقول شيئًا.

- وماذا تظن أنت؟

- أسمعك... حسنًا.

قال آل من داخل المطبخ. أزاح الدعامة التى يستند إليها باب الكوة التى تمر عبرها الأطباق من المطبخ وإليه مع زجاجة (الكتشب). خاطب جورج من المطبخ:

- اسمع يا ولد يا ذكى، قف قليلاً عند البار. تحرك قليلاً ناحية اليمين يا ماكس.

كان مثل مصور يرتب لالتقاط صورة جماعية. قال ماكس:

- تحدث معى يا ولد يا ذكى. ماذا تظن أننا فاعلان؟.

لم يتفوه جورج بكلمة. ولكن ماكس قال:

- سأخبرك، سوف نقتل سويديا. هل تعرف سويديا ضخم الجثة يدعى أول آندرسن؟

- أجل.

- يأتى هنا ليأكل كل ليلة، أليس كذلك؟

- أحيانًا يأتى إلى هنا!

- يأتى إلى هنا فى السادسة، أليس كذلك؟

- هذا إذا أتى.

قال ماكس:

- أتعرف كل ذلك يا ولد يا ذكى؟ تحدث عن شئ آخر، هل تذهب إلى السينما؟

- مرة كل فترة.

- عليك بالذهاب إلى السينما كثيرًا، السينما شئ جيد بالنسبة لولد ذكى مثلك.

- لماذا تزمعون قتل أول آندرسن؟ ماذا فعل بكما؟

- لم يحدث أن أتيحت له الفرصة لفعل أى شئ لنا. لـم يحـدث حتى أن رآنا.

صاح آل من داخل المطبخ:

- سوف يرانا مرة واحدة فى حياته.

سألهما جورج:

- لماذا تريدان قتله إذن؟

- سنقتله لحساب صديق. خدمة لصديق أيها الولد الذكى.

صاح آل من داخل المطبخ:

- صه. لا تتكلم كثيرًا فى هذا الأمر.

- حسنًا، أردت أن أريح الولد الذكى.. أليس كذلك يا ولد؟

قال آل:

- إنك تتكلم كثيرًا فى (الزفت). الزنجى وصبيه الذكى راضـيان كل بالآخر. لقد شددت وثاقهما وأصبحا كعاشقين فى دير.

- أظن أنك كنت فى دير.

- وماذا أدراك.

نظر جورج إلى ساعة الحائط.

- إذا جاء أحد إلى المطعم أخبره بأن الطاهى فـى إجـازة، وإذا

ألح فى الطلب أخبره بأنك ستطبخ بنفسك. هل فهمت الرسالة يا ولد يا ذكى؟

قال جورج:

- حسناً، ماذا أنتما فاعلان بنا بعد ذلك؟

قال ماكس:

- هذا يعتمد على الظروف. هذه نقطة لا نعرفها إلا فى حينها.

نظر جورج إلى ساعة الحائط. كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع. فتح باب المطعم المؤدى إلى الشارع. دخل سائق ترام وقال:

- مرحبًا يا جورج، هل أستطيع تناول العشاء؟

- سام فى إجازة. سوف يعود خلال نصف ساعة.

قال السائق:

- سأعود إذن بعد نصف ساعة.

نظر جورج إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى السادسة والثلث. قال له ماكس:

- تصرف جيد منك يا ولد يا ذكى. أنت رجل شهم مدرب.

قال آل من داخل المطبخ:

- إنه يعرف أنى كنت سأقطع رأسه.

قال ماكس:

- لا، ليس الأمر كذلك. الولد الذكى لطيف، إنه ولد لطيف ومهذب. أنا أحبه.

عندما وصلت الساعة إلى السابعة إلا خمس دقائق قال جورج:

- لن يأتى.

دخل المطعم رجلان آخران. ذهب جورج إلى المطبخ ليعد ساندويتش لحم خنزير مع البيض (سفرى) لأحدهما. دخل المطبخ ورأى آل. كانت قبعته السوداء تنحرف للوراء قليلاً وكان يجلس على مقعد بجوار باب المطبخ الصغير وفوهة بندقيته الخرطوش تستند إلى عمود معدنى. كان نك والطباخ خلفهما يستندان إلى جدار فى الركن وقد سد آل فم كل منهما بفوطة. أعد جورج الساندويتش ولفه فى ورق حرارى ووضعه فى كيس وأعطاه للرجل الذى دفع ثمنه ومضى. قال ماكس:

- الولد الذكى يمكنه عمل كل شئ. يستطيع أن يطبخ وكل شئ. أنت فى وسعك أن تجعل من أية بنت جميلة زوجة سعيدة ياولد.

قال جورج:

- نعم. صاحبك أول آندرسون لن يأتى.

قال ماكس:

- سوف نمنحه عشر دقائق أخرى.

راح ماكس يراقب المرآة والساعة. كانت عقارب الساعة تـشير إلى السابعة وخمس دقائق. قال ماكس:

- لنذهب يا آل، الأفضل أن نذهب، صاحبك لن يأتى.

قال آل من داخل المطبخ:

- الأفضل أن نصبر خمس دقائق أخرى.

وخلال الدقائق الخمس دخل رجل وراح جورج يـشرح لــه أن الطباخ مريض، وسأل الرجل:

- ولماذا لا تأتون (بزفت) طباخ آخر؟ ألا تعلمون أنكم تـديرون مطعمًا للغداء؟

قال ماكس:

- هيا بنا يا آل.

- ماذا أنت فاعل بالولدين الذكيين والزنجى؟

- ليذهبا فى أمان.

- أوتظن ذلك؟

- أجل، هم يعرفون أننا لن نتركهم.

قال آل:

- لا أحب ذلك، هذا يزيد عن الحد. إنك تتكلم كثيرًا جدا.

قال ماكس:

- يا للجحيم، لقد كنت أبتغى التسلية، ألم نتسل؟

قال آل:

- إنك تتكلم كثيرًا على أية حال.

خرج من المطبخ. أحدثت ماسورة بندقيته الخرطوش نتوءًا فى خصر معطفه الضيق أصلح منه بيديه المغطاتين بالقفاز. قال لجورج:

- إلى اللقاء يا ولد يا ذكى. أنت ولد محظوظ للغاية.

قال ماكس:

- هذا صحيح، كان يجب أن تدخل سباق المسدسات يا ولد يا ذكى.

خرج كلاهما من الباب. ظل جورج يراقبهما وهما يمران تحت ضوء القوس الساطع ويعبران الشارع. كانا يبدوان فى معطفيهما الضيقين وقبعتيهما السوداوين أشبه بممثلين فى مسرحية هزلية. عاد جورج من خلال الباب المترنح واتجه إلى نك والطباخ.

قال سام الطباخ:

- لا أحب هذه المواقف، لا أريد أن أتعرض لمثل هذا ثانية.

نهض نك، لم يحدث أن وضع أحد فوطة فى فمه. نزع الفوطـة بكل قوته وهو يقول:

- ما هذا (الزفت)؟!

قال جورج:

- كانا ينويان قتل أول آندرسن. كانا يزمعان رميه بالرصـاص عندما يأتى إلى هنا للعشاء.

- أول آندرسن؟

- بلى.

تحسس الطباخ أركان فمه بإبهاميه، وسأل:

- هل ذهب كلاهما؟

قال جورج:

- لقد ذهبا فى داهية.

قال الطباخ:

- لا أحب هذه الأشياء.

قال جورج لنك:

- اسمع الأفضل أن تذهب لتخبر أول آندرسن.

- موافق.

قال سام الطباخ:

- الأفضل أن تبقى بعيدًا عن هذا الموضوع تمامًا. الأحسن أن تبقى بعيدًا، هذا أفضل.

قال جورج:

- لا تذهب إذا كنت لا تريد أن تذهب.

قال سام:

- التورط في موضوع كهذا لن يفضي بك إلى طريق معروف. أحسن ابق بعيدًا.

قال نك لجورج:

- بل سأذهب لأراه. أين يسكن؟

غادر الطباخ المكان هو يقول:

- الصبية الصغار يعرفون ما يريدون.

قال جورج:

- يسكن في نزل هيرش.

- سأذهب إلى نزل هيرش.

خارج المطعم كان ضوء الشارع يتخلل أفرع الشجر العارية. سار نك في الشارع مجاورًا لممرات السيارات، ثم اتجه إلى ضوء

آخر فى شارع جانبى. وبعد ثلاثة بيوت وجد نـزل هيـرش. رقـى درجتين وضغط على جرس الباب، سمع صوت امرأة خلف الباب:

- هل أول آندرسن هنا؟

- هل تريد أن تراه؟

- نعم إذا كان هنا؟

تبع نك المرأة على بسطة درج وعادت ثانية إلى نهايـة الممـر وطرقت الباب:

- من بالباب؟

- ثمة شخص يريد أن يراك يا مستر آندرسن.

- أنا نك آدمز.

- ادخل.

فتح نك الباب ودخل الحجرة. كان أول آندرسـن يرقـد علـى السرير بجميع ملابسه. كان من أبطال المصارعة فى الوزن الثقيـل، وكان أطول من السرير بكثير. كان يضع وسادتين تحت رأسه. سـأل نك دون أن ينظر إليه:

- هات ما عندك.

قال نك:

- كنت في مطعم هنرى وجاء رجلان وأوثقاني أنا والطاهي وقالا إنهما يريدان قتلك.

بدت نبرة نك ساذجة عندما قال ذلك. لم يرد أول أندرسن ولكن نك استمر يقول:

- أغلقا علينا باب المطبخ وكانا يزمعان رميك بالرصاص عندما تأتي لتناول العشاء.

ظل أول ينظر إلى الحائط ولم يقل شيئاً.

- وكان من رأى جورج أن أذهب وأخبرك.

- وماذا في يدى أن أفعل؟.

- سأخبرك بملامحهما.

- لا أريد أن أعرف ملامحهما. شكرًا على مقدمك لتخبرني بالأمر.

قال أول أندرسن ذلك وكان ما زال ينظر إلى الحائط.

- حسنًا.

ألقى نك نظرة فاحصة على الرجل الضخم الراقد على السرير وقال:

- ألا تريدني أن أذهب لأبلغ البوليس؟

- لا، هذا لن يفيد.

- ألا تريد منى شيئاً؟

- لا، ليس فى يدك شئ.

- لعله مجرد مزاح.

طوى أول آندرسن جسمه تجاه الحائط وقال لنك:

- كل ما أعرفه أننى لن أخرج طوال اليوم.

- ألا تستطيع أن تترك المدينة؟

- لا... لقد شبعت من الجرى فى كل مكان.

ثم قال وهو ينظر إلى الحائط:

- ليس هناك ما يمكن فعله الآن.

- ألا تستطيع تدبير الأمر يومًا ما؟

- لا، لقد تورطت فى خطأ.

ثم أردف بالصوت نفسه الخالى من المعنى:

- ليس هناك ما يمكن فعله، بعد فترة سوف أقرر الخروج.

قال نك:

- الأفضل أن أعود لأرى جورج.

قال أول آندرسن دون أن ينظر ناحية نك:

- مع السلامة. شكرًا على حماسك.

هم نك بالخروج، وقبل أن يغادر الغرفة ألقى نظرة أخيرة على جسد أول الضخم الراقد على سريره ينظر للحائط. قالت صاحبة النزل وهى تصحبه إلى الخارج:

- لم يغادر حجرته طوال اليوم. لا أشك فى أنه مريض.

- قلت له: يمكنك أن تخرج يا سيد آندرسن وتتمشى فى يوم خريفى صحو كهذا، ولكنه بدا غير راغب فى ذلك.

- لا يريد أن يخرج؟

- أنا آسفة لأنه ليس على ما يرام. إنه رجل مهذب جدا، ألا تعرف أنه كان ملاكمًا.

- أعرف ذلك.

- لا يمكن أن تعرف ذلك إلا من شكله. ثم توقفا عند الباب المؤدى إلى الشارع لتكمل حديثها:

- إنه رجل مهذب وكفى.

- حسنًا، طبت مساء يا مسز هيرش.

- أنا لست المسز هيرش، المسز هيرش هى صاحبة النزل، أنا أعتنى به فقط، أنا المسز بل.

قال نك:

- حسنًا، طبت مساءً يا مسز بل.

- تصبح على خير.

مشى نك فى الشارع المظلم حتى وصل إلى الـركن المـضيء تحت ضوء القوس ثم اجتاز ممرات السيارات قاصدًا مطعـم هنـرى. كان جورج فى الداخل، ينتظر خلف الطاولة.

- هل رأيت أول؟

- نعم، وجدته نائمًا فى حجرته ولا يريد أن يخرج.

فتح الطاهى باب المطبخ عندما سمع صوت نك.

- لا أريد حتى أن أسمع. وأغلق الباب خلفه.

- هل أخبرته بما حدث؟

- طبعًا أخبرته ولكنه كان يعرف كل شئ.

- وماذا ينوى؟

- لا شئ.

- هل سيقتلونه فعلاً؟

- أعتقد أنهم سوف يفعلون.

- لابد أنه تورط فى شئ فى شيكاغو.

- أظن ذلك.

- شئ فظيع.

- شئ بشع.

تناول جورج خرقة ومسح بها الطاولة.

قال نك:

- ترى ماذا فعل؟

- لعله خان لاعبًا فى مباراة؛ اتفقا على أن يخسر فى الحلبة ولم يفعل. هذا ما يمكن أن يقتلوه من أجله.

قال نك:

- لقد قررت الرحيل من هذه المدينة.

- نعم، هذا أفضل شئ.

- لا أستطيع أن أتصور أنه نائم فى حجرته وهو يعرف أنه سيلقى حتفه. إنه شئ بشع.

قال جورج:

- حسنًا، الأفضل ألا تفكر فى الأمر.

# عيد ميلاد مزدوج (١٩٢٩)

**ويلا كاثر**

حتى فى المدن الأمريكية التى يشبه بعضها بعضًا غاية الـشبه، حيث يعيش الناس حياة مكرورة لا تختلف من شخص إلـى شـخص، يتنازعون المنافع نفسها، ويتداولون الأفكار نفسها، ما برح المرء يقابل أناسًا غير متسقين مع زمانهم، يعيشون فى الحاضر وهـم مـن بقايـا ماض مضطرب. لم يزل المرء يشهد بـدايات محبطـة لمـستقبل لا يستطيع أن يتوقعه.

أثناء خروجه من المحكمة المبنية بأحجار رمادية فـى مدينـة بيتسبرج، قابل القاضى همرسلى واحدًا من هـؤلاء النـاس الـذين لا يستريح إلى مقابلتهم؛ يحس عندما يقابلهم بالحرج لأنهم لا يجيدون فـن الحياة كما ينبغى. رآه القاضى وهو خارج من بـاب المحكمـة يهـم بصعود الدرج ويميل بناحية من جسمه دفعًا للريح، ويمـسك بطـرف قبعته اللباد كى لا تقع. كان يغذ الخطى مندفعًا برأسه للأمام وكأنما عقد العزم على تحقيق مأرب. حدث القاضى نفسه بأن يتوارى خلف بـاب جانبى تجنبًا للمقابلة، ولكن ذلك لم يكن يتسق مع مبادئه.

حياه مهمهمًا: "طاب يومك يا ألبرت" وهو يشعر بالحرج لهذه المقابلة المفاجئة سيما بينما خطف ألبرت قبعته من فوق رأسه وانفرج شدقاه عن ابتسامة عريضة تشي بسعادة بينة وبما يشبه الزهو. كشفت فعلته عن رأس يثير الانتباه: صغير، عاطل من الشعر، محدد المعالم، محكم الصنع وكأنما قدَّ من خشب ثمين بيد نجار حاذق في استخدام المخرطة. وجه ناعم حليق تعلوه عتمة في لون القهوة الدافئة. كانت عيناه اللتان في لون البندق لا تستقران في محجريهما. لم يكن في طور الشباب، ولكنه كان نشيط الحركات. كان مسلكه أمام القاضي المقطب مجللاً بالاحترام والإعجاب بعيدًا عن الارتباك. سأله القاضي عن صحته وصحة عمه. فرد ألبرت قائلا: صحة عمي ممتازة بالنسبة لسنه. منهك القوى ولا يتحمل الإجهاد والتوتر ولكنه لا يشكو من شئ. سيحتفل بعيد ميلاده قريبًا. سيكون في الثمانين في أول ديسمبر، وسأكون في الخامسة والخمسين في اليوم نفسه. عندما ولدت كان يحتفل بعيد ميلاده الخامس والعشرين فسموني باسمه. ورد القاضي في ابتسار: "جميل".

التفت القاضي يمنة ويسرة كأنه يستمع إلى إعلان رديء العرض ولكنه لم يبد اعتراضًا وأردف في ود ممزوج بالحنق: هذه مناسبة ينبغي أن أتذكرها. هل لي أن أفعل شيئًا بعينه.. أي شئ نقدمه له في عيد ميلاده. ثم أخذ يفأفئ ويسعل.

وضحك ألبرت الصغير، كما كانوا يسمونه، ضحكة تشي بالثقة

وقال: فعلا نحتاج منك شيئًا أيها القاضى همرسلى، كنت أنوى زيارتك بالفعل لأطلب منك شيئًا، فسوف أعد له عشاء خاص بهـذه المناسـبة، وأنت تعلم أن عمى يحب الخمر الجيدة التى يتعذر الحصول عليها هذه الأيام حيث تكثر السلع المغشوشة.

قال القاضى وهو يحدق هذه المرة فى عينى ألبـرت مباشـرة: "بالتأكيد، بالتأكيد، لا تعطه من هذه السلع المهربة، سأجد لك نوعًا جيدًا فى مشربى، تعال غدا مساء بعد الثامنة ومعك حقيبة. سـأكون سـعيدًا لمساعدتك يا ألبرت، وسعيدًا لأن العجوز فى صحة جيدة... سلام يـا ألبرت".

فى تلك الأثناء دفع أنجلهارت الباب الثقيل وفتحه ولـم يتركـه حتى مر القاضى بسلام. كانت سيارة القاضى همرسلى فى انتظـاره. وفى الطريق إلى بيته فى تل السنجاب ظل يفكر بشئ من الأسى فـى أمر ألبرت أنجلهارت وعمه.

كان الرجل عطوفًا بطبعه على الرغم من تعبيرات وجهه القاسية وملامحه العابسة. كان يضمر الإخلاص لأصدقائه القـدامى، الأسـر القديمة والمثل القديمة. لم يكن يأبه بما يسمونه النجاح فى عالم اليـوم، ولكنه كان يرجوه لأصدقائه ويحزن عندما يسعون إليـه ولا ينالونـه. حزن عندما أخبره ألبرت بشئ من الزهو أنه فى الخامسة والخمـسين، لأنه كان يعرف أن ألبرت لم يحقق شيئًا ذا بال خـلال هـذه الـسنين الطوال. كان ألبرت أنجلهارت آخر من بقى من عائلة أنجلهارت، ولـم

يكن بينهم من حقق شيئًا. ماتوا جميعًا وهم أشد فقرًا مما كانوا عليه في مبتدأ حياتهم. بدءوا حياتهم بمصنع زجاج على ضفة النهر وثروة تضمن النجاح وبيت واسع في أولغنى وسمعة اجتماعية طيبة، ولكن كل شئ راح الآن... اندثر.

كان العجوز أوغست أنجلهارت حريصًا على ماله مفعمًا بالنشاط رغم أنه كان يركب رأسه في كثير من الأمور. كان صديقًا للقاضي همرسلي ومن عملائه الأوائل. أما أبناء أوغست الخمسة فقد باعوا المصنع بعده وبددوا المال في مشاريع فردية وهمية. فقدوا البيت الواسع وماتوا جميعًا فقراء وبقي ألبرت. كان يمكن أن يعيشوا ويكسبوا المال ويشتروا الضياع ويعمروا البيوت لولا تلك الكبرياء الألمانية الكاذبة المستقرة في طبعهم. ومع أن أوغست كان من الشاكلة نفسها فقد استطاع أن يحقق ما حققه. والحق أنه رباهم تربية خاطئة. كان شديد الزهو بهم، بأبنائه الخمسة حسني الهندام مشرقي الوجوه. أما هم فقد ضيعوا الوقت في لعب التنس واحتساء النبيذ والاستماع للموسيقى الصاخبة في الملاهي الليلية والسفر إلى نيويورك. ماذا فعل ألبرت الصغير بما ورث من ثروة أبيه؟ كان يجيب وهو يضحك ضحكًا طويلاً بأنه أنفقها على قطارات بنسلفانيا.

كان أكثر ما يحير القاضي همرسلي هو كيف يجد ألبرت ما يعيش منه. كان ألبرت يعمل في وظيفة صغيرة في مجلس المدينة. كان يعتمد كلية على هذه الوظيفة إذ لم يكن يملك من حطام الدنيا غير

هذا البيت الصغير الرث الذى يعيش فيه مع عمه العجوز. لم يكن الناس يحترمونه إلا إكرامًا لأبيه الذى كان ضابطًا شهمًا فى الحرب الأهلية، وظل يخدم الناس بعد الحرب ويوفر لهم الوظائف فى مصنعه وغير مصنعه. وكما قال القاضى همرسلى للقاضى مريمان بشئ من المرارة عندما ذكر اسم ألبرت عرضًا: لولا أصدقاء أبيه القدامى لما استطاع هذا الشخص أن يستمر فى حياته. وهذه أسوأ تهمة يُتهم بها رجل بعد المساس بالشرف.

يقع منزل القاضى همرسلى على تل السنجاب أمام أيكة تكثر بها أشجار البلوط العتيقة. يعيش وحيدًا مع ابنته الأرملة مارجريت بارمنتر. كانت مارجريت مشغولة دائمًا ولكنها تجد الوقت الذى تتناول فيه العشاء مع أبيها فى البيت، وكان ذلك كل نصيبه من الأنس والاجتماع. كان بيته مريحًا مزدحمًا بالأثاث القديم، وكانت حجرة المكتبة فخمة التجهيز لأنها كانت مختلاه عندما لا يكون نائمًا أو فى المحكمة. عندما نزل لتناول العشاء تلك الليلة وجد المسز بارمنتر جالسة إلى المائدة ترتدى ملابس السهرة. طويلة القامة مليحة الهيئة تملك سيارة جميلة حسنة التجهيز. كان وجهها مثل وجه أبيها، يجمع بين ملامح الجد وملامح الود، بيد أنها لم تأخذ من خشونة طبعه ولم ترث ذلك الانقباض اللاشعورى فى عضلاته الذى يدهمه إذا احتدم أو اعترض على شذوذ فى منظومة الحياة. أما هى فقد كانت تستقبل حماقات الحياة بصدر رحب أو دون اكتراث كبير.

وبينما كان خادمهما الزنجي العجوز يهيئ لـه المقعـد، ألقى القاضى على ابنته نظرة عجلى من تحت حاجبيه وقال فى نبرة حـادة مشوبة بالاستياء:

- رأيت ابن أوغست أنجلهارت هذا المساء.

كانت، وهى صغيرة، تخف للدفاع عن الشخص الذى يهاجمـه أبوها لأنه أغضبه وخيب أمله. ولكنها الآن تشارك أباها الإحساس بأن الناس مصدر قلق وخيبة أمل. أصبحت تدرك الآن أن غـضب أبيهـا وهجومه القاسى على بعضهم إنما يصدر من نفس مشفقة عليهم وقلـب قلق من أجلهم، وأنه لم يكن ليقسو على الناس لو لم يكن يحس نحـوهم ببعض الود؛ لذا أجابته فى صوت خفيض: أوه، حقًا، أنا لـم أره منـذ أعوام، منذ الحرب، كيف يبدو الآن؟ أما زال رث الهيئة؟

- ليس رثًا كما ينبغى، هذا الشخص سيتسول فى يوم من الأيام.

عندئذ تنهدت المسز بارمنتر وقالت:

- أخشى ذلك، ولكنى أعتقد أنه سيقبل ذلك عن طيب خاطر.

- وهز القاضى منكبيه غيظًا وقال:

- سيعرج علينا غدًا مساء يريد شيئًا لعمه.

-فرصة أن أراه بنفسى إذن، لابد أن السن بدأ يظهر عليـه، لا أتخيله كبر واستقر عقله فى رأسه.

- لا تلحى عليه فى البقاء، لا أريده أن يتسكع حول منزلنا. سيأخذ ما يريده ويمضى إلى حال سبيله. لقد بلغت قحته أن أخبرنى أن عيد ميلاده الخامس والخمسين فى أول ديسمبر، وهو يوم ميلاد عمه، سيقيم حفلا لعمه العجوز!

ثم تنحنح القاضى وسعل ولكنه لم يستطع رد ابتسامة لاحت على وجهه، بينما ظلت شفتاه على حالهما من السخرية المرة فى حين امتلأت عيناه بمزاح ماكر.

- هل بلغ كل هذه السن؟ نعم.. لأنه عندما كنا عند المسز سترتس فى روما كنت فى الثالثة عَشرة ولابد أنه كان فى الثلاثين.

وسعل الأب مرة أخرى وقال:

- أفضل له أن يذهب إلى بيت جده!

تطلعت المسز بارمنتر إلى أبيها وقالت:

- أوه، لا أدرى، ألبرت لن يكون ذا فائدة كبيرة فى بيت جده، مع أنه كان نافعًا للمسز سترتس فى روما.

- ولماذا تريدين من الرجل أن يتسكع هناك. جميع رجال أسرتها حققوا شيئًا.

- حققوا الكثير جدا! ألبرت مكث فى روما ثلاث سنوات، تعلم

الإيطالية وهذا يساعده كثيرًا الآن. أنت نفسك لم تزل ترسل في طلبه ليأتي إلى مبنى المحكمة عندما تحتاج مترجمًا. أليس كذلك؟

- هذا لا يحدث كثيرًا، ولكنه يتقاضى بضعة دولارات إكرامًا لخاطر أبيه.

وبعد العشاء دلف القاضي إلى مكتبته بينما كانت المدفأة متقدة، وكان الكتاب في انتظاره وقد وضع مدية فتح الورق عند الصفحة التي توقف عندها عن القراءة في الليلة الماضية في العاشرة والنصف بالضبط. وفي طريقه عمد إلى الباب الأمامي وفتحه وأضاء نور الشرفة وألقى نظرة على مقياس الحرارة وسجل شيئًا في كراسة لديه. وخلال دقائق قليلة كانت ابنته في زي السهرة تقف عند باب المكتبة لتودعه ونزلت إلى الصالة. أصاخ السمع هنيهة حتى سمع الباب الأمامي يغلق، صوت الاطمئنان. كان يحب أن يرى بيته مرتبًا خاليًا طوال المساء إلا من كتبه. كان قارئًا جيدًا في اللاهوت والفلسفة وتاريخ أمريكا الشمالية القديم.

## II

بينما كان القاضي همرسلي مشغولا بالقراءة في مكتبته كان ألبرت أنجلهارت يجلس في بيته إلى البيانو العمودي في ركن من حجرة الطعام يضرب عليه مقطوعة كريسليانا لشوبان ليشنف أذني

عمه العجوز. كان يرتدى سترة تدخين من القطيفة فى لـون العقيـق الأحمر. يقع المنزل الذى يعيش فيه ألبرت مع عمه فى ركن غريـب من المدينة، فى شارع حقير قائم على تل يقع على مبعدة مـن شـارع جارسن المزدحم. بيت صغير من طابقين مبنى من الطوب الأحمـر. كان المنزل ملكًا لأحد العمال فى مصنع الزجاج، وكان أبو ألبرت قـد أخذه منه وفاء لدين ميت. لم يكن المنزل شيئًا مذكورًا فى ذلك الوقـت حين كان أوغست أنجلهارت وأسرته يعيشون فى منزلهم الكبير الواسع (بجملوناته) الكثيرة كشأن البيوت الألمانية يشرف على الحديقة العامـة فى أولغنى. وكانوا يمتلكون الكثير من العمارات بالإضافة إلى مـصنع الزجاج القائم على ضفة النهر. وعند وفاة الأب استبدل الأبناء بالمنزل الكبير والمصنع والأرض نقودا سائلة. وبقى هذا البيت الصغير متـسيا لم يتعرض للبيع أو الرهن. وذات يوم وجد ألبرت الابن نفسه الوحيـد الباقى على قيد الحياة، وأنه لا يملك من حطام الدنيا شيئًا سـوى ذلـك المنزل الصغير وبعض المنقولات الشخصية. حتى عمـه أخفـق فـى إحراز أى نجاح يذكر فى مجال الطب فقرر التقاعد. وهكـذا اسـتقر ألبرت وعمه فى ذلك المنزل الواقع فى الجهة الجنوبية من المدينة.

والغريب أن ألبرت لم يحفل بالقنوط الذى كان يمكن أن ينتابـه بسبب ذلك كله. اختبر الفقر بالتدريج. قبل أن يرث البيت كان يعـيش فى نزل، بدا التغيير إذن فى اتجاه الصعود وليس فى اتجـاه الهبـوط. كان سعيدًا حين وجد له منزلا مرة أخرى، يضع فيـه أثاثـه وكتبـه وصوره التى كان يعدها جزءًا من نفسه وأغلى الأشياء عنـده، سـجله

الحافل بتاريخه الشخصى وتاريخ العائلة، ذكريات عمره وسنين شبابه التى تسللت منه دون رجعة.

وهو جالس إلى البيانو، تعلوه لوحة لثلاث راقصات باليه فى مشرب باللون الأسود المخضب بالأحمر، أو جالس إلى منضدة الكتابة جميلة الزخارف، كان يبدو وكأنه لم يزل ذلك الشاب الأنيق الذى كان يجلس هناك منذ زمن ولى. تحت قدميه تغطى الأرض رقع السجاد الرائعة، وتزدان أرفف مكتبته بكتبه التى جمعها عن شغف حقيقى لكُتاب لم تصمد أفكارهم أمام زمن متغير رغم حداثتهم. كان فى وسعه استرداد اللحظة التى أثارت هذه الكتب فيها العالم ثم ما لبثت أن استقرت فى أعماق النسيان، فقدت الآن قدرتها القديمة على استمالة العقول وإغواء النفوس. رف كامل للكتاب الأصفر وحقيبة تمتلئ بلوحات أوبرى بيرنسلى أحد أقطاب الرمزية فى نهاية القرن أو "المنحطين" كما كانوا يسمونهم. وديوان شعر صغير يضم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر حديث ممتاز يدعى إرنست داوسن. وكتب أوسكار وايلد الذى تبدو شقاوته الآن موضة قديمة أشبه بقبعة بالية رديئة محفوفة بالزهور والريش نصل لونها على رأس حسناء من العصر الفكتورى.

كان ألبرت وعمه يعيشان فى الطابق العلوى من البيت. أما الطابق الأرضى فقد كان مؤجرًا لنقاش زجاج ألمانى كانت زوجته طباخة ماهرة فكانت ترسل إليهما العشاء ساخنا كل ليلة على مصعد

صغير. كان المنزل يشرف على الشارع مباشرة، وكان الذاهب إلى شقة ألبرت يجتاز ممرا ضيقًا ممهدًا فى جانب من البيت، ويرتقى بسطة أمامية قبل أن يرقى درجًا خشبيا. كانت الشقة من أربع حجرات خصصا اثنتين منها للنوم وحجرة جلوس أنيقة دافئة كانا يأكلان بها، ومطبخ صغير كان ألبرت يعد به الإفطار كل صباح. وبعد ذهابه إلى السوق كانت المسز رودر تأتى من الطابق الأرضي وتقوم بغسل الأطباق وتمسح الشقة وتسلى الدكتور أنجلهارت العجوز.

أخبر ألبرت على مائدة العشاء، تلك الليلة، عمه العجوز بما كان من شأنه مع القاضى همرسلى وعن سؤال القاضى عن صحته. ولم يستطع العجوز أن يدارى اغتباطه رغم غلبة نبرة الغرور على رده الذى لم يتجاوز أسنانه.

- ألا تزال ابنته تعيش معه؟ امرأة جميلة حقا بنت ال... !

لم يتزوج العم ألبرت، بيد أنه كان خبيرًا متضلعًا بأحوال النساء فى شبابه.

وإذ فرغا من العشاء جلس ألبرت إلى البيانو، كما كان يفعل كل ليلة، إلا إذا خرج لبعض شأنه، وشرع يضرب قطعة يشنف بها أذنى عمه العجوز. كان عازفًا جيدًا حقا. كان الدكتور ألبرت يجلس أمام المدفأة يدخن سيجاره الشهير ويستمع باهتمام. لم تعد عيناه تلمعان ببريق الحكمة والقوة والخبرة كعهده فى السابق، يطل منهما الآن بريق ضعيف لا تعرف أيوحى بازدراء خفى أم بغرور متأصل أم بحزن

عميق أم بشئ بعيد المنال لا تعرف كنهه. نال الزمن من معالم وجهه وكأنما دخل فى صراع محموم مع الأقدار. يهدئ نفسه حين يشبه نفسه بإله الغابات عند الإغريق لأن قمتى أذنيه متقدتان. وكثيرا ما كان يزعم أمام أبناء أخيه أن أنفه الضخم المتدلى علامة على طبع مفطور على الحب. كان فمه عامرًا بأسنان صفراء طويلة تزدحم بين فكيه دون تناسق. تصطك عندما يحتد احتجاجًا على الفن الحديث. كان شاربه قصيرًا ومنتصبًا على الجانبين. وكان شعره الذى يشتعل شيبًا الآن قصيرًا ومرفوعًا على الطريقة الفرنسية. وكانت يداه صغيرتين تعوزهما الرقة، تبرز عظام مفاصل أصابعه بشكل واضح رغم أناقتهما الظاهرية.

فى حلقه ندبة طويلة خشنة، كان يقول لأبناء أخيه الشباب إنها بسبب رصاصة انطلقت فى الظلام من مسدس زوج غاضب. ولكن أخاه أوغست كان يقول إن الزجاج هو سبب الندبة فى حلق أخيه، هام ليلة فى الحديقة بعد أن شرب حتى الثمالة فسقط على الأوقية الباردة المخصصة لحماية النبات. وعندما فرغ ألبرت من ضرب مقطوعة شوبان شرع، دون توقف، يعزف موسيقى سترافنسكى.

عندئذ تململ الدكتور أنجلهارت أمام المدفأة وبان القلق على وجهه. استدار ناحية ابن أخيه برأسه التى مال بها الكرى وعض على نواجذه وقال: تبًا لها من موسيقى، فقر فى الخيال وفقر فى الإبداع، نهاية القرن!

وقال ألبرت وهو يضحك: ظننتك نمت. لماذا تستخدم هذه العبارة التى تشى بسنك؟ هل تحب هذه إذن؟ وأنشأ يضرب الفصل الثانى من أوبرا بيلاس وميليساند.

أومأ الطبيب وقال: نعم، هذه أفضل رغم أنها لا تستهوينى كثيرًا. وجعد أنفه كأنه يشم رائحة ما، وألقى

على ألبرت نظرة شزراء من عينين نصف مغمضتين تنم عن ترفع مصطنع عن التأثر وقال: هذه جديدة طبعًا بالنسبة للعامة، ولكن بالنسبة لى فهى أشبه بموسيقى باخ.

- إذا أحببت.

كان ألبرت مثل القاضى همرسلى، حريصًا على العزلة، يحب الخلوة بكتبه ساعات كل يوم ويتيح الفرصة لعمه الطبيب أن يأوى إلى فراشه بعض الوقت. وبعد أن فرغ من نصف دستة من الأغانى الألمانية التى كان العجوز يحب سماعها دائمًا ولكنه لم يكن يلح فى طلبها، غاصت ذقن العجوز فى قبة قميصه وقد علت وجهه مسحة من حزن عميق مكبوح، وفقدت ملامحه كل معنى وبدا كمن ينفر من شئ. لقد أخذ الكرى بمعاقد جفونه وبدأ النور يستوى عنده بالظلمة. وواجهت الدكتور أنجلهارت خسارة كبيرة فى أواخر أيامه. والحق أنه عانى من الخسارة مرتين.

وإذ غادر ألبرت البيانو نهض الطبيب ومشى إلى حجرته مثقلا بالنوم، ولكنه توقف قليلاً عند الباب ورفع يده وحنى رأسه كثيرًا لتحية

ألبرت حتى ظهر شعره المنتصب وانفه الذى يشبه اللؤلؤة الطويلة ثـم دلف إلى حجرته وأغلق الباب خلفه. عاد ألبرت إلى كتبه وقد تنـاهى إلى سمعه صوت الماء المتساقط من الدش فى حجرة عمه. لـم يكـن الطبيب يأخذ الدش قبل الهجوع توقيًا للبرد. لعلـه كـان يحلـم بـذلك المطرب الذى كان يسميه أمام ابن أخيه: "لينور المنتظر".

## III

منذ سنوات طويلة خلت كان أفراد أسرة أنجلهارت يعيشون فى البيت القديم فى أولغنى مع أمهم بعد وفاة أبيهم. كان الدكتور أنجلهارت عندئذ يمارس الطب فى عيادته التى تشرف على الحديقة العامة علـى مسافة خمس دقائق مشيًا من شقة امرأة أخيه. كان يتناول الغداء معهـم بعد أن ينتهى من ساعات العيادة الصباحية. كان البيت لا يبعد كثيـرًا عن سوق أولغنى، أفضل سوق فى العالم وكانـت المـسز أنجلهـارت تختلف إليه كل صباح طوال حياتها تبتاع منه الخضروات والـدواجن والأجبان والسجق وألوان الأسماك المشوية والمخللة. وبعد أن تنتهـى من جولتها كنت ترى صبية فى مرايلهم البيـضاء يعبـرون الحديقـة ركضًا وهم يحملون مشترياتها الكثيـرة. الجميـع يعـرف منـزل آل أنجلهارت المبنى بالطوب الملون بألوان شتى، و(جملوناتـه) الخلابـة وأبراجه الصغيرة والنافذة الزجاجية الكبيرة التى تقع فى ناحيته الغربية تعكس منظرًا للقناة الكبرى فى فينيسيا على خلفية سانتا ماريـا ديـلا

سالوت، وفى أمامية الصورة جندول (زورق فينيسيا) وسائقه ضـــامر الجسم. وكان الناس يقولون إن أوغست والمسز أنجلهارت كانا ينبغـــى أن يجلسا فى مقدمة الصورة حتى تكتمل.

كان الدكتور أنجلهارت أخصائيا فى علاج الحنجـــرة، حنـــاجر المطربين بالذات. لقد درس كل قصاصة تركها مانويل جارســـي بعـــد وفاته وكل حوار أجرى معه. كان الطبيب المعالج لعـــدد كثيـــر مـــن المطربين، ويزعم أنه أنقذ أصواتًا كثيرة من الضياع. هواء بيتسبرج لا يساعد الحنجرة. كان الفنانون يسعون لمشورته قبل سفرهم، وكان قائدو الأوركسترا ونقابات الفنانين ينصحون المطربين بالذهاب إلى الـــدكتور أنجلهارت؛ لأنه كان يتساهل فى الأجر خاصة عندما كانوا يرسلون إليه صورهم الفوتوغرافية المذيلة بتوقيعاتهم المزخرفة. وكان يرد اسمه فى مذكرات كبار المغنين كورود اسم مالك جياد السباقات فى فصول عن الجياد السريعة. لقد منحه ذلك الحماس للأصوات إحـــساسًا بـــالتميز، بكونه متفردًا فى مهنته مما جلب له السعادة والرضا وخلَّفه رجلا فقيرًا فى الوقت نفسه.

وذات صباح عندما كان الدكتور أنجلهارت يتمشى كعادته حول الحديقة العامة قبيل الذهاب إلى مكتبه، توقف هنيهة أمام مدرسة أولغنى الثانوية لأنه سمع غناء. جوقة ترتيل من أصوات التلاميذ. كان شـــهر يونيو وكانت نوافذ المصلى مفتوحة. ظل الطبيب يتسمع لحظات قلائل ثم أمال رأسه ناحية جانب واحد ووضع سبابته على أنفه التـــى كانـــت

أشبه باللؤلؤة وحانت منه نظرة شزراء قلقة مستطلعة. من بين الأصوات سمع صوتًا متميزًا. وعقب الضربة الأخيرة على البيانو سمع ضحكة معدنية وهمهمة. استوقف الطبيب ضبيا لدى خروجه وعلم منه أنها كانت بروفة حفل التخرج. فى تلك الأثناء سمع عزفًا آخر على البيانو وما لبث أن سمع الصوت نفسه، وحده هذه المرة يردد بالألمانية: لتكن هادئًا كالليل، عميقًا كالمحيط.

وكان على حق... أجل... الصوت صوت سوبرانو كامل النضج؛ قوى، عميق، مطمئن، ثابت، ينبعث منه الدفء حتى فى النغمات العالية. وقبل أن تنتهى من السطر الثانى دلف إلى المبنى برفق حتى وصل إلى المصلى ورأى مارجريت ثيسينجر لأول مرة. رأى فتاة ألمانية يافعة ناضرة الجمال، تقف إلى جوار البيانو طلقة المحيا تتوهج بالعافية. بدت له أشبه بزهرة الفاوانيا التى تفتحت لتوها فامتلأت بأشعة الشمس – أشعة الشمس فى شعرها الأسمر الضارب إلى الحمرة وفى عينيها الصغيرتين بلون البندق. وما فرغت من غنائها حتى انطلقت مسرعة على سلم المبنى مع أحد الصبية.

كان الدكتور ألبرت ينتظر بالباب، ولدى خروجها وهى تحمل معطفها وكتبها المدرسية دنا منها وقدم نفسه وسألها إذا ما كانت ترغب في زيارة المسز أنجلهارت وتتناول الغداء معهم وتغنى هناك "أوه، لا مانع". وقالت إنها كانت تعرف أحد أبناء أنجلهارت وإنها كانت تتمنى دائمًا رؤية النافذة الجميلة من الداخل.

وفى الظهر ذهبت إليهم وغنت لهم قبل الغداء وكانوا يقومونها. كانت تتكلم ألمانية أقل من المتوسط وإنجليزية أسوأ. تربت فى وسط عادى جدا، كان حديثها بالعامية ولكنه لم يكن سوقيا أو فظا. كانت ساذجة لا تعرف غير ما تفعل. سعد أبناء أنجلهارت بوجودها؛ لأنها كانت مرحة جدا ومهتمة بكل شئ. حكت لهم عن الأوقات الرائعة التى تذهب فيها للرقص فى صالات ضاحية تيرنز وعن نزهاتها الخلوية فى غابات أولغنى الباردة والملونة بالدخان. وظل الصبية غارقين فى الضحك عندما ذكرت لهم تلك الغرائب. كل شئ فى نظرها كان رائعًا، ساعدها على ذلك دفء مشاعرها ونشاطها، حتى كونها فى الصف الأول فى مدرسة أولغنى الثانوية كان رائعًا، هكذا قالت لهم.

زارتهم أكثر من مرة بعد ذلك وتناولت الغداء عندهم لأنها أحبت الأولاد وأعجبها البيت كما قالت. كان الدكتور يراقبها عن كثب طوال الوقت. بدت دون طموح أو هدف، كانت تغنى ليحبها الناس فحسب. الذكاء ينقصها، ولكن دفء مشاعرها كان أهم من الذكاء على حد قوله. دعاها إلى مكتبه وظل يحاصرها بالأسئلة، وعندما فرغ من استجوابه صمت برهة أمام تلك المخلوقة الرقيقة الساذجة وانحرف برأسه على طريقته المعهودة وقال لها: "آنسة تسينجر، يشرفنى أن أعلن لك أنك على أعتاب المجد".

وجلجلت ضحكتها العذبة المدوية وقالت:

- أليس غريبًا أن تتعب نفسك من أجلى على ذلك النحو؟!

ورفع الدكتور سبابته وعاد يقول:

-ولكن بشرط أن تقلعي عن سخافتك وسذاجتك وتتركي هؤلاء الحمقى الذين تغنين معهم، اتركي كل هذه السخافات.

وتحرك بكل كيانه كأنه كان يهم بعصر عنق دجاجة، وغالبت مارجريت ضحكة كادت تنطلق من بين شفتيها. كان الدكتور أنجلهارت يريد منها أن تذهب معه إلى نيويورك فورا لتبدأ الدراسة. وأبدى استعداده للإنفاق على دراستها. لقد قرر في لحظة أن يغامر بكل شيء في سبيل ذلك الصوت.

ولكن لا فائدة! قالت: إن ذلك لطف منه وكرم، وإنها تحب زملاءها في الفصل حبا جما. وإنها تريد أن تتخرج في السنة الأولى ذلك العام مع أقرانها. بالإضافة إلى ذلك فقد حجزت لها أكبر كنيسة في بيتسبرج موقعًا متميزًا في جوقة الترتيل رغم أنها لم تزل تلميذة في المدرسة مما سيجلب لها بعض النقود والملابس الجميلة لأول مرة في حياتها.

وأثناء السنة الدراسية دأب الدكتور أنجلهارت على الذهاب إلى الكنيسة التي كانت تغني بها بانتظام، يراقبها ويغمرها بعبارات التقريظ والإعجاب، ويجادلها بشدة أحيانًا، ويحاضر لها أحيانًا أخرى سعيًا منه لبث الطموح في وردة الفاوانيا الكبيرة. كانت مهتمة جدا بأمور أخرى في ذلك الوقت، ولكنها تحملته، وصبرت على إلحاحه، وتفهمت إخلاصه، وتحملت طريقته المسرحية كما كانت تسميها. تخرجت في

السنة الأولى فى يونيو، وكانت دون التاسعة عشرة. وبعد حفل التخرج مباشرة فرت مع مندوب شركة تأمينات إلى شيكاغو وكتبت رسالة إلى الدكتور ألبرت قالت فيها: "أقدر لك عطفك علىّ وحدبك على صوتى وحنوك على شخصى، ولكنى أظن أنى سأدع صوتى يرتاح فى الوقت الحاضر".

وتلقى هذه الأنباء بحزن وأسى شديدين. وعمد إلى صورها فأحرقها. وأحرق أيضًا خطابها الذى كتبته بخط يشبه الخربشة لتشكره على هداياه. وكانت كآبته تزداد حدة فى وحدته عندما لا يجد ما يتهمها به. كان يتهمها دائمًا بخيانة موهبة ربانية كهذه. أين تخبئ الجوهرة الآن، فى تلك الحياة المتواضعة التى اختارتها؟

وبعد ثلاث سنوات من هروبها ودون مقدمات أيضًا اقتحمت عليه مكتبه فى شارع أرش ذات صباح وأخبرته أنها عادت لتدرس وأن زوجها تورط فى بعض شئونه ويريدها أن تكسب من صوتها كى تقيله من عثرته "صوتى أفضل من السابق". قالت له وهى تتطلع إليه بعينيها الصغيرتين الضاربتين إلى اللون الأخضر مع وميض ذهبى يشع منهما، وصدّقها. أدرك فجأة كم كانت صادقة على نحو لم يعهده عند أحد. غبية ويعوزها الطموح ولكنها صادقة صدقًا لم يعرفه عند رجل أو امرأة، وهى الآن امرأة. ولكنها شلال هادر من الدفء والحيوية.

رافقها إلى بيت زوجة أخيه، وكان ألبرت هناك فأرسله عمه إلى

البيانو. ولم يكن مخطئاً. ظل يحول رأسه بعيدًا عن عينيها لكى يخفى فرحته، أو ليخفى، مرة أو مرتين، دمعة انحدرت على صفحة وجهه، أو يخفى النداوة التى جلبتها الإثارة والسعادة إلى عينيه. فالصوت رغم كل شيء، قال فى سره، شئ جسدى. كانت تكبر وتنضج مثل ثمرة فاكهة تعرضت لأشعة الشمس، الصوت والجسد. غادر الدكتور أنجلهارت حجرة الموسيقى ودلف إلى معهد الموسيقى وأشار براحة يده فى حركة خطابية بينما تراجعت شفتاه عن أسنانه وأنشأ يقول: "أيها السيدات والسادة، هذه واحدة منكم، الآن أقدمها لكم ثمرة ناضجة".

وعندما عاد إلى مغنيته خاطبته باهتمام شديد من تحت قبعتها الجميلة المحلاة بأزهار الليلاك: "قبل زواجى يا دكتور أنجلهارت عرضت على أن تأخذنى إلى نيويورك لأحد الأساتذة وتقرضنى المال الذى أبدأ به. إذا كنت لا تزال عند وعدك فأنا على ثقة بأنه لن يمر وقت طويل قبل أن أرد لك نقودك. سوف أتبع تعليماتك. كنت تقول لى إنه يجب أن يكون لدى رغبة وطموح فى الدراسة".

وحدق فيها برهة ثم عاد يقول: "لاحظى يا جريتشن أننى غيرت الوصفة. الطموح لا يكفى. الآن يجب أن نراهن على المجد، الطموح والترقى!"، وأشار لأعلى بسبابته.

وفى نيويورك لم يأل جهدًا فى الدعاية لها وجذب اهتمام أصدقائه ومعارفه. وفى غضون أسبوع أصبحت محميته من الفنانات اللاتى يشار إليهن بالبنان. وجد لها فرصة فى دار الأوبرا عندما

تقاعدت إحدى نجماتها التى كانت تلميذة بولين جارسيا فيادروه. باختصار حقق الدكتور أنجلهارت حلم حياته. اكتشف صوتًا رائعًا. ولم يمض عام حتى كانت مارجريت تحتل أحد أهم المواقع فى جوقة ترتيل أكبر كنيسة فى نيويورك. وأصرت على تعويض راعيها قبل أن تذهب إلى الخارج لتكمل دراستها. كان الدكتور أنجلهارت يزورها كثيرًا فى نيويورك للنصح والإرشاد، ولكى يملأ عينيه من كنزه المكتشف. كان يرتجف خوفًا عندما كان يركب عبَّارة جرسى. كان يخاف من غدر الدهر. يتذكر مستقبلها الفنى فتهدأ روحه بين جنبيه. كنت ترى رجلا صغير الجسم معتدا بنفسه فى طور الكهولة يقف عند سياج العبَّارة يميل رأسه بشدة وكأنه يخاطب مدرجًا مليئًا بالطلاب ويحصى باهتمام شيئًا على أصابعه.

ولكن الدهر ضرب ضربته، ومن النقطة التى لم يتوقعها الدكتور، من الجسد اليافع الذى كان يتألق بالعافية والنضرة، من تلك الصحة الوافرة التى تنضح بالقوة التى كان الدكتور يسميها "القوة الريفية" زهوًا بها. لقد أغرى نجاح مارجريت الكثير من أمهات الفتيات اللاتى كن يردن احتراف الغناء، فقصدن مكتبه، وكان يرحب بهن ولا يضن عليهن بكلمات الإطراء والتمنيات الطيبة ولكنه ما يلبث أن يصرفهن بإيماءة رقيقة من إصبعيه وهو يقول فيما يشبه الهمهمة: "نعم لها صوت حلو، تستطيع أن تغنى قليلاً، صوتها نظيف!!. لم يكن يمل من الثناء على غناء وردته الساذجة والمقارنة أمام أبناء أخيه بينها

وبين المغنين فى تلك الفترة. كان يقول إن إيما إيمز متكلفة جـدا، وإن صوت جيرالدين فيرار شاحب، وإن أخرى متصنعة جدا.

مكثت مارجريت فى نيويورك عامين تحقق النجاح تلو النجـاح، وفى تلك الأثناء كتبت للدكتور تخبره عن ورم ألم بها ويريد الأطبـاء استئصاله بالجراحة. وما إن فرغ من قراءة الخطاب حتى توجه إلـى المحطة واستقل أول قطار إلى نيويورك. كشفت العملية عن أن الأمـر لم يكن بالهين. الورم خبيث. استشرى حتى عجز مشرط الجراح عـن استئصاله أو كبح جماحه. كانت أمها وجدّتها قد ماتتا بالمرض نفسه.

ظلت مارجريت المسكينة عامًا فى المستشفى تعالج مـن ذلـك المرض العضال. وكان الدكتور ألبرت يزورها يوميا ويـرى حالتهـا وهى تسوء يومًا بعد يوم. كانت التطورات سريعة ومثبطـة. أمـضى الشتاء والربيع كالتائه فى مستنقع مظلم. عانى أكثر مما عانت. كانـت رابطة الجأش مفعمة بالأمل. لم تظن، إلى آخر لحظة من عمرهـا، أن يد الموت مبسوطة إليها فرحة بلقائها.

فى آخر مرة رآها كانت مستسلمة وإن ظلت رابطـة الجـأش، مستهينة بالكرب، تخاطب الكهل بلغة اعتذارية وكأنهـا ترجـو منـه الصفح لأنها خيبت أمله، مثل طفل يعتذر عن شئ ثمين حطمه. ضمر جسمها فأضحت كالشبح النائم أو كطفلة لم تتعد السابعة. أزالوا شـعر رأسها وبانت العروق على يديها رغم أن اللون الأحمر كـان مـافتئ يخضب وجنتيها.

- آسفة غاية الأسف لأنى لم أصغ لنصيحتك بدلا من الهروب مع فل، أرأيت الآن كيف هنت عليه، فى الوقت الذى فعلت أنت كل شئ من أجلى. لو أعطيت عمرى مرة أخرى الآن لما ترددت أن أحياه حياة مختلفة.

وترك الدكتور ألبرت يدها وتقدم إلى النافذة وأنشأ يدمدم بالفرنسية: "لم؟ لماذا؟"، وما زال يحدق فى ذلك المربع المتوحش من الزجاج دون أن يعى شيئًا. وعندما كفكف دمعه وهدأ روعه عاد إلى مقعده بجوار سريرها. وضعت رأسها الحزين فوق ركبتيه وتطلق وجهها بابتسامة باهتة واستمرت تقول بلسان ثقيل:

- لا أظن أنك تؤمن بالآخرة، نادرًا ما تجد عالمًا يؤمن بالآخرة. فإذا وجدت حياة أخرى هناك لن أنساك، سوف أحب أن أتذكرك.

وعندما جاءت الممرضة لتعطيها حقنة تحت الجلد خرج الدكتور ألبرت إلى الحديقة العامة، وهام على وجهه دون أن يعرف له جهة مقصودة. ولم يزل هذا شأنه حتى شم رائحة حلوة جعلته يتوقف. تهافت تحت شجرة زيزفون زاهرة وأسلم رأسه إلى ركبتيه وظل يهذى وينتحب كالثكلى: "الشباب، الفن، الحب، الأحلام، الوفاء الخالص – لماذا؟ لماذا ترحل عن هذا العالم إلى ظلمة لا يعلمها أحد. لماذا؟ لماذا؟. "تهافت على الأريكة كالثمل أو كمن حضرته المنية وراح يهذى بكلمات من هاينه(*): "الله أكثر قسوة منى فى سخريته، ليس هناك من

(*) شاعر وكاتب ألمانى (١٧٩٧ – ١٨٥٦)

هو أقدر منه على صنع القسوة. خُجلة منى!". وطفق يتذكر وهو يضرب رأسه بقبضته المكورة ويقول: "خجلة لأن صادفت مصيبة كهذه! تعتذر للقوة التى دفعتها إلى هذا المصير، القوة التى خدعتها وغررت بها. نعم بسبب الله وتريد أن تعتذر لله!".

وشخص الرجل المعذب بصره عبر أغصان الزيزفون المتعانقة فرأى قوس السماء الأزرق لا يجيب أبدًا، فإذا استرخى وجهه وعادت أنفاسه للانتظام تعلقت عيناه فجأة بقطع من السحاب الرقيق أشبه برءوس الملائكة فى لوحات رافاييل. أحس أن نفسه تغادره وترحل مع تلك السحابات. الأمر فوق طاقته. وعندما قفل راجعًا إلى المستشفى ذلك المساء علم أنها رحلت راضية مطمئنة بين الحادية عشرة والثانية عشرة، ساعة كان رابضًا على الأريكة فى الحديقة العامة.

بدأ العم الدكتور يكثر من الصمت ويكثر من ترديد مرثيته حتى كادت تخرج معها روحه: "على أية حال لقد ذقت طعم الموت من أجلها. هذا هو نصيبى وكفى. لم تحس بآلام النزع مثلى... نامت ولم تستيقظ. اضطرمت نار نزعها فى داخلى... داخل جسدى أنا... لاقت حتفها داخلى".

## IV

أصبح الدكتور أنجلهارت قليل الخروج. كان ابن أخيه يصحبه أحيانًا فى أيام الآحاد المعتدلة إلى الترام الذى يجتاز جبل أوليفر ثم

يعرج به إلى مقبرة ألمانية قديمة ودير. وعندما يصفو الجو كان يتمشى كل أصيل على الرصيف أمام منزله ليبتاع جريدة أو علبة سجائر. وعندما كانت إلزا الصغيرة الجميلة حفيدة مديرة منزله تراه قبل أن يعبر الشارع، كانت تلحق به وتتمشى معه قليلاً. وفى الصباح عندما كانت المسز ردر تقوم بالمسح والكنس، كان الدكتور يصعد إلى الطابق الأعلى ليشم الهواء من شرفة تطل على المحكمة.

كانت المحكمة مبنية بالقرميد يعلوها صهريج من الطراز القديم. تزدان ساحتها بحنفية كبيرة وثلاث شجيرات من نوع الأيلنطس. أما آل أنجلهارت فقد اشتهروا بزراعة الشجيرات الصغيرة فى دفيئات معروفة لدى الناس فى أولغنى. وكانت تلك الأشجار الصغيرة محل اهتمام الدكتور أنجلهارت البالغ. يحب النظر من شرفته إلى الملابس المنشورة على حبل الغسيل المشدود بين جذوعها على شكل مثلث، تحول حسارة بصره بينه وبين رؤية رقائق السخام التى كانت تهبط من المداخن القريبة على الملاءات البيضاء. فى الصيف لم يكن يمل من رؤية الأوراق الكثيفة الخضراء على شجيراته الثلاث، لا تصدر منها نأمة فى الليالى الساكنة الرطبة عندما يعتلى القمر المخضب بالحمرة أسطح المداخن. وفى الخريف كان يراقب الأوراق الصفراء تتساقط فوق الرصيف القرميدى. عندما يحل يوم مولده كان يحب النظر إلى الأشجار وهى عاطلة من أوراقها وقد تلفعت أغصانها الصغيرة المعقوفة كثيرة العقد بقشرة رقيقة من الثلج.

ولم يزل هناك رابضًا فى مجثمه متلفعًا بدثار غليظ وعلى رأسه قبعة خشنة من اللباد – لم يكن يأنس للقلنسوة – ويضع قفازين من الصوف على يديه، حتى أقبلت إلزا تحمل غزلها تريد أن تؤنس وحدته. كانت تخيط جهاز عرسها بنفسها، وكان ذلك يسعد الدكتور رغم ما يعنيه ذلك من رحيلها الوشيك إلى بيت الزوجية فى وهاد أولغنى وأنه سوف يفتقدها. خطيبها الشاب كارل أبربوك يمتلك الآن نصف دكان جزارة فى سوق أولغنى، وفى عجلة من أمره.

وعندما كانت المسز ردر تفرغ من تنظيف المكان كانت تقبل على الدكتور وتمهد البساط تحت قدميه وهى تقول له: "حان الوقت للدخول يا دكتور".

٧

وفى المساء التالى، بعد العشاء غادر ألبرت الصغير البيت يحمل حقيبة فارغة فى يده، الحقيبة التى طالما أخذها فى رحلاته إلى نيويورك فى فصل عروض الأوبرا. توقف هنيهة فى الطابق الأول ريثما يطلب من إلزا أن تصعد إلى الطابق الثانى لتجلس مع عمه لبعض الوقت، ثم استقل الترام الذى عبر به جسر ٢٢. وفى طريقه أحس بالوهج المتصاعد من مصانع الفولاذ.

وإنه لجالس ينتظر على تل سوهو ليستقل ترام شارع ٥، إذا برقائق الهواء البارد المشبع بالصقيع تتساقط فجأة. تمنى لو كان يرتدى

معطفه القديم ضنا بهذا الجديد من البلل. عليه الآن أن يحتاط لكل شئ. كان يفكر فى أن يستقل سيارة أجرة حين أقبل الترام المنشود ميمما شطر الشرق. نزل عند بداية أحد الشوارع المفضية إلى تل السنجاب وشرع يصعد فى تؤدة. كانت الأشياء قد اكتست باللون الأبيض من جراء الثلج المتساقط. كان ألبرت يألف تلك الأماكن كلها، زملاء المدرسة القدامى كانوا يقطنون فى تلك الأماكن أو فى جلها، فى تلك المنازل الكبيرة ذات الأبراج الحجرية وساحاتها الواسعة وأفانين الأشجار التى قامت فى عرصاتها وحول دروبها. كان يضطر للقفز يمينا أو يسارا فى الفينة بعد الفينة تفاديا لسيارة مسرعة، يندفع على الطرق المكسوة بالحصى إلى رصيف المشاة المبنى بكتل الأحجار الصخرية. لو نظر الساكنون إلى ألبرت الآن لحزنوا له، بيد أنه لا يحزن لنفسه. تطلع إلى النوافذ المضاءة ورأى بقايا الأنوار الحمراء على رءوس أجمات (الرودوندرون) وهز عاتقيه. رفاق الدراسة الذين يقطنون هنا الآن ماذا فعلوا بحياتهم؟ اختلفوا إلى نيويورك كما كان يفعل، ولكنهم كانوا يذهبون لاستشارة طبيب أو ليلحقوا أبناءهم بالمدارس، أو ليدفعوا فواتير أبناء لا سبيل إلى إصلاحهم.

قال فى نفسه إنه: "أفضل منهم بكثير، هذه الراحة الجامدة، ذلك الأمان القاسى المكبل بالحديد لم يرق له كثيرًا. تلك المنازل الضخمة لا تنطوى على شئ إلا صيغة الحياة العائلية المكرورة والخلافات والضغائن الأسرية. أحس ألبرت أنه خلو من الهموم مطلق السراح

وهو يرتقى التل فى معطفه الرقيق. قال فى نفسه: إن حياته الحاضرة أكثر روعة من حياة معظم أصدقائه ملاك العقارات. لا زال يجد المتعة وقد عاش حتى النخاع ثورات الفن والموسيقى من تقاليع الفترة. وهو الآن لا يستطيع أن يبدل حياته وينسى ذكرياته – تذكر فجأة معلمه رافاييل جوزفى – من أجل واحد من هذه المنازل الفخمة، ولن يستبدل بحياته حياة رجل من هؤلاء الذين يقطنون هنا. لو برز ميفيستوفيليس(*) الآن من بين أشجار الرودوندرون ووقف خلفه يلوح له بهذا العرض لما وافق. المال؟ نعم قد يأخذ منه قدرًا يسيرًا.

غمرته بالظل أشجار البلوط التى تعانقت ذوائبها أمام منزل القاضى همرسلى. رأى سيارة منتظرة فى الممشى قريبًا من الدرج الذى ارتقاه إلى الباب. أشار له الزنجى بالدخول. وعند دخول الصالة كانت المسز بارمنتر تهبط الدرج.

- آه، أهو أنت! ألبرت! قال لى أبى إنك ستأتى فى المساء فأمرت سائقى أن ينتظر حتى أراك.

وتخلى ألبرت عن حقيبته ووضع قبعته وتناول يدها برقته المعهودة وهتف بها:

- يا لها من سعادة أن أراك! لا أراك كثيرًا ولكن رؤيتك تسعدنى جدا. لقد مر وقت طويل مذ كنا فى فيلا سيبيون.

---

(*) كبير الشياطين فى أساطير العصور الوسطى كان فاوست قد باع له روحه مقابل إعطائه القوة والمعرفة. (المترجم)

وعرفت المسز بارمنتر صدقه من عينيه. ظل ممسكًا بيدها وكأنما يريد أن يبقى عليها بين يديه أطول فترة ممكنة. وقفا برهة في ضوء الصالة المحجوب. كانت المسز بارمنتر ترفل في جمال رقراق. لها نصيب من قوة أبيها واعتداده بنفسه مع تلقائية بعيدة عن التحفظ. قال في نفسه إن الاندفاع والطيش من سلائقها الأصيلة، في حين كان أبوها متحفظًا يجفل من أقل المضايقات. لم تكن المسز بارمنتر تخشى الانتقاد أو القيل والقال. تفعل ما تريد ولا تأبه بشئ وما يلبث أن يقبل منها الناس ذلك. حتى بارمنتر كان يقبل منها رغم أنه كان شخصًا فظا عنيدًا.

جلجلت ضحكتها عندما ذكرها بالصيف الذي قضياه في منزل المسز سترتس في روما. أعطته معطفها لكي يحمله.

- أتذكر يا ألبرت كيف كنا نستيقظ مع الفجر أيام المهرجانات ونقف أمام بوابة الحديقة لنلقى نظرة على الملك الشاب قادمًا من الريف على رأس موكب من الفرسان؟ كيف كانت أشعة الشمس تلمع على خوذته! يا إلهي! لقد رأيته الصيف الماضي، اشتعل رأسه شيبا وساءت أحواله.

-وكنا دائمًا نريد أن نهرب معًا إلى روسيا، أين هي روسيا الآن؟ كل شئ تغير إلا أنتِ يا مسز بارمنتر.

- أتمنى أن يكون ما تقوله صحيحًا. ولكني لست المسز بارمنتر الآن، أنا مارجوري إذا سمحت. كم من مرة أتذكر تلك الأصائل السعيدة التي قضيتها معك أنت وإخوتك في الحديقة

وراء منزلكم القديم فى أولغنى. ثمة الكثير الذى أريد أن أحدثك عنه، متى يكون حفل الميلاد هذا؟ هل لى أن أرسل بعض الورود لعمك؟ أتذكر دائمًا إحسانه مع مارجريت ثيسنجر المسكينة. طبعًا لم ينسها أبدًا. لقد تأخرت وأبى فى انتظارك. طابت ليلتك، سأترك لك رسالة.

وانحنى ألبرت وقبل يدها بالطريقة العتيقة. احتفظ بيدها برهة ريثما يستنشق فى تؤدة أريج ملابسها وعبير فرائها، أريج عالم كان ينتمى إليه ذات يوم ووجد نفسه خارج إطاره دون أن يشعر، عالم لا يذكر منه شيئًا الآن إلا حينما يقف فجأة أمام شئ فاتن من بقاياه. تحررت من يده فى رقة وأسرع إلى قبعته وشرع يشيعها إلى الباب ولكنها ردته فى رفق وقد أضاءت وجهها ابتسامة حانية وهى تقول: "كلا، كلا، أبى ينتظرك فى المكتبة، مع السلامة".

كان القاضى همرسلى ينتظر فى الطرقة المفضية إلى الباب يمسك بحزمة مفاتيح وينظر بطرفى عينيه بنفاد صبر، يريد أن يفرغ من مهمته ويعود إلى عزلته. كانت المكتبة تفتح على الصالة فلم يجد بدا من أن يتسمع إلى حوارهما. لم تعجبه طريقة ابنته البريئة فى حديثها مع ذلك الرجل الذى يدعى الشباب وهو فى طور الكهولة، ويعيش عزبًا وكان يجب أن يكون صاحب أسرة وبيت، وفقيرًا وكان يجب أن يكون غنيا.

وبينما كان ألبرت يهبط التل قادمًا من عند القاضى همرسلى وقد

امتلأت حقيبته بالشمبانيا الفاخرة قال في نفسه: إن أكبر عيب في الفقر هو السقوط من حسابات العالم والحيلولة بين المرء وبين الحسان. الله وحده يعلم أنه كان في وسعه الاستغناء عن كل الرجال. أما النساء أمثال مارجوري همرسلي فلا يتحلقن إلا حول الجذوة المتقدة – المال الوفير والنجاح والقصور الفخمة واليخوت الفاخرة والسيارات الفرنسية الفارهة.

وبينما كانت السيارة تمضي بها قالت المسز بارمنتر في نفسها: إنها يجب أن تكثر من زيارة ألبرت وعمه فيما يستقبلها من أيام، وتساءلت: كيف فرطت في صداقة قديمة كل تلك السنين الطوال؟ تذكرت أنها كانت تقضي أسبوعًا في الفينة بعد الفينة عند عمتها في أولغني. كانت تأنس إلى عمتها ولا تستريح إلى أولادها كثيرًا. كانت تجد في حديقة أنجلهارت متنفسا. كانت الحديقة خالية من التجيل إلا القليل الذي علته الأوساخ بسبب الإهمال، ولكن الأرض كانت تغطيها الحصباء وتزدان بسياج من أزهار الليلك البهيج وقت الربيع، وبسياج من شجيرات البباريس الحمراء وقت الخريف وبأفانين الأزهار وأقفاص الطيور والصبية المستلقين هنا وهناك في ملابس التنس يصنعون أكواب العصير قبيل الغداء، أو يحتسون القهوة تحت أشجار الجميز بعيد العشاء. كان أبناء انجلهارت يختلفون عن سائر الأولاد، أشبه بشخصيات الروايات والمسرحيات. كان الأولاد من أقرانها يحتقرون البنت حتى يريدوها، عندئذ يلاحقونها في قسوة ووحشية

مقيتة لا تهدأ. كان أبناء أنجلهارت يحترمونها دون أن يعمدوا للحاق بها، كانوا يعجبون بجمالها دون ابتذال، وكانت تحب هذا الأسلوب.

## VI

وفى أصيل يوم الأول من ديسمبر غادر ألبرت مكتبه فى إدارة الشئون الدينية فى الساعة الرابعة وقد ساوره إحساس كان يحس به عندما كان صبيا فى المدرسة وكان اليوم الدراسى ينتهى عند منتصفه قبيل أعياد الميلاد. كان يفكر فى يوم ميلاد عمه أما يوم ميلاده هو فلم يكن مصدر غبطته. كان يشعر برجفة لا يعرف لها سببًا عندما يتذكر يوم مولده. كان يسير فوق جسر سميثفيلد حين غشت الكون ظلمة داكنة بسبب مرور سحابة ثقيلة غطت قرص الشمس. كان الهواء مثقلا بالبرد. راحت المصابيح على المنحدرات الصخرية الشاهقة على طول جبل واشنجتون ترسل أصابع غليظة من الأنوار المبهرة. فى صباه كانت تلك المنحدرات الشاهقة بأضوائها التى تطاول السماء تذكره بمدينة آسيوية بعيدة لا تفارقها السحب، المدينة المحرمة كما كان يسميها دائمًا. حسنًا، كان ذلك منذ زمن طويل؛ جرت مياه كثيرة تحت هذا الجسر منذ ذلك الحين، دالت ممالك وانهارت إمبراطوريات.

فى ذلك الوقت لم تكن الأحوال قد ساءت. وكان العم الدكتور لم يزل مفعمًا بآمال كبار. الأفضل ألا يفكر فى هذه الأمور كثيرًا. دلف إلى داخل ترام مار بوثبة مفاجئة فأصبح وجهًا لوجه أمام نسوة

طاعنات فى السن يقبضن بأيديهن على سلال السوق، تداعين ليفسحن له مكانًا للجلوس.

وعندما عاد إلى البيت كانت المائدة جاهزة بالفعل يزينها غطاء جميل من الكتان من ميراث الأم كانت تريد أن تهديه لإلزا يوم زفافها. كانت المسز ردر تنشره بعد غسله بعناية فائقة. ازدانت المائدة بكل آنية فضية إلا من الورود التى نسيها ألبرت فعمدت العجوز إلى نبات إبرة الراعى الذى أحضرته معها ليتوسط المائدة. كان العم ألبرت يجلس أمام المدفأة فى سترة التدخين القديمة وقد أخذ الكرى بجفنيه وعلى ركبتيه سِفر لشيلر.

-سأضع أزرار الزينة على قميصك، حان الوقت لارتداء ملابسك يا عمى الدكتور.

سدد الدكتور إلى ابن أخيه نظرة من عينين نصف مفتوحتين وغشيت وجهه ابتسامة ملؤها السخرية وقال:

-أأرتدى بدلة السهرة الآن؟

-طبعًا بدلة السهرة، إلزا ستذهب مع كارل إلى حفلة تنكرية وسيعرجان علينا قبل ذهابهما.

-"ألبرت..." نادى الطبيب وعلى وجهه ابتسامة غامضة وسأل ألبرت: "من أين جئت بهذا النبيذ؟".

-"آه، هل وجدته فى الثلاجة، هذا نبيذ القاضى همرسلى، أصر على أن يرسله إليك مع تمنياته الطيبة".

وعندما نهض العم ألبرت سحب عاتقه لأعلى وقال بشئ يشبه الزهو: لا زلت ألقى الاهتمام من أمثالي على الأقل. ثم ما لبث أن انحدر إلى لغة سوقية فظة حين أردف وهو ينظر إلى ابن أخيه من تحت جفنيه:

- "تالله إن كأسًا من هذه الراح لكفيل بجلائل الأعمال إذا سَرَتْ فى المرىء".

- "ستنال كل ما تريد اليوم، هذا يومك، هل حلقت جيدًا؟ سآخذ (دشا) وأرجو أن أجدك جاهزًا عندما أنتهى من الحمام".

وما مضى نصف الساعة حتى خرج ألبرت مرتديًا ملابسه الرسمية ليجد عمه الدكتور منكبا على القراءة في ديوان شاعره المفضل.

- البنطلون طويل جدا، لماذا لا أرتدى بذلة السهرة وبنطلوني القديم؟ إلزا لن تلاحظ شيئًا.

- بل ستلاحظ، لقد ألفت هذه الملابس. عجِّل يا عمي.

وأذعن الدكتور أنجلهارت، وعندما فرغ من ارتداء ملابسه، والتطلع إلى نفسه في المرآة، رضى عن هيئته كامل الرضى رغم أنه استبدل خلسة بالمنديل الكتان الذى أعطاه له ألبرت منديلاً آخر من القطن. وعندما رجع إلى حجرة السفرة كانت المسز ردر تضع أقداح الراح على المائدة.

أخذ ألبرت مقعده أمام البيانو ليضرب لعمه قطعة موسيقية فيما تبقى من الوقت أمام العشاء. غلبه إحساس بأن الأمر لا يعدو كونه جلبة بدون طائل. ولكن طرقًا خفيفًا على الباب خفت له الآذان. دخلت إلزا وخطيبها الشاب. كانت ترتدى زى البولنديات وكان أبربوك يرتدى تنورة اسكتلندية بهية.

-تهانيَّ لك فى يوم ميلادك أيها السيد الدكتور، لقد أحضرت لك زهورًا.

ودنت منه وانحنت إليه لتستقبل قبلته وهى تضع حزمة من البنفسج فى يده. ونهض الدكتور أنجلهارت وطفق يحدق فى أزهار البنفسج وهو يقول: أظننتنى من أنصار بونابارت؟ انصح أصدقاءك فى روما يا ألبرت أن ينثروا الزهور أمام موسلينى. ثم عمد إلى الفتاة وأمسك بيدها ودار بها دورة كاملة وظل يعلق على نحافة ذراعيها مما كانت تقابله دائمًا بضحكاتها المعدنية.

-ولكنها الموضة يا سيدى الدكتور، النساء يسعين اليوم وراء النحافة قدر استطاعتهن.

-ياه، أتوجد موضة فى هذه الأمور أيضاً؟! الرجل لا يرضيه إلا ملء ذراعيه حتى تخمد نيرانه المتقدة! أليس كذلك يا كارل؟

كان كارل شابا طلق المحيا ناضر الوجه تثير أذناه الانتباه. ما

لبث أن لاذ بالصمت عندما دخلت سيدة بارعة الجمال. أما إلــزا فقــد تراجعت قسمات وجهها وحبست أنفاسها.

دخلت المسز بارمنتر دون أن تطرق الباب تمتلئ يداها بالورود ويتبعها سائقها يحمل صندوقًا كبيرًا. "ضع الصندوق هنا وانتظرنى".

اندفعت داخل الحجرة وعانقت الدكتور أنجلهارت برقة دون أن تنتظر حتى تلقى بالزهور بين يديه وتتحرر من معطفها الفرو. قالــت له:

- أردت أن أهنئك بنفسى. أخبرونى لدى دخولى أنــك تــستقبل الناس. خذ هذه الزهور يا ألبرت من فضلك، أريــد أن أخلــو ساعة بالدكتور أنجلهارت.

ووقف الدكتور أنجلهارت وعلى سحنته وقار طارئ ولم يــزل يقبض على أزهار البنفسج فى يديه وتمتم مع انحناءة مخلــصة وهــو يقول: "لم كل هذا التبجيل والتقدير؟". وردت على الفــور: "لشخــصك المتميز يا سيدى العزيز، لقد كنتِ دائمًا أهم من عرفت من الرجال فى نظرى".

ولكن فرط الفرح لم يجعله ينسى صديقته الصغيرة التى تــسرى عنه أوقات عزلته الطويلة. رآها متوجهة نحو الطرقة فناداهــا بلهجــة آمرة: "إلزا، أين قبلة المساء؟". شدها ناحيته وهو يقدمها إلــى المــسز بارمنتر قائلاً: "هذه إلزا يا مسز بارمنتر، صديقتى الأثيرة. لابــد أنــك رأيت شعرها الجميل قبل أن تقصره". وتورد وجه إلزا خجلاً ونظرت

فى عينى السيدة لترى وقع حديث العجوز من نظراتها. طبع الدكتور قبلة على جبينها وأرسل يده على شعرها القصير وقال بصوت لين: "تسعة عشر عامًا، لو جاءت الأعوام التسعة عشر التالية على هذا النحو من السعادة لما همنا ما بقى من العمر. فليرحمنا الله".

- "شكرًا لك يا عمى الدكتور، طابت ليلتك".

وذهبت إلزا تتعثر فى خجلها واستدار إلى المسز بارمنتر وقال: "هذه البنت الصغيرة هى الوردة التى تزين شتائى، إنها وريثتى، سأترك لها كل ما أملك".

- "اترك لها ما شئت غدا هدية عيد ميلادك إذا سمحت، هذه الشمبانيا لك، أحضرتها لك خصيصًا لهذه المناسبة".

وضحك الدكتور وضحك ابن أخيه وقالا فى صوت واحد: "لكن أباك أعطانا زجاجتين اليوم".

وانتقلت عينا المسز بارمنتر بين ألبرت وعمه وقالت: "أبى؟ حسنًا فعل، هذه تهنئة منه أيضًا، لم يقل لى. كل منا لديه خزانته الخاصة التى يفتحها عندما يريد. لا أظن أنه فتح خزانته منذ أن تعشى معه رئيس المحكمة. الآن مضطرة إلى ترككما. ابتهج طوال الليل، ثلاث زجاجات كفيلة بذلك. قالت السيدة الطيبة لدى دخولى إن العشاء سيوضع بعد نصف ساعة".

فى تلك اللحظة أقبل الرجلان عليها يدعوانها للعشاء: لا تذهبى

من فضلك، من فضلك، ابقى معنا للعشاء! هذا كل ما نطلبه منك. وبدأ ألبرت يتوسل إليها بالإيطالية التى يجهلها عمه: "شكرًا يا ألبرت، ولكن عندى ارتباط على العشاء، كان يجب الآن أن أكون عند نهاية شارع أنجلورث".

- "ولكن هذه مرة فى العمر، من أجله هو على الأقل! أما إذا كان زملاؤك فى انتظارك فنحن لا نجبرك طبعًا".

وحمل عنها معطفها ولكن بعد أن امتقع لونه وبدا التعب على وجهه وهو يحمل المعطف الذى دست فيه ذراعاها وأسبلته على جسدها ولكنها قالت: "لا أستطيع، ولكن لدى رغبة حقيقية! دعنى أكتب رسالة إذا سمحت، سأبعث بهنرى يخبرهم أنى سآتى بعد العشاء".

وضغط ألبرت على يدها بامتنان وصحبها إلى مكتبته.

- آه يا ألبرت! المنضدة الإيطالية نفسها، وهذه الأشياء فوقها، الأشياء نفسها التى كانت لديك فى حجرتك فى فيلا سيبيون! لقد كنت تكتب لى الرسائل على هذه المنضدة. كانت طريقتك بارعة فى كسب قلوب الفتيات الصغيرات. لو كان لى ابنة اليوم لطلبت منك أن ترسل لها الرسائل نفسها مرة أخرى.

وعندما فرغت من رسالتها أقبل العم ألبرت بخطواته المتثاقلة وقد أحكم رباط عنقه على قميصه تصحبه موجة من عرف الكولونيا. ذهب ألبرت لإشعال الشموع وإحضار براد الشمبانيا فى حين جلست

المسز بارمنتر إلى الدكتور وقبلت منه سيجارة وأنشأت تحكى له بشئ من البساطة والتلقائية ما كان من أمر مارجريت ثيسنجر. وكان ذلك أكثر ما يجلب السعادة إلى قلب العجوز فى يوم ميلاده لاسيما حين يصدر عن المسز بارمنتر وليس عن ألبرت الذى مل تلك القصة الحزينة وعمد آخر الأمر إلى غناء الأغانى التى كانت تغنيها مارجريت.

قالت المسز بارمنتر على مائدة العشاء:

- "أتعلم يا ألبرت أن هذا هو الشئ الوحيد الذى أعرفه من عالم ما قبل الحرب. لقد عشنا فترة فى عزلة عن العالم، العقد الأخير من القرن الماضى والعقد الأول من هذا القرن. أنا لا أومن بالطائرات أو موسيقى الجاز أو الفن التكعيبى. أبى فى سن الدكتور أنجلهارت تقريبًا. لا نشترى الأشياء الجديدة ولم نحس بالعزلة رغم ذلك. كيف ترون الأمور الآن؟"

ابتسم ألبرت بشئ من الأسى وقال:

- "أعتقد أنه لا يوجد من الشباب من يدهشنا بالجديد".

عندئذ تمتم الدكتور: "إلزا، ولكنها لم تزل طفلة".

وقالت المسز بارمنتر:

- "أنا حزينة من أجل الشباب اليوم، تبدو القسوة فى تصرفاتهم والغصة فى قلوبهم. لم يترك لهم شئ يتميز بالروعة، كلها

أشياء سقيمة، تلك الحرب دمرت كل شئ. الفتاة لا تجـد لهـا مكانًا تلجأ إليه مثل منزلكم القديم الذى كان يمتلـئ بـصناديق الملابس الكتانية المدخرة، شئ يعتز به المرء ويفخر به. كان منزلكم رائعًا، يا لها من موسيقى كنا نسمعها. هل تذكر عندما كنت تصحبنى إلى سماع جوزفى وهو يعزف مقطوعة براهمة الثانية؟ مع جيركى؟ كانت آخر مرة أسمعه فيها. ما شأنه مـع الدهر الآن؟ تلاشى، أليس كذلك؟"

وتنهد ألبرت وهز رأسه وقد ألقت به الشمبانيا فـى بحـر مـن الحزن الرومانسى البهيج:

-"لست أدرى، لقد مكثت طويلاً فى روما لكى أعرف بنفـسى. كنت أتلقى دروسًا منه قبل سفرى إلى الخارج؛ لم ألحظ تغييرا على حياته، رغم أنه كان يقل من حفلاته الموسيقية وعنـدما عدت كتبت إليه رسالة فور وصولى إلى نيويـورك – كـان يعيش على مقربة من هدسون فى ذلك الوقت. وتلقيت ردا من مدبرة منزله تقول إنه لم يعد يعطى دروسًا، كان مريـضًا ولا يريد أن يرى أحدًا. وذهبت إلى بيته فى الحال. ولم يؤذن لـى بالدخول، وأخبرونى أن أنتظر فى الحديقة وانتظرت طـويلاً. وفى النهاية خرج فى ملابسه البيضاء كالعادة ويرتدى قبعـة بناما ويستند إلى عكاز صغير. صافحنى وسألنى عن المـسز ستريتز ولكنه كان رجلا مختلفًا. هذا كل مـا أعـرف. لقـد

انتهى، اضمحل. كنت أتحدث إلى خياله.

- "المخدرات إذن!" تمتم الدكتور بجانب من فيه.

- "هراء!". وهز ألبرت منكبيه بشئ من السخرية وقال: "حتى لو كانت المخدرات فقد كانت شيئًا ثانويا فى حياته، نتيجة وليس سببا. إنه الشلل الذى بدأ يزحف إلى مخه".

ومالت المسز بارمنتر وهى تقول :

- "ألا يزال يحتفظ ببهائه القديم؟ لقد كانت رأسه أجمل رأس فى العالم. هل تذكر جبهته؟ هل تسرب إليه المشيب؟ كان شعره، كما أتذكر، كستنائى اللون ضاربًا إلى الحمرة".

- "قليل من المشيب، ولكن وجهه خلا من التعبير وخلت عيناه من البريق، وأصبح متثاقلا فى مشيه".

- "هل كان ينوى إعطاءك دروسًا؟".

- "لا، قال: إنه لم يعد يعطى دروسًا. قال: إنه يأسف لذلك؛ لأنه لم يعد يرغب فى رؤية الناس، كان يوقع النغمات بعكازه على الحصى مقطب الوجه ويقول: إنه لم يعد يرغب فى رؤية الناس، وقال: إنه كره رؤية الوجوه الآدمية وكره سماع الأصوات الآدمية! قال: أنا آسف ولكن هذه هى الحقيقة. كنت أنظر إلى يده اليسرى التى وضعها على ركبته دون حراك. تعجبت كيف واتتنى القدرة على النهوض والانصراف. لقد

نهض وصافحنى وفهمت أنه يجب أن أنصرف. وفى يأس تام سألته: هل تعنى الموسيقى شيئًا الآن له؟ قال وعلـــى وجهـــه ابتسامة باهتة، شبح ابتسامته القديمة: نعـــم – بعـــض منهـــا. وغاب داخل بيته، وكانت هذه آخر كلمات سمعتها منه".

-"آه يا ربى، ولديه كل ما هو جميل، واسم ملاك! ولكنا نزيـــد من حزن الدكتور. افتح زجاجة أخرى يا ألبرت. لقد فعل أبى خيرًا. ولكن لم نشرب نخبًا واحدًا. لمـــاذا لا نـــشرب نخـــب بعضنا بعضاً؟ نخب شئ نهتم به ونجله؟" وحـــدجت الـــدكتور أنجلهارت بنظرة بينما كان يرفع باقة البنفسج ليـــشمها بوجـــه ذاهل.

-"فلنشرب نخب الدكتور أنجلهارت".

وضع الدكتور زهوره، رفع كأسه برفق وأمسك به أمام عينيـــه مباشرة، كانت حركة يديه ناعمة رشيقة واثقة كشأنه دائمًـــا. وتطلـــق وجهه بالبهجة وهى تنظر إليه. وقال فى تؤدة:

-"سأشرب نخب لينور المنتظر". وقال ألبرت:

-"وأنا سأشرب نخب شبابى، شبابى الرائع!"

اندفعت العبرات إلى عينى المسز بارمنتر وهى تقول فى نفسها: آه، هذا ما يؤدى إليه حب الناس، نشرب نخب سخافاتهم وحمقهم. ثـــم قالت بصوت عال:

-"آه، وأنا سأشرب نخب صداقتنا العائدة وعشرات المناسبات التى سنتعشى فيها معًا. أحبكما أنتما الاثنين أكثر من كل من عرفت.

وعندما عاد ألبرت بعدما شيع المسز بارمنتر إلى سيارتها وجد عمه واقفًا أمام الموقد يستند بمرفقه إلى حافته ويلف سيجارته ويستغرق فى التفكير. قال فى نبرة حميمة:

-"ألبرت، نبيذ جيد، وموسيقى جيدة، وامرأة جميلة – هذا ما يستحق العيش من أجله!".

وبدأ ألبرت يضحك. لم يكن العجوز يمزح طوال الوقت.

-"لماذا يا عمي أنت ومارتن لوثر...".

ورفع الدكتور يده يأمره بالتوقف. لقد تورد وجهه على نحو غامض. لم يكن يدرك أنه كان يريد الاقتباس. ورد بحدة: "مارتن لوثر كان سوقيا من الدرجة الأولى، غبى!". وتوقف برهة ريثما يشعل سيجارته وأردف: "لا تخدعن نفسك، مثلها يعرف دائمًا متى ينجح الرجل مع المرأة!"

وصب ألبرت الكأس الأخير وشرع فى احتسائه وهو يقول فى نبرة منتقدة: "حسنًا، لقد أحرزت تقدمًا مؤكدًا الليلة، فأنا أرى أن مارجورى كانت معجبة بك، إنها قادمة لاصطحابك فى سيارتها غدًا، استعد".

وأرسل الدكتور يده المرتجفة يمسح بها على شعره الكثيف الذى قصره على الطريقة الفرنسية. وهو يتمتم ضاحكًا: "حتى في أيامنا الأخيرة!".

## سرقة (١٩٣٠)

**كاترين آن بورتر**

كانت محفظتها في يدها عندما دخلت. وقفت وسط الحجرة تمسك بروب الحمام حول خصرها وتناولت منشفة مبتلة. راجعت الماضي القريب وتذكرت كل شيء بوضوح تام. نعم لقد فتحت المحفظة وبسطتها فوق الطاولة بعد أن جففتها بمنديلها.

كانت قد قررت أن تستخدم المصعد، وعلى نحو تلقائي نظرت في كيس نقودها لتتأكد من أن لديها نقودًا تكفي لدفع الأجرة، وكانت سعيدة عندما رأت أربعين سنتًا في المكان المخصص للعملات المعدنية. همت بالدفع، ولكن من عادة كاميلو عندما يراها على الدرج أن يسقط السنتات الخمس في فوهة الآلة قبل أن يدفع الباب الدوار قليلاً ويعينها على الدخول من خلاله مع انحناءة خفيفة دليلاً على الاحترام.

كان كاميلو مجاملاً بطريقته الخاصة. سارت معه إلى المحطة تحت المطر المنهمر. كانت تعلم أنه فقير مثلها. وعندما أصر على أن يستقل سيارة أجرة كانت حازمة معه: "أنت تعلم أن ذلك لن يفي

بالغرض". كان يرتدى قبعة جديدة بحاجب جميل ذى لون أسمر شاحب، عملي على حد قوله. كان يرتديها لأول مرة بيد أن المطر أفسدها. قالت في نفسها: ولكن هذا شيء يدعو للأسف، من أين له بأخرى؟ وكانت تقارنها بقبعات إيدى التى تبدو قديمة دائمًا وكأنها تركت عمدًا تحت رحمة المطر ولكنها كانت تلائم رأس إيدى بالصدفة. ولكن شخصية كاميلو تختلف غاية الاختلاف. فإذا ارتدى قبعة بالية رثة، تبدو بالية رثة على رأسه ويفقد هو بالإضافة إلى ذلك جزءًا من رونقه. لو لم تكن تخشى أن يسيء كاميلو الفهم لقالت له وهما يغادران منزل ثورا: اذهب إلى البيت، ففي وسعي أن أذهب إلى المحطة بنفسي. عاجلها بقوله:

- "كتب علينا أن يسقط المطر الليلة على كلينا".

ترنحت قليلاً قبل أن ترتقى درج الرصيف – كانت بطناهما قد ملئتا بمحشيات ثورا – قالت: "على الأقل يا كاميلو اعمل فى معروفًا ولا تصعد هذا الدرج دفعة واحدة وأنت فى هذه الحالة، فالأمر بالنسبة لك لا يعدو كونه سقطة واحدة وتنكسر رقبتك".

صدرت من كاميلو الإسبانى ثلاث انحناءات سريعة دون أن يتكلم. أخذ يثب فى الظلام الماطر ووقفت تراقبه. كان شابا رشيق الحركات، سوف يستيقظ فى صباح الغد ويمعن النظر فى قبعته التى أفسدها المطر وخفيه المشبعين بالماء ويجد لهما صلة بفقره. وبينما كانت تراقبه وجدته يقف فى الركن البعيد ويخلع قبعته ويخفيها تحت

معطفه. أحست أنها خانته عندما تجسست عليه بالنظر، فمن شـأنه أن يتقد وجهه خجلا إذا عرف أنها تشك في أنه يحاول أن ينقذ قبعته.

صك أذنيها صوت روجر أقوى من وقع المطر المنهمر علـى إفريز الدرج، كان يريد أن يعرف ماذا كانت تفعل فـي هـذا المطـر المنهمر في ذلك الوقت، وهل كانت تظن نفسها بطـة؟ كـان وجهـه الهادئ الذي تبدو عليه علامات الأسى يغرق في المطر. ضرب معطفه عند الصدر ضربة خفيفة ليتخلص من نتوء مائي على معطفـه الـذي أحكم تزريره وقال: "تعالى نأخذ سيارة أجرة".

أسندت ظهرها على ذراع روجر الذي أحاط منكبيهـا، تبـادلا نظرة تشي بعاطفة حميمة ثم نظر من النافذة إلى المطر الذي غير لون وشكل كل شئ. كان التاكسي يروغ بين الأعمـدة المجـاورة للـسكة الحديد، ينزلق بخفة عند المطبات. قالت: "كلما أجتـاز مطبـا أحـس براحة، لابد أنني سكرى فعلاً". وقال روجر: "لابد أنك كذلك".

انتظرا عند الإشارة عند تقـاطع شـارع الأربعـين بـالطريق السادس. رأيا ثلاثة صبية يتمشون أمام مقدمة سـيارة الأجـرة أشـبه بخيالات بهيجة تحت أضواء مصابيح كروية الشكل، بـالغي النحافـة يرتدون ملابس قذرة قصت على عجل وأربطة عنق زاهية الألـوان. كانوا فاقدي الاتزان ولبثوا لحظات يتمايلون أمام الـسيارة ودار بيـنهم حوار. مالوا برءوسهم كلٍ في اتجاه الآخر كأنهم يشرعون في الغنـاء. قال الأول:

- "حين أتزوج لن يكون ذلك لمجرد الزواج، وإنما أتزوج للحب، أترى؟"

قال الثانى:

- "قل هذا الكلام لها، لم لا تذهب إليها وتقول كلامك هذا لها؟"

أما الثالث فقد صدرت منه صرخة أشبه بالنعيب وقال:

- "هذا الضايع ما معه؟ ماذا معه؟"

ورد الأول:

- "آه أغلق فمك، معى كثير".

ثم صدرت منهم جميعًا صرخة حادة وراحوا يتدافعون عبر الشارع وأخذ اثنان منهم يصفعان الثالث على قفاه ويدفعانه بقوة. علق روجر بقوله: مخبولون، حمقى بلا شك.

فتاتان كانتا تعدوان برشاقة، ترتديان سترتين قصيرتين شفافتين من قماش ضد المطر، إحداهما خضراء والأخرى حمراء، كانتا تثنيان رأسيهما تجنبا للمطر المنهمر. كانت إحداهما تقول للأخرى: نعم أعرف الكثير عن الرجل، ولكن ماذا عنى؟ أنت دائمًا تلتمسين له الأعذار. ثم أسرعتا الخطى بسيقان بسيقان أشبه بسيقان البجع يلتمع بياضها مع الخطو.

تراجع التاكسى للخلف ووثب للأمام، وبعد هنيهة قال روجر:

"جاءنى خطاب من ستيلا اليوم وسوف تعود فى السادس والعشرين من هذا الشهر، ولذا أعتقد أنها قررت الاستقرار. عندئـذ قالـت: جـاءنى خطاب أنا أيضًا، أظن أن الوقت حان لكى تحزما أمركما."

عندما توقف التاكسى فى ركن شارع ٥٣ قال روجر: "سـيكفى المبلغ إذا أضفت عشرة سنتات من عندك". فتحـت حافظـة نقودهـا وأعطته السنتات العشرة. قال لها: "جميلة هذه المحفظة."

- "إنها هدية عيد ميلادى وهى عزيزة علىَّ. كيف يسير عرضك؟"
- "أوه، لا زال مستمرا على كل حال. لا أذهب إلى هناك، لم يشتر أحد شيئًا حتى الآن. لقد شبعت من الجدال."
- "ذلك يتوقف على الصمود، أليس كذلك؟"
- "الصمود هو الجزء الصعب."
- "تصبح على خير يا روجر."
- "تصبحين على خير، ضعى نفسك فى طست ماء ساخن وعليـك بالأسبرين، يبدو أنك على وشك الإصابة بالبرد."
- "سأفعل."

ارتقت الدرج وحافظة نقودها تحت إبطها، وعنـد أول بـسطة سمع بل وقع خطواتها، ومد رأسه بشعره المائل وعينيـه الحمـراوين وقال: ناشدتك الله تعالى نشرب شيئًا، لدى أخبار سيئة، وأنت مـصدر

طمأنينة لا يخيب أملاً. شربا كأسين وحكى لها كيف رفض المخرج مسرحيتين له بعد أن اختار الممثلين مرتين وقام بثلاث بروفات، "قلت له: أنا لا أدعى أنها رائعة فنية! قلت: إنها عرض جيد وحسب. وقال لى: إنها لا تنفع (ببصلة)، هل تفهم؟ إنها فى حاجة إلى طبيب. ولهذا السبب يستولى على الإحباط، غاية الإحباط." كانت الدموع تخنقه وهو يقول: لقد كنت أبكى وأنا ثمل." ثم سألها إذا ما كانت تعلم أن زوجته تدمره بتبذيرها: "إننى أرسل لها عشرة دولارات كل أسبوع برغم حياتى التعيسة هذه، وهذا ليس من حقها. إنها تهددنى بالسجن إذا لم أفعل، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. دعيها تحاول بعد الطريقة التى عاملتنى بها! ليس لها الحق فى النفقة، وهى تعرف ذلك. ولكنى أرسل لها النقود لأنى لا أطيق أن أرى إنسانا يعانى. وأنا أعمل الآن بشكل ما عازفًا على البيانو والفيكترولا، كليهما "... قالت له: "جميل هذا أحسن من لا شئ". خصها بل بنظرة طويلة ثم قال وهو يتمخط: "حصلت عليها عند ريسى بخمسة وتسعين دولارًا... قال لى ريسى: إن هذه الوظيفة كانت لمارى دريسلر وكانت تأخذ ألفا وخمسمائة دولار، ولكن المكان محروق الآن، هل تفهم هذا؟"

تناولت كأسًا آخرى وعادت إلى شقتها فى الطابق العلوى، وهناك، تذكرت الآن بوضوح. أخرجت الخطاب من محفظتها قبل أن تنشرها فى الهواء لتجف.

جلست وقرأت الخطاب مرة أخرى. كانت هناك عبارات تصر

على أن تقرأها أكثر من مرة. عبارات تدب فيها حياة بمعزل عن سائر أخواتها حتى إنها عندما كانت تعمد لقراءة العبارات التى قبلها أو بعدها كانت تتحرك مع حركة عينيها ولم تستطع تفاديها... "أفكر فيك أكثر مما أقصد أن... نعم، إننى أتحدث عنك... لماذا تسعين بشغف لتدمير... حتى لو استطعت أن أراك الآن فلن أراك... لا يستحق كل هذا... المقيت...". مزقت الخطاب بتؤدة إلى شرائح صغيرة، وأضرمت فيها النار فى موقد الفحم أمامها.

وفى أول ساعات الصباح كانت فى طست عندما طرقت الباب زوجة البواب ودخلت وقالت بصوت عالٍ، إنها كانت تريد فحص مشعاع التدفئة قبل حلول الشتاء. وبعد أن جالت فى الحجرة لدقائق معدودة خرجت زوجة البواب وهى موصدة الباب بعنف.

خرجت من الحمام لتأخذ سيجارة من علبة سجائرها فى المحفظة. ولكن المحفظة كانت قد اختفت. ارتدت ملابسها وأعدت فنجانًا من القهوة وجلست تحتسيه بجوار النافذة. قطعًا أخذت زوجة البواب المحفظة، وطبعًا سيكون من الصعب استردادها منها دون الكثير من المشادات المضحكة. فلتذهب فى داهية هى والمحفظة. وما عقدت العزم على نسيان الأمر حتى باغتها فى الوقت نفسه غضب شديد جعل دمها يغلى. وضعت الفنجان فى هدوء وسط المنضدة ونزلت الدرج فى قلق واضح على وجهها. ثلاث بسطات طويلة وبعدها صالة قصيرة وبسطة أخرى قصيرة تنحدر إلى البدروم حيث

كانت زوجة البواب تنظف الفرن. كانت آثار الفحم على وجهها. قالت لها فى عصبية:

- "من فضلك محفظتى، ليس بها أية نقود. لقد كانت هدية ولا أريد أن أفقدها."

استدارت زوجة البواب دون أن تقف وحدقت فيها بعينين مضطربتين حادتين. داهمهما ضوء أحمر انعكس من الفرن.

- "ماذا تقصدين ب هاتى محفظتى؟"

- "حافظة نقودى الذهبية اللون التى أخذتها من فوق المنضدة عندما دخلت حجرتى. يجب أن أستردها."

قالت زوجة البواب:

- "أحلف بالله ما وقعت عيناى على محفظتك أبدًا، وهذا يمين أحاسب عليه أمام الله."

قالت لها فى مرارة بدت فى صوتها قبل أن تغادر المكان:

- "إذن احتفظى بها.. احتفظى بها إذا كنت فى حاجة ماسة إليها."

تذكرت أنها لم تغلق بابًا فى حياتها بسبب مبدأ آمنت به يجعلها لا ترى راحة فى امتلاك الأشياء، وكذلك تباهيها المناقض للواقع أمام تحذيرات أصدقائها بأنها لم تفقد، على سبيل المثال، قرشًا واحدًا فى حياتها بسبب سرقة. رتبت حركات حياتها دون اعتبار لإرادتها فى كل الأمور.

في تلك اللحظة أحست أنها سُلبت عددًا هائلاً من الأشياء الثمينة، مادية ومعنوية: أشياء فقدتها أو حطمتها بسبب نقيصة فيها كامنة، أشياء نسيتها في منازل كانت تنتقل منها إلى غيرها، كتب استعيرت منها ولم ترد، رحلات خططت لها ولم تقم بها، كلمات انتظرت أن تسمعها ولم تسمعها، وكلمات أعدتها للرد على إهانات استبدلت بها خيارات مرة وبدائل لا تحتمل كان الصمت أفضل منها، ورغم ذلك كان لا مفر منها. المعاناة الطويلة الصبور لصداقات تحتضر، الموت السريع الغامض الذي لا يفسر للحب. كل ما كانت تملكه في الماضي، وكل ما افتقدته، فقدته كله دفعة واحدة، وفقدته الآن مرة أخرى في غمرة التذكر.

كانت زوجة البواب تتبعها على الدرج والمحفظة في يدها وعيناها تتقدان بحمرة عميقة. دفعت إليها بالمحفظة وهي على بعد نصف دستة من درجات السلم وقالت:

- "لا تخبري أحدًا بما حدث. لابد أني كنت مخبولة. أحيانًا أجن في رأسي، أقسم لك على ذلك، اسألي ابني."

تناولت المحفظة بعد تردد واستمرت زوجة البواب تقول:

- "لي ابنة أخ في السابعة عشرة، فتاة جميلة كنت أظن أنني سوف أهديها لها. إنها في حاجة إلى محفظة جميلة. لابد أنني كنت مخبولة، كنت أظن أنك لن تأبهي بها، إنك تتركين الأشياء هنا وهناك ولا يبدو أنك تهتمين بها."

- "لقد افتقدت هذه لأنها كانت هدية لى من شخص..."

- "لقد كان سيهديك غيرها إذا فقدت هذه. أما ابنة أخى فتحتاج إلى مثل هذه الأشياء الظريفة. علينا أن نعطى الشباب فرصته. هناك من يضع عينه عليها من الشباب، ربما يريدون الزواج منها. هى فى حاجة ماسة لهذه الأشياء الجميلة الآن. أنت امرأة ناضجة وقد أخذت فرصتك وعليك أن تعى ذلك!"

مدت يدها بالمحفظة إلى زوجة البواب وقالت:

- "أنت لا تعرفين عم تتحدثين، ها هى المحفظة خذيها. لقد غيرت رأيى. لا أريدها حقيقة."

عندئذ نظرت إليها زوجة البواب بحنق وقالت:

- "لا أريدها الآن، ابنة أخى جميلة وليست فى حاجة لتؤكد ذلك. هى شابة وجميلة مهما كانت الظروف. أظن أنك أنت التى فى حاجة إليها أكثر منها!" ثم قالت وهى تنصرف:

- "أنت التى سرقتها منها الآن!".

وضعت المحفظة على المنضدة وجلست ممسكة بكوب القهوة البارد فى يد وهى تقول لنفسها:

- "لا ينبغى أن أخشى أى لص غير نفسى. التى قد لا تترك لى شيئًا".

## ذلك الغروب لشمس المساء

## (١٩٣١)

وليام فوكنر

I

يوم الاثنين لا يختلف الآن عن سائر أيام الأسبوع فـــي مدينـــة جفرسون. فالشوارع الآن مرصوفة، وشركات الهاتف والكهرباء تجـد فى قطع أشجار الظل كل يوم - بلوط المـــاء والجميـز والخرنـوب والدردار - لتفسح الطريق لأعمدة من حديد تحمل عناقيد من المصابيح المنتفخة والباهتة والبيضاء والضعيفة. ولدينا مغسلة ملابس فى المدينة تطلق جولاتها صباح الاثنين، تجمع حزم الملابس فى عربات بيـضاء لامعة صنعت خصيصًا لهذا الغرض. ملابس الأسبوع كلــه المتـسخة تمر الآن كالشبح خلف أبواق النفير الكهربية سريعة الصياح، وصرير احتكاك المطاط بالإسفلت كصوت تمزيق الحريـر، حتـى الزنجيـات اللاتى كن يجمعن ملابس البيض جريًا على عادتهن القديمـة، رحـن يأخذن تلك الملابس ويسلمنها لتلك العربات.

ولكن قبل خمسة عشر عامًا كانت الشوارع هادئة يعلوها التراب

والظل، تمتلئ بالزنجيات اللاتى استقرت صرر الملابس فوق رءوسهن المعممة فى اتزان غريب. صرر شد بعضها إلى بعض بملاءات فبدت أشبه ببالات قطن يحملنها هكذا دون أن تلمسها أيديهن خلال المسافة بين مطابخ بيوت البيض وأحواض الغسيل السوداء عند مداخل الأكواخ فى غور الزنوج.

كانت نانسى تضع صرتها على رأسها وتضع على الصرة بعد ذلك قبعة البحار التى كانت ترتديها صيفاً وشتاء. كانت طويلة القامة ذات وجه عنيف حزين وخدين غائرين مما جعل أسنانها تتوارى قليلاً. كنا أحياناً نسير معها جزءاً من الطريق عبر الزقاق والعشب لنراقب الصرة المتزنة على رأسها والقبعة التى لا تهتز ولا تترنح حتى عندما كانت تنزل لعبور المصرف ثم تشرع فى الصعود من جديد وتنحنى كى تعبر السور. كانت تنزل على يديها وركبتيها وتزحف لتعبر الحفر، ورأسها مع ذلك ثابت تقوم عليه الصرة مثل صخرة أو بالونة، ثم تنهض على قدميها وتواصل السير.

أحياناً كان أزواج هؤلاء النسوة يتسلمون الملابس المتسخة بأنفسهم ويوزعونها بعد غسلها، ولكن جوبا لم يفعل ذلك بالنيابة عن نانسى حتى قبل أن يخبره أبى بأن يبقى بعيداً عن منزلنا، وحتى عندما كانت ديلسى مريضة وكانت نانسى هى التى تأتى وتطبخ لنا.

وعندما تكون نانسى فى بيتها كنا نضطر أحياناً إلى النزول عبر الزقاق إلى بيت نانسى ونخبرها بأن تأتى لتناول الإفطار. كنا نقف عند

المصرف لأن أبى نصحنا بألا نتحرش بجوبا، كان زنجيا قصير القامة في وجهه ندوب، كنا نلقى بالأحجار على بيت نانسي حتى تقترب من الباب دون شيء على رأسها وتقول:

- ماذا تريدون من اقتحام بيتي؟ ماذا تريدون أيها الشياطين الصغيرة؟

قالت لها كادى:

- يقول لك أبى أن تأتى لتناول الإفطار، يقول لك أبى إن الإفطار انتهى من نصف ساعة الآن، ويجب أن تأتى الآن.

قالت نانسى:

- لا أفكر فى أى إفطار، دعونى أنام.

قال لها جاسون:

- أراهن على أنك سكرى الآن. هل أنت سكرى يا نانسى؟

قالت نانسى:

- من قال ذلك؟ لابد أن آخذ كفايتى من النوم. لا أنوى الإفطار.

وبعد لحظات توقفنا عن ضرب البيت بالطوب وقفلنا راجعين إلى منزلنا، وعندما جاءت نانسى آخر الأمر كان الوقت متأخرًا بالنسبة لى للذهاب إلى المدرسة. ولذا كنا نعتقد أنه الويسكى، حتى كان يوم قبضوا عليها واقتادوها إلى السجن، ورآها السيد ستوفال وكان صرافا

في بنك، وشماسًا في الكنيسة المعمدانية، وما رأته نانسي حتى أنشأت تقول:

- متى تدفع لي حقي أيها الرجل الأبيض؟ ثلاث مرات لم تدفع لي شيئًا...؟

عندئذ دفعها السيد ستوفال فوقعت على الأرض، ولكنها ظلت تقول له: "متى تدفع لي حقي أيها الرجل الأبيض؟ ثلاث نوبات مضت دون أن "... حتى فاجأها السيد ستوفال بركلة على فمها بعقب قدمه وحال مدير الشرطة بينهما، ونانسي مع ذلك تضحك وهي راقدة في الشارع وتبصق الدماء والأسنان ولكنها استمرت تقول: "ثلاث نوبات مضت دون أن يدفع لي سنتًا واحدًا".

هكذا عرفنا كيف فقدت نانسي أسنانها. تحدث الناس طوال ذلك اليوم عن نانسي والسيد ستوفال. أما الذين مروا بالسجن في تلك الليلة فقد سمعوا نانسي تغني وتولول طوال الليل. رأوها تمسك قضبان نوافذ السجن بكلتا يديها. وكثيرون منهم توقفوا عند السور ينصتون إليها وإلى السجان وهو يحاول إسكاتها دون جدوى. لم تسكت حتى طلوع الفجر عندما سمع السجان صوت ارتطام وصرير احتكاك في الطابق الثاني. وصعد إلى هناك ووجد نانسي معلقة من خصاص النافذة. قال: إنه الكوكايين وليس الويسكي؛ لأن الزنجي لا يقدم على الانتحار إلا إذا كان جسمه مليئًا بالكوكايين. ولأن الزنجي الذي يمتلئ جسمه بالكوكايين لا يصبح زنجيا بعد ذلك. حررها السجان من مشنقتها

وأعادها إلى وعيها، ثم راح يعمل فيها ضربًا ولكمًا وجلـدًا بالـسياط. كانت تريد شنق نفسها بردائها. ربطته بطريقة صحيحة ولكـن عنـدما قبضوا عليها لم تكن ترتدى غير هذا الرداء، فلم يكن معها شيء لتوثق به يديها اللتين لم تطاوعاها على ترك إفريز النافـذة. سـمع الـسجان الضوضاء وهرع ناحيتها ووجد نانسى معلقة من النافذة، عارية تمامًا.

عندما كانت دلسى مريضة فى كوخها ونانسى هى التى تطـبخ لنا، كنا نرى مريلتها منتفخة. كان ذلك قبل أن يخبر أبى جوبا أن يبتعد عن بيتنا. كان جوبا فى المطبخ يجلس أمام الموقد بندبة الموسى علـى وجهه الأسود مثل خيط متسخ. قال: إن نانسى تخفـى تحـت بطنهـا بطيخة وكان الوقت شتاء.

قالت لها كادى:

- من أين جئت بالبطيخة فى الشتاء؟

قال جوبا:

- لم أفعلها، لست أنا الذى منحتها البطيخة. ولكن فـى وسـعى أن أقطعها وأعيدها كما كانت.

قالت له نانسى:

- ما الذى يجعلك تتحدث بهذا الكلام أمام الأطفال؟ ولماذا لا تـذهب لعملك؟ لقد فعلت ما فعلت. أم هل تريد أن يأتى الـسيد جاسـون ويراك تتجول فى مطبخه وتتحدث بهذا الكلام أمام الأطفال؟

قالت كادى:

- أى كلام؟

قال جوبا:

- لا.. أنا لا أتسكع فى مطابخ البيض. البيض هم الذين يتسكعون فى مطبخي، فى وسع الأبيض أن يأتى إلى منزلى ولا أستطيع أن أمنعه. عندما يأتى إلى منزلى أصبح بدون منزل. لا أمنعه ولكنه لا يستطيع طردى من منزلى أيضًا. لا يستطيع أن يفعل ذلك.

كانت دلسى لم تزل مريضة فى كوخها. أخبر أبى جوبا أن يبتعد عن منزلنا. كانت دلسى لم تزل مريضة منذ فترة طويلة. كنا فى المكتبة بعد العشاء. قالت أمى:

- ألم تنته نانسى؟ لقد أخذت وقتًا كافيًا فى غسيل الأطباق.

قال أبى:

- ليذهب كوينتن ويراها. اذهب يا كوينتن لتعرف ما إذا كانت نانسى قد انتهت، أخبرها أنها يمكن أن تذهب إلى البيت.

ذهبت إلى المطبخ. كانت نانسى قد انتهت من غسل الأطباق وإعادتها إلى مكانها وكانت المدفأة مطفأة وكانت نانسى تجلس على مقعد قريبًا من الموقد البارد. نظرت إلىَّ. قلت لها:

- أمى تريد أن تعرف هل انتهيت من الأطباق؟

قالت نانسى وهى تنظر إلىَّ:

- أجل، انتهيت.

قلت لها:

- ما هذا؟ ما هذا؟

قالت:

- لستُ سوى زنجية. هذا ليس خطئى.

نظرت إلى، وهى تجلس على المقعد بجوار الموقد الخامد وقبعة البحار على رأسها. عدت إلى المكتبة. أصبح الموقد خامدًا، والمطبخ خاليًا من الدفء والبهجة، والأطباق نظيفة مرتبة، ولا أحد يريد أن يأكل تلك الساعة.

- هل انتهت؟

- نعم.

- وماذا تفعل الآن؟

- لا شئ. لقد انتهت من كل شئ.

قال الأب:

- سأذهب وأرى.

قالت كادى:

- ربما تنتظر جوبا ليأتى ويأخذها إلى البيت.

قلت:

- جوبا ذهب.. سافر.

كانت نانسى قد أخبرتنا بأنها ذهبت ذات صباح إلى البيت ولم تجد جوبا فى البيت.

قالت نانسى:

- لقد تركنى. ذهب إلى ممفيس ليراوغ شرطة المدينة فترة من الزمن على ما أظن.

قال أبى:

- الأحسن أنها تخلصت منه. آمل أن يبقى هناك على الدوام.

قال جاسون:

- نانسى تخشى الظلام.

قالت كادى:

- وأنت أيضًا تخشى الظلام.

قال جاسون:

- أنا لا أخشى الظلام.

قالت كادى:

- بل أنت مثل قطة مفزوعة.

قال أبى:

- أنا ذاهب مع نانسى إلى الزقاق.. إنها تقول إن جوبا عاد.

قالت أمى:

- هل رأته فعلاً؟

- لا.. اتصل بها أحد الزنوج وأخبرها بأنه عاد إلى المدينـــة. لـــن أغيب طويلاً.

قالت أمى:

- ستتركنى وحدى لتوصل نانسى إلى منزلها؟ سلامتها أغلى عندك من سلامتى؟

- لن أغيب طويلاً.

- أتترك هؤلاء الأطفال دون حماية لتدور مع الزنجى الهائم؟

قالت كادى:

- أنا ذاهبة أيضًا معه؟ هل أذهب معك يا أبى؟

قال أبى:

- ماذا سيفعل مع رجال البوليس إذا صادفه سوء الحظ وقابلهم؟

قال جاسون:

- أريد أن أذهب معك يا أبى.

قالت الأم:

- جاسون!

كانت تتحدث إلى أبى. كنت تعرف ذلك من نبرة صوتها. وكأنها كانت تعتقد أن أبى يفكر طوال الوقت فى عمل الأشياء التى لا تحبهـا. جلست في هدوء فأنا وأبى نعرف أن أمى تريد أن أبقى معها. ولذا فإن أبى حتى لم ينظر إلى. كنت الأكبر سنا. كنت فى التاسعة وكادى فـى السابعة وجاسون فى الخامسة.

قال أبى:

- أبدًا. لن نبقى طويلاً.

كانت نانسى ترتدى قبعتها. وصلنا إلى الزقاق. قالت نانسى:

- جوبا كان دائمًا طيبًا معى. عندما يكون معه دولاران كان يعطينى أحدهما.

مشينا فى الزقاق. قالت نانسى:

- عندما أجتاز الزقاق سأكون على ما يرام.

كان الزقاق مظلما دائمًا. قالت كادى:

- هذا هو المكان الذى يخشى جاسون ظلامه فى عيد الهالوين.

قال جاسون:

- أنا لا أخاف.

قال أبى:

- ألا تستطيع العمة راشيل مساعدته؟

كانت العمة راشيل عجوزًا تعيش وحيدة فى كوخ خلف كوخ نانسى. شعرها أبيض، تدخن الغليون بجوار الباب طوال النهار وهى لا تقوى الآن على العمل. يقولون إنها كانت أم جوبا. أحيانًا تقول إنها أم جوبا وأحيانًا أخرى تقول إنها لا تعرفه من قريب أو بعيد.

قالت كادى:

- بل كنت تخاف. أنت أخوف من فرونى. أنت أخوف حتى من الزنوج.

قالت نانسى:

- ألا يستطيع أحد أن يفعل شيئًا له؟ إنه يقول إننى أنا السبب فى إيقاظ الشيطان داخله. ولا يوجد إلا شىء واحد يسكته، من يهجعه من جديد؟

قال أبى:

- حسنًا! لقد ذهب الآن. لا شىء يدعو لخوفك الآن. فقط اتركى البيض وشأنهم.

قالت كادى:

- تترك من وشأنهم.. البيض؟ كيف تتركهم وشأنهم؟

قالت نانسى:

- لم يذهب إلى أى مكان. أستطيع أن أحس به هنا الآن فى الزقاق. هو يسمعنا الآن ونحن نتحدث، كل كلمة، يختبئ فى مكان ما وينتظر. أنا لم أره، ولن أراه إلا مرة واحدة بهذا الموسى. ذلك الموسى الذى يعلقه بخيط ويضعه على ظهره داخل قميصه. عندئذ لن أفاجأ، مجرد المفاجأة.

قال جاسون:

- لم أكن خائفاً.

قال أبى:

- لو كنت حريصة فى كل تصرفاتك لما حدث كل ذلك. ولكن الآن كل شىء على ما يرام. ربما يكون فى سانت لويس الآن. ولعله تزوج بغيرك الآن ونسيك تماماً.

قالت نانسى:

- إذا كان فعل ذلك فالأفضل أن لا أبحث عنه. سأقف هناك وكل مرة يحوطها بذراعيه سوف أقطعها له. سأفصل رأسه عن جسده وأشق بطنه بالفأس وسوف...

- بس. قاطعها أبى.

قالت كادى:

- تشقين بطن من يا نانسى؟

قال جاسون:

- لم أكن خائفًا. سأعبر هذا الزقاق الآن وحدى.

قالت كادى:

- يا رجل! لن تجرؤ على وضع قدمك فيه لو لم نكن معك.

## II

كانت دلسى لم تزل مريضة. لذا كنا نأخذ نانسى كل ليلة حتى قالت أمى:

- إلى متى يحدث هذا؟ تتركوننى وحدى فى هذا البيت الكبير بينما ترافقون زنجية خائفة إلى بيتها؟

جهزنا سريرًا من القش لنانسى فى المطبخ. وذات ليلة استيقظنا على صوت آت من الدرج المعتم. لم يكن بالغناء ولا بالصراخ. كان هناك ضوء فى حجرة أمى وسمعنا وقع أقدام أبى فى الصالة متجهًا إلى الدرج الخلفى. وتوجهنا أنا وكادى إلى الصالة. كانت أرض الصالة باردة. كانت أخمص أقدامنا تهرب من مس

الأرض ونحن نحاول الإنصات إلى الصوت. كان أشبه بالغناء ولم يكن غناء. مثل الأصوات التي تصدر من الزنوج.

توقف الصوت وسمعنا أبي ينزل الدرج الخلفي. تسورنا الدرج وسمعنا الصوت من جديد. كان صوتاً خفيضًا. رأينا عيني نانسي من موقعنا وهي تنظر ناحية الحائط. كانت عيناها أشبه بعيني قطة كبيرة تتكئ على الحائط وتنظر إلينا. وعندما نزلنا الدرج إلى حيث تجلس تخلت عن إصدار الأصوات. ووقفنا هناك حتى عاد أبي من المطبخ بمسدسه في يده. عاد مع نانسي إلى أسفل ورجعا بسرير نانسي المصنوع من القش.

فرشنا السرير في حجرتنا. وبعد أن أطفئ النور في حجرة أمي كان في وسعنا أن نرى نانسي مرة أخرى. همست كادي:

- نانسي. هل أنت نائمة يا نانسي؟

غمغمت نانسي بشيء لم نتبينه. شيء مثل أوه أو كلا، لم أعرف أيهما. شيء لا يصدر إلا منها. شيء يأتي من فراغ ويذهب إلى فراغ حتى إنني تخيلت أن نانسي لم يعد لها وجود البتة. عندئذ أمعنت النظر في عينيها ونحن على الدرج فانطبعا في جفني مثلما تفعل الشمس عندما نغلق عيوننا بعد النظر إليها. همست نانسي:

- يسوع. يسوع.

همست لي كادي:

- هل كان جوبا؟ هل حاول دخول المطبخ؟

قالت نانسى:

- يسوووووووووووووووع.

قالتها على هذا النحو حتى تلاشى الصوت مثل عـود ثقـاب أو شمعة محترقة.

قالت كادى:

- نانسى. هل ترينا؟ هل ترين عيوننا أيضاً؟

قالت نانسى:

- ما أنا إلا زنجية. الله يعلم. الله يعلم.

همست كادى ثانية:

- ماذا رأيت فى المطبخ؟ من الذى حاول الدخول؟

قالت نانسى. وكان فى وسعنا أن نرى عينيها:

- الله هو العالم. الله هو العالم.

وتعافت دلسى من مرضها وبدأت تطبخ لنا الغداء. وقال لها أبى:

- الأفضل أن تبقى فى المنزل يومًا أو يومين.

قالت دلسى:

- ولماذا؟ لو تأخرت يومًا آخر لأصبح هذا المطبخ خربًا. غـادروا المكان الآن حتى أنظفه.

وطبخت دلسى لنا العشاء أيضًا. وفي تلك الليلة، وقبل حلول الظلام، جاءت نانسى إلى المطبخ. قالت لها دلسى:

- كيف عرفت أنه رجع؟ أنت لم تريه.

قال جاسون:

- جوبا زنجي.

قالت نانسى:

- أحس به. أحس به راقدا هنا. في الغور.

قالت دلسى:

- الليلة؟ هل هو هنا الليلة؟

قال جاسون:

- دلسى زنجية أيضًا.

قالت دلسى:

- هل تريدين أن تأكلي شيئاً؟

قالت نانسى:

- لا أريد شيئًا.

قال جاسون:

- أنا لست زنجيا.

قالت دلسى:

- اشربى قهوة.

وصبت كوبا من القهوة لنانسى.

- هل تعرفين أنه خارج البيت الليلة؟ كيف تعرفين ذلك؟

قالت نانسى:

- أعرف. هو هناك ينتظر. أعرف. لقد عشت معه طويلاً. أعرف ما ينوى عمله قبل أن يعرف هو نفسه.

قالت دلسى:

- اشربى قهوة.

أمسكت نانسى بالكوب وقربته من فمها ونفخت فيه. زمت شفتيها فأصبحتا أشبه بلسان حية أو كفم من المطاط. كأنها تخلصت من كل الألوان التى على فمها مع نفخ القهوة.

قال جاسون:

- لست زنجيا. هل أنت زنجية يا نانسى؟

قالت نانسى:

- ولدت (زفت) كذلك. سأعود قريبًا من حيث قدمت.

## III

بدأت تشرب. وبينما كانت تشرب ممسكة الكأس بكلتا يديها أنشأت تصدر الصوت مرة أخرى. أطلقت الصوت داخل الكوب ففزعت القهوة هاربة إلى خارج الكوب على يديها وقميصها. نظرت إلينا وجلست هناك ومرفقاها عند ركبتيها تمسك بالكأس بكلتا يديها وتنظر إلينا عبر الكأس المبتل وتصدر الصوت. قال جاسون:

- انظروا إلى نانسى. نانسى لا تستطيع أن تطبخ لنا الآن. أصبحت دلسى فى صحة جيدة الآن.

قالت دلسى:

- لماذا لا تسكت الآن؟

كانت نانسى تمسك الكأس بكلتا يديها وتنظر إلينا، تصدر الصوت وكأنها انقسمت إلى امرأتين: واحدة تنظر إلينا والأخرى تصدر الصوت. قالت دلسى:

- لماذا لا تجعلون المستر جاسون يكلم رئيس الشرطة فى التليفون؟

عندئذ توقفت نانسى وهى تمسك بالكأس بكلتا يديها الطويلتين السمراوين. حاولت احتساء بعض القهوة مرة أخرى، ولكن القهوة قفزت من الكوب على يديها وقميصها فوضعت الكأس على الأرض. كان جاسون يراقبها. قالت نانسى:

- لم أستطع ابتلاعها. حاولت ولكنها لم تنزل فى حلقى.

قالت لها دلسى:

- هل ستنزلين إلى الكوخ؟ رونى سوف يضع لك فراش القش وسوف أكون هناك بسرعة.

قالت نانسى:

- ألا من زنجي يوقفه؟

قال جاسون:

- لست زنجيا. هل أنت زنجية يا دلسى؟

قالت دلسى:

- لا أعتقد ذلك. ثم أردفت وهى تنظر إلى نانسى:

- لا أعتقد ذلك. ماذا أنت فاعلة إذن؟

كانت نانسى تنظر إلينا. كانت عيناها قلقتين كمن يخاف ألا يكون لديه وقت للنظر. كانت تنظر إلينا، إلى ثلاثتنا فى وقت واحد. قالت: هل تذكرون الليلة التى بت فيها فى حجرتكم؟ وحكت كيف استيقظنا فى الصباح الباكر ورحنا نلعب. كان يجب أن نلعب بهدوء على سريرها القش حتى استيقظ أبى وكان الوقت قد حان بالنسبة لها لتنزل وتتناول الإفطار.

اذهبوا لتطلبوا من أمكم أن تسمح لى بالمبيت معكم الليلة. لا أريد سريرًا، نلعب بعضنا مع بعض مرة أخرى.

سألت كادى أمى. جاسون ذهب أيضًا. قالت أمى: "لا أطيق نوم الزنوج فى منزلى". وبكى جاسون. راح يبكى حتى قالت له أمى إنه لن يتناول الحلوى لمدة ثلاثة أيام إذا لم يتوقف. عندئذ قال جاسون إنه سيتوقف إذا عملت دلسى كعكة من الشكولاتة. كان أبى هناك. قالت أمى:

- ولماذا لا تفعل شيئًا فى هذا الشأن؟ وما فائدة الشرطة؟

قالت كادى:

- لماذا تظل نانسى خائفة من جوبا؟ هل تخافين من أبى أو أمى يانانسى؟

قال أبى:

- وماذا فى وسعهم فعله؟ إذا كانت نانسى لم تره، فكيف للشرطة أن تعثر عليه؟

قالت الأم:

- إذن لماذا هى خائفة؟

- تقول إنه هنا. تقول إنه هنا الليلة.

قالت الأم:

- ومع ذلك ندفع الضرائب. وعلىّ أن أنتظر هنا وحدى فى هذا البيت الكبير بينما أنتم توصلون امرأة زنجية إلى منزلها.

قال أبى:

- تعلمين أنني لست مختبئًا خارج البيت بمشرط في جيبي.

قال جاسون:

- سأتوقف إذا صنعت دلسي كعك بالشكولاته. أخبرتنا أمي أن نخرج، وقال أبي: إنه لا يعرف إذا كان جاسون سينال هذه الكعكة بالشكولاته أم لا، ولكنه كان يعرف على ماذا سيحصل جاسون بعد دقيقة. رجعنا إلى المطبخ وأخبرنا نانسي:

- يقول لك أبي أن تذهبي إلى البيت وتغلقي الباب على نفسك وستكونين في مأمن. وأردفت كادي: في مأمن من ماذا يا نانسي؟ هل جوبا غاضب منك؟ كانت نانسي تمسك بالكوب بكلتا يديها. مرفقاها فوق ركبتيها ويداها تمسكان بالكأس بين ركبتيها. كانت تنظر في الكأس. قالت لها كادي: ماذا فعلت حتى غضب منك جوبا؟ تركت نانسي الكأس يقع على الأرض. لم يتحطم، ولكن القهوة انسكبت. وجلست هناك ويداها لا تزالان تقبضان على الهواء وكأن الكأس لم يقع. بدأت تصدر الصوت مرة أخرى. ليس بصوت عال، كانت تغني ولا تغني. رحنا نراقبها. قالت دلسي:

- هيا من هنا الآن. وخرجت دلسي.

نظرنا إلى نانسي. راح منكباها يرتعشان، ولكنها كانت قد توقفت عن إصدار الأصوات. كنا نرقبها. قالت لها كادي: وماذا يفعل لك؟ لقد ذهب.

نظرت نانسى إلينا وقالت:

- لقد كنت سعيدة بالمبيت معكم فى حجرتكم. أليس كذلك؟

قال جاسون:

- لا، لم أحس بأية متعة.

قالت كادى:

- أنت كنت نائمًا. لم تكن هناك.

قالت نانسى:

- فلننزل إلى بيتى ونكمل المتعة.

قلت:

- أمى لن تسمح لنا. الوقت متأخر الآن.

قالت نانسى:

- لا تخبرها الآن. نخبرها فى الصباح. لن تهتم.

قلت:

- لن تسمح لنا.

قالت نانسى:

- لا تسألها الآن. لا تضايقها الآن.

قالت كادى:

- هما لم يقولا لنا إننا لن نذهب.

قلت:

- نحن لم نطلب منهما.

قال جاسون:

- إذا ذهبت فسوف أخبرهما.

قالت نانسى:

- سنجد متعة. لن يهتما بالأمر إذا ذهبنا إلى بيتى. لقد عملت لـــديكم فترة طويلة. لن يهتما.

قالت كادى:

- لست خائفة من الذهاب. جاسون هو الخائف وسوف يخبرهما.

قال جاسون:

- لست خائفاً.

قالت كادى:

- بل أنت خائف وسوف تخبرهما.

قال جاسون:

- لست خائفاً. لست خائفاً.

قالت نانسى:

- جاسون لا يخاف من الذهاب معى. هل أنت خائف يا جاسون؟

قالت كادى:

- جاسون سوف يخبرهما.

كان الزقاق مظلمًا. مررنا عبر بوابة من العشب. قلت:

- أراهن على أن شيئًا سوف يقفز من خلف هذه البوابة. وجاسون سوف يصرخ.

قال جاسون:

- لن أصرخ.

نزلنا الزقاق. كانت نانسى تتحدث بصوت عال. قالت كادى:

- لماذا تتحدثين بصوت عال يا نانسى؟

قالت نانسى:

- من؟ أنا؟ أسمع كوينتن وكادى وجاسون يقولون إننى أتكلم بصوت عال.

قالت كادى:

- تتحدثين كأن هناك رابعًا معنا. كأن أبى معنا.

قالت نانسى:

- أأنا أتحدث بصوت عال يا سيد جاسون؟

قالت كادى:

- نانسى تنادى جاسون بالسيد.

قالت نانسى:

- اسمع كيف يتحدث كادى وكونتن وجاسون.

قالت كادى:

- نحن لا نتحدث بصوت عال. أنت التى تتكلمين مثل أبى...

قالت نانسى:

- كفى! كفى يا مستر جاسون.

- نانسى تدعو جاسون بالمستر. أف!

قالت نانسى:

- اسكتوا.

كانت تتكلم بصوت عال عندما أحنينا رءوسنا لعبور السور الذى كانت تعبره بصرة الملابس فوق رأسها دون أن تهتز. وصلنا إلى بيتها ونحن نسرع ونجرى مرحين. فتحت الباب وشممنا رائحة البيت القريبة من رائحة الشياط. إنها رائحة المصباح والفتيل. إنها رائحة نانسى نفسها. أضاءت المصباح ورفعت المزلاج لتغلق الباب وخفضت من نبرة صوتها وراحت تنظر إلينا.

قالت كادى:

- ماذا ستفعلين؟

قالت نانسى:

- ماذا تريدون أنتم؟

قالت كادى:

- قلت إننا سنجد متعة.

ثمة شيء في بيت نانسى. شيء يمكن للمرء أن يشمه. حتى جاسون استطاع أن يشمه وقال:

- لا أريد أن أبقى هنا. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت كادى:

- اذهب إذن إلى البيت وحدك.

قال جاسون:

- لا أريد أن أذهب وحدى.

قالت نانسى:

- تعالوا نلهو قليلاً.

قالت كادى:

- كيف؟

وقفت نانسى عند الباب. كانت تنظر إلينا، وكانت كأنها أفرغت عينيها من المعنى، كأنها توقفت عن استخدامهما.

- ماذا تريدون؟

قالت كادى:

- احك لنا قصة. هل يمكنك أن تحكى لنا قصة؟

قالت نانسى:

- نعم.

قالت كادى:

- إذن احك.

تعلقت عيوننا بنانسى وقالت كادى:

- ألا تحفظين أية قصص؟

قالت نانسى:

- بلى، أعرف الكثير.

جلست نانسى على كرسى بجوار المدفأة المتقدة ببقايا حطب. أذكتها فاستعرت قليلاً. بدأت تحكى قصة. كانت تحكى بعينين قلقتين كأنهما لا تنتميان لها، وبصوت عميق كأنه لا يمت لها بصلة. وكأنها تعيش فى مكان آخر، وتنتظر فى مكان آخر بعيدًا عن منزلها. كان

جسدها هناك. جسدها الذى يحدودب تحت السور بصرة الملابس على رأسها متزنة كبالون، كان هناك. "وهكذا تأتى الملكــة، تتمــشى إلــى المصرف حيث كان ذلك الرجل الشرير يختبئ. كانت تعبر المــصرف وتقول فى نفسها: لو أننى أستطيع أن أعبر هذا المصرف دون مشاكل، وتقول..." قالت كادى:

- أى مصرف؟ مصرف كذلك الذى خارج منزلك؟ ولمــاذا تــذهب الملكة إلى المصرف؟

قالت نانسى:

- لتصل إلى منزلها. كان عليها أن تعبر المصرف لكى تصل إلــى بيتها.

قالت كادى:

- ولماذا كانت تريد أن تصل إلى بيتها؟

## IV

نظرت نانسي إلينا. سكتت عن الكلام ونظرت إلينا. كان ســاقا جاسون يلتصقان بسرواله لفرط نحافته. قال:

- لا أظن أن هذه قصة جيدة. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت كادى:

- ربما كان الأفضل ألا نأتى. ونهضت وهى تقول:

- أراهن على أنهما يبحثان عنا الآن.

قالت نانسى وقد نهضت بسرعة وسبقت كادى:

- لا.. لا تفتحى الباب.

لم تلمس الباب.

قالت كادى:

- لم لا؟

قالت نانسى:

- عودى إلى المصباح. سنلهو قليلاً. يجب ألا تذهبوا.

قالت كادى:

- يجب أن نذهب إلا إذا كنا سنجد متعة حقيقية.

عادت هى وتانسى إلى المدفأة والمصباح.

قال جاسون:

- – أريد أن أذهب إلى البيت. سوف أخبر أبى.

قالت نانسى:

- عندى قصة أخرى.

وقفت قريبة من المصباح ونظرت إلى كادى. كانت كمن ينظر إلى عصا تقف عند طرف أنفه. كان يجب أن تنظر تحتها لكى ترى كادى. ولكن عينيها بدت كمن يزن عصا. قال جاسون:

- لن أسمعها، سأقرع الأرض.

قالت نانسى:

- إنها قصة جيدة. أفضل من القصة الأولى.

قالت كادى:

- عن ماذا؟

كانت نانسى تجلس بجوار المصباح. كانت تضع يدها السمراء الطويلة على زجاج المصباح الساخن. قالت كادى:

- يدك على الزجاج الساخن. ألا تحسين بالحرارة على يدك؟!

نظرت نانسى إلى يدها التى وضعتها على زجاج المصباح. نزعت يدها الطويلة ببطء وكأنها شدت إلى رسغها بخيط. قالت كادى:

- دعونا نفعل شيئًا آخر.

قال جاسون:

- أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسى:

- عندى فشار.

نظرت إلى كادى، ثم إلى جاسون ثم إلىَّ ثم إلى كادى مرة أخرى. وقالت:

- عندى فشار.

قال جاسون:

- لا أحب الفشار. أريد حلوى بدلا منه.

نظرت نانسى إلى جاسون وقالت:

- أنت تمسك المحمصة.

كانت يدها طويلة ومترهلة وسمراء. قال جاسون:

- موافق. سأبقى بعض الوقت إذن. كادى لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل. سوف أذهب إلى البيت إذا أمسكت كادى المحمصة.

أذكت نانسى النار. قالت كادى:

- انظروا إلى نانسى وهى تضع يدها فى النار. ماذا دهاك يانانسى؟

قالت نانسى:

- عندى فشار. وسحبت المحمصة من تحت السرير. كانت المحمصة مكسورة. عندئذ بكى جاسون وقال:

- لن نحصل على ذرة.

قالت كادى:

- سأذهب إلى البيت مهما كان الأمر.

قالت نانسى:

- انتظروا، انتظروا. سوف أصلحها، ساعدونى فى إصلاحها.

قالت كادى:

- لا أظن أنى أريد ذرة مشوية. الوقت متأخر جدا الآن.

قالت نانسى:

- ساعدنى يا جاسون. ألا تريد أن تساعدنى؟

قال جاسون:

- لا، أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسى:

- بس.. بس. انظروا، يمكن أن نضبطها هكذا. وجاسون يمكن أن يمسكها ونشوى الذرة.

أخذت سلكًا وأصلحت به المحمصة.

قالت كادى:

- لن تستطيعى إصلاحها.

قالت نانسى:

- لقد أصلحتها كما ترون. ساعدونى فى تقشير الذرة.

كانت الذرة تحت السرير أيضًا. نزعنا الحب ووضعناه فى المحمصة وساعدت نانسى جاسون فى الإمساك بالمحمصة فوق النار.

قال جاسون:

- إنها لا تشوى. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسى:

- انتظر. بدأت تشوى وستسعد.

كانت تجلس قريبًا من النار. كان المصباح مائلاً حتى بدأ يدخن. قلت:

- لماذا لا توجهونه إلى أسفل؟

قالت نانسى:

- هذا أفضل. سوف أنظفه. انتظروا، ستبدأ المحمصة فى خلال دقيقة.

قالت كادى:

- لا أظن أنها ستبدأ. يجب أن نذهب إلى البيت. إنهما سيقلقان علينا.

قالت نانسى:

- ستبدأ الآن. ستقول لهما دلسى إنكم كنتم عندى. ستبدأ فى التحميص بعد دقيقة.

تسلل الدخان إلى عينى جاسون وبدأ يبكى. أسقط المحمصة فــى النار. أحضرت نانسي خرقة مبتلة ومسحت بها وجه جاسون ولكنه لم يتوقف عن البكاء.

قالت نانسى:

- كفى! كفى.

ولكنه لم يتوقف. رفعت كادى المحمصة من النار وقالت:

- احترقت الذرة. نريد بعض الذرة.

قالت نانسى:

- هل وضعت كل الذرة؟

قالت كادى:

- نعم.

نظرت نانسى إلى كادى ثم أخذت المحمصة ووضعت فيها الذرة وألقت بالذرة المحروقة فى حجرها وراحت تنتقى الحب الصالح منــه بيديها الطويلتين السمراوين وكنا نراقبها.

قالت كادى:

- ألا يوجد عندك فشار أكثر؟

قالت نانسى:

- عندى. انظروا، هذا ليس محروقاً. كل ما نحتاجه هو أن...

قال جاسون:

- أريد أن أذهب إلى البيت. سوف أخبر أبى وأمى.

قالت كادى:

- اسكت.

رحنا نتسمع. كانت رأس نانسى متجهة إلى الباب المغلق. وعيناها مليئتين بضوء المصباح الأحمر.

قالت كادى:

- هناك قادم.

بدأت نانسى تطلق ذلك الصوت الغريب. كانت يداها الطويلتان تتدليان بين ركبتيها. وفجأة نزلت قطرات ماء على وجهها. كل قطرة تحمل معها بعضاً من دخان الموقد.

قلت:

- إنها لا تبكى.

قالت نانسى:

- أنا لا أبكى. أنا لا أبكى. من بالباب؟

قالت كادى:

- لا أدرى.

ذهبت إلى الباب ونظرت وعادت وهى تقول:

- حان الوقت للذهاب إلى البيت. أبى جاء.

قال جاسون:

- سوف أخبر أبى. أنتم الذين أغريتمونى بالمجىء إلى هنا.

كان الماء لم يزل يجرى على وجه نانسى.

استدارت من مقعدها وقالت:

- اسمع، أخبره أننا كنا نريد أن نتسلى. قل له إننى اهتممت بكم حتى الصباح. قل له أن يأخذنى معكم إلى البيت وأنام على الأرض. قل له إننى لا أريد سرير القش هذا. سوف نتسلى جميعًا. ألم نتسلَّ هذه الليلة؟ قال جاسون:

- أنا لم أستمتع البتة. بالعكس لقد آذيتنى ودخل الدخان فى عينىَ.

## V

دخل أبى. نظر إلينا. نانسى لم تنهض وقالت:..

- أخبره.

قال جاسون:

- كادى هى التى جعلتنا نأتى إلى هنا. لم أكن أريد أن آتى إلى هنا.

اقترب أبى من المدفأة. نظرت إليه نانسى. قال:

- ألا يمكنك الذهاب إلى العمة راشيل والبقاء هناك؟

نظرت نانسى إلى أبى. كانت يداها بين ركبتيها. قال أبى:

- هو ليس هنا. ليس هناك روح حية فى هذا المكان.

قالت نانسى:

- إنه فى المصرف. إنه ينتظر في المصرف قريبًا منى.

قال أبى:

- كلام فارغ. كيف عرفت أنه هناك؟

قالت نانسى:

- عندى علامة.

- أية علامة؟

قالت نانسى:

- علامة فهمتها، تركها على المنضدة ورأيتها عندما دخلت. كانت عظمة خنزير عليها لحم ملطخ بالدماء. تركها بجوار المصباح. إنه خارج البيت. عندما تغادرون سوف يقتلنى.

قالت كادى:

- من يقتلك يا نانسى؟

قال جاسون:

- لست بالواشى.

قال الأب:

- كلام فارغ.

قالت نانسى:

- إنه خارج البيت. ينظر من خصاص النافذة فـى هـذه اللحظـة. ينتظر ذهابكم جميعًا ويقتلنى.

قال أبى:

- كلام فارغ. أغلقى باب بيتك وسنأخذك إلى العمة راشيل.

قالت نانسى:

- هذا لن يجدى.

لم تنظر إلى أبى فى تلك اللحظة. ولكنه نظر إليها. إلـى يـديها المترهلتين الطويلتين المرتعشتين. قالت:

- التأجيل لن يفيد.

قال أبى:

- وماذا تنوين فعله إذن؟

قالت نانسى:

- لا أدرى. لا أستطيع أن أفعل شيئًا. على أن أؤجل وهذا لن يفيـد. أعرف ماذا سيحدث لى. لن يجهز على غيرى.

قالت كادى:

- ماذا سيحدث لك؟

قال أبى:

- لا شئ. اذهبوا إلى فراشكم جميعًا.

قال جاسون:

- كادى هى التى جعلتنى آتى إلى هنا.

قال أبى:

- اذهبى إلى العمة راشيل.

قالت نانسى:

- هذا لن يفيد.

جلست أمام المدفأة، مرفقاها فوق ركبتيها ويداها الطويلتان بـين وركيها وأردفت تقول:

- حتى النوم فى مطبخكم لن يفيد. حتى لو كنت نائمة على الأرض فى الحجرة مع أولادك، ستراني فى الصباح وقد غطتنى الدماء.

قال أبى:

- كفي عن هذا الهراء. أغلقى الباب وأطفئى المصباح ونامى.

قالت نانسى:

- أنا أخشى الظلام. أخشى الظلام لأن ذلك يحدث فى الظلام دائمًا.

قال أبى:

- تعنى أنك ستبقين هنا والمصباح مضاء؟

عندئذ بدأت نانسى فى إصدار الصوت من جديد وهى تجلس أمام المدفأة ويداها الطويلتان بين ركبيها. قال أبى:

- آه، اللعنة. تعالوا يا أولاد، حان وقت النوم.

قالت نانسى:

- عندما تنصرفون جميعًا سيقتلنى. غدًا ستجدوننى ميتة. لقد ادخرت ثمن الكفن عند السيد لفليدى.

كان السيد لفليدى رجلا قصيرًا رث الملبس. يجمع تأمينات الزنوج على حياتهم. يطوف حول المطابخ والأكواخ صباح كل يوم سبت ويأخذ منهم خمسة عشر سنتًا. كان يعيش هو وزوجته فى لوكاندة. استيقظ ذات صباح ليجد زوجته منتحرة تاركة طفلتهما لرحمة القدر. اختفى السيد لفليدي وابنته بعد انتحار زوجته ولكنه عاد بعد فترة. كنا نراه ينزل إلى الأزقة صباح السبت. كان يذهب إلى الكنيسة المعمدانية.

حمل أبى جاسون على ظهره وخرجنا من بيت نانسى. كانت تجلس أمام المدفأة. قال أبى:

- تعالى أغلقى الباب.

لم تتحرك نانسى. لم تنظر إلينا. تركناها هناك جالسة أمام المدفأة والباب مفتوح. قالت كادى:

- ماذا يا أبى؟ لماذا تخاف نانسى من جوبا؟ ماذا يريد جوبا أن يفعل بها؟

قال جاسون:

- جوبا لم يكن هناك.

قال الأب:

- لا، هو غير موجود. لقد هرب.

قالت كادى:

- ومن الذى كان ينتظرها فى المصرف؟

ألقينا نظرة إلى المصرف. كان المدق ينزل بنا فى أحراش كثيفة قبل أن نصعد منه مرة أخرى.

قال أبى:

- لا أحد هنا.

كان ضوء القمر كافيا لرؤية أى شئ. كان المصرف موحشا وهادئًا وكثيف الأحراش.

قالت كادى:

- لو كان هنا لرآنا، أليس كذلك يا أبى؟

قال جاسون وهو على ظهر أبيه:

- أنت التى جعلتنى آتى إلى نانسى. لم أكن أريد أن آتى.

كان المصرف ساكنًا تمامًا. خاليًا تمامًا. يمتلئ بأعشاب الرحيق. لم نر جوبا. ولم نر نانسى وهى تجلس هناك فى بيتها والباب مفتوح والمصباح يضئ لأنها لا تريده أن يحدث فى الظلام. كانت تقول: " لقد تعبت. ما أنا إلا زنجية. ولكن ليس الخطأ خطئى". وكان فى وسعنا أن نسمعها. بدأت الكلام بعد أن خرجنا من البيت. كانت تجلس هناك أمام المدفأة ويداها الطويلتان السمراوان بين ركبتيها. كنا لم نزل نسمعها حتى عندما عبرنا المصرف وجاسون مستقر فى مكانه العالى على كتف أبيه.

ثم عبرنا المصرف. ابتعدنا عن نانسى وعالمها. كانت تجلس هناك والباب مفتوح والمصباح مضاء، تنتظر بينما كان المصرف بيننا وبينها يطول، والبيض ماضون فيما هم ماضون فيه، يقسمون حياتنا المعتدى عليها نحن ونانسى. قلت:

- من سيغسل لنا ملابسنا الآن يا أبى؟

قال جاسون وهو على منكبي أبيه:

- أنا لست زنجيا.

قالت كادي:

- أنت أسوأ من الزنوج. أنت نمام. لو أن شيئًا قفــز الآن ســتكون أكثر ذعرًا من الزنوج.

قال جاسون:

- لن أخاف.

قالت كادي:

- سوف تصرخ.

قال الأب:

- كادي!

قالت كادي:

- قطة مذعورة.

قال الأب:

- اصمتوا.

# أخى الميت
# يأتى إلى أمريكا (١٩٣٤)

**ألكساندر جودن**

عندما وصلنا خليج نيويورك كان الوقت شتاء بالفعل، وكانت الأرض مكسوة بطبقة كثيفة من الثلج. بدا الماء على مرمى البصر محفوفًا بطابور طويل من الأشجار المتعانقة. وعندما وقفنا علي ظهر السفينة كانت الشمس تتعامد على رءوسنا، يؤذى عيوننا النظر إلى بياضها المبهر.

وعلى مقربة منا كان الماء أخضر شفافًا، ومن بعيد كان شديد الزرقة أو ملونًا. بدأت زوارق الجر تتاور حول سفينتنا محدثة ضوضاء مقلقة، تتجشأ الدخان من مداخنها وترسل السخام إلى سطح السفينة فيصطدم بوجوهنا. كانت السماء حبلى بضباب كثيف فيما راحت قوارب أخرى تحدث زئيرًا مربكًا.

وبينما أقبلت المدينة لملاقاتنا، وبينما كانت كآبة واجهاتها تزداد وطأة، وناطحات سحابها تحلق فوق رءوسنا طوال الوقت، تملكنا إحساس بصغر أحجامنا واستبد بنا خوف كأن شيئًا يهددنا. بعث العالم

الجديد فى أجسامنا برودة شعرنا بها. ولم تكن، فى معظمها، من برودة الشتاء.

عندما اقتربت سفينتنا من الشاطئ تخلت قوارب السحب عن مهامها وراحت تشق الموج بعيدًا عنا، سمعنا بعد ذلك صلصلة السلاسل الصدئة للمرساة الضخمة بدويها الشديد وهى تضرب المياه مرسلة رذاذًا فى كل اتجاه. سمعنا صيحات تصدر من قوارب تحوم حول السفينة، ويحاول راكبوها شد انتباه المهاجرين على متنها. تبع الصيحات صرخات مسعورة لأناس عرفوا ذويهم على كلا الجانبين، انطلقت من أسفل صرة بها برتقال، ولكن الصرة تمزقت وتدحرجت منها حبات البرتقال على متن السفينة ما لبث أن تعقبها الأطفال والنساء بين صراخ وصياح. أكياس أخرى انطلقت من أسفل، وضلت الطريق إلى سطح السفينة وسقطت فى الماء محدثة طرطشة جعلت أصحاب القوارب الصغيرة يضعون أيديهم على وجوههم.

سمعنا صرخة تلتها أخرى، شخص ينادى باسم أمه. صيحة حادة بدت قادمة من بعيد. تجمهرنا جميعًا على درابزين السفينة ولكن أمى كانت الوحيدة التى استطاعت التطلع من فوق الدرابزين إلى المياه أسفلها. كانت أختى الكبرى فى الرابعة عشرة وكنت فى الثالثة عشرة أما أختى الأخرى فكانت فى التاسعة. ولكن حياتنا الصعبة أورثتنا القصر والضعف. تسلقنا درابزين السفينة حتى لامست ركبنا الروافد الخشبية واستطعنا رؤية ناطحات السحاب وسائر مبانى الميناء تنكس

رءوسها فى الماء. ولكن أمى استبد بها قلق وهياج خشية أن نسقط من فوق السفينة. لوحت بيدها، وتبعنا امتداد يدها بأقصى الجهد لعيوننا.

كان أبى.

كنت أول من عرفه وحاولت بوحى غريزى أن أختبر مشاعرى نحوه. لقد تركنى طفلاً فى الخامسة والآن أقترب من النضج. ولكن تلك اللحظة لم تكن تحمل عندى المعانى نفسها التى حملتها عند الآخرين. تملكت أختى الكبرى فرحة جامحة وصرخت دون تحفظ. كانت تعرف الجانب الطيب من أبى. نالت قدرًا من حنانه يفوق ما ناله كل منا. لم أتذكر شيئًا غير مرارة طفولتى وعذاباتها وآلامها. أختى الصغرى كانت لم تزل فى مهدها عندما تركنا أبى إلى العالم الجديد، وهى الآن تمسك بكم أمى وتسأل:

- أيهم أبى يا أمى؟

فى ذلك الوقت كانت رفات أخى تتحلل فى مكان ما فى الجانب الآخر من المحيط تحت شاهد منخفض. كانت الأرض التى غطت الشاهد صلبة وباردة. تحوم فى المكان بفعل الريح نتف من الحَوَر دون أن تقع على الأرض. كان موته مفاجأة كبرى. نظر إلينا بعينين تلتمعان بالذكاء وكأنه كان يقول لنا: "أعرف أنى ميت لا محالة، لا ينبغى لكم أن تحزنوا، من العبث أن تذرفوا الدمع بسبب شيء تافه كالموت!".

مضت ثمانى سنوات الآن منذ أن أبحر أبى إلى أمريكا. أخى الذى ولد بعدى مات أثناء الحرب. وسواء كان بسبب الإهمال أو بسبب

الخوف، فقد كتمت أمي خبر موت أخي عن أبي طوال الوقت. لقد عشنا فترة بطولية من فترات التاريخ دون أن يكون لنا صلة بالبطولة، واختبرنا أحداثًا جسامًا تقطعت حياتنا بسببها إلى شظايا كثيرة. ونحن هنا في هذا المكان أحسست أنه لا ينبغي أن نسعى لتقطيع هذه الشظايا من جديد. أحس الآن بعبثية الحياة، إحساس أورثني قلبا لا يكترث. لا شيء حطم قلبي كما حطمه موت أخي الوحيد. عاينت الموت لأول مرة في حياتي، وتحملت أكثر أحداث حياتي قسوة.

قالوا فيما بعد إنني بكيت ساعتها كأن عالمي كله قد إنهار، وصدقتهم. وقالوا أيضًا إنني مزقت ملابسي وضربت رأسي في جدار منزلنا، وصدقتهم. ولكن عندما قالوا لي إن حزني مآله النسيان، وإن قلبي سيصبح نظيفًا مثل حقول أوكرانيا الشاسعة بعد الحصاد، وبعد أن يكون المحصول قد تم تخزينه، لذت بالصمت.

حمدت الله ونحن واقفون على ظهر السفينة بين الناس أن السفينة عالية وأن أبي لم يستطع أن يرى أننا كنا ننقص واحدًا. أحسست لحظتها أن أمي فعلت خيرًا حينما لم تكتب له شيئًا عن وفاة ابنه الأصغر. لم تكن مشاعري هذه ناشئة من حب أكنه لأبي، فأنا لا أكن حبا كثيرًا لأبي. إنه غريب بالنسبة لي. ولكني كنت أحسد أبي على معاناته، وكنت أغار من حزنه. ولعلي كنت على حق، فقد أحسست أني الأحق منه بالحزن على أخي.

في تلك الليلة نمنا على ظهر السفينة، رمز المعاناة التي جربناها

فى رحلة العبور. كنا نحسى بالغثيان، ورائحة النشادر فـــى البحـــر لا تزال تزكم أنوفنا، ومشهد المياه الخاوى لا يخفف منه ســوى طيــور البحر الحزينة والطحالب البحرية. ولكن من الطريقة الجديدة التى كان النائمون يغطون بها فى نومهم، كان يمكن رؤية الطمأنينة التى عــادت إليهم ولو جزئيا، بينما راح آخرون يتقلبون فى فرشهم ويئنون.

حلمت أن أخى الميت وقف على سريرى... كئيب الوجه حزين. مسح على منكبى بأصابعه التى بانت فيها العظام. أردت أن أتحرك ولم أستطع. طفقت أرقبه فى فزع وافتتان. استيقظت وأنا أتــشبث بــالحلم تشبث اليائس، وأخذت أحملق دون أمل فى الأرض التى كانت تكسوها القذارة.

في الصباح بعد الإفطار كنا نساق – جميعًا – كقطعان الغنم. كنا أشباحًا شاحبة الوجوه يستولى عليها الخوف تترنح بين عالمين؛ عــالم عاقبنا بعصى من حديد وقذف بعد ذلك بنا بعيدًا عن حماه، وعالم قاس لا يأبه، قدر لنا أن نمثل أمامه، نذرف الدمع تملقًا وخوفًا لعله يسمح لنا بالدخول، ولكن بعد أن يكون قد جرد قلوبنا من كل أمل.

طموحاتنا وآمالنا لا تعنى شيئًا لأننا كنا متعبين. وكشأن المتعبين كنا نعرف أننا حين نصل إلى نقطة الإعياء الشديد فسوف ننام جميعًــا واقفين أو مقتادين، وسوف ننفذ أثناء نومنا ما كنا ننفذه أثناء يقظتنا.

بدءوا يقيمون المعبر الذى يصل بين السفينة وبين العبَّارة التــى ستنقلنا إلى جزيرة إليس. كانت إليس جزيرة كئيبة تحزن القلــب مثــل

مقاعد الدرجة الثالثة. المباني كلها من الحجر الرمادى تعلوها فطور كثيرة ضاربة للخضرة ومكسوة بحشائش وطحالب كثيرة. كان خصاص بعض نوافذها من الحديد المفتول، وبعضها الآخر تقوم عليه قطع من الزجاج الثقيل تتخلله أسلاك رفيقة من الحديد. وكان في وسعنا أن نراقب من خلال الخصاص الحديدية الطحالب البحرية التي تطفو على مهل فى مياه الخليج.

كان الأطباء الذين قاموا بفحصنا قساة القلوب، فى قسوة القوة التى كلفتهم بتولى هذه المهمة. ظلوا يجذبوننا بعنف وقرف شديدين على نحو مهين، وفى عيونهم اقتناع بأننا لم نعد قادرين لا على الحياة ولا على الألم. أمسكنا بصررنا فى أيدينا حين اصطف جمع غفير من الموظفين على مقاعد عالية استعدادًا لاستجوابنا. كانوا يرتدون سترات سوداء من الصوف بأزرار لامعة طويلة وياقات منشّاة. كانت المناضد التى جلسوا إليها طويلة أيضًا ومائلة بزاوية غريبة أشبه بالحمالات الخشبية التى يضع اليهود عليها كتبهم المقدسة فى معابدهم. وكانوا جميعًا يبتسمون على ذلك النحو البغيض لأوراقهم بينما يدونون إجابات أمى على أسئلتهم.

على الجانب الآخر من الحاجز كان أبى. سرعان ما أصبح هو الآخر هدفًا للتحقيق. وكان المحققون يطابقون إجاباتهما بحثًا عن تناقض. وعلى حين بغتة توقف كل شيء: سير الإجراءات تعطل ولم يستأنف. بدا الذعر على وجه أمى التى أنبأت ملامح وجهها أنها

اقترفت كذبًا. تمتم الموظف بكلام غير مفهوم وقد بان عليه الغضب لأن غرابة الموقف دفعت به لأن يقدح زناد فكره الصدئ. زفر بقوة وحاول أن يبدو متعاونًا على نحو رسمى. دفعه اضطراب أمى لاستثارة عطفه وإظهار إنسانيته ولكنه لم يعرف كيف السبيل إلى مساعدتها، وكانت الجملة القاسية:

- زوجك يقول إن أطفالكما أربعة يا مدام! ولديك الآن ثلاثة أطفال فقط. كيف تفسرين ذلك يا مدام؟

تلعثمت أمى. تحولت شفتاها إلى اللون الأبيض. انهمرت الدموع من عينيها وهى تشرح الأمر للموظف بنبرات متقطعة. بدت علامات الخوف والقلق على وجه الموظف. حنى رأسه بينما كان نشيجها المتزايد يحول بينه وبين الاستيعاب. ترنح على مقعده على نحو خطير، وتشبث بمكتبه بأصابعه النحيفة المتوترة. لاحت على وجهه ابتسامة متعبة. وسواء كان فهم فجأة أو قرر ألا يأبه أكثر من اللازم لهذه القصة التى أحزنته فقد سمح لنا بالانصراف. جرينا جميعًا خلف أمى مثل طيور صغيرة فقست لتوها.

وعلى الجانب الآخر من الحاجز كان أبى. ترى ماذا كان يدور بذهنه فى تلك اللحظة ؟ كيف كان يحس؟

ما رآنا حتى صاح: "بيسى، بيسى... أولادى!".

كان الاحمرار ظاهرًا فى عينيه، والإعياء باديًا على قسمات

وجهه الذى استقرعليه أخدودان بارزان يقطعان خديه بدءا من عينيــه اللتين كانتا تسحان الدموع. بدا محطمًا بلا حول ولا قوة.

عانق كل واحد منا بحنان وقوة الرجل. انتابنى فى تلك اللحظــة إحساس بالحب لأبى، لعل مصدره الشفقة عليه. ولكن عنــدما حــاول ضمى نحوه تراجعت برأسى وســاقاى للخلــف مثــل عنداء يــستعد للانطلاق. أضحت عضلاتى مثل خيوط مــشدودة. لابــد أنـــه أحــس بمقاومتى لأنه لم يحاول فرض حنانه على بعد ذلك.

كان سعيدًا وسكت عن سؤال أمى عن أخى الميت مما رفع قدره فى نظرى. لم يتغير. عندما يكون سعيدًا يصبح مضحكًا مثــل المــسن حين يقع فى الحب. أخرج من جيبه قبعات من الصوف ووضعها على رءوسنا أنا وأختى. كانت القبعات دافئة ولها شرّابات فى أعلاها مثــل الطربوش التركى. ولكن عندما رأيناها مثارًا للضحك لم نــرتح لهــا. وحانت لحظة أخرى مأساوية، لحظة ساخرة غلفت بالحزن حياة هــذا الرجل الذى هو أبى. لقد أحضر معه أربع قبعات، ولكنه لم يجد الوقت ليخبئ القبعة الرابعة. عندما رأتها أمى جن جنونها. راح ينظــر إليهــا بعينين بائستين مرتعشتين. حاول التفوه باسمها ولكن شفتيه النحيفتــين القاسيتين لم تطيعاه، وانحشرت الكلمات فى حنجرتــه محدثــة صــوتًا غريبًا.

أخذتنا العبّارة إلى بولنج جرين. ثم ركبنـــا القطـــار. وطـــوال الطريق إلى بيتنا كان الناس يحدقون فينا وكأننا هبطنا من كوكب آخر.

أردنا أن نخلع قبعاتنا ولكن أبى توسل إلينا بطريقة لا يصح معها عصيانه. عندما نزلنا من القطار مشى أبى أمامنا فى خفة كما كانت عادته فى الماضى. كانت القبعة التى ادخرها للابن الميت تلتصق بأحد جيوبه. جرينا خلفه وكأننا كنا نخاف أن يتركنا. كان الثلج ينسحق تحت أقدامنا ونفايات المعادن تفسد نعال أحذيتنا. طوال الطريق لم تفارق عيناى القبعة التى التصقت خارج جيب أبى، ولم يفارق خيالى طيف أخى الميت. مر أمامنا رجل بريد يمتطى دراجته وتتدلى حقيبة الرسائل من كتفيه بينما كنا فى طريق بروك العام. كانت إطارات عجلته تحدث صريرًا فى احتكاكها بالثلج الصلب.

دخلنا منزلنا الجديد بتؤدة وحذر وتردد كمن يدخل بيت غرباء. كانت الشقة مظلمة غير نظيفة الهواء، وكان الأثاث قديما غير مرتب، وأكياس القمامة تملأ أرضية المطبخ. وفى اللحظات القلائل الأولى التزمنا الجدران فى وجل. وما تجاوزنا عتبة الباب حتى بدأ أبى ينتحب دون أن يقدر على كبح دموعه.

وضع القبعة الباقية على المنضدة وأشعل الموقد الغازى الصغير الذى أحدث هسيسًا مفاجئًا. بدأ الصقيع يذوب ببطء على زجاج النوافذ. التهمنا الطعام الذى وضعه أمامنا بعيون جاحظة شرهة راغبة. ظننا أن ذلك مجرد حلم وأن الوجبة القادمة لن تجيء. أعطانا أبى، بعد ذلك، ملابس جديدة. طوى البذلة التى كان اشتراها لأخى ووضعها بهدوء داخل الدرج وكأنه كان يتوقع أن يأتى يومًا ويطرق الباب ويطالب بها.

حل المساء وغمرنا سكون عظيم. لقد بدأ تعبنا يزول شيئًا فشيئًا. وفيما كنا نهتز فوق مقاعدنا اهتزاز السكارى اجتاحت البيت نوبة من الحزن المجنون. نهضنا من فراشنا وأصخنا السمع. كانت أعصابنا مشدودة وجفوننا ترتعد فوق عيوننا كطيور جريحة.

كانت القبعة البيضاء بشرابها الأحمر ترقد فوق الطاولة تبحث عن صاحب. ولسبب ما اتجهت عيون الجميع إليه. وفى ظلام الحجرة برزت كنجمة وحيدة فى ليلة ظلماء. كان الصدأ فى دمائنا ثقيلا يؤذى أجسامنا ويزيد حزننا، فى تلك اللحظة أيقنا من عودة أخى إلى حياتنا المحطمة.

هو أيضًا جاء معنا إلى أمريكا.

# ربما فى حلب ذات يوم...
# (١٩٤٤)

**فلاديمير نابوكوف**

عزيزى "ف": ضمن أشياء أخرى أخبرك أننى وصلت هنا أخيرًا، إلى البلاد التى طالما خيبت آمال القادمين إليها. أحد الذين رأيتهم بمجرد وصولى كان صاحبنا الطبيب جلب ألكزاندروفيتش جيكو، كان يعبر شارع كولومبس العام عابس الوجه يلتمس مقهى ديكوان التى لن يعرج إليها أى منا نحن الثلاثة مرة أخرى. يبدو أنه كان يعتقد أنك خنت أدبنا القومى على نحو ما، وأعطانى عنوانك وهو يهز رأسه الأشيب استنكارًا وكأنك لا تستحق أن يسمع منى تسويغًا لموقفك.

لك عندى قصة تذكرنى – أو قل إن سردها على هذا النحو يذكرنى – بأيام كنا نقرض شعر البدايات الأولى. كان شعرًا دافئًا كالضرع، مزدحما بالكلمات الرنانة. أيامها كان كل شىء: الوردة والبركة الصغيرة الآسنة والنافذة المضيئة يهتف بنا ولسان حاله يقول: أنا مادة للشعر. أجل، كانت دنيا رائعة الجمال، وكنا نمارس لعبة الحياة والموت بالشعر. الرنين الحى فى لغتنا الروسية لا يضن بالمعنى يمنحه

لرقص الأشجار الطائش، أو لجريدة منبوذة دفعتها الرياح فوق جسر طويل تعلو وتنخفض، وتزحف وتتوقف، وتلملم نفسها من جديد بخفقات جهيضة وارتجافات مهيضة. ولكنى الآن لست شاعرًا. أصبحت أشبه بتلك السيدة جياشة العاطفة التى كانت تتحرق شوقًا لأن تكون مادة للوصف فى إحدى قصص تشيكوف.

تزوجت، إذا لم تخنى الذاكرة، بعد أسبوع من رحيلك من فرنسا وقبل بضعة أسابيع من اجتياح الألمان الكرام باريس. ورغم أننى قادر على إثبات زواجى بالوثائق الرسمية، فأنا على يقين الآن بأن زوجتى لم يعد لها وجود فى حياتى. قد يتاح لك أن تعرف اسمها من مصدر آخر سواى رغم أن اسمها لا يعنى شيئًا الآن إلا كونه اسمًا لوهم؛ ولذا فإنى أستطيع أن أتحدث عنها بقدر كبير من الحيدة والتجرد مثل حديثى عن شخصية فى قصة، فى إحدى قصصك تحديدًا.

كان بالأحرى حبا من أول لمسة أكثر منه حبا من أول نظرة، فقد تقابلنا مرات كثيرة دون أن أحس ناحيتها بأية عواطف خاصة، إلى أن جاء يوم زرتها فى بيتها وقالت شيئًا طريفًا جعلنى أميل ناحيتها ضاحكًا وأعاجلها بقبلة على شعرها.

ولكنى لم أفهم زوجتى. ما زالت لغزًا غامضًا مثل أفضل قصائدى، تلك التى سخرت منها سخرية مرة فى مجلتك الأدبية. عندما أريد أن أتخيلها أجعل ذهنى يتعلق بوحمة كانت على ساعدها البض، كمن يحدق فى علامة ترقيم فى جملة غامضة. ربما لو كانت تستخدم

كمية أكبر من المساحيق على وجهها، أو حتى كانت تستخدمها على نحو دائم لاستطعت الآن أن أتخيل وجهها، أو على الأقل تلك الأخاديد الناعمة المتقاطعة على شفتيها المخضبتين بأحمر الشفاه. ولكنى أخفق، أخفق دائما رغم أنى ما زلت أحس بلمسها المراوغ فى الحين بعد الحين كإحساس لاعب فى لعبة (الاستغماية) التى تمارسها حواسى فى ذلك الحلم عندما يتشبث كل منا بالآخر على نحو أخرق من خلال ضباب رقيق يجلب الحزن، فلا أستطيع أن أطالع لون عينيها المغرورقتين بالدمع لأن بريقها الأجوف يغمر حدقتيها.

كانت أصغر سنا منى بكثير، ليس بهذا العدد من السنين الذى كان بين ناتالى ذات الأكتاف العارية والأقراط الطويلة، وبين بوشكين الأسمر. بيننا كان هناك هامش لممارسة ذلك النوع من الرومانسية الذى أغراها بالتشبه بعبقرية فذة حتى دون أن تفهم شعره؛ فى حرصها وحذرها وفحشها، حتى رغم الطعنة التى تسفر عن تحول عينيها اللوزيتين إلى صديقها الأشقر كاسيو من تحت مروحتها المحلاة بريش الطاووس. ورغم ذلك أحبت شعرى وكانت نادرًا ما تتثاءب لدى سماعه مثلما كانت الأخرى تتثاءب فى كل مرة تتعدى فيها قصيدة زوجها حجم السونيتة(*). لو كانت مخلصة لى لأخلصت لها. ولكنى أظن أن الذى كان يجذبها نحوى هو ذلك الغموض فى شعرى لا غير. ثم راحت تصنع فجوة فى حجابه فرأت وجهًا غريبًا كريهًا.

---

(*) قصيدة كلاسيكية من أربعة عشر سطرًا. (المترجم)

وكما تعرف فإننى كنت أنوى منذ فترة طويلة أن أحذو حذوك فى رحيلك الميمون. وصفت لى عما لها كان يعيش، كما قالت، فى نيويورك. كان يعلِّم الفروسية فى إحدى مدارس الجنوب وانتهى به الأمر بالزواج من سيدة أمريكية غنية وأنجبا بنتا ولدت صماء. أخبرتنى أنها فقدت عنوانهم منذ فترة طويلة ولكننا عثرنا على العنوان بعد ذلك بأيام قليلة بما يشبه المعجزة. وكتبنا رسالة مثيرة لم نتلق أى رد عليها حتى هذه اللحظة! لم يقلقنى ذلك كثيرًا، فقد تلقيت استمارة مختومة من البروفسير لومشنكو من جامعة شيكاغو. ولكننى لم أستطع إنجاز الأوراق المطلوبة بعد أن بدأ الغزو حيث توقعت أننا لو بقينا فى باريس لما عدمت، عاجلا أو آجلا، واحدًا من بنى وطنى المخلصين يسعى للوشاية بى عند من يهمهم الأمر، ويدلهم على فقرات عدة فى أحد كتبى أقيم فيه الدليل على أن ألمانيا فوق كل خطاياها الشائنة سوف تظل دائمًا وإلى الأبد أضحوكة العالم.

وعلى ذلك النحو بدأنا شهر العسل المشئوم، آمالنا محبطة ونفوسنا منسحقة أثناء رحيلنا الأشبه بسفر الخروج، ننتظر قطارات لا تعمل وفق مواعيد محددة، ولا تقصد محطات معلومة. نجتاز ميادين خربة ومدنا ذاهلة، نحيا على الدوام فى نفق الإعياء المظلم. كنا نهرب وكلما أمعنا فى الهرب لمسافات أطول كان يقينى يزداد بأن ما كان يدفعنا دفعًا كان أكثر من أن يكون جنديا تافها مخدوعًا يسير على نعلين ثقيلين، كان شيئًا يرمز له فى الواقع، شيئًا بشعًا لا يمكن تحسسه، كتلة ضخمة من الرعب الأزلى الذى لا ينتمى للزمان ولا يشمله التعريف

ما تنفك تدفعنى من الخلف حتى الآن وأنا فى هذه البقعة الخضراء من الحديقة العامة.

والحق أنها تحملت ذلك بشجاعة كافية، أو قل بنوع من الابتهاج الذاهل. ولكنها فجأة بدأت تنشج ونحن فى عربة قطار يرثـى لحالهـا وقالت: الكلب، الكلب الذى تركنـاه... لا أسـتطيع أن أنـسى الكلـب المسكين. أحسست الصدق فى حزنها. قلت: ولكن لم يحدث أن امتلكنـا كلبًا. قالت: أعرف ذلك ولكنى تخيلت أننا اشتريناه بالفعل، كلب الصيد الذى كنا ننوى شراءه، أتخيله الآن خلف الباب المغلق يئن ويعوى. لـم يحدث أيضًا أن تحدثنا عن شراء كلب.

لا ينبغى أن أنسى أيضًا ذلك المشهد البائس على جانب الطريق العام. منظر أسرة من اللاجئين، امرأتان وطفل، وقد مات عنهم الأب، أو الجد فى الطريق. كانت السماء ملبدة بخليط من سحب داكنة وأخرى فى لون البشرة مع إشراقة شمس مفاجئة خلف تـلال مغطـاة بغيـوم كثيفة. كان الرجل المتوفى يرقد على ظهره تحت شجرة سنط يعلوهـا التراب. حاولت المرأتان، بعصا تارة وبيديهما تارة أخرى، حفر قبـر على جانب الطريق، ولكن التربة كانت صلبة جعلتهما تنكـصان عمـا انتوياه وتجلسان كلٍ على مقربة من الأخرى بين أشـجار الخـشخاش الواهنة على مبعدة من الجثمان المسجى وقد ارتفعت لحيته فى الفضاء. ولكن الصبى واصل الخدش والتكسير حتى صادف حجرًا صلدًا جعلـه ينسى الهدف من جهوده العقيمة فقعد على عجزيه من شـدة الإعيـاء.

كانت رقبة الصبى عارية نحيفة تكشف عن فقرات عموده الفقرى وكأنها مجهزة لسيف جلاد. لبث يراقب فى دهشة، وشىء من بهجة، آلافا من النمل الأسمر الدقيق يضطرب فى سيره فى خطوط ملتوية، ويتبعثر فى وجهته إلى بقاع أكثر أمنا. وأخيرًا توقفنا أنا وهى عند نهر بو على الحدود الإسبانية.

كان السفر أيامها إلى إسبانيا محفوفا بالمخاطر، ولذا قررنا الرحيل إلى نيس. وفى مكان ما يقال له فوجيريه (محطة يتوقف عندها القطار عشر دقائق)، خرجت من القطار شاقا طريقى بصعوبة من بين الحشود البشرية لشراء بعض طعام، وبعد دقيقتين عدت فلم أجد القطار، وفى فظاظة مقيتة أخبرنى الرجل الهرم المخبول المسئول عن هذه الورطة الشنيعة، أننى كنت مخطئًا وأنه لم يكن لى الحق فى أن أنزل من القطار. طالعت قشرة برتقال استقرت وحيدة بين قضبان عارية محايدة لا تأبه يلتمع عليها تراب الفحم، وترزح تحت سياط القيظ التى لا ترحم.

فى عالم أفضل من هذا كان يمكن أن أجد زوجتى معززة مكرمة فى مكان ما، وأجد من يدلنى إلى ما ينبغى عمله (كانت التذكرتان معى وأغلب النقود). باءت بالفشل محاولاتى الجنونية مع التليفون، وقررت أن أضرب صفحًا عن سلسلة مزعجة من الأصوات الخفيضة التى تعوى قادمة من المسافات البعيدة كلما رفعت السماعة. أرسلت برقيتين أو ثلاثًا أعتقد أنها الآن فى الطريق! وفى آخر النهار

اخذت قطار مونبلييه (القشاش) الذى لن يتوقف قطارها عند أبعد منه. ولما لم أجدها هناك أصبح أمامى خياران: أن أواصل ناحية الغرب فلعلها أخذت قطار مرسيليا الذى لم ألحق به، أو أن أعود إلى فوجيريه فقد تكون قررت العودة إلى هناك. لقد نسيت الآن أى اضطراب أصاب عقلى جعلنى أذهب إلى مرسيليا ونيس.

وبالإضافة إلى الإجراءات الروتينية كتقديم معلومات خاطئة عن أماكن لا يتوقع منها العون، فإن البوليس لم يفعل شيئًا لمساعدتى، أحدهم جأر فى أذنى لأنى كنت مصدر إزعاجه، وآخر لم يجبنى عن سؤالى وظل يشكك فى صحة قسيمة زواجى لأنه وجد الختم، حسب زعمه، فى غير المكان المخصص له. وراح ثالث، وكان ضابطا مسئولا ذا عينين بنيتين براقتين يعترف لى بأنه كان يقرض الشعر فى أوقات فراغه. بحثت عن معارفى من بين الكثير من الروس الذين يقيمون إقامة دائمة فى نيس، أو ممن يقيمون لأنهم عدموا المال والوسيلة التى تمكنهم من الرحيل. وعندما سمعت اليهود يتحدثون عن أقرباء لهم كانوا يساقون للهلاك فى قطارات الموت اكتسبت حالتى، على العكس، جوا بعيدا عن الواقع لا يناسب المقام بينما كنت جالسا فى مقهى مزدحم وأمامى البحر الأزرق وإلى مسمعى يتناهى الحديث المعاد وراء المحيط، وأساليب موظفى السفارات وأهوائهم.

وبعد أسبوع من وصولى استدعانى ضابط تحريات بطىء الحركة واصطحبنى خلال شارع ملتو رائحته كريهة إلى مبنى

مصبوغ باللون الأسود عليه لافتة تحمل كلمة "فندق" تكاد تختفى وراء القذارة وفعل الزمن. هناك، قالوا إنهم وجدوا زوجتى. كانت الفتاة التى خرجت علىَّ غريبة عنى، ولكن حبيبنا هولمز الضابط ظل فترة يحاول إقناعنا بأننا زوجان بينما كان رفيق فراشها مفتول العضلات يستمع صامتًا وهو يقف صالبًا ذراعيه على صدره العريض.

وعندما انتهيت من أولئك الناس عدت إلى الحى الذى أسكن فيه، وتصادف أن مررت فى طريقى بطابور يتدافع فيه الناس بالمناكب أمام محل للمواد الغذائية. هناك، فى نهايته كانت زوجتى تقف على رءوس أصابعها تحاول إلقاء نظرة على ما كانوا يبيعونه. أتذكر أن أول شىء قالته لى إنها كانت تتمنى أن يكون برتقالا.

بدت لى روايتها عادية مألوفة، ولكنها مكتنفة بالغموض مغرقة فى السذاجة. عادت إلى فوجيريه وذهبت مباشرة إلى المفوضية بدلا من السؤال عنى فى المحطة حيث كنت قد تركت لها رسالة. وعرض عليها بعض اللاجئين أن تنضم إليهم، وقضت ليلة فى محل لبيع الدراجات كان خاليا من الدراجات، ونامت على الأرض مع ثلاث سيدات أكبر منها سنًا. رقدن، كما قالت، على الأرض فى صف مثل ثلاثة ألواح من الخشب. وفى الصباح اكتشفت أنها لم تكن تملك نقودًا كافية للوصول إلى نيس. وأخيرًا اقترضت من إحدى هؤلاء السيدات وركبت القطار الخطأ وذهبت إلى مدينة لا تتذكر اسمها. وصلت إلى

نيس منذ يومين. وهناك وجدت بعض الأصدقاء في الكنيسة الروسية أخبروها بأنني كنت أبحث عنها وسوف أظهر في أية لحظة.

وبعد ذلك بوقت قصير، وبينما كنت جالسًا على حافة المقعد الوحيد في حجرتي واضعا يدي على ركبتيها البضتين (كانت تمشط شعرها الناعم وتقذف برأسها للخلف مع كل جرة مشط)، تحولت ابتسامتها الباهتة فجأة إلى ارتجافة غريبة، ووضعت يدها على كتفي وهي تحدق في وجهي كما لو أنني تحولت إلى صورة منعكسة على ماء بركة تراها لأول مرة وقالت:

- كنت أكذب عليك يا حبيبي، لقد أقمت في مونبلييه عدة ليال مع رجل أحمق قابلته في القطار. لم أكن أريد ذلك البتة. كان يبيع مستحضرات تجميل.

الزمان، المكان، العذاب. مروحتها، قفازاها، قناعها(*) قضيت تلك الليلة وليالي أخرى كثيرة أحاول استخراج الحقيقة منها شيئًا فشيئًا. كنت تحت تأثير وهم غريب بأنني يجب أولا أن أضع يدي على كل صغيرة وكبيرة وأعيد تفسير كل لحظة وكل دقيقة، وساعتها أقرر إذا ما كنت أستطيع تحمل الأمر. ولكن حد المعرفة المطلوب كان بعيد المنال، ولم يكن في وسعي التنبؤ بالنقطة التي يصح عندها أن أقول إنني اكتفيت.

(*) عبارة وردت في مسرحية عطيل حين تمكن منه الشك في سلوك ديديمونة. (المترجم)

فى البداية كانت من الإرهاق بحيث لم تأبه لشيء. وفى المرة الثانية لم تأبه لشيء لأنها كانت تعرف أننى هجرتها. وبقى الوضع على ذلك النحو إلى ما لا نهاية، تعتل صحتها بين الحين والحين ولكنها لا تلبث أن تنشط من جديد وتجيب عن أسئلتى المحرجة فى همس لاهث، أو تحاول، بابتسامة هزيلة، التخلص منها باللجوء إلى الأمان الجزئى الذى تجده فى التعليقات غير ذات الصلة بالموضوع، وأنا أعض على نواجذى حتى يتفصد الدم من فكى ويصيبنى ألم فظيع أراه أحب إلىّ من ألم احتمالها الذليل.

لاحظ أننا فى الفترات التى تتخلل ذلك التحقيق كنا نسعى للحصول، من سلطات لا ترغب فى مساعدة أحد، على أوراق معينة نستطيع بموجبها أن نحصل على أوراق أخرى تمكننا من التقدم للحصول على نوع ثالث من الأوراق ينفعنا كوسيلة للحصول على رخصة تسوغ لحاملها التقدم للحصول على الأوراق الأخرى التى قد تتيح أو لا تتيح أن يكتشف كيف ولماذا حدث ما حدث.

ولم نزل كذلك حتى لم يتبق شيء إلا أن يعذب كل منا الآخر، وينتظر بلا توقف أمام مبنى المحافظة، نملأ الاستمارات ونتشاور مع الأصدقاء الذين سبروا أسرار استخراج الفيزات، ونتوسل للسكرتيرات ونملأ استمارات جديدة حتى أصبح صديقها الشهوانى متعدد المواهب، البائع المسافر، مرتبطًا فى ذهنى بخليط مروع من الموظفين الذين لا تجد غير شعيرات قليلة نمت فى لحاهم فأصبحت كلحى الفئران، ولا

يملون من نهر الناس وزجرهم، والأكوام العفنة من سـجلات كريهـة الرائحة منبعثة من الأحبار البنفسجية، والرشاوى التى تتسلل مغلفة فى ورق التنشيف، وأعداد الذباب الضخمة التى تلسع الأعناق الندية بأرجل سريعة مبطنة بالبرد، والصور الفوتوغرافية المدموغة حـديثا كئيبـة الشكل لنظراتك الستة، والشد والجذب فى الاستجوابات القاسية، وتلـك الابتسامة المريعة على وجه الرجل الأصلع ذى النظارات الذى أخبروه بأنهم لم يجدوا جواز سفره.

أعترف لك بأنى ذات مساء، وبعد يوم طويل شاق، تهالكت على أريكة حجرية وانخرطت فى بكاء مرير ورحت ألعـن ذلـك العـالم المزيف الذى يخدع فيه ملايين البشر على أيدى موظفى السفارات قساة القلوب وضباط الجوازات الذين لا يرحمون، لاحظت أنها أخذت تبكى أيضا، عندئذ قلت لها إنه لم يكن ليهمنى شيء كما يهمنـى الآن لـولا فعلتك التى فعلتها. قالت وقد اتقد حماسها حتى إننى اعتقدت أنها تحس كسائر الناس:

- لعلك تظننى حمقاء مخبولة، ولكنى لست كذلك، لست كما تظـن أقسم على ذلك. ربما عشت حيوات عدة فى وقت واحد، وربمـا أردت أن أختبرك.

لا أريد أن أكون مملا وأسرد لك التفاصيل الثانويـة المتـصلة بالمراحل المختلفة التى مررت بها قبل أن أقبل آخر الأمـر روايتهـا الأولى حول تأخرها. أصبحت لا أتحدث معها وكنت أجلـس وحيـدًا

أغلب الوقت. كانت تظهر ولا تلبث أن تختفى وتظهر مرة أخرى وفى يدها شىء تافه ظننت أنه سيلفت نظرى، حفنة من حبات الكرز أو ثلاث سجائر من نوع غالى الثمن وما إلى ذلك. راحت تعاملنى بعذوبة هادئة صامتة وكأنها ممرضة تذهب وتجىء أمام مريض فظ يتماثل للشفاء. توقفنا عن زيارة أغلب أصدقائنا بعد أن توقفوا عن الاهتمام بأخبار جواز سفرى وتحولوا إلى غير الود المعهود. ضممتها ذات يوم إلى صدرى الحزين، وذهبنا لمدة أسبوع إلى كابول، رقدت هناك على حصباء الشاطئ التى اتخذت لونا قرنفليا خلابا. والعجب أنه كلما بدت علاقتنا أكثر سعادة كان يقوى عندى الشعور بتيار خفى من الحزن الممض، بيد أنى كنت أعزى نفسى بأن ذلك لم يكن إلا ثمنا أوليا للنعيم المنتظر.

فى ذلك الوقت حدث ما غير مجرى حياتنا. خرجت أخيرًا من أحد المكاتب الحكومية المظلمة سيئة التهوية وفى يدى المرتعشة تأشيرتا خروج ناعمتا الملمس تفوح منهما رائحة العالم الجديد. انطلقت إلى مرسيليا وتمكنت من الحصول على تذكرتين على أول سفينة مبحرة. عدت إلى البيت وارتقيت الدرج فى سرعة خاطفة. رأيت وردة وضعت فى كأس فوق المنضدة. كانت الكأس ذات لون قرنفلى جميل فيما راحت فقاعات هواء متطفلة تتعلق بجسمه من الخارج. فستاناها الاحتياطيان اختفيا. مشطها اختفى، سترتها ذات المربعات اختفت، وكذلك طوق شعرها البنفسجى وقبعتها. لم تترك رسالة ولا ملاحظة تثبتها بدبوس على الوسادة. لم يكن بالحجرة شىء يدلنى على رحيلها

المفاجئ، ولكن الوردة فى الواقع كانت مفتاح الكمان ليس غير كما يقول شعراء الدرجة الثالثة الفرنسيون.

ذهبت إلى أهل فرتكيوف ولم يخبرونى بشيء، أهل هلمان رفضوا التفوه لى بكلمة، وأهل إليجوين ترددوا ولم أخرج منهم بشيء. وأخيرا ذهبت إلى السيدة العجوز، وأنت تعرف من تكون آنا فلاديميروفنا فى اللحظات الحاسمة، طلبت منى أن أحضر لها عكازها الذى غطت أعلاه بقطعة من المطاط. وبمشقة ولكن بنشاط أزاحت جسمها اللحيم من فوق مقعدها المجنح الأثير لديها واصطحبتنى إلى الحديقة. هناك أخبرتنى بأن لديها الحق – لأنها فى ضعف عمرى تقريبًا – لأن تنعتنى بالوغد المتعنت.

عليك أن تتخيل المشهد، حديقة مفروشة بحصباء صغيرة، وشجرة سرو وحيدة، وأريكة متداعية كان والد تلك السيدة ينام عليها وعلى ساقيه بطانية. كان يقضى أمسيات قليلة فى نيس بعد أن أحيل للمعاش من منصبه كحاكم نوفوجور. كانت السماء خضراء شاحبة، والهواء محملا برائحة العشب، والغسق يزداد قتامة فيما راحت صراصير الليل تنشر أصواتها المرتجفة الرنانة. كانت آنا فلاديمتروفنا يجلس وقد تدلت ثنيات وجنتيها المرتجفة عندما قذفت فى وجهى بإهانة أمومية لا أستحقها.

وأثناء الأسابيع المنصرمة يا عزيزى "فى"، كانت زوجتى، التى أضحت سرابا الآن والحمد لله، كلما زارت واحدة من الأسر الثلاث أو

الأربع التى يعرفها كلانا، تملأ الآذان المشغوفة لهؤلاء الناس الطيبين بقصة وهمية. على سبيل المثال أخبرتهم أنها وقعت فى الحب الجنونى مع شاب فرنسى استطاع أن يوفر لها منزلا ببرج ونسبًا تفخر به. وأنها ناشدتنى الطلاق ولكنى رفضت، وأننى قلت لها إننى أفضل أن أطلق الرصاص عليها وعلى نفسي على أن أبحر إلى نيويورك وحدى. وقالت إن أباها تصرف فى حالة كهذه تصرف الرجل النبيل فلماذا لا أفعل مثله؟، وأننى أجبتها بأننى لا أهتم بما فعله "أبوها الديوث" (قالتها بالفرنسية).

لم أذكر لك ذلك الكم الهائل من التفاصيل المتصل بهذه الروايات المنافية للطبيعة والعقل السليم، بيد أنها تدخل جميعًا تحت هذا النمط اللافت، حتى إن العجوز جعلتنى أقسم أمامها ألا أسعى لمطاردة العاشقين بمسدس مردود الزناد للوراء استعدادًا للرمى. لقد ذهبا، قالت، إلى بيت ريفى فى لوزير. سألتها: هل كانت تعرف الرجل من قبل؟ قالت: لا، ولكنها رأت صورة فوتوغرافية له. وعندما هممت بالانصراف مدت لى فلاديميروفناء التى هدأت أعصابها قليلاً، أصابع يدها الخمسة الممتلئة لأقبلها، وفجأة استشاطت غضبًا من جديد وضربت الحصى بعكازها وقالت فى صوت عميق قوى: ولكن شيئًا واحدًا لن أسامحك فيه: كلبها، ذلك الحيوان المسكين الذى خنقته بيديك قبل رحيلكما إلى باريس.

وسواء تحول السيد المبجل إلى بائع مستحضرات تجميل مسافر،

أو أن المسخ جاء بالعكس، أو حتى لم يكن هـذا ولا ذاك وكـان هـو الروسى الفظيع الذى كان يغازلها قبل زواجنا، كل ذلـك لـم يكـن ذا أهمية جوهرية. فلقد رحلت، وتلك هى نهاية القصة. لقد كنت غبيا حين بدأت مسألة البحث الجنونية عنها وانتظارها.

فى الصباح الرابع من رحلتى البحرية الموحشة قابلت على متن السفينة طبيبًا شيخا وقورًا ولكنه مرح، كنت قد لعبت معه الشطرنج فى باريس. سألنى ما إذا كانت زوجتى لا ترتاح للبحار العاصفة، وأجبتـه بأننى وحدى، عندئذ رمانى بنظرة وجلة وكأنما فوجئ، ثم قال إنه رآها قبل يومين من السفر، أى فى مرسيليا، تسير على ما يبدو دون هـدف عبر الجسر وقالت إننى سوف ألحق بها بالحقيبة والتذاكر.

هذه، كما أتصور، خلاصة القصة، ولو كنت أنت الذى كتبتهـا لما رأيت أن يكون طبيبًا، لأن هذا النوع من البشر يكون دائمًا منهـك القوى كثير التعب. لقد عرفت من حكاية الطبيب أن زوجتى ذهبت إلى غير رجعة. دعنى أخبرك بشىء آخر. عندما وصلت إلـى نيويـورك كنت أريد إشباع حب استطلاع عندى بأى ثمن، فتشت عـن العنـوان الذى أعطته لى ذات مرة وتبين أنه لم يكن إلا أرضًا فضاء مجهولـة المالك بين عمارتين، بحثت عن اسم عمها فى الدليل ولم أجد له أثـرًا. قمت ببعض التحريات فأخبرنى جيكو الذى يعرف كل شىء أن الرجل وزوجته المفتونة بالخيل كانا يقيمان هناك بالفعل، ولكنهما انتقلا إلـى سان فرانسيسكو بعد أن ماتت ابنتهما الصماء.

أحس الآن وأنا أكتب هذه السطور بأن قصتنا الغرامية المهترئة تهوى فى واد سحيق من ضباب ثقيل بين صخور عاتية لجبلين حقيقيين. كانت الحياة قبلها صادقة نقية، وستكون الحياة بعدها صادقة نقية كما آمل، وربما ليس فى الغد القريب، ولكنى أثق فيما بعد الغد. وأنت أيها الهرم الفانى، كيف حال الدنيا معك؟ وكيف حال الأسرة الكريمة، كيف حال إنيه والتوأم؟ وماذا فعلت مع الجدرى؟ لا أظنك محاولا فهم حكايتى تأسيسا على ما يجرى بين بنى البشر. وأغلب الظن أن بيانك الساحر سيضىء الطريق.

ولكن هون عليك وتبا لفنك وسحر بيانك، فأنا شقى شقاءً لا يحيط به وصف. إنها ما فتئت تروح وتجىء أمام شباك سمراء منشورة لاستقبال الشمس على شرائح من صخور متقدة، وضوء الماء الأرقش يرقص فى دعة على قارب صيد مشدود إلى الشاطئ. فى مكان ما وعلى نحو ما اقترفت خطًا قاتلا. ثمة قطع صغيرة مجندلة شاحبة من حراشف السمك تتلألأ هنا وهناك فى الشباك السمراء. ربما ينتهى بها المطاف فى حلب إذا لم يخب ظنى. سامحنى يا سيد "فى"، فلسوف تحمل نفسك ما لا تطيق إذا عددت ذلك عنوانًا لقصتى.

# الشجرة الثانية على الناصية
# (١٩٤٨)

**إيه. بي. وايت**

سأله الطبيب:

- ألم يحدث أن طافت أفكار شاذة برأسك؟

أخفق السيد تريكسلر في فهم السؤال وقال:

- أفكار؟ من أي نوع؟

- أفكار غريبة؟

كرر الطبيب سؤاله وراح يراقب مريضه لعله يلاحظ أي تغيير في تعبيرات وجهه، أي إجفال. بدا لتريكسلر أن الطبيب لم يكن يراقبه عن قرب فحسب، وإنما كان يزحف ناحيته ببطء مثل سحلية تزحف ناحية بقة. دفع تركسلر مقعده مقدار بوصة إلى الوراء وبدأ يستجمع قواه للرد على الطبيب. كاد يهم بالإجابة بنعم لولا أنه تذكر أنه إذا أجابه بنعم فلن يستطيع الإجابة عن السؤال الذي يليه. أفكار شاذة؟

أفكار شاذة؟ هل حدث أن طافت برأسه أفكار شاذة؟ وأية أفكار طافت برأسه غير الأفكار الشاذة منذ أن كان فى الثانية؟.

أحس تريكسلر بالوقت يمر. الحاجة ماسة لإجابة. هؤلاء الأطباء النفسيون ليس لديهم وقت وأعباؤهم فوق الطاقة، لا ينبغى أن نتركهم ينتظرون. المريض الآخر قد يكون جاثمًا الآن فى غرفة الانتظار، يتقلب على الكنبة وحيدًا قلقًا. قال تريكسلر فى نفسه: يا له من مسكين ضائع! يجلس وحيدًا فى تلك الغرفة الكئيبة ويحدق فى خزانة الملفات ويسأل نفسه: هل يخبر الطبيب بما حدث فى ذلك اليوم فى «أوتوبيس» شارع ماديسون؟.

دعنا نرى! أفكار شاذة! راح تريكسلر يتنقل جيئة وذهابا عبر دهليز السنين المظلم، لعله يجد شيئًا. أحس بعينى الطبيب لم تبرحه، وأدرك أن الوقت كان يمر سريعا. دعك من التفاصيل الدقيقة، قال فى نفسه، فإذا كان يقصد أفكارا شاذة فيكفى أن تمد يدك فى الجراب وتخرج أى شيء وكفى. رجل مثلك لديه مخزون لا ينضب من الأفكار الشاذة لا يعجز عن إخراج إحداها ليؤدى الطبيب عمله. أبحر تريكسلر فى الجراب وتردد أمام واحدة من أفكاره. لا، ليست هذه، همس لنفسه. غاص ثانية فى الحقيبة يلتمس فكرة أخرى. طافت بذهنه فكرة قرد الريص(*). توقف وتأملها. "لا، ولا هذه"، قال فى نفسه.

---

(*) قرد هندى صغير قصير الذيل يستخدم فى الأبحاث الطبية. (المترجم)

أدرك تريكسلر أنه يجب أن يسرع. لقد استغرق أربعة ثوان بالتمام والكمال منذ أن سمع السؤال. بيد أن الموقف كان عسيرا وبغيضا. أين الجراب؟ سأل نفسه وأبحر من جديد. توقف هذه المرة في مصحة للأمراض العقلية. كانت خصاص النوافذ مخددة ومغطاة بمادة صمغية سهلة الضم. قال في نفسه: لا، ليس هنا، ليست هذه أيضا.

ألقى نظرة فاحصة على الطبيب وقال في سكينة:

- لا، لم يحدث أن طافت بذهني أفكار شاذة.

راح الطبيب يمص غليونه مطلقا ذيلا من الدخان ناحية صفوف الكتب الطبية.

تابع تريكسلر الدخان بعينين محدقتين. استطاع فهم أحد العناوين: "الجهاز البوليتناسلي". اجتاحته موجة من الخوف وجفل لتذكر آلامه الأولى عندما عانى من حصوة في كليته. تذكر عندما كان طفلا ودخل عيادة طبيب أول مرة في حياته. اختلس نظرة إلى عناوين الكتب فغلبه الخوف وابتل قميصه تحت إبطه. كان الكتاب عن مرض السل. تذكر المعرفة المفاجئة بأنه يمر بمراحله الأخيرة، والرؤية السريعة للنزيف. تنهد تريكسلر في إعياء شديد وقال في نفسه: "أربعون عاما مضت ولا زلت أرزح تحت وطأة عنوان لكتاب طبي!. أربعون عاما مضت وأنا عاجز عن الاستقرار على حصان الحياة الحرون!. لا عجب إذن أن أجلس هنا، في هذا المكان الكئيب في نهاية

أصيل مثقل بالهموم، أدارى أفكارى الشاذة عن هذا الطبيب الذى يبدو عليه التعب.

الجلسة تقترب من الانتهاء. بعد عشرين دقيقة نهض الطبيب ونفض غليونه. استيقظ تريكسلر ونفض الرماد من عقله وانتظر. لاحت من فم الطبيب ابتسامة حانية وأشار بيده إشارة مفاجئة وقال:

- لا يوجد عندك ما تشكو منه، أنت خائف وحسب. هل تريد أن تعرف كيف عرفت أنك خائف؟

- كيف؟ سأل تريكسلر.

- انظر إلى المقعد الذى جلست عليه! انظر كيف زحف للوراء بعيدًا عن مكتبى. لقد كنت ترجع للوراء بعيدًا عن المكتب كلما طرحت سؤالا عليك. هذا يعنى أنك خائف.

قال تريكسلر وهو يتظاهر بابتسامة عريضة:

- هل هذا ما يعنيه حقا؟

ثم أردف فى صوت خفيض:

- نعم.. أظن الأمر كما تقول.

و بعد أن تصافحا استدار تريكسلر وخرج غير واثق مما انتهى إليه الطبيب. اجتاز الممر إلى حجرة الانتظار ومر أمام المريض المنتظر، رجل ذو بشرة حمراء يعلق شارة على سترته ويجلس على

الكئبة يحرك قبعته بكلتا يديه فى عصبية، ويحدق أمامه مباشـرة فـى الملفات. قال تريكسلر فى نفسه: يا له من رجل خائف مسكين، لعلـه قرأ فى التايمز أن واحدًا من الأمريكيين الذكور من كل اثنين سيموتون بمرض القلب فى تمام الثانية عشرة يوم الخميس. تنشر الجريدة ذلـك عمدًا كل صباح تقريبًا. أو لعله يتذكر الآن ذلك اليوم فى «أوتـوبيس» شارع ماديسون.

بعد أسبوع كان تريكسلر على مقعد الطبيب مرة أخـرى. ظـل مواظبا على زيارة الطبيب بعد ذلك طوال أسابيع عدة. كـان يـذهب دائمًا وقت الأصيل عندما يحس بالأبخرة تعلق كثيفة على بركة عقلـه موقعة كآبة على فترة السبعينيات كلها. لم يشعر بتحسن مـع مـرور الوقت، وأدرك أن العمل أصبح مستحيلاً. اكتشف أن الزيـارات فـى سبيلها إلى روتينية مقيتة لا يحبها، بيد أنه قبلها فى تنازل غير مكترث كما فعل ذات مرة منذ سنوات عندما قضى فترة عند طبيب أسنان راح يتسلى بزوج من أسنان تالفة عنده. فضلا عن ذلك فإن الزيارات كانت قد اتخذت الآن طابعا مألوفا لديه.

فى كل مرة كان يقوم بسرد مجمل الأعراض – الدوخة وهو فى الشارع، الألم المصحوب بتقلصات خلف الرقبة، المخاوف مـن شـر مرتقب، شد وتقلص فى فروة الرأس، العجز عـن التركيـز، نوبـات القنوط والكآبة والإحساس بالضغط والتوتر، والغضب بسبب العجز عن العمل، وضيق الصدر بسبب عمل لم يتم، والغازات فى المعدة. أكثـر

الأعراض العصبية كآبة ومدعاة للملل، قال تريكسلر فى نفسه وهو يسترجعها فى ذاكرته استعدادًا لملاقاة الطبيب. وبعد أن كان الطبيب ينصت لرواية تريكسلر كان يطلق سؤاله المعهود: ألم تصادف فى حياتك شيئًا يمنحك الراحة؟. وكان تريكسلر يجيبه: "نعم... الشراب". وكان الطبيب يومئ برأسه إيماء العارف.

وإذ كان قد ألف هذا الأسلوب وجد تريكسلر نفسه يميل إلى تقمص شخصية الطبيب وقال فى نفسه: لأجلسن على مقعد الطبيب، ولتكن هذه حيلة من حيل الهروب. على كل حال لم تكن هذه أول مرة يتقمص فيها تريكسلر شخصيات الآخرين. فعندما كان يستقل سيارة أجرة لا يلبث أن يصبح السائق نفسه. يرى كل شىء من موقع السائق، يشير بيده اليمنى علامة على الوصول ويرفع الراية وينكسها برفق. كان يرى كل شىء: حركة المرور من خلال عيون أنتونى روكو أو أيزودورو فريدمان أو ماثيو سكوت. فى دكان الحلاق كان تريكسلر يضع نفسه مكان الحلاق. كانت يده تلتف حول المشط، ويده الأخرى على سائل فروة الرأس. لم يكن غريبا إذن أن يحتل تريكسلر مقعد الطبيب بهذه السرعة، يطرح الأسئلة وينتظر الإجابات. لقد جعله هذا يهتم بالطبيب أيما اهتمام. أحبه ولم يجد فيه ما يكدر الصفو.

فى الزيارة الخامسة، منتصف الرحلة، استدار الطبيب ناحية تريكسلر وقال له:

- ماذا تريد؟ وظل يضغط على كلمة تريد.

أجاب تريكسلر في قلق:

- سوف أعرف، أعتقد ألا أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال غيرى.

قال الطبيب:

- بالعكس، إنهم يجيبون عن مثل هذه الأسئلة.

سأله تريكسلر مستجمعا قواه:

- هل تعرف أنت ماذا تريد؟

فى تلك اللحظة أحس تريكسلر أن مقعد الطبيب تراجع قليلا للخلف بعيدا عنه. أجهض تريكسلر ابتسامة خفيفة وقال فى نفسه إن الطبيب أصبح كالأرنب المذعور. انظر إليه وهو يتراجع بسرعة. واصل تريكسلر مستفيدا من الموقف أقصى ما يستطيع:

- ماذا تريد؟

انزلق الطبيب بوصة أخرى للوراء بعيدا عن مستجوبه وقال:

- أريد جناحا فى المنزل الصغير الذى أمتلكه فى ويستبورت. أريد مالا أوفر ووقتا أكثر لعلى أفعل الأشياء التى أريد أن أفعلها.

هم تريكسلر أن يسأله: وما هذه الأشياء التى تريد أن تفعلها يادكتور؟، ولكنه توقف وقال فى نفسه: الأفضل ألا أفقد السيطرة على الكرة. وفضلا عن ذلك ماذا يجرى داخل هذه العيادة، أدفع خمسة عشر

دولارا من أجل هذه الجلسات ثم أقوم بالعمل بنفسى، أطرح الأسئلة وأزن الإجابات ثم يريد جناحا فى بيته!. لك عندى قطعة من الشاش الأبيض ادخرتها لك! جناح جديد!!.

عاد تريكسلر من جديد واستعاد موقعه على مقعد المريض بقية وقت الزيارة. انتهت الزيارة بملاحظة مشجعة أبداها الطبيب. أكد له أن مخاوفه لا أساس لها من الواقع. صافح كل منهما الآخر وعلى وجهه ابتسامة. خرج تريكسلر مصابا بدوار واجتاز حجرة الانتظار الخالية وشيعه الطبيب إلى الباب. كان الوقت متأخرًا. أغلقت السكرتيرة العيادة وذهبت. قصد شارع ماديسون فى الغرب. فكر فى الطبيب الذى تركه وحيدا هناك بعد ساعات، فى تلك الحفرة الكئيبة. رجل يعمل أكثر من سكرتيرته، مسكين، خائف وضائع ومثقل بالهموم، ثم بعد ذلك يريد جناحا!. قال تريكسلر فى نفسه.

كان المساء صحوًا. بدا الميدان من البعد يزدان بألوان خضراء جذابة. كان ضوء النهار الأخير يسبغ لونًا فاتحًا على الجدران المبنية من الطوب أو الحجر الأسمر، يمنح الشارع سناءً مضيئًا مسكرًا.

فكر تريكسلر فيما يريد. تذكر سؤال الطبيب. كان يعرف ماذا يريد، ماذا يريد الناس جميعًا. كان سعيدًا على نحو ما. هو شيء لا يعرف كنهه ولا كيف السبيل إليه. أرضاه أن يتذكر أنه كان شيئًا خفيا طويل الأمد، لا ينتظمه شكل، عصى على التحقيق، يدفع بالرجال إلى مرض محقق، وأنه إذا تسكع المرء فى الشارع الثالث واختلس

نظرة على مداخل البيوت وإلى الصالونات خافتة الأضواء، فقد يميز من بين الطبقات الضالة أولئك الذين لم يبتلوا بالنسيان، يحدقون في قيعان الكئوس على رجاء اختطاف نظرة أخرى قصيرة إليه. وجد تريكسلر نفسه يستعيد عافيته عندما تذكر أن ما كان يريده عظيم وبالغ الصغر في الوقت ذاته. وأنه رغم كونه مقتبسا من طبيعة الأعمال العظيمة والحب الفتى والأغاني القديمة والخصوصيات الأولى، لم يكن يمت بصلة لأى من هذه الأشياء، وأنه لم يكن في يوم من الأيام بالمحدد المعالم، وأن من سعى لتحديده أو تعريفه في سرية حجرة الطبيب سينقلب خاسرًا حتمًا.

أحس تريكسلر بقوة تسرى في بدنه. فجأة أصبح مرضه صحة وضعفه ثباتًا. ثمة شجرة صغيرة تقوم هناك بينه وبين الضوء مشبعة بالمساء، أوراقها مذهبة، أطرافها ثملة بالبهاء والرقة. سجل عمود تريكسلر الفقرى رجفة خفيفة كأنه يتجاوب مع هذا الاضطراب الطبيعي في المشهد الفاتن. "أتوق للشجرة الثانية على الناصية قائمة كما هي". هتف قائلا وهو يجيب على سؤال خيالى من طبيب خيالى. أحس بمسحة بطيئة من خيلاء مردها أن ما كان يتغياه لم يكن في طاقة أحد، وأن ما يملكه ليس في وسع أحد أن يسلبه إياه. أحس بالرضا لكونه مريضًا في مأمن من الخجل لأنه خائف. رأى في غمرة الخوف ريش طائر الشجاعة يخطف الأبصار.

فكر ثانية في الطبيب الذى تركه هناك وحيدًا وقد غلبه الإعياء،

مذعورا كالأرنب المطارد. قال تريكسلر في نفسه: مسكين هذا الرجل وضائع. وطفق يدندن بأغنية "هدهدة القمر". تجاوبت حواسه على الفور مع صوت ميرمان القوى المثير. عبر شارع ماديسون واستقل حافلة إلى وسط البلد. ومازال ينزل من حافلة ليركب أخرى حتى وصل إلى شارع ٥٢ قبل أن تقتحمه فكرة سماها "شاذة الفعل".

## أبناء الفلاح (١٩٤٩)

### إليزابيث بيشوب

ذات يوم في مزرعة كبيرة على بعد عشرة أميال من أقرب مدينة لها، كان يعيش فلاح مع زوجته وبناته الثلاث وولدين من زوجة سابقة، أحدهما في الحادية عشرة والآخر في الثانية عشرة. كانت الزوجة الأولى ابنة قس بروتستانتي، سيدة بسيطة وواضحة سمت ابنيها كاتو وإمرسون. ولكن زوجة أبيهما كانت سيدة رومانسية وكريمة غاية الكرم مع بناتها على الأقل، سمت بناتها لياليولا وروزينا وجراسي بل. كانت المزرعة مليئة بالحيوانات المختلفة التي توجد عادة في المزارع، الخيول والأبقار والدواجن، ورجل يعمل عندهم بأجر يدعى جود.

كانت المزرعة في الأصل ملكًا لجد الأبناء. ورغم أن بعض أجزائها كان يباع بين الحين والحين فلم تزل كبيرة جدا، أكبر من اللازم في الواقع. يقع بيت المزرعة الأصلي على مسافة ميل من البيت الجديد على الطريق القديم. أتى عليه حريق بسبب البرق منذ عشر سنوات، فانتقل جد وجدة كاتو وإمرسون اللذان كانا يعيشان فيه مع

ابنهما وزوجته الأولى إلى البيت الجديد مدة العام أو العامين اللذين عاشاهما بعد الحريق. كان البيت القديم طويلاً ومنخفضا تظلل جانبا منه صفصافة ضخمة نجت من الحريق بمعجزة، ولم تزل تكبر. كان المنزل يقع على الطريق الجديد المرصوف بالحصباء. كان منزلا عاليا أشبه بالصندوق، مطليا باللون الأصفر، ومغطى بسقف من النحاس اللامع.

وفى البيت القديم، بجوار شجرة الصفصاف، كان يقع مخزن للحبوب كان قد نجا أيضًا من النار، ولم يزل يستخدم فى تخزين التبن، ويستغل فى حفظ معظم أدوات المزرعة التى كانت غالية الثمن، تكلف دائمًا أكثر مما فى طاقة الفلاح. ولأن المخزن كان بعيدًا عن البيت وكان من السهل اقتحامه وسرقته، كان الرجل الذى يخدمهم ينام هناك كل ليلة فى كومة من التبن.

عرفنا هذه الحقائق من الجرائد بعد ذلك. وعرفنا أيضًا أنه منذ أن أصبح جود هو الأجير لدى هذه الأسرة منذ ثلاثة أشهر، كان يذهب هو وأبو الولدين إلى المدينة فى رحلات ليلية للتجارة أو لبيع قطعة جديدة من الأرض أو نحو ذلك، أو حتى لاحتساء الجعة. وفى غيابهما كان إيمرسون وكاتو يحلان محل جود فى المخزن القديم. يحرسان الحصادة وناشرة التبن والمتبنة وناشرة السماد والمسحاة... إلخ. آلات غريبة غالية الثمن ذات فكوك وأسنان وأذرع ومخالب، وذات فعل مباشر وغير مباشر وحركات غريبة غاية فى الذكاء. كانت ساكنة بلا حراك إذ لم تكن تعمل إلا حين تجرها الخيول.

وفى يوم من أيام ديسمبر كان الجو فيها باردا إلى حد مخيف، والقمر بدرًا فى كبد السماء وقد انعكس ضوءه على سطح البيت النحاسى والمساحات الصغيرة المفروشة بالحصباء من الطريق العام، بينما كان فناء المزرعة مغلقا بعيدًا عن النور.

دفعت الأم بالأطفال جميعًا خارج البيت فى نوبة من غضب لأنهم كانوا مصدرًا لضيقها بينما هى مشغولة فى إعداد العشاء. كانوا يرتدون سترات الجوخ الماكيناوية(*)، تخرج منها أذرعهم الباردة ويلعبون على رمث السفينة وحطامها. وكانت هناك كومة من الخشب فى ركن من الفناء كان الأب ينوى منذ فترة طويلة أن يصلح بها مرحاضًا خارجيًا أو شيئًا آخر. جلست ليااليولا وروزينا على الألواح فى طمأنينة وبلاهة بعيدتين عن الخطر، بينما حمل كاتو العمود الذى يشد إليه حبل الغسيل وصنع منه صاريًا يوجه منه دفة السفينة. فى الوقت نفسه كانت الطفلة جراشى بل تقف فى قلب السفينة الغارقة التى تستخدم كقن للدجاج فى الركن الآخر من الفناء، تمد ذراعيها وتنظر فى خوف وتهم بالبكاء. راح إيمرسون يسبح لكى ينقذها! مشى ببطء، وهو يضع عقب قدم على أخمص الأخرى فى كل خطوة، ويؤرجح ذراعيه فى حركات دائرية مثل الطاحونة الهوائية، وطفق يصيح بصوت لاهث:

---

(*) ضرب من نسيج الصوف الماكيناوى تصنع منه البطانيات الماكيناوية التى كانت توزعها الحكومة الأمريكية على الهنود الحمر. (المترجم)

- تحلى بالشجاعة يا جراسى بل! أنا قادم فى الحال! تكاد قواى تخور ولكن سأنقذك!.

كان كاتو يهتف فى الوقت نفسه: "السفينة تغرق! السفينة تغرق الآن!". وتردد صدى أصواتهما الصغيرة فضية الرنين عبر الريف البارد. فى ذلك الوقت بدأ القمر يستقبل الحقول وهو يشير بأصابعه النورانية فى هدوء إلى المأساة البحرية الخيالية التى تقع بعيدًا عن الماء. رفع إمرسون جراسى بل بين ذراعيه وتشبثت هى برقبته بقوة وانفجرت بالبكاء. بيد أنه استدار للخلف يريد أن يجتاز المياه بخطوات قصيرة تعلو وتنخفض فى حذر. وصرخت جراسى بل وطفق هو يردد: "سوف أنقذك يا جراسى بل". ولكنه لم يغير من سرعة خطواته.

فتحت الأم الباب الخلفى فجأة وصاحت بهما: إمرسون! أنزل هذه البنت! ألم أقل لك إنك إن جعلت هذه البنت تبكى مرة أخرى سأضربك فلا تقدر حتى على الصياح؟ ألم أقل لك؟.

- أوه يا أمى لقد كنا نمزح فقط.

- ماذا جرى لكم يا أولاد؟ تتقاتلون وتتشاجرون، تتقاتلون وتتشاجرون، ثم تصيحون وتصيحون من الصباح حتى الليل؟ وأنتما أيها الولدان، أنتما كبيران على هذه الأفعال.

وتتدفق من فمها الكلمات المزعجة على هذا النحو فى حين كان الولدان يقفان فى الفناء كممثلى المسرح. ولكن كما قال الأب ذات يوم:

"تباحها أسوأ من عضها". فقد سكتت خلال دقائق قليلة، ثم قالت بصوت خفيض بعد أن تنبهت للقمر ينشر ضوءه الجميل: "حسنا يا أولاد، لماذا تقفون هناك؟ ادخلوا البيت، فالعشاء جاهز".

وجدوا المطبخ دافئًا تفوح منه رائحة البطاطس المقلية وينتشر فيه الضوء الأصفر لمصباح الزيت القائم على المائدة يمنح الجميع إحساسًا بالسكينة. جلس الصبيان على طرف من المائدة، وجلست البنتان الكبريان على الطرف الآخر، أما جراسى بل فقد جلست في حجر أمها في نهاية المائدة. كان الأب، وجود العامل قد ذهبا إلى المدينة، وكان ذلك سببا في سوء مزاج الأم على غير العادة طوال المساء. أكلوا في صمت فيما عدا الأصوات الخفيفة التي كانت تصدر من تربيتات الأم على جراسى بل وملاطفتها لها حين كانت تعينها على شرب الشاى والحليب المحلى بالسكر من كأس أبيض. التهموا البطاطس المقلية المختلطة بشرائح لحم الخنزير، وشريحة بعد شريحة من خبز السوق، وأطباقًا من الفاكهة المعلبة، وشربوا الشاى باللبن الساخن المحلى بالسكر. كان المفرش الزيتى الذى تغطى به المائدة فى لون المولاس الخفيف الذى انتشرت عليه نتف صغيرة من نبات الخشخاش الأصفر، تتلألأ مشيعة بهجة فى النفوس. توهجت علب الفاكهة المعلبة بنقط ذات لون أحمر غامق يحيط بها لون ياقوتى شفاف. قال كاتو في سره: "الليلة ليلة كسر الخبز. وتمكن من وقت لآخر من دس أربع شرائح من الخبز تحت مفرش المائدة الزيتى، ومن ثم تحت سترته. بدت أفكاره مسرفة ومنذرة بسوء، راح ينظر بحذر

إلى أخواته ليتأكد من أنهن لم يلحظن شيئًا. ولكن وجـوههن الـشاحبة كانت تنظر إليه بعيون خالية من التعبير. مهما يحدث فالليلة ليلة كـسر الخبز، وماذا كان سيفعل أيضاً؟"

في المرتين اللتين ذهب فيهما هو وإمرسون إلى المخزن القـديم ليلاً، استخدم قصاصات صغيرة من جريدة ممزقـة، لأنـه لـم يجـد الحصوات البيضاء في كل مكان بحث فيه. سار هو وأخوه إلى البيت، يعبث الكرى بأجفانهما، خلال ضوء الغـسق الأزرق الـضارب إلـى الرمادي. كان سعيدًا عندما وجد ذرات الورق المـرقط مبعثـرة هنـا وهناك على الطريق. أسقطها من جيبه شيئًا فشيئًا، ولم يكن يجرؤ على النظر خلفه إلا فيما ندر، وقد آتت ثمارها. ولكنه تاق لكمال الحكايـة، الحصوات كانت ستلمع مثل قطع العملة الفضية. لم يكن إمرسون يعلم شيئًا عن خطته أو بالأحرى عن ترتيباته، ولكنها آتـت ثمارهـا دون مساعدته بالرغم من كل شيء.

وضعت الأم جراسي بل على الأرض وبدأت تنقل الأطباق مـن المائدة إلى حوض الغسيل. وقالت متهكمة: "أعتقد يا أولاد أنكما نسيتما الذهاب إلى المخزن الليلة". وأبدى إمرسون احتجاجًا خفيفًا.

- الآن ارتدوا ملابسكم واستعدوا قبل أن يفوت الوقت. أحيانًا أبوكما يذهب ويغلق الأبواب. أو يذهب إلى المخزن الجديد. اذهبا الآن.

ورفعت غلاية الشاي من فوق الموقد. ولم يجد كاتو قفازيه. ظن

أنهما على الرف فى الركن مع حقائب المدرسة. بحث عنهما فى هدوء فى كل مكان، وفى النهاية تنبه لابتسامة ليو لا الخبيثة.

- أمى! ليو لاليا أخذت قفازاى! أخفتهما عنى!.

اقتربت منها الأم وقالت: ليو لا، هل أخذت قفازيه فعلاً؟

- أريد قفازاىّ.

قالت ليو لا:

- لم تقع عيناى عليهما. وهمت بالبكاء. قالت الأم:

- الآن يا كاتو أرأيت ماذا فعلت؟ ! بالله اسكتى الآن يا ليو لا!! وأنتم يا أولاد، أسرعوا واخرجوا من هنا. لدى الكثير اليوم.

وعندما اقترب من الباب قال إمرسون:

- الجو بارد جدا يا أمى.

- حسناً، جود لديه بطاطين هناك، اذهبا. اذهبا وأغلقا هذا الباب الذى يدخل منه البرد.

فى الخارج كان القمر يطارد فلول الظلام. بدت الطريق المفروشة بالحصباء رمادية اللون، تحدث رنينا تحت أقدامهما التى فقدت الحس بسبب البرد القارس. التصق البرد بالشعيرات الدقيقة داخل أنفيهما فأحس كلاهما بها محشوة بأعواد التبن البارد. وعندما حاولا جلب الدفء لأنفيهما بدسهما فى ثنيات سترتيهما الماكيناويــة، أحسا

بلسع الرطوبة المتجمدة فتخليا عن المحاولة. أصبح القمر وراءهما. تطلع كاتو إلى السقف النحاسى لبيت المزرعة فرأى كيف كان يلمع بلون ضارب إلى الزرقة، وكيف كانت النجوم فوقه تبدو زرقاء أو صفراء متناهية فى الصغر لا تكاد ترى.

أنشأ إمرسون يتحدث فى هدوء، ويسهب فى الحديث عن فكرته، كيف يستطيع الحصول على دراجة رآها منذ فترة فى نافذة عرض فى متجر للأدوات المعدنية. تحدث كثيرا ولكن كاتو لم يكن يعيره اهتماما يذكر؛ لأنه أولا كان يعرف تماما كل ما يقوله وسيقوله إمرسون عن الدراجة، وثانيا لأنه كان مشغولا فى تقطيع شرائح الخبز الأربع التى أخفاها فى جيبى بنطلونه، شريحتين فى كل جيب. حول الشرائح إلى لقيمات صغيرة بدلا من الكسرات الأكبر، حين وجد صعوبة فى تحويلها إلى نتف صغيرة بأظافره، وطفق يسقطها فى الطريق من وقت إلى آخر من تحت حاشية معطفه الماكيناوى.

لم يفرق إمرسون بين الطرق الشريفة للحصول على الدراجة والطرق الخبيثة. كان يفكر أحيانا فى أكثر من حيلة لخداع صاحب متجر الأدوات المعدنية لكى يرسلها إليه عن طريق الخطأ مثلا، أو يتخيلها جائزة له على عمل بطولى. كان يفكر أيضا فى قص الزجاج بمقص زجاج رأى أباه يستخدمه، آلة ساحرة لو توفرت لديه لاستطاع أن يحدث فجوة فى اللوح الزجاجى لنافذة العرض فى جنح الظلام. تحدث أيضا عن العمل بالأجرة فى الصيف القادم. فكر فى العمل لدى

الفلاح الذى يمتلك المزرعة المجاورة. كان يرى أنه يقوم باعمال هنالك فى الحصاد وحلب الماشية. قال كاتو بنبرة العارف:

- ولكن العجوز بلاكادور لا يدفع إلا للكبار ويدفع لهم أربعة دولارات فى الأسبوع. ولن يدفع لك هذا المبلغ الكبير.

- حسنا...

شتم إمرسون وبصق على جانب الطريق، وواصلا سيرهما بينما كان القمر فى طريقه إلى كبد السماء.

عبر أسلاك التليفون فوق رأسيهما سرت همهمة ظنا أنها كانت بسبب حديث الناس عبر الأسلاك. كانت الموصلات الزجاجية التى حملت الأصوات تلمع بلون أخضر باهت، وقد تحولت الأعمدة إلى اللون الفضى بسبب ضوء القمر، ومن كل منها كان يصدر هدير غريب، أكثر عمقا من طنطنة الأسلاك، أشبه بطنين أسراب النحل. وضعا آذانهما قريبا من الشروخ العميقة السوداء. حاول كاتو أن ينظر فى أحد تلك الشروخ. ظن أن بوسعه أن يرى الحشد الأسود للنحل داخلها.

قال إمرسون:

- ولكنك ستجدها تجمدت، أصبحت صلبة.

- لا، لن تتجمد. النحل ينام طوال الشتاء.

أراد إمرسون أن يتسلق أحد الأعمدة. قال له كاتو:

- ستصعقك الكهرباء.

وساعده على الصعود. دفعه من ردفيه النحيفين بكلتا يديه. لكن إمرسون لم يتمكن من تجاوز المسمار الأول البارز على العمود. لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يجذب جسمه لمسافة أعلى.

سارا حتى وصلا إلى مفترق طرق. سارا فى غيط ذرة كانت عيدانه لم تزل واقفة، ساكنة مستسلمة للزمهرير. أسقط كاتو نتفًا قليلة من الخبز ليضع علامة على انعطاف الطريق. كانت الأوراق الطويلة الشاحبة تتدلى من أعواد الذرة مثل أعلام من أوراق الكريب القديم، أشبه ببقايا أكشاك منتصبة فى جناح الملاهى، فى سوق إقليمى. كانت الأعواد أعلى من رأسيهما، أشبه بالأشجار. صفان من الأسلاك المزدوجة، عليها زوائد تلمع فى الضوء انتظمت على جانب الطريق فى مجاز الدراجات.

كان إمرسون وكاتو يتشاجران طوال النهار كل يوم تقريبًا، ولكن نادرًا ما كانا يتشاجران ليلاً. الآن يتحدثان فى ود عن برودة الطقس. قال كاتو: "ستمطر ثلجًا". قال إمرسون: "لا، الجو بارد، لا ينزل الثلج فى الجو البارد. قال كاتو: "ولكن عندما يشتد البرد ينزل الثلج".

- عندما يصبح البرد زمهريرًا مثل اليوم فإن الثلج لا يسقط.

- لماذا لا يسقط؟

- لأن الجو برد قارس، على كل حال ليس فى السماء ما ينذر بذلك.

ونظرا إلى أعلى فى وقت واحد. أجل. لم يكن هناك شيء سوى قرص القمر الأبيض الكبير. كانت السماء صافية لا يكدرها شيء.

لم يسقط كاتو نتف الخبز على العشب الناشف، بين دروب العربات، لأن الطير لن يراها. أخذ يسقطها على الطرق والقنوات الجافة. لم تظهر الطيور فى الأفق، ولكنه لم يغير خطته، كان عليه أن ينجزها حتى النهاية بصرف النظر عن النتيجة.

عند عودتهما كانت زوجة الأب تستعد للنوم. تبحث عن لحاف آخر تضعه على ليولا وروزينا وجراسى بل اللاتى كن ينمن على سرير واحد فى الحجرة المجاورة. نشرته وثنته دون أن تقلقهم. ورغم البرد القارس توقفت برهة ريثما تلقى نظرة بعينين قلقتين على النقش، أشكال مسدسة متفرعة بلون أبيض أقرب للشحوب تتوارى فى ضوء القمر. لحاف جميل، صنعته أمها. ترى ماذا كان اسم النقش؟ وبم كان يذكرها؟ بشكل فى لعبة طفولية قديمة؟ أم فى صفحة من صفحات كتاب مدرسى مفقود؟ قفزت الصورة إلى ذهنها: زهرة اللبن الثلجية.

سأل إمرسون وبصق مرة أخرى:

- أين هذا "الزفت" المخزن القديم؟.

شعرا بالراحة حين وصلا إليه ورأيا شجرة الصفصاف العتيقة.

دفعا الباب الذى يفتح بالسحب بقوة بأيديهما التى فقدت الإحساس من شدة البرد. كان الظلام يغشى المخزن ولكن لم يلبث أن أضاءه القمر من كل الزوايا. على اليسار كانت المرابط المتروكة للأبقار والخيول وآلات الزراعة المتنوعة تجثم على الأرض فى وسط المخزن وعلى يمينه. وكان التبن يتكوم على كلا الجانبين على نحو ضبابى. ولم تسمح برودة الجو القاسية أن يشما رائحته.

أين بطانيات جود؟ لم يجدا لها أثرًا. بحثا عنها فى كل الحجرات الصغيرة داخل المخزن وعلى المشاجب الخشبية التى علقت عليها أجزاء طقم الفرس. وفى النهاية تداعى إمرسون على كومة تبن أمام المسحاة قرب الباب. قال كاتو:

- ربما وجدناها فى مخزن التبن.

ووضع يده العارية على إحدى درجات السلم الخشبى. قال إمرسون:

- أنا أكاد أتجمد من شدة البرد. لا أستطيع صعود السلم. ثم صدرت منه قهقهة حادة.

جلسا على كومة التبن وراحا يكومان التبن فوق سيقانهما وجسديهما. كان مشهدًا غريبًا. لم يكن للتبن وزن ولا قوام يشعران به فى أيديهما. كان أخف وزنًا من الريش، ولم يكن يستقر على جسديهما، إلا أنه كان يخز قليلاً.

قال إمرسون إنه مجهد، وبعد أن تحول لينام على جنبه صب بعض اللعنات الحذرة... وكان كاتو يصب اللعنات أيضًا ورقد على ظهره لصق أخيه.

كانت المسحاة قريبة من رأسه، وكانت أقراصها المسطحة ماضية الشفرات تومض إليه فى برود شديد. كانت المتبنة خلفها مباشرة. مجاديفها ذات الأسنان مستدقة الأطراف كانت تلمع فى ضوء القمر، وحين رقد على مستوى ارتفاعها كانت أسنان المجاديف تشكل ما يشبه مروحة حديدية أمامه مباشرة تعلو قليلاً عن الأرضية الخشبية. حوله، بين بقع الظلام والضوء، تناثرت كل الآلات الأخرى، ناشرة السماد التى كانت تصنع ظلا ضخما، والحصّادة التى رفعت ساعدًا قويا وقد انتظمت أسنان مناشيرها الدقيقة أشبه بأسنان جندب عملاق، وناشرة التبن بأذرع مذراتها الصغيرة الحادة، تجثم هناك هامدة على بقعة يغمرها ضوء القمر الساطع، ذراع يرتفع وآخر ينخفض، كأنها توقفت لتوها عن الحركة.

وفوق رأسيهما، بين مخازن التبن، فى السقف القديم رأيا الشروخ والفجوات والبقع الصغيرة التى تبدو أشبه برقائق الجليد القمرية وكأنها تتساقط عليهم وعلى ركام الآلات وعلى أكوام التبن الرمادية. نادرًا ما كان يتصدع لوح من تلك الألواح الخشبية أو ينقصف فجأة غصين من تلك الغصينات الهشة لشجرة الصفصاف العتيدة.

فكر كاتو فى ذيل الكسر الخبزية الذى خلفه وراءه طوال

الطريق من البيت إلى المخزن. "لا وجود للطيور"، همس لنفسه. سوف يرجع إمرسون إلى البيت كما رجعا فى المرات السابقة قبيل الشروق، وسوف يرى الكسر على الطريق التى داسها فى الذهاب، بيضاء راسخة فى الضوء الباكر.

ثم بدأ يفكر فى أبيه والعامل جود، فى رحلتهما إلى المدينة. تخيل الأب فى مطعم يسطع بالأضواء الكهربية، وجدرانه الزرقاء والدفء داخله، يأكل طبقا من الفاصوليا الحمراء. ذهب معه ذات يوم وأكل الفاصوليا. وفكر هنيهة، بازدراء وكره، فى امرأة أبيه وأخواته البنات، ثم رجع بأفكاره إلى أبيه الذى كان يحبه غاية الحب.

تمتم إمرسون بكلمات عن ذلك الكهل جود، وحفر جحرًا عميقًا فى التبن. كانت أسنانهما تصطك من شدة البرد. حاول كاتو أن يضع يديه بين فخذيه ليدفئهما، ولكن التبن حال بينه وبين ذلك. أحس به كالصقيع. وخزه التبن فى جلد يديه اللتين فقدتا الإحساس. جرب ذلك الإحساس عندما كان يأكل حلوى العنب الحامضة التى كانت امرأة أبيه تصنعها كل خريف. ساعتها كان يحس بعصا صغيرة صلبة من الثلج تنخس سقف حلقه وتذوب فى الظلام أيضًا.

ومن خلال الباب الموارب رأيا أعواد الذرة فى غيط الذرة. ماذا كان يجرى بين تلك الأعواد بأوراقها المعلقة؟ ألم يحن ميعاد قطعها؟ هناك كانت حبوب القمح تنتظر الحصاد. وهناك وقفت أو أقعت الآلات الزراعية. استدار ليلقى نظرة عليها. كل هذا الزرع مآله إلى حصاد.

كانت الحصَّادة تمد ذراعيها فى صلابة مهيبة. وكانت ناشرة التبن تبدو كلفة سلك لشرك ضخم.

كان يؤلمه تحريك قدميه. كان يحس بهما مثل حدوتى حصان، أو كأنه كان يرى حدوتى حصان عليهما. لمس إحديهما. أجل، كان على حق. كانت فعلاً مثل حدوة حصان كبيرة. كانت أجزاء عدة الفرس تطل عليهما من مكانها فوق مشاجبها الخشبية، تلمع أجزاؤها المعدنية بلون أصفر شاحب مثل النجوم الصغيرة. لو سقطت هذه الأشياء فوقه لتحول إلى حصان، ولكن البرد القارس فى الغسيط لن يمكنه من جر المسحاة الثقيلة.

كانت عدة الفرس ثقيلة أيضًا. جرب الطوقين أكثر من مرة ووجدهما ثقيلين للغاية. الطوق الواحد يكفى الفرسين. أراد أن يوقظ إمرسون رغم أن إمرسون يصعب إيقاظه حين يروح فى النوم. بدت أقراص المسحاة وتلك التروس المعلقة عليها أشبه بسفينة الفايكنج. كانت المسحاة بتروسها التى تحدث رنينا على جوانبها، كسفينة فضاء على أهبة الصعود إلى القمر. أراد أن ينهض ويجلس على مقعد القيادة وينطلق إلى القمر. ذلك المقعد الغريب ذو الحديد المثقب بدا مزعجا، بيد أنه مصدر قوة وطمأنينة للجالس عليه.

لكن كيف يصعد إلى القمر والقمر قادم فى الطريق إلى التلال؟ لا، بل أقمار، طابور كامل من الأقمار. كلا، إنها أقراص المسحاة، انقسم القمر إلى حزمة من الأقمار الصغيرة ما فتئت تنساب كل من

الآخر فى كل اتجاه إلى ما لا نهاية. تحول إلى إمرسون وناداه باسمه. كان يغط فى نوم عميق. أدخل ركبتيه بين ساقى أخيه واحتضنه بقــوة بيده حول خصره.

وفى ظهر اليوم التالى وجدهما الأب على تلك الحــال. وكانــت القصة حديث كل الجرائد. ثم اقتصرت علــى فقــرات قــصار فــى الصفحات الداخلية للجرائد المحلية التى تسافر عبر الريف. كان حــزن الأب عظيمًا. ظل حزينا عامًا كاملاً. ولسبب ما أراد أن يخفــف مــن حزنه العميق فأطلق الرصاص على جود.

## الزوج الريفى (١٩٥٥)

**جون تشيفر**

سأبدأ لكم القصة من البداية، فلقد صادفت الطائرة التى أقلعت من مينابولس متجهة إلى الشرق، والتى كان فرانسيس ويد على متنها، أحوالا جوية سيئة. فجأة تحولت السماء إلى اللون الأزرق الغامق، وتراكمت السحب حتى عزت رؤية الأرض. بدأ ضباب خفيف يتكون خارج النوافذ سرعان ما تحول إلى سحابة كثيفة بسبب عادم الوقود. اشتدت السحب قتامة وبدأت الطائرة تترنح. سافر فرانسيس قبل ذلك فى أحوال جوية سيئة، ولكنه لم ير اهتزازًا كهذا. أخرج الرجل الجالس على المقعد المجاور قارورة من جيبه وشرب منها. ابتسم فرانسيس لجاره الذى أدار وجهه بعيدًا عنه. لم يكن يريد أن يشاركه أحد شرابه. بدأت الطائرة فى الاهتزاز المفزع. بدأ طفل يصرخ. أصبح الهواء داخل الطائرة متقدا كئيبا، عندئذ أحس فرانسيس كأن شللاً أصاب قدمه اليسرى. كان قد قرأ صفحات قليلة من كتاب اشتراه فى المطار، ولكن عنف العاصفة شتت ذهنه. كان الجو معتمًا تمامًا خارج الأبواب. اندلعت النار فى مخزن الوقود وتطاير الشرر فى العتمة، أما داخل الطائرة فقد أضفت الأضواء الخافتة وفساد الهواء والستائر المسدلة

جوًا من ألفة قوية لا يناسب المقام. راحت الأنوار تومض وتخبو حتى انطفأت تمامًا. فجأة قال الرجل الذى كان يجلس بجوار فرانسيس: أتعرف ماذا كنت دائمًا أريد أن أفعل؟ كنت أحلم بشراء مزرعة فى هامبشير الجديدة أقوم فيها بتربية الأبقار. أعلنت المضيفة أن هبوطا اضطراريا كان لابد منه. رأى الركاب جميعا، ما خلا الطفل، بعيون عقولهم أجنحة ملك الموت تبسط على رءوسهم. تناهى إلى أسماعهم صوت الطيار وهو يغنى: معى نصف شلن، رائع، رائع، نصف شلن. معى نصف شلن يكفينى بقية حياتى. لم يكن هناك صوت آخر.

بدأ صرير الصمامات المدارة بالماء يطغى على أغنية الطيار. انطلقت صرخة حادة فى الهواء أشبه بصوت فرامل سيارة؛ اهتز المسافرون بعنف شديد، وقفت الطائرة على بطنها فى حقل ذرة. اندفع رجل للأمام وراح يصيح بما يشبه العويل: "كُليتى! كُليتى!" فتحت المضيفة الباب، وقام أحد أفراد الطاقم بفتح الأبواب الخلفية فسمعوا خرير مطر منهمر لم يروا له نفعا فى تلك الساعة. اندفعوا من شدة الكرب منتظمين فى صف طويل خارج الأبواب، تبعثروا فى حقل الذرة فى كل اتجاه، يرجون الله أن يوقف انهمار المطر. وتوقف المطر. لم يحدث شيء. وعندما تبين أن الطائرة لم تحترق أو تنفجر. جمع الطاقم والمضيفة الركاب وأخذوهم إلى حظيرة مواش قريبة. لم تكن المسافة كبيرة إلى فيلادلفيا. وخلال وقت قصير كانت سيارات الأجرة تقلهم إلى المدينة. ساد بين الركاب، على غير العادة، جو من التحرر من ذلك الارتياب الذى ينظر به الأمريكيون إلى المسافرين معهم.

وفي فيلادلفيا استقل فرانسيس ويد القطار إلى نيويورك. وعندما وصل إلى نيويورك سار مسافة بعيدة ليستقل القطار القشاش الذى يركبه خمس ليال كل أسبوع إلى منزله فى شادى هل. كان أشبه بمن يريد الهرب من مأزق.

جلس بجوار تريس بيردن. قال له: "كنت فى الطائرة التى تحطمت منذ ساعات خارج فيلادلفيا، هبطنا فى حقل ذرة". لقد سافر أسرع من الجرائد والمطر. كان الجو فى نيويورك مشمسا معتدلاً. كان يوما من أيام سبتمبر الأخيرة، أشبه بتفاحة جميلة شهية. استمع تريس للقصة ولم يبد اهتماما. ولم يكن لدى فرانسيس قدرة تعينه على صنع صورة مدهشة لموقف يطل الموت من خلاله... لاسيما فى جو القطار القشاش الذى يقطع المسافات عبر ريف تغمره الشمس، وحيث تبدو، من خلال النوافذ، المزارع الفقيرة وعلامات على حصاد. التقط تريس جريدته وترك فرانسيس وحيدًا مع حكايته. وعلى رصيف شادى هل قال فرانسيس لتراس: "طابت ليلتك". ركب سيارته الفولكس واجون، التى اشتراها مستعملة، إلى بيته فى بلهلو.

كان منزل أسرة فرانسيس ويد المبنى على الطراز الهولندى، أوسع مما كان يبدو من المدخل الطويل المؤدى إليه. كانت حجرة الطعام فسيحة ومرتبة، على النمط الفرنسى، إلى ثلاثة أقسام. وعلى امتداد الحجرة من ناحية شمال القادم من الردهة، كانت توجد مائدة طويلة تكفى لستة أفراد، تتوسطها شموع وسلطانية للفاكهة. أثارت الأصوات والروائح القادمة من باب المطبخ المفتوح شهيته للطعام، فقد

كانت جوليا ويد طباخة ماهرة. يتركز الجزء الأكبر من حجرة الطعام حول المدفأة. على اليمين يقع البيانو وقد ثبتت فوقه بعض أرفف للكتب. كانت الحجرة نظيفة وهادئة. ومن النوافذ الغربية تسللت أشعة آخر الصيف رائعة صافية كالماء الرقراق. لم يكن الإهمال من أى نصيب شىء هنا، وما من شىء لم تمتد إليه يد التلميع والتنظيف. لم يكن بيت المستر ويد من تلك البيوت التى تجد فيها أشياء ملقاة على الأرض كزرار قميص قديم أو عملة صدئة. المدفأة منظفة، والورود على البيانو تنعكس على سطحه العريض اللامع، وألبوم أسطوانات شوبيرت على الرف يلفت الانتباه. كانت لويزا ويد، فتاة فى التاسعة، تتطلع من النوافذ الغربية. وكان أخوها الصغير هنرى، يجلس قريبًا منها. وكان طوبى، أخوهما الأصغر، يتأمل صورًا لبعض الرهبان الذين حلقوا رءوسهم وراحوا يحتسون البيرة على النحاس اللامع للصندوق الخشبى. خلع فرانسيس قبعته ووضع جريدته ولم يكن سعيدًا بالمشهد. لم يكن مولعًا بالتأمل. كان المشهد من صنعه. وكان يعود إليه برفق وقوة العائد إلى بيته. قال لهم: "سلام عليكم جميعًا، تعرفون أن الطائرة التى كانت قادمة من مينابولس...".

كان الأولاد فى العادة يردون تحية فرانسيس بحب وشوق وأكثر من مرة. ولكنهم الليلة مشغولون بخصوماتهم الشخصية. لم يكمل فرانسيس تقريره عن الطائرة المنكوبة حتى عاجل هنرى لويزا بضربة على ظهرها تمايلت لويزا على أثرها وتقول له: "عليك اللعنة!" ويرتكب فرانسيس خطأ عندما يوبخ لويزا على لغتها النابية قبل أن

يعاقب هنرى. وتتحول لويزا إلى أبيها وتتهمه بالمحاباة، وأن هنرى دائمًا على حق، وأنها مضطهدة ووحيدة ونصيبها اليأس. ويتحول فرانسيس إلى الابن الذى كان لديه ما يبرر الضربة على ظهر لويزا. فقد ضربته قبل أن يضربها. ضربته على أذنه والضرب على الأذن خطر. وتوافق لويزا على ذلك بحماس. ضربته على أذنه وكانت تقصد ذلك لأنه لطخ طاقمها الصينى. ويتهمها هنرى بالكذب. ويترك طوبى الصغير البيانو ليدلى بشهادته لصالح لويزا. ويضع هنرى يده على فم طوبى ويبدأ طوبى فى البكاء. وتبكى لويزا. عندئذ تأتى جوليا ويد إلى حيث تعد المائدة. امرأة جميلة وذكية والبياض الذى فى شعرها جاء قبل الأوان. يبدو أنها لم تنتبه للشجار. قالت لفرانسيس فى هدوء: "مرحبًا يا عزيزى". ثم أردفت: "اغسلوا أيديكم جميعًا، العشاء جاهز". وتشعل عود ثقاب لتضىء الشمعات الست خلال ذلك الوادى من الدموع.

كان إعلانها البسيط عن العشاء أشبه بصيحات الحرب التى يصدرها شيوخ القبائل الاسكتلندية فتزداد ضراوة المتحاربين. تعاجل لويزا هنرى بضربة على عاتقه. وتصدر من هنرى الذى لا يبكى إلا نادرا تسع أنات، ويتعب، ثم تنهمر منه الدموع. ويكتشف طوبى الصغير شقا فى يده ويبدأ هو أيضًا فى البكاء. ويصيح فرانسيس أنه قادم من حادث تحطم طائرة وأنه مرهق. وتظهر جوليا مرة أخرى من المطبخ وتتجاهل الفوضى وتطلب من فرانسيس أن يصعد إلى الدور الثانى ليخبر هيلين أن العشاء جاهز. ويصعد فرانسيس مبتهجًا لأنه

يستطيع أن يخبر كبرى بناته عن تحطم الطائرة. ولكن هيلين كانت تضطجع على سريرها وتتصفح مجلة ترو رومانس، وأول شيء فعله فرانسيس هو أنه أخذ المجلة من يدها وذكر هيلين بأنه كان قد منعها من شراء هذه المجلة من قبل، وتجيب هيلين بأنها لم تشتر المجلة. أعطتها لها صديقتها الحميمة بسى بلاك والناس جميعا يقرءون ترو رومانس. أبو بسى بلاك نفسه يقرأ ترو رومانس. ويعبر فرانسيس لها عن ازدرائه للمجلة ثم يخبرها أن العشاء جاهز رغم أن الأصوات الكثيرة في الطابق الأسفل لا تدل على ذلك. وتتبعه هيلين إلى الطابق الأول. جلست جوليا على ضوء الشموع وفرشت فوطة على حجرها.

لم تأت لا لويزا ولا هنرى إلى المائدة وما برح طوبى الصغير يبكى واضعًا وجهه على الأرض، ويقول له فرانسيس محذرًا: "طوبى، كان أبوك على وشك الموت فى حادث الطائرة التى تحطمت، ألا تريد أن تسمع القصة؟". ولكن طوبى يواصل البكاء ويقول له فرانسيس: "إذا لم تأت إلى المائدة الآن يا طوبى سأضطر إلى إرسالك للفراش دون عشاء". وينهض الصبى الصغير ويرمى أباه بنظرة حادة ويصعد الدرج مهرولا إلى حجرة نومه ويغلق الباب خلفه بعنف. وتقول جوليا: "يا ربى!". وتذهب للحاق به. ويقول فرانسيس إنها سوف تفسده بتدليلها. وتقول جوليا إن طوبى ناقص خمسة كيلوجرامات عن وزنه الطبيعى وينبغى أن نشجعه على الأكل، الشتاء قادم وسوف يقضى الأشهر فى الفراش إذا لم يتناول عشاءه. وتذهب إلى الطابق الثانى فى حين يجلس فرانسيس إلى المائدة مع هيلين. هيلين تعانى من إحساس

بالكآبة لأنها ركزت فى القراءة فى يوم جميل كهـذا، وتخـص أباهـا والحجرة بنظرة ملؤها الإعياء. لم تفهم ماذا يعنى كلام أبيها عن تحطم طائرة، ففى شادى هل لم تنزل قطرة مطر واحدة.

تعود جوليا بطوبى ويجلسون جميعا إلى المائدة ويبـدءون فـى تناول الطعام. يقول هنرى: "هل أضطر إلى النظر فى وجه هذه البنت السمينة المقرفة؟". كان يقصد لويزا. كلهم تورط فى هذه المشاجرة مـا عدا طوبى، يتقد أوارها ويخبو لخمس دقائق على المائـدة. وقبـل أن ينتهوا بقليل يضع هنرى فوطة فوق رأسه ويريق السبانخ على قميصه وهو يريد أن يأكل على ذلك النحو. ويسأل فرانسيس جوليا: هل مـن الممكن أن يتناول الأولاد العشاء قبل قدومه؟ وتبدو جوليا جاهزة للرد. فهى لا تستطيع أن تطبخ عشاءين وتعد مائدتين. إنها تقوم بإنجاز هـذه السلسلة المتواصلة من الأعمال المضنية بمهارة ذهـب فيهـا شـبابها وجمالها وعقلها أيضا. ويقول فرانسيس إنهم يجب أن يفهموا ما يقول، لقد كاد يموت فى حادث تحطم طائرة، ولا يريد أن يأتى كل يوم ليجـد ميدان قتال فى انتظاره. وانفجرت جوليا، أخذ صوتها يرتجف. إنـه لا يأتى كل ليلة ليجد ميدان قتال فى انتظاره. اتهام أحمق وخبيـث. كـل شىء كان هادئا قبل أن يأتى. وتتوقف عن الكـلام وتـضع سـكينها وشوكتها وتمعن النظر فى الطبق الذى أمامها ويبدو لها الطبـق فـى اتساع الخليج. وتشرع فى البكاء. ويقول طوبى: "أمى حبيبتى". وعندما تكفكف جوليا دموعها وتغادر المائدة بفوطتها يسير طوبى فـى أثرهـا

وهو يردد: "أمي حبيبتي، أمي المسكينة". ويصعدان الدرج معًا، ويغادر الآخرون ميدان المعركة، ويذهب فرانسيس إلى الحديقة الخلفية ليدخن سيجارة ويتنفس الصعداء.

كانت الحديقة تبعث البهجة والراحة في النفس، تزدان بأحواض الزهور ومجازات للمشي وأماكن للجلوس. كانت شمس الغروب تقترب من محطة الوصول مخلفة مقدارًا وافرا من الضوء. طفق فرانسيس يستمع لهمسات المساء في شادي هل بعد أن أسلمه حادث الطائرة وميدان القتال في البيت لحالة من الاستغراق في التفكير. تناهى إلى مسمعيه صياح السيد نكسون العجوز بالسناجب في مزرعة تربية الطيور التي يمتلكها: "الأنذال. اغربوا عن وجهي الآن". ثم سمع بابًا يغلق بعنف. هناك من يلعب التنس في ملعب عائلة بابكوك. وهناك من يقطع الأعشاب. ثم هناك دونالد جوسلن الذي يقطن على الناصية وقد شرع يعزف سوناتة ضوء القمر. يقوم بذلك كل ليلة تقريبا. يتخلى عن سرعة العزف الأساسية ويفضلها روباتو (*) من البداية وحتى النهاية فتأتي أشبه برثاء نفس معذبة بالعزلة. دوى الموسيقى في الشارع وتحت الأشجار أشبه بالحنين أو أشبه بمناشدة حبيب لعذراء وحيدة في دارها أو فتاة غريبة في الحي تتوق للعودة إلى بلدها في جالوي، تطيل

(*) تقلب في درجة سرعة العزف داخل جملة موسيقية واحدة، غالبا دون مصاحبة إيقاعية ثابتة. المصاحبة: دور ثانوي في العزف أو الغناء يؤدي إلى تقوية الآلة الرئيسية أو الصوت الرئيسي أو تكملة لهما. (المترجم)

النظر في لقطات فوتوغرافية قديمة في حجرتها في الطابق الثالث. نادى فرانسيس على كلب عائلة مرسر: "جوبيتر، تعالى هنا، جوبيتر، تعال هنا". واندفع جوبيتر ناحية حقل الطماطم ببقايا قبعة من اللباد كانت بين أسنانه.

كان جوبيتر يختلف عن سائر الكلاب. مقدرته في اكتشاف الطرائد، وجرأته وإقدامه بدت في غير مكانها في شادي هل. تلمع عيناه بالأذى، ويرفع رأسه عاليا في ثقة واطمئنان. كانت رأسه رأس كلب جبار بطوق من الحديد مضروب على عنقه، تراها منقوشة على الدروع أو على نسيج مزدان بالصور، وتراها مرسومة على مقابض الشمسيات وعصى المشي.

يستطيع جوبيتر أن يصل إلى حيث يريد، يفتش في سلال المهملات، ويعبث بحبال الغسيل وأكياس القمامة وعلب الأحذية الفارغة، ويشيع الفوضى في حفلات الحديقة ومباريات التنس، ويشوش على جوقة الإنشاد في كنيسة يسوع أيام الآحاد عندما ينبح في وجوه الناس بملابسهم الحمراء. كان يشق طريقه في حديقة الورد التي يمتلكها السيد نكسون العجوز مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. وما أن يشعل دونالد جوسلن نار الشي في ليالي الخميس حتى يلتقط جوبيتر الرائحة. لم تفلح محاولات أفراد عائلة جوسلن في زجره وإبعاده. العصي والحجارة والأوامر الخشنة لم تفلح إلا في زحزحته إلى حافة الأريكة حيث يجلس بأنفه الفخم المهيب، ينتظر دونالد جوسلن أن يدير

ظهره لإحضار الملح ويثب من فوق الأريكة ويرفع الشريحة برشاقة من فوق النار ويهرب بعشاء عائلة جوسلن. أصبحت أيام جوبيتر معدودة؛ سوف يقوم بستانى عائلة رايتسون الألمانى أو طباخ عائلة فاركارسون بدس السم له. حتى السيد نكسون العجوز ينوى وضع بعض الزرنيخ فى القمامة التى يحبها جوبيتر. صاح به فرانسيس: "تعال هنا يا جوبيتر، جوبيترا"، ولكن الكلب أخذ يثب جذلا وهو يهز القبعة بين أسنانه البيضاء. رأى فرانسيس من نوافذ بيته أن جوليا نزلت من الطابق الثانى وأطفأت الشموع.

كانت جوليا وفرانسيس يخرجان كثيرا معًا لتلبية الدعوات. كانت جوليا اجتماعية ومحبوبة، وحبها للحفلات كان ينبع من مقت فطرى عندها للشقاق والعزلة. كانت تفتش فى بريدها اليومى بشغف وشوق، تبحث عن الدعوات، وكانت تجد بعض الدعوات أحيانًا ولكنها لم تكن تشبع. وحتى لو خرجت سبع ليال فى الأسبوع فلن يحررها ذلك من نظرة شاردة تبدو فى عينيها، نظرة من يسمع ألحانا تأتى من بعيد، إذ كانت تظن دائمًا أن ثمة حفلا متألقا فى مكان ما. قصر فرانسيس خروجها على مرتين ووجد تفسيرا للبقاء يوم الجمعة. كان ينطلق آخر الأسبوع مثل زورق صغير فى ريح هوجاء. فى اليوم الذى تلا حادث الطائرة كانت عائلة ويد مدعوة للعشاء عند عائلة فاركارسون.

حضر فرانسيس إلى البيت متأخرًا من المدينة، وأحضرت جوليا الجليسة بينما انتهى فرانسيس من ارتداء ملابسه وأسرعا بعد ذلك

بالخروج. كان الحفل صغيرا وبهيجا، وجلس فرانسيس على مقعده وراح يسلى نفسه. خادمة جديدة كانت تدور بالشراب. كان شعرها داكنا ووجهها مستديرًا وشاحبا بدا مألوفا لفرانسيس. لم يستثره دخان الخشب والليلك وألوان الطيب الأخرى، وأضحت ذاكرته أشبه بزائدته الدودية – مستودعا للصغائر. لم يقلقه عجزه عن الهرب من الماضى. العيب كل العيب فى أنه كان موفقا فى الهرب منه كل التوفيق. لا شك أنه رأى الخادمة فى حفلات أخرى، ولابد أنه رآها فى أصائل أيام الآحاد. بيد أنه لن يفتش الآن فى ذاكرته. العجب أن وجهها كان فى استدارة القمر– نورماندية أو أيرلندية – ولكنه لم يكن من الجمال بحيث يبرر إحساسه بأنه رآها من قبل، وفى ظروف ينبغى أن يتذكرها. سأل نيللى فاركارسون: من تكون؟ قالت نيللى: إن الفتاة جاءت عن طريق وكالة، وإن بلدها هى ترنيون، فى نورماندى، حى صغير به كنيسة ومطعم زارته نيللى ذات يوم. وبينما كانت نيللى تتحدث عن أسفارها إلى الخارج أدرك فرانسيس أين رأى المرأة قبل الآن. كان ذلك فى نهاية الحرب عندما غادر معسكرا لتدريب جنود الاحتياط مع بعض الرجال الآخرين، ومكثوا فى ترينيون ثلاثة أيام. وفى اليوم الثانى ساروا خلال طرق متقاطعة لكى يشهدوا العقاب العلنى لسيدة شابة أحبت قائد الوحدة الألمانى أثناء الاحتلال.

كان صباحًا باردا فى أحد أيام الخريف. كانت السماء متشحة بدثار ثقيل من السحب مرسلة من ثم ضوءًا خفيفا مثبطا للهمة على

مفترق طرق موحل. كان الناس يحتشدون على ربــوة عاليــة وكـــان بوسعهم رؤية السحب تعانق ذوائب التلال وهى تتهادى ناحية البحــر. وحين وصلت السجينة كانت تجلس على مقعد بثلاثة أرجل بلا ظهر أو ذراعين ثبت على عربة مزرعة يجرها حصانان. وقفت بجوار العربة بينما كان العمدة يتلو صحيفة الاتهام والعقوبة على الجمــع المحتــشد. كان رأسها محنيا تعلو وجهها ابتسامة باهتة جوفاء تكاد روحها تطــل من ورائها مهزومة حائرة. وعندما انتهى العمدة مــن قراءتــه فكــت شعرها وأرسلته إلى ظهرها. تقدم منها رجل قصير القامة وقام بقــص شعرها بمقص كبير وتركه يسقط على الأرض. ثم غمر رأسها بمـــاء ممزوج بالصابون من سلطانية كبيرة وحرر جمجمتها تمامًا من الشعر بموسى حاد. تقدمت منها سيدة وبدأت تفــك أزرار ملابــسها، ولكــن السجينة دفعتها بعيدًا عنها وتحررت من ملابسها بنفسها. وعندما جذبت قميصها من فوق رأسها وألقت به على الأرض أصبحت عارية تمامًا. علت أصوات النساء بالاستنكار والاســتهزاء بينمـــا التـــزم الرجـــال الصمت. لم يتغير شيء فى ابتسامة الــسجينة المــصطنعة وحزنهـــا. اخشوشن جلدها وتحجرت حلمتا ثدييها بسبب الرياح البـــاردة. خفتـــت صيحات الاستنكار شيئًا فشيئًا. إحدى النساء بصقت عليهـــا رغـــم أن جلالا لا يقاوم ظل يلازم عريها خلال محنتها.

وعندما هدأت الجموع استدارت وبدأت تبكـــى، ومـــضت عبـــر الطريق الموحل بعيدًا عن القرية، وحيدة دون شيء على جـــسدها خـــلا

حذاء بالٍ وجورب قديم. لقد نال السن قليلاً من ذلك الوجه القمرى المستدير، ولكن ما من شك فى أن الخادمة التى قدمت الشراب ثم قدمت العشاء لفرانسيس هى المرأة نفسها التى نالت العقاب عند مفترق الطرق.

الآن بدت الحرب بعيدة فى الزمن، ومضى العالم الذى يعاقب الموالاة بالموت أو التعذيب إلى غير رجعة. إن فرانسيس لا يتذكر رفاقه الذين كانوا معه فى فيشى. لم يكن يأنس لقدرة جوليا على كتمان السر. لم يستطع أن يخبر أحدًا بما حدث. ولو حكى القصة حينئذ على المائدة لكان اقترف خطأً إنسانيا واجتماعيا كبيرا. وفى حجرة الجلوس فى منزل فاركارسون بدا الناس وكأنما اجتمعوا على أن الماضى لم يكن، وأن الحرب لم تحدث، وأن العالم بات خاليًا من الخطر والقلق. انصرفت السجينة بعد تقديم القهوة ولكن المواجهة أسلمت فرانسيس للإعياء والوهن، لقد فتحت ذاكرته وأحاسيسه وتركتها فاغرة. وعندما انتهى الحفل استقل هو وجوليا سيارتهما إلى البيت. دلفت جوليا إلى البيت وبقى فرانسيس داخل السيارة ينتظر الجليسة ليصطحبها إلى بيتها.

كان يتوقع أن يرى السيدة هينيلين العجوز التى كانت تجلس مع الأولاد عادة. تملكته الدهشة عندما فتحت الباب فتاة فى ميعة الصباء، وقبل أن تجتاز شرفة المدخل المضاءة، توقفت قليلاً تحت الأضواء تحصى كتبها المدرسية. كان وجهها عابسًا يقطر ملاحة. العالم اليوم ملىء بالحسان الصغيرات. ولكن فرانسيس يطالع الآن الفرق بين الجمال والكمال. لم ينتبه للشقوق والشامات المحببة والوحمات

والجروح المندملة؟ مرت بخاطره تلك اللحظة حين يتحطم الزجاج من صوت الموسيقى. وخز قلبه إحساس مفاجئ بسابق معرفة بالفتاة مجللة بغموض وغرابة لا يضاهيها في الروعة شيء. أطلت من وجهها العابس... من كآبة لا يدركها اللمس على وجهها... ابتسامة ساحرة أقرب للدعوة المباشرة للحب. وعندما فرغت من إحصاء كتبها غادرت الدرج وفتحت باب السيارة، وبعون من الأضواء طالع خديها النديين. دخلت وأغلقت الباب.

قال لها فرانسيس:

- أنت جديدة؟

- نعم! السيدة هينيلين مريضة، وأنا آن مرتشيسون.

- هل سبب لك الأولاد أية متاعب؟

- أوه، لا، لا.

ثم استدارت ناحيته وقد افتر ثغرها عن ابتسامة حزينة انعكست على الضوء الخافت للوحة القياس. تعلق شعرها الفاتح بياقة سترتها فهزت رأسها لرده.

- أكنت تبكين؟

- نعم.

- آمل ألا يكون بسبب شيء حدث في بيتنا.

- لا، لا، لم يكن بسبب شيء حدث في بيتكم.

وعادت تقول وقد أحس بكآبة في صوتها:

- الأمر ليس بسر، فالجميع في القرية يعرفون إدمان أبي للكحول، اتصل بي منذ قليل من إحدى هذه الحانات وصارحني برأيه؛ يقول إني فاسقة، اتصل قبل أن تأتي المسز ويد بقليل.

- إني آسف من أجلك.

- يا ربي.

- علا صدرها بتنهيدة مصحوبة بنحيب. استدارت ناحية فرانسيس، وأخذها بين ذراعيه وتركها تنشج على صدره. راحت تهتز بين يديه اهتزازات زادت من إحساسه بجسدها الرقيق. شعر بخفة ثيابها، وعندما بدأ اهتزازها يهدأ بعض الشيء أحس فرانسيس برغبة عارمة في ضمها إليه فقد معها صوابه وجذبها إليه بعنف. تسللت من بين يديه في رقة وقالت:

- أسكن في شارع بلفيو، تنزل شارع لافنج ناحية السكة الحديدية.

قال لها وهو يدير السيارة:

- حسناً.

اتجه يساراً عند الإشارة القادمة... "استدر الآن ناحية اليمين وواصل السير مباشرة ناحية السكة الحديدية".

انتهى الطريق بفرانسيس بعيدًا عن الحى الذى يسكن فيه. اجتاز شريط السكة الحديدية واتجه ناحية النهر حتى وجد نفسه فى شارع يعيش فيه الفقراء فى بيوت توحى جملوناتها مستدقة الرءوس وزركشاتها الخشبية بفيض من المشاعر تختلط فيه الرهبة بالخيال. كانت المنازل، على صغر أحجامها الواضح، لا توفر الخصوصية والطمأنينة المتوقعة لأصحابها. كان الشارع معتمًا، وعندما تحول إليه بدا فرانسيس وقد أصبح نهبا لحسن الفتاة المضطربة وفتنتها، وكأنما ولج عالما حقيقيا يتألف من ذكريات غامضة مختلطة. ومن مقعده داخل السيارة رأى مدخل البيت من الضوء الوحيد الذى ينيره. أخبرته أن المنزل المضاء هو منزلها. وعندما وقفت السيارة كان بوسعه أن يرى خلف ضوء المدخل الخافت مشجبا قديمًا. قال:

- حسنًا، لقد وصلنا الآن.

كان يعلم أن شابا فى سنها كان سيقول شيئًا مختلفًا فى موقف كهذا

لم تحرك يديها اللتين كانتا تحتضنان الكتب. استدارت ناحيته فأصبحا وجهًا لوجه. كانت دموع الرغبة تترقرق فى عينيه. خرج من السيارة ودار حولها ليفتح لها الباب. تناول يدها الخالية وتسللت أصابعه بين أصابعها وصعد درجتين وهى إلى جانبه واجتازا ممرا ضيقًا عبر حديقة أمامية تكثر بها أزهار الدهلية ونباتات القطيفة والورود التى قاومت الصقيع الخفيف وراحت تنشر فى الجو رائحة تمتزج فيها اللذة بالألم. وعند بداية الدرج حررت يدها من يده واتجهت

ناحيته وداهمته بقبلة خاطفة على وجنتيه. اجتازت الـشرفة وأغلقـت الباب. أطفئ ضوء الشرفة وأضيء ضوء آخر على الدرج فاض على شجرة لم تزل محملة بأوراق الخريف. ولم تمض غير دقـائق حتـى انتهت من خلع ملابسها وذهبت إلى فراشها وأصبح البيت مظلمًا.

كانت جوليا نائمة عندما وصل فرانسيس إلى البيت. فتح نافـذة أخرى وذهب إلى فراشه ليغلق عينيه على ذكريات تلك الليلـة. ومـا أغلق عينيه وغلبه النعاس حتى عادت الفتاة إلى ذاكرته تطوف بكامـل حريتها حجرات العقل موصدة الأبواب، تملأ الحجـرة تلـو الحجـرة بسناها الجميل وعبيرها الخلاب وصوتها الساحر. توقفا فى موريتانيـا القديمة وعبرا الأطلنطى، ثم قضيا فترة فى باريس. وعندما استيقظ من ذلك الحلم نهض من فراشه وأشعل سيجارة واتجه إلى النافذة المفتوحة. وعندما عاد إلى الفراش راح يفتش فى ذاكرته عن شـىء يفعلـه ولا يؤذى أحدًا. فكر فى التزلج. وفى عتمة الحلم قامت صورة لجبل يغرق فى الثلج فى ساعة متأخرة من النهار، وعلى مرمى البصر كان يـرى الأفق رحبًا ومشجعا.

فوق منكبيه رأى واديًا تغمره الثلوج ينهض على تلال تـزدحم بالأشجار التى بدت أشبه بغطاء خفيف من الشعر خفف مـن البيـاض الناصع للثلج، وأجهض البرد كل صوت خلا القعقعـة العاليـة لحديـد ماكينة المصعد. كان الضوء على الممرات ضاربًا إلى الزرقة وكـان فرانسيس الآن أقل قدرة على التقاط انحناءات الطريق منه منذ دقيقة أو

دقيقتين، وأقل فترة على التعرف وقد اتخذ الثلج الآن لونا أزرق غامقا على يابس الأرض والجليد والبقع العارية والأكوام الضخمة من الجليد الجاف. سار تحت الجبل مؤرجحا يديه يضاهي سرعته قبالة محيط منحدر كان قد تكون في العصر الجليدى الأول، يطلب بساطة في المشاعر والظروف.

وفي الصباح زال عن فرانسيس جبله الثلجى ولبث مع ذكرياته الباريسية والموريتانية المتقدة. لقد أضحى نهبا لعاطفة قوية لا يجد إلى ردها سبيلا. أخذ دشا وحلق لحيته وشرب قهوته وفاته قطار ٧٣١. غادر المحطة مع وصوله بسيارته. أحس بحنين للعربات وهى تبتعد عنه في تؤدة وعناد، حنين ذكره بنزوات الحب القديمة. انتظر قطار ٨٢ على رصيف أصبح خاليًا من الناس. كان صباحًا صافيًا لم تعكر صفوه الغيوم، بدا مشرقا كجسر عظيم يتألق بالضياء فوق شئونه المضطربة. أصبح قلقا مهتما. وضعه طيف الفتاة الذى لا يفارقه في علاقة جديدة مع عالم غامض ساحر. بدأت السيارات تملأ مكان الانتظار. تنبه إلى أن القادمين من تلال شادى هل المرتفعة قد غمرهم الصقيع الأبيض. تذكر أن الصقيع أول علامات الخريف. عندما وصل القطار السريع – قطار ليلى يسير بين بفالو وآلنبى – يتهادى على مساره الحديدى لاحظ بين الأرصفة أن أسطح العربات الأمامية كانت تغمرها طبقة من الجليد. استوقفته شهوانية الأشياء الخارجة عن المألوف فطفق يبتسم للركاب فى مطعم القطار وهم يلتهمون البيض فى سفرهم ويمسحون أفواههم بمناديل صغيرة. كانت مقصورات عربات

النوم بأغطية أسرتها الكتانية المتسخة تمشى الهوينى فى الصباح الغر مثل صف طويل من نوافذ فنادق الدرجة الثالثة. ومن إحدى النوافذ . طالع مشهدًا خارجا عن المألوف: امرأة تحررت تمامًا من ملابسها ذات جمال خلاب كانت تمشط شعرها الذهبى، مرت مثل طيف خاطف بشادى هل وتبعتها عينا فرانسيس حتى غابت عن الرؤية. وعلى الرصيف لحقت به المسز رايتنجتون وخاضت معه فى حديث: "أعتقد أنك ستعجب لرؤيتى هنا لليوم الثالث أقف فى الصف. أصبحت من زبائن القطار القشاش المنتظمين بسبب ستائر نافذتى. الستائر التى اشتريتها يوم الاثنين أعدتها الثلاثاء، والتى اشتريتها الثلاثاء أعيدها اليوم. يوم الاثنين حصلت على الستائر التى كنت أريدها بالضبط – ستائر من الصوف عليها رسومات ورود وطيور، ولكن عندما أخذتها إلى البيت وجدت أن طولها لا يناسب النوافذ. استبدلتها أمس، وعندما عدت إلى البيت لم أجد الطول مناسبا للمرة الثانية. والآن أدعو الله أن تناسب طول النوافذ أو يجد لها مهندس الديكور حلا. أنت تعرف بيتى وتعرف نوافذ حجرة الجلوس عندى. يمكنك أن تتخيل المشكلة. لست أدرى ماذا أفعل فى هذه المشكلة؟.

وقال لها فرانسيس:

- أنا أعرف ماذا يمكن أن تفعليه.

- ماذا؟

- اصبغيها باللون الأسود من الداخل وكفى عن الكلام.

وتنهدت السيدة رايتنجتون تنهيدة تنم عن حرج شديد، وخصها فرانسيس بنظرة أراد منها أن يتأكد أنها عرفت أنه يقصد أن يكون فظا. وأدارت وجهها بعيدا عنه وغادرت المكان بنفس مكسورة مما جعلها تضطرب في مشيها. غمره إحساس عجيب أضاء نفسه وهو يفكر في فينوس التي ترجل شعرها بالمشط وهي تتهادى عبر طريق برونكس. كان ممتنا للفتاة لإحساسه الجديد بالحرية. كانت الطيور تصدح – طيور الكاردينالي وما بقي من طيور أبي الحناء. ازدانت السماء بضيائها المتألق، حتى رائحة الأحبار على أوراقه الصباحية شحذت شهوته للحياة، العالم الممتد أمامه على مرمى البصر أصبح نعيمًا خالصًا.

جاءت سكرتيرته الآنسة ريني، متأخرة ذلك الصباح. كانت تتردد على طبيب نفسي ثلاث مرات في الأسبوع، وعندما رآها تساءل فرانسيس: ترى أية نصيحة يمكن أن يسديها الطبيب النفسي؟ منحته الفتاة وعدا بعودة ما هو أشبه بصوت الموسيقى إلى حياته. تخاذلت غبطته عندما تذكر أن هذه الموسيقى حرية أن تنتهي بمحاكمته بتهمة الاغتصاب. أحس باللوم عندما اصطدمت عيناه بصورة أبنائه الأربعة وهم يبتسمون للكاميرا على الشاطئ. وعلى أوراق الشركة طالع صورة لاوكون(*) وابنيه وقد أحكمت الأفعى التفافاتها حول أعناقهم، بدت له الصورة مليئة بالمعاني.

---

(*) لاوكون كاهن طروادي، قتلته وابنيه اثنتان من أفاعي البحر بعد أن حذر الطرواديين من الحصان الخشبي. (المترجم)

تناول الغداء مع بنكى ترابيرت الذى حكى له حكايتين بـذيئتين. بدت عادات أصحابه فى الحديث سمجة تعوزها الطرافة. تذكر أن بيته الذى بناه على الأخلاق الحميدة قد يتهاوى إذا افتضح أمـر اهتمامـه بجليسة الأطفال. اجتر تاريخ شادى هل القريب فلم يعثر علـى سـابقة شائنة واحدة ولا حتى حالة طلاق واحدة منذ إقامته هناك، لم يحدث أن اشتم أحد رائحة فضيحة. بدت الأشياء فى هذه القريـة مرتبـة أشـبه بمملكة السماء. بعد أن غادر بنكى توجه فرانسيس إلى محل جواهرجى واشترى لفتاته سوارًا من الذهب. أحس بسعادة غـامرة بـسبب هـذا الشراء السرى. كان صبيا الجواهرجى سخيفين. مرت من وراء ظهره امرأة جميلة الرائحة، وعلى شارع ٥ العام أمام محل أطلس كان منكباه ينحنيان بسبب إحساسه بثقل العالم. فكر فرانسيس عندئذ فـى صـعوبة احتواء شهوانية داخل الإطارات التى اختارها لنفسه.

لم يكن يدرى متى يرى فتاته مرة أخرى. وضع سوار الـذهب فى جيبه البعيد عندما اقترب من البيت. وعندما فتح باب منزله وجدها فى الصالة، ظهرها أمامه. استدارت عندما سمعت صوت غلق الباب. بادرته بابتسامة صافية ساحرة. أذهله كمالها الأشبه بيوم جميل – يـوم جاء بعد عاصفة رعدية. أمسك بها بقوة وغطى شـفتيها بـشفتيه. لـم تضطر إلى مقاومته طويلاً فقد ظهرت جرترود الصغيرة فجأة وقالت:

- أوه، السيد ويد...

كانت جرترود شاردة الـذهن دائمًـا. مغرمـة بالاستكـشاف

والتجوال. نأت بحياتها عن دائرة والديها اللذين يحبانها. من لا يعرف عائلة فلانري يظن من مسلك جرترود أنها ولدت لأسرة تفرقت بها السبل، أسرة انقسمت بسبب مشاجرات السكر التي لا تنتهي. وكان ذلك منافيا للواقع. الواقع أن ملابس جرترود كانت رثة وخفيفة وهو ما كان يمثل انتصارها على والدتها التي كانت تجبرها على ارتداء الملابس الثقيلة الأنيقة. كانت تتنقل من بيت إلى بيت في كل أنحاء حي بلنهولو، تثرثر في ملابسها المتسخة وجسدها النحيف، توثق الصلات وتقطعها بالصغار والحيوانات والصبية الذين في سنها، والمراهقين والكبار أيضًا. تفتح باب منزلك في الصباح فتجد جرترود جالسة في المدخل. تدخل الحمام لتحلق فتجد جرترود فوق المرحاض. كانت تعرض خدماتها دائمًا، حاضرة في كل مكان، لا تعرف الخيانة، شديدة الإخلاص، جائعة. لم تكن تذهب إلى بيت أسرتها برغبتها. وإذا حضر وقت الرواح لم تكن تأبه بالكلمات التي كانت تدعوها للذهاب: "اذهبي إلى بيتكم يا جرترود، لقد حان الوقت لتذهبي إلى بيتكم يا جرترود، الأفضل أن تذهبي الآن إلى بيتكم يا جرترود وتتناولي العشاء.. قلت لك منذ ثلث ساعة اذهبي إلى بيتكم يا جرترود، لا بد أن أمك قلقة عليك الآن، اذهبي إلى بيتكم يا جرترود.. إلى بيتكم يا جرترود".

هناك لحظات تبدو فيها الخطوط التي تحيط بعين الإنسان أشبه بأرفف قدت من حجارة متآكلة. وعندما تفاجئنا العين المحدقة بضراوة حيوان فإننا نصاب بالاضطراب حيالها. كانت نظرة فرانسيس للفتاة بشعة ومريبة أخافتها فعلاً. دس يده في جيبه وأخرج دولارا وأعطاه

للطفلة وقال لها : "اذهبى إلى بيتكم ولا تخبرى أحدا بما رأيت يا جرترود... لا تخبرى أحدا". وأحس بغصة وهو يسرع إلى حجرة الجلوس عندما نادت جوليا عليه من الطابق الأول تريده أن يسرع في ارتداء ملابسه.

كانت فكرة أنه سيوصل آن ميرتشيسون إلى منزلها بعد الحفل ليلاً تسرى مثل خيط من ذهب خالص خلال أحداث الحفل الذى حضره فرانسيس وجوليا. كان يغرب فى الضحك بسبب دعابات فارغة، وجفف دمعة انحدرت من عينيه حين أخبرته مابل مرسر بموت قطتها الصغيرة. كان يتمطى ويتثاءب ويتنهد ويكثر الزفير مثل أى رجل آخر على وعد بملاقاة من يحب، يحتفظ به فى الركن الخلفى من عقله. تحسس جيبه ليتأكد من وجود السوار. كان يحس برائحة العشب فى أنفه وهو جالس فى الحفل يضحك ويثرثر. سأل نفسه: أين سيضع سيارته؟ فالجراج القديم مغلق والممر أصبح ملتقى العشاق. كان شارع تاونسد مسدودا ويمكن أن يركن سيارته هناك خلف البيت الأخير. أصبح الممر القديم الذى يصل شارع إلم بضفاف النهر مكسوا بالعشب، بيد أنه كان قد مشى هناك هو وأبناؤه، وبوسعه أن يقود سيارته بين الأغصان ليحتجب أمره.

كان فرانسيس وزوجته آخر من غادر الحفل. تحدث مضيفهما ومضيفتهما عن سعادتهما الزوجية بينما توقف الأربعة فى المدخل يتبادلون كلمات الوداع. قال المضيف وهو يحتضن زوجته بقوة حانية:

"إنها حبيبتى وسمائى الصافية، بعد ستة عشر عامًا لا زلت لا أتصور فراقها، إنها تجعلنى أحس دائمًا مثل هانيبال وهو يعبر جبال الألب".

كان فرانسيس وزوجته صامتين داخل السيارة. وعندما تحول بالسيارة إلى الممر لم يوقف المحرك ولبث ينتظر، وفجأة قالت له زوجته وهى تهم بالخروج: "فى وسعك أن تضع السيارة فى الجراج فقد أخبرت بنت ميرتشيسون أنها بإمكانها أن تذهب فى الحادية عشرة. أخذها أحد أقاربها إلى بيتهم".

لم يُترك له شيء إذن. لم يترك شيء للمتيم. لم تترك له الفرصة لممارسة فسقه الضار. لم تترك له الفرصة حتى للتعبير عن غيرته الغريبة، ولا عن ذلك الألم لأحاسيسه الذى يترع عينيه بالدموع... ولا حتى الازدراء. فقد كان بوسعه أن يرى بوضوح صورته الآن وقد نشر ذراعيه فوق عجلة القيادة ودفن رأسه بينهما من شدة الوجد.

كان فرانسيس فى صدر شبابه عضوا نشطًا فى منظمة كشفية. وعندما تذكر مبادئه الشبابية غادر مكتبه أصيل اليوم التالى ولعب الاسكواش لبعض الوقت. وبعد أن أحس بقوة فى جسده بسبب التمرينات وماء الدش، أدرك أن الأفضل له أن يبقى فى مكتبه. كانت ليلة باردة عندما عاد إلى منزله وأحس بريح تغيير. أحس بنشاط بعيد عن المألوف. كان الأولاد يرتدون أحسن ما لديهم، وعندما نزلت جوليا كانت ترتدى فستانا أرجوانى اللون وبروشا من الماس. فسرت له السبب فى ذلك النشاط. سيأتى المستر هبر فى السابعة ليلتقط لهم صور

لبطاقات عيد الميلاد. كانت قد أخرجت بدلة فرانسيس الزرقاء وربـاط العنق الملون لأن الصور ستكون بالألوان هذا العام. هشت جوليا لفكرة التقاط الصور التذكارية فى عيد الميلاد. إنه الاحتفال الذى كانت تحبـه وتسعد به.

صعد فرانسيس إلى الطابق الثانى ليغير ملابسه. نال منه التعب بسبب عمل اليوم وبسبب الشوق. أحس بتعبه يزداد وهو جالس علـى حافة السرير. فكر فى آن ميرتشيسون فأحس برغبة قوية لم تنل منهـا المصابيح القرنفلية على مزينة جوليا. ذهب إلى مكتب جوليا وتنـاول ورقة وكتب عليها: "عزيزتى آن: أحبك، أحبك، أحبك". ولم يجد مـن يردع كلماته لأن الرسالة لن يراها أحد. فكتب عبارات مثـل: "النعـيم السماوى وعش الحب". بلع ريقه وتنهد وارتجفت يـداه عنـدما سـمع صوت جوليا تدعوه للنزول. اتسعت الهوة بين خيالاته والعالم الـواقعى حتى أحس بانقباض فى عضلات قلبه.

كانت جوليا والأولاد عند المدخل بينما كان المـصور وصـبيه يعدان الكاميرات ذات الأضواء البـاهرة لتظهـر الأسـرة والجمـال المعمارى لمدخل البيت. أبطأ المارة سياراتهم ليشاهدوا أسرة ويد وهم يلتقطون الصور لبطاقات الميلاد. منهم من لوح بيده لتحيتهم.

مضى نصف ساعة من الابتسام ووضع الزينة على الـشفاه قبـل أن يبدأ المصور. أشاعت حرارة الأضواء رائحة غير محببة فى الجـو، وعندما انصرف الجميع انتاب فرانسيس إحساس بتلكئهم وبطء حركتهم.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وبينما كان فرانسيس وجوليا يحتسيان قهوتهما في حجرة الجلوس دق جرس الباب. فتحت جوليا الباب ودخل كلايتون توماس. جاء ليرد لها ثمن تذاكر للمسرح كانت جوليا قد اشترتها لأمه منذ فترة، وكانت هيلين توماس قد أصرت على الدفع بإلحاح رغم أن جوليا طلبت منها ألا تفعل. دعته جوليا للدخول وتناول القهوة. قال: "لا أريد قهوة، ولكن سآخذ من وقتكم دقيقة واحدة". وتبعها إلى حجرة الجلوس وألقى تحية المساء على فرانسيس وجلس على نحو أخرق على أحد المقاعد. كان أبو كلايتون قد قتل في الحرب فلازم الشاب حرمان الأب ملازمة الظل. وكان ذلك معروفاً في قرية شادى هل لأن أسرة توماس كانت الوحيدة التى فقدت أحد أبنائها. أما الأسر الأخرى فكانت وافرة النسل لم تبتل بالفقد. كان كلايتون في السنة الثانية أو الثالثة في الجامعة، يعيش مع أمه في منزل واسع كانت تأمل أن تبيعه. ومنذ سنوات تسبب كلايتون في مشكلة: سرق نقوداً وهرب إلى كاليفورنيا قبل أن يلحقوا به. كان طويل القامة بسيط الشخصية يرتدى نظارة ويتحدث بصوت خفيض. سأله فرانسيس: متى ستعود إلى الكلية يا كلايتون؟ فأجابه كلايتون: "لا أريد أن أعود، ليس لدى أمي من المال ما يكفي، ولا أجد داعياً لهذا الادعاء الفارغ، سأجد وظيفة، وإذا بعنا البيت فسوف نجد شقة في نيويورك". عندئذ سألته جوليا: "ألن تفتقد شادى هل؟" قال: "لا، أنا حتى لا أحبها". فسأله فرانسيس: "لماذا لا تحبها؟" فأجابه كلايتون في رزانة وتؤدة: "أشياء كثيرة تجرى هنا لا أحبها. الرقص في النادى مثلاً. في ليلة الأحد

الماضى رأيت السيد جرانر يحاول إدخال السيدة مينوت فى حقيبة من الجلد. كانا ثملين. لا أحب كثرة السكر هنا". قال له فرانسيس: "كانت ليلة الأحد وحسب". قال كلايتون: "الجمعيات هنا كلها تقوم على الدجل والزيف. لا أحب الطريقة الفوضوية التى يحيا بها الناس هنا. لقد فكرت فى الأمر كثيرًا، وأكثر ما يقلقنى فى شادى هل هو أنه لا مستقبل لها. الطاقات تبذل فى الحفاظ على أشياء مرفوضة. الأمر الوحيد الذى يهتم به الناس هنا هو الدعوة لتوفير أكبر عدد من القطارات المحلية وإقامة عدد أكبر من الحفلات. لا أظن أن هذه ظواهر صحية. ينبغى للناس أن يكونوا قادرين على امتلاك الأحلام الكبيرة لمستقبلهم. أومن بأن يحلم الناس أحلاما عظيمة". قالت له جوليا: "إنه لأمر سيئ أن تهجر الجامعة". أجابها كلايتون: "كنت أريد أن أذهب إلى مدرسة لاهوتية". عندئذ سأله فرانسيس: "ما كنيستك؟" أجاب: "التوحيدية الثيوصوفية الفوقية الإنسانية". سألته جوليا: "ألم يكن إيمرسون من الفوقيين؟" قال: "أنا أقصد الفوقية الإنجليزية، الفوقيون الأمريكيون حمقى". سأله فرانسيس: أية وظيفة كنت تسعى إليها؟" قال: "أريد أن أعمل لدى أحد الناشرين. ولكن الناس تسألنى: وماذا تفعل عنده؟ ولكنه الشيء الوحيد الذى أهتم به حقًا، فأنا أكتب حاليا مسرحية شعرية طويلة عن الصراع بين الخير والشر. عمى تشارلى يستطيع أن يساعدنى على التعيين في بنك. وهذا مفيد لى. أحتاج للنظام. ثمة طريق طويل يجب أن أجتازه لأبنى شخصيتى. لدى عادات كثيرة بغيضة. أتحدث كثيرًا. يجب أن أعاهد نفسي على الصمت. ينبغى أن

احاول عدم الكلام لمدة أسبوع كامل. لقد فكرت فى أن آوى إلى أحد الأديرة الأسقفية ولكنى لا أحب عقيدة التثليث". سأله فرانسيس: "ألك صديقة؟" قال: "خطبت وأنوى الزواج. لست بالكهل أو الغنى حتى يعرف الناس بأمر خطبتى، ولكنى اشتريت زمردة مزيفة لأن ميرتشيسون بالنقود التى أخذتها لقاء قطع الحشائش فى الصيف الماضى. سنتزوج بمجرد أن تنتهى من مدرستها".

تراجع فرانسيس لذكر اسم فتاته. وبدا أن ضوءا داكنا ينبعث من روحه يظهر كل شيء – جوليا والصبى والمقاعد – فى شحوبه الحقيقى. كان الأمر مثل تحول سيئ فى حالة الطقس. واستمر كلايتون يقول: "سوف يكون لنا أسرة كبيرة العدد، أبوها سكير بشع، وأنا مررت بأيام صعبة ونريد أن يكون لنا عدد وافر من الأطفال. أوه، إنها رائعة يا سيد ويد ويا مدام ويد. أنا وهى نتفق فى الكثير من الأمور: أرسلنا بطاقات الميلاد نفسها فى العام الماضى دون أن نخطط لذلك، ولدى كلينا حساسية للطماطم، وحواجبنا تنمو معًا فى الوسط. حسنًا، تصبحون على خير".

شيعته جوليا إلى الباب، وعندما عاد قال لها فرانسيس: "إن كلايتون كسول ولا يحس بالمسئولية ومتكلف ورائحته كريهة". قالت له جوليا: "إن فرانسيس أصبح قاسيًا، الولد صغير ويجب أن نمنحه الفرصة". ولاحظت جوليا حالات أخرى كان فرانسيس فيها يضيق ذرعًا لأتفه الأسباب.

"أتعلم أن المسز رايتسون دعت الجميع فى شادى هل لحفلها مـــا عدانا!".

- آسف لذلك يا جوليا.

- هل تعلم لماذا لم تدعنا لحفلها؟

- لماذا؟

- لأنك أهنت المسز رايتسون؟

- إذن أنت تعلمين؟

- أخبرتنى جون مرتشيسون، كانت تقف خلفك.

مرت جوليا أمام الأريكة بخطوات متثاقلة فهم منهـــا فرانـــسيس أنها كانت غاضبة.

- نعم أهنتها يا جوليا وكنت أقصد ذلك. لم أكن أحب حفلاتها، وأنا سعيد لأنها أسقطتنا من الحساب.

- وماذا عن هيلين؟

- وما شأن هيلين بهذا؟

- المسز رايتسون هى التى تقرر من يذهب إلى الحفلات ومـــن لا يذهب.

- تعنين أنها يمكن أن تمنع هيلين من حفلات الرقص؟

- نعم.

- لم أكن أفكر فى ذلك.

عندئذ صاحت جوليا وهى تدفع بالسكين فى جرابه:

أعرف أنك لم تفكر فى ذلك، وما يثير غيظى أن أرى أن عدم مراعاتك لحقوق الآخرين ومشاعرهم تدمر الجميع.

- لا أظن أنى دمرت سعادة أحد هنا.

المسز رايتسون هى التى تدير شئون شادى هل، وكانت تديرها خلال السنوات الأربعين الماضية. لا أدرى ما الذى يحملك على الاعتقاد بأنك تستطيع أن تطلق العنان لأهوائك وتسىء للناس وتؤذيهم وتكون فظًا فى مجتمع صغير كهذا؟

أجابها فرانسيس وهو ينوى إضفاء جو من المزاح على المناقشة:

- أنا رجل مؤدب جدا.

عندئذ صاحت جوليا وتطاير لعابها وارتطم بوجه فرانسيس وهى تقول: تبا لك يا فرانسيس ويد! لقد بذلت دمى حتى حصلنا على المكانة الاجتماعية التى نتمتع بها فى هذا المكان، ولا أستطيع أن أتفرج عليك وأنت تدمرها. لابد أنك عرفت منذ إقامتك هنا أنك لا تستطيع أن تعيش وحدك مثل دب يعيش فى كهف. أنا أعبر عما أحب

وما أكره. احتفظ بما تكره لنفسك. لماذا تركب رأسك كالأطفال؟ أو تريد أن تكون منبوذاً من المجتمع؟ هل هى مصادفة أن يدعونا الناس إلى حفلاتهم؟ هل هى مصادفة أن يكون لهيلين أصدقاء كثيرون؟ إلى أين تريد أن تذهب أيام السبت؟ إلى السينما؟ أم تريد أن تقضى أيام الآحاد تفتش فى أوراقك القديمة؟ أم تريد أن ترى ابنتك تجلس فى ليالى العطلات فى نافذتها وتصغى لصوت الموسيقى القادم من النادى؟ أم تريد أن... وبدأت كلماتها تتحول إلى جدار سميك بينه وبينها، فلم يعد يسمع شيئًا فآثر الصمت، ولكنه فاجأها بعد هنيهة بلطمة محسوبة على وجهها أذهلتها، ولكنها تمالكت نفسها بعد ذلك وصعدت الدرج إلى حجرتها فى الدور الثانى. لم توصد الباب. وعندما ذهب فرانسيس فى أثرها بعد بضع دقائق وجدها تحزم إحدى حقائبها.

- جوليا، أنا آسف جدا.

قالت وهى تبكى:

- لا تشغل بالك.

- إلى أين تنوين؟

- لا أعرف. سآخذ قطار ١١١٦ إلى نيويورك. عرفته من الجدول.

- لا يمكنك الذهاب يا جوليا.

- لا تحاول. لا أستطيع البقاء، أنا أعرف نفسى.

- انا آسف للمسز رايتسون، وآسف لـــ....

- الموضوع ليس موضوع المسز رايتـــسون. ليـــست هـــذه هـــى المشكلة.

- ما المشكلة إذن؟

- المشكلة أنك لا تحبنى.

- بل أحبك يا جوليا.

- أنت لا تحبنى.

- جوليا. أنا أحبك، أريد أن نعود كما كنا فى الماضـــى – عاشـــقين فاجرين غامضين.

- أنت تكرهنى.

- أنا لا أكرهك يا جوليا.

- أنت لا تدرى كم تكرهنى. إنه عقلـــك البـــاطن. أنـــت لا تـــدرك الأشياء القاسية التى تصدر منك؟

- أية أفعال قاسية يا جوليا؟

- الأفعال التى يدفعك عقلك الباطن للقيام بها لكى تعبر عن مقتـــك لى.

- ما هذه الأفعال يا جوليا؟

- ألم يحدث أن شكوت منك؟

- أخبرينى.

- إنك لا تعى ما تفعل.

- أخبرينى.

- ملابسك.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد الطريقة التى تلقى بها ملابسك المتسخة فى كل مكان تنم عن كراهية يضمرها عقلك الباطن لى. أقصد جواربك المتسخة وبيجاماتك وملابسك الداخلية وقمصانك المتسخة!

كانت تنحنى على حقيبتها، وعندما انتهت نهضت وحدقت فى وجه فرانسيس، كانت عيناها تبرقان، وفى صوتها رنة تأثر شديد.

- أنا أقصد أنك فى الواقع لم تتعلم قط كيف تعلق ملابسك وتكتفى بتركها على الأرض كيفما اتفق إمعانا فى إهانتى. إنك تتعمد ذلك.

وتهافتت على الفراش وبدأت تنشج. عندئذ وضع يديه على كتفها وقال:

- جوليا. حبيبتى.

ولكنها نهضت بسرعة عندما أحست بيديه.

- دعنى وشأنى، يجب أن أذهب.

ومرت أمامه إلى خزانة ملابسها وعادت بفستان وهى تقول :

- لن آخذ شيئاً مما اشتريته لى. سأترك لآلئى والجاكت الفرو.

- أوه. جوليا.

بدت مكسورة الجناح وهى محنية على حقيبتها مما أثار شفقته وعطفه الشديدين. لم تكن تدرك مقدار البؤس الذى ينتظرها بدونه. لم تكن تعلم عدد الساعات التى تضطر المرأة إلى الذهاب فيها إلى العمل. لم تكن تحسب أن جل أصدقائها جاءوا فى إطار علاقتهما الزوجية وأنه بدون هذه العلاقة ستجد نفسها دون صديق. لم تكن تفهم فى السفر والفنادق والنقود.

- جوليا، لن أسمح لك بالذهاب. إنك لا تفهمين إنك فى الواقع تعتمدين علىَّ فى كل شىء.

حينئذ ردت رأسها إلى الوراء بحركة مفاجئة وغطت وجهها بيديها وسألته: "هل قلت إننى أصبحت أعتمد عليك؟ هل هذا ما تقصد؟ ومن التى توقظك فى الصباح وتخبرك بموعد نومك فى المساء؟ ومن التى تعد لك وجباتك وتأخذ ملابسك المتسخة من خزانتك؟ ومن التى توجه الدعوات لأصدقائك؟ لولاى لكان الشحم يعلو أربطة عنقك ولأتت العثة على ملابسك. كنت تعيش وحدك عندما التقينا يا فرانسيس ويد، وستعيش وحدك عندما أتركك. أتتذكر عندما طلبت أمى منك قائمة بأسماء من تريد إرسال بطاقات الدعوة لهم لحضور عقد قراننا؟ كم اسما ذكرت لها؟ أربعة عشر؟

- كليفلاند ليست بلدى يا جوليا.

- وكم من أصحابك جاء إلى الكنيسة؟ اثنان؟

- كليفلاند ليست بلدى قلت لك.

ثم عادت تقول بهدوء :

يمكنك إعادة الجاكت الفرو لأنى لن آخذه، وهناك وثيقة تـأمين على مجوهراتى مستحقة الدفع فى يناير، اسم المغسلة ورقـم تليفـون الخادمة وكل هذه الأشياء فى درج مكتبـى. أتمنـى ألا تـسرف فـى الشراب يا فرانسيس. أتمنى ألا يحدث لك مكروه. إذا حدث شيء فـى غيابى اتصل بى.

عندئذ أخذها فرانسيس بين ذراعيه وقال لها:

- أوه، يا حبيبتى، لن أسمح لك بالذهاب يا جوليا!

- حسنًا، أعتقد أنى يجب أن أبقى معك فترة أخرى.

عندما ركب القطار إلى عمله فى الصباح رأى فرانسيس الفتـاة تسير فى الممشى بين مقاعد العربة. اسـتغرب لأنـه لـم يلاحـظ أن المدرسة التى كانت تذهب إليها كانت فى المدينة. نهض مضطربًا بعد أن أفاق من دهشته ودلف إلى الممشى. دخل بينهم أناس كثيرون ولكنه استطاع أن يراها تنتظر من يفتح لها باب العربة. وبينما كان القطـار ينحرف فى سيره مدت يدها لتمسك بشيء يحفظ اتزانها وهى تـسعى

للوصول إلى العربة المجاورة. استمر يلاحقها حتى منتصف العربة الثالثة ثم صاح: "آن، آن!"، ولكنها مضت فى طريقها دون أن تلتفت وجلست على أحد المقاعد. أحس بدفء يسرى فى كيانه وهو يقترب منها، ازدادت مشاعره حدة عندما وضع يده خلف مقعدها وهو يهم بمخاطبتها ولكنها لم تكن آن. كانت الجالسة سيدة أكبر سنا ترتدى نظارات. اجتاز الممر إلى عربة أخرى وقد احمر وجهه من الخجل الذى ازداد عمقا عندما أحس بأن عقله نفسه لا يركن إليه. فإذا نيل من قدرته على التمييز بين شخص وشخص فماذا بقى له؟، وما الدليل على أن حياته مع جوليا وأولاده لا يعتورها الوهم مثل أحلامه بالخطيئة فى باريس وفراش القش ورائحة العشب والأشجار التى تشبه الكهوف فى حارة العشاق.

اتصلت به جوليا فى ساعة متأخرة من ذلك الأصيل لتذكره بأنهما مدعوان للعشاء. وبعد بضع دقائق اتصلت به تراسى بيردن وقالت له: "اسمع يا فلاح، لقد اتصلت بك من أجل المسز توماس. ابنها كلايتون يبدو أنه عجز عن الحصول على وظيفة، ترى هل تستطيع مساعدته؟ فى وسعك أن تتصل بتشارلى بل، أعرف أنه مدين لك، وقل كلمة خير فى حق الولد، أعتقد أن تشارلى يستطيع أن ".. ولكن فرانسيس قاطعها قائلاً:

- تريسى، أنا مضطر إلى أن أصارحك بأنه ليس فى وسعى عمل شىء بالنسبة لهذا الولد. هذا الولد لا نفع فيه. الصراحة ثقيلة

ولكنها الحقيقة. أى شىء نفعله لمساعدة هذا الولد سيعود بالضرر على الجميع. إنه ولد لا يصلح لشىء يا تريسى، وماذا نفعل حيال ذلك؟ حتى لو حصلنا له على وظيفة فلن يستمر فيها أسبوعًا واحدا. أنا أعرف ذلك جيدا. شىء سيئ يا تريسى ولكن بدلا من تزكيته سأضطر إلى تحذير الناس منه سيما الذين كانوا يعرفون أباه ويرحبون به سأحذرهم. إنه لص...".

وعند هذه النقطة من المناقشة دخلت الآنسة رينى ووقفت قريبًا من مكتبه وقالت لفرانسيس: "لن أستطيع أن أعمل معك بعد الآن يا سيد ويد.. فى وسعى أن أنتظر حتى الخامسة إذا كنت تريدنى، ولكنى رأيت من يمنع وظيفة لشاب محتاج. لدى رغبة الآن فى مغادرة هذا المكان بأسرع ما أستطيع". وخرجت وتركته وحده يفكر فى الأذى الذى سببه لابن توماس. كان أبناؤه فى الصورة يغرقون فى الضحك، تلتمع عيونهم بألوان الصيف البهيجة، تذكر أنهم قابلوا نافخا فى مزمار قربة على الشاطئ فى ذلك اليوم، ودفع له دولارا ليغنى لهم أغنية الحارس الأسمر. ستكون الفتاة فى البيت عندما يعود إلى المنزل، سيمضى مساء آخر بين جيرانه الطيبين، يلتمس الشوارع المسدودة، وممرات العربات ومداخل البيوت المهجورة. ما من شىء يعيد إليه طمأنينة نفسه. لن يهدئه الضحك أو اللعب مع الصغار. وإذ يستعيد ذكريات حادث الطائرة وخادمة فاركارسون الجديدة ومشاكل آن مع أبيها السكير، تساءل: كيف كان يمكن أن يتجنب الحرج؟ لقد ضل

طريقه ذات يوم فى غابات الشمال، ويعاوده الآن ذلك الإحساس بالكآبة والحزن، أية بهجة أو أمل أو شجاعة أو طاقة على الجلد تعينه علـــى تلمس طريقه الضائع فى هذا الظلام المدلهم. حزنه تجاوز الحــد. إنـــه الآن على مفترق طرق وحانت ساعة الاختيار.

أمامه أن يذهب إلى الطبيب النفسى. وأمامـــه أن يـــذهب إلـــى الكنيسة ويعترف لهم بشبقه. وفى وسعه أن يغتصب الفتاة ويريح نفسه. الأمل كل الأمل فى أن يجد من يصوب له الطريـــق. أيـــشرب حتـــى الثمالة؟ إنها حياته، قاربه. ألم يكن قادرًا على أن يهب الحياة مثل بقيـــة الرجال؟ إنه يمتلك القدرة لم يزل. ما الضرر إذن فى لقاء يقابلان العالم بعده بوجه جديد؟ إنه القطار الضال. فليطرق أول الأبـــواب: الطبيـــب النفسى. اتصل بطبيب الآنسة رينى وطلب موعدا عاجلا. ألـــح علـــى سكرتيرة الطبيب، كان مجبولا على الإلحاح فى كل أعمالـــه، وعنـــدما أخبرته أن جدول الطبيب لا يتسع لموعد جديد لبضعة أســـابيع قادمـــة طلب فرانسيس موعدًا فى اليوم نفسه. أخبرته السكرتيرة أن يأتى فـــى الخامسة.

كان مكتب الطبيب النفسى يقع فى مبنى يستغل الأطباء وأطبـــاء الأسنان الجزء الأكبر منه. تفيض طرقاتـــه برائحـــة مطهـــرات الفـــم وذكريات الألم. كانت شخصية فرانسيس مجبولة على اتخاذ القـــرارات المضمرة. قرارات حول النظافة أو القفز من فوق منصة الغطـــس أو القيام بأى عمل آخر قد يخلصه من الشك فى جرأته. قرارات أيضًا عن

الدقة والأمانة والفضيلة. كان سعيه للخروج من العزلة التى اتخذ فيها جل قراراته تلك سببا فى تقويض فهمه لحسن الخلق وتركه الآن فى هذا الاضطراب العظيم. مشهد حياته الأخير أشبه بحجرة انتظار أمام عيادات أطباء كثيرين. أعطى فرانسيس اسمه وعنوانه للسكرتيرة. فى تلك اللحظة لاحظ أن شرطيا كان يقف فى ركن من الحجرة، اقترب منه وصاح فيه: "قف مكانك، قف مكانك، لا تتحرك، أبق يديك حيث هما!" قالت السكرتيرة : "أظن أن الأمر لا يستحق يا حضرة الضابط، أظن أنه...". قال الشرطى: "فلنتأكد". وأخذ الشرطى يضرب ملابس فرانسيس بيديه بحثًا عن مسدس؟ سكين؟ فأس؟ ولما لم يجد شيئًا انصرف وبدأت السكرتيرة تعتذر فى عصبية وهى تقول له: "عندما اتصلت بالتليفون يا سيد ويد كنت عصبيًا للغاية ، وفى الوقت نفسه كان أحد مرضى الطبيب يهدده بالقتل وكان علينا أن نحتاط، ادخل الآن إذا كنت تريد؟"، ودفع فرانسيس بابا يتصل بجهاز لقرع الجرس وجلس فى حجرة الطبيب مثقلا بالهموم. تمخط فى منديله وفتش فى جيوبه عن سجائره وولاعته ثم قال بصوت أجش وقد تعلقت الدموع بأهداب عينيه: "أنا فى حالة حب يا دكتور هرتسوغ!".

مضى أسبوع أو عشرة أيام على تلك الحادثة. سارت الأمور فى شادى هل كالمعتاد. وصل قطار ٧١٤ ورحل. وهنا وهناك ينتهى الناس من غدائهم أو عشائهم وتلقى الأطباق فى آلات التنظيف. وتتباطأ حركة القرية المادية والروحية، ومع حلول المساء يبدأ دونالد جوسلن فى عزف مقطوعة سوناتا ضوء القمر مرة أخرى وكأنه يعصر فوطة

حمام مبتلة. ولكن الخادمة لا تعيره اهتماما. مشغولة فى كتابة رسالة إلى أرثر جودفرى. وفى قبو منزله تجد فرانسيس ويد مشغولا فى صناعة منضدة قهوة. أوصاه الطبيب بأشغال الخشب كعلاج، ويجد فرانسيس سلواه الحقيقية فى العمليات الحسابية المتصلة، وفى الرائحة النفاذة لقطع الخشب الجديد. فرانسيس سعيد. فى الطابق الثانى طوبى الصغير يصيح؛ لأنه أحس بالسأم. خلع قبعة راعى البقر وقفازيه وسترته ذات الأهداب. وفك حزامه المرصع بالذهب والياقوت، وتخلص من الرصاصات الفضية والجراب الجلدى الذى انزلق من حمالته وقميصه الكاروهات وبنطلونه الجينز الأزرق، وجلس على حافة سريره ليخلع حذاءه الطويل. كوم كل هذه الأشياء ودلف إلى خزانته ليخلع بذلته الفضائية ويعلقها. إنه يغالب نفسه على ارتداء هذه الملابس الضيقة، بيد أنه ينجح آخر الأمر. يثبت عروة الرداء الخارجى على منكبيه، ويصعد على قائم السرير وينشر ذراعيه ويطير تلك المسافة القصيرة إلى الأرض، ويهبط بصوت مكتوم يسمعه كل من فى المنزل فيما عداه.

وتقول المسز ماسترسون:

- اذهبى إلى بيتكم يا جرترود، جرترود، اذهبى إلى بيتكم. قلت لك اذهبى إلى بيتكم منذ ساعة يا جرتروود. لقد فات وقت عشائك وأمك سوف تقلق عليك، اذهبى إلى بيتكم!" وباب على سطح يفتح فجأة وتخرج المسز بابكوك دون ملابس على جسدها يتبعها

زوجها العارى أيضا (أطفالهما فى مدرسة داخلية وسطح منزلهما يحميه السياج) يسيران فوق السطح ويتجهان إلى باب المطبخ، يتقدان بالشهوة والفتنة مثل الحوريات والسناطير اللذين تجدهما على رسومات جدران منازل البندقية القديمة. يتناهى إلى مسمعى جوليا وهى تقطف آخر أزهارها صوت السيد نكسون الهرم وهو يصيح بطيور السنجاب فى مزرعة تربية الطيور الذى يمتلكها: "الأوغاد! الأنذال! اغربوا عن وجهى!". وهرة بائسة تتجول فى الحديقة، يستبد بها التوتر النفسى والجسدى، مربوط فى رأسها قبعة صغيرة من القش – قبعة دمية – ترتدى فستان دمية، من حاشيته ينتأ ذيلها ذو الشعر الطويل. وبينما هى تسير تهز قدمها وكأنها سقطت لتوها فى الماء. تنادى جوليا:

- بوسى، بوسى، هذه بوسى! تعالى يا بوسى، بوسى المسكينة!

ولكن الهرة تحدجها بنظرة ملؤها الشك وتمضى متعثرة فى حاشية فستانها. آخر من يأتى كان جوبيتر. يتبختر بين حقول الطماطم، يمسك بفمه الواسع ببقايا خف سهرة. ثم يجن الليل، يدلهم الظلام، ويمتطى الملوك فى أرديتهم الذهبية ظهور الفيلة ويهيمون فوق قمم الجبال.

## إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟ (١٩٦٧)

**جويس كارول أوتس**

كان اسمها كونى، وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها. تنطلق ضحكاتها النحيفة بسرعة وعصبية وتمد رقبتها إلى الأمام لتلقى نظرة عجلى على المرآة، أو لتستطلع وجوه الآخرين لتطمئن على أنها على ما يرام. كانت أمها التى تراقب كل شىء توبخ كونى على هذا المسلك، كأن تقول لها: كفاك تحديقاً فى المرآة.. من تظنين نفسك؟ أتحسبين نفسك جميلة؟ وكانت كونى لدى سماع هذه الكلمات التى اعتادتها، ترفع حاجبيها وتسدد نظرة مباشرة إلى أمها. كانت تدرك أنها جميلة وكفى. كانت الأم جميلة أيضًا فى أيامها الغابرة، تشهد على ذلك الصور الفوتوغرافية التى تحتفظ بها فى ألبومها العتيق. ولكن أين جمالها الآن، لقد ذهب، وهذا هو سبب ملاحقتها لكونى.

لماذا لا تنظفين حجرتك مثل أختك؟ كيف نظفت شعرك؟ ما هذه الرائحة الكريهة؟ دهان شعر؟! ألا ترين أن أختك لا تستخدم هذه النفايات؟

كانت أختها جونى فى الرابعة والعشرين ولم تزل تعيش معهم فى البيت. كانت تعمل سكرتيرة المدرسة الثانوية التى تدرس بها كونى. لم يكن ذلك بالأمر الوحيد السيئ – وجودهما معًا فى مبنى واحد – ولكن جونى كانت أيضًا سطحية التفكير بالإضافة إلى قصر قامتها وامتلائها وعدم إجادتها الحديث. ورغم ذلك فقد كانت كونى مضطرة إلى سماع أمها وخالاتها وهن يمتدحن أختها طوال الوقت: جونى فعلت هذا، وجونى فعلت كذا؛ ادخرت النقود، ساعدت فى تنظيف البيت، طبخت، وكونى لم تفعل شيئًا، عقلها مسكون طوال الوقت بأحلام اليقظة التافهة.

كان الأب يقضى جل وقته فى مكتبه خارج البيت. وعندما يعود يطلب العشاء ويقرأ الجرائد أثناء تناول الطعام، ثم لا يلبث أن يخلد للنوم. لم يكن يهتم كثيرًا بالسؤال عن أحوال البنتين. بيد أن الأم كانت تلزم رأسه المنكبة على الجرائد، وتبدأ فى انتقاد كونى والشكوى منها، حتى إن كونى كانت تتمنى الموت لأمها، بل تمنت أن تموت هى نفسها وينتهى الأمر. كانت تشكو لصديقاتها قائلة: إنها، أى أمها، تشعرنى بالغثيان. كان صوتها لاهثا يجعل من يسمعها يظن بها التكلف صدقًا كان ما تقول أو كذبًا.

ولكن شيئًا كان يروق لها فى الأمر كله وهو أن جونى كانت تخرج إلى بعض الأماكن مع صديقاتها اللاتى كن يشبهنها فى الهدوء والسطحية، وعندما كانت كونى تريد أن تفعل مثل أختها لم تكن الأم

تبدى اعتراضًا. أبو أقرب صديقات كونى كان يتطوع بتوصيلهن إلـى المدينة ويتركهن فى الشارع العام، فيشغلن الوقـت بالحـديث بينمـا يتفرجن على المحلات، وقد يدخلن السينما. وعندما كـان يعـود فـى الحادية عشرة، ليعيدهن إلى منازلهن، لم يكن يكلف نفسه السؤال عمـا كن يفعلنه طوال تلك الساعات.

أصبحن من المشاهد المألوفة وهن يتجولن فـى ذلـك السـوق بثيابهن القصيرة وأحذيتهن المسحاء الأشبه بأحذية راقـصات الباليـه، والتى كن يعمدن إلى جرها على الطوار جرا. كانت أساورهن الذهبية تحدث جلجلة فى معاصمهن النحيفة. كن يتمايلن كل ناحيـة الأخـرى ويهمسن ويضحكن بصوت خفيض عندما يمر بجوارهن عـابر سـبيل يجدن فيه مصدرًا للتسلية. كان لكونى شعر طويل أشقر ثقيـل يلفـت النظر إليه، توقف بعضه على رأسها معقوصًا فـى لفـات صـغيرة، وترسل الباقى إلى ظهرها. كانت ترتدى بلوزة من الصوف الجرسـيه تأخذ خارج البيت شكلا مختلفًا عن شكلها داخل البيت. كل ما يتـصل بها كان ذا وجهين، وجه للبيت ووجه آخر خارج البيت. خارج البيـت كانت تتمايل فى مشيها كالأطفال، أو تتباطأ حتى ليظن الرائـى أنهـا تنصت لمرسيقى تأتى من رأسها. فمها الذى يعلوه الشحوب والابتـسام المصطنع طوال الوقت، يتألق سحرًا وبهجة فى تلك الأمـسيات التـى تقضيها خارج البيت. ضحكتها التى كانت ساخرة متباطئة فـى البيـت (ها، ها، ظريف جدا!)، تصبح خارج البيـت عاليـة النبـرة مفعمـة بالحيوية، أشبه بجلجلة الأساور الذهبية فى معصمها النحيف.

كن أحيانًا يذهبن للتسوق، وفى أحيان أخرى كن يعبرن الطريق السريع فى انطلاقة مباغتة فرارا من السيارات المارقة، ويتوقفن عند مطعم صغير على الطريق، يتسكع حوله المراهقون. كان المطعم يأخذ شكل زجاجة صودا هائلة، أو هو أشبه ببيت صغير مكتنز، على قمته تمثال دوار لصبى ينطلق وجهه بابتسامة عريضة ويمسك بقطعة هامبورجر ويرفعها عاليا فى الهواء. وفى إحدى ليالى منتصف الصيف عبرن الطريق السريع جريًا وقد حبسن أنفاسهن من الخوف، وعلى حين غرة أطل شاب برأسه من نافذة سيارة ودعاهن للركوب، ولكنه كان من صبية المدرسة الثانوية الذين لا يأنسن لهم. وأحسسن بالراحة عندما استطعن تجاهله. اجتزن غابة من السيارات الواقفة والمنطلقة فى طريقهن إلى المطعم ذى الأنوار الساطعة فى كل أركانه، والهوام التى تغزوه بأعداد وفيرة. امتلأت عيونهن بالبهجة والترقب وكأنهن يدخلن مكانًا مقدسًا يبدو لهن، فى عتمة الليل، ملاذًا آمنًا، وعبادة يؤدينها. جلسن إلى النضد وصالبن أرجلهن فوق كواحلهن وقد تصلبت أكتافهن من فرط الإثارة، وأنشأن ينصتن للموسيقى التى كانت تشيع البهجة فى النفوس، موسيقى بدت لهن أشبه بالموسيقى التى تصاحب المصلين فى الكنيسة، بثت الطمأنينة فى نفوسهن.

دخل عليهن صبى يدعى إدى وشرع يتحدث إليهن. جلس خلفهن على مقعده وأخذ يدور به بطريقة متشنجة فى دوائر غير مكتملة ويتوقف ويبدأ فى الدوران من جديد، وبعد فترة قصيرة سأل كونى: هل ترغبين فى أن تأكلى شيئاً؟ ووافقت كونى ومست ذراع صديقتها وهى

تهم بالنهوض بينما رمتها صديقتها بنظرة باسمة تدل على جرأة مدربة. أخبرت كونى صديقتها أنها ستقابلها فى الحادية عشرة فى المكان نفسه: أنا فقط لا أحب أن أتركها وحسب. ورد الصبى بقوله: لن تبقى وحدها مدة طويلة. استقلا سيارته، وفى الطريق أخذت كونى تنظر فى حاجب الريح فى السيارة وتحدق فى الوجوه. أضاءت وجهها سعادة لا صلة لها بإدى أو حتى بالمكان، لابد أنها الموسيقى. أخذت نفسًا عميقًا جعل منكبيها يرتفعان تعبيرًا عن سعادة غامرة وإحساس خالص بالحياة. التقت عيناها فى تلك اللحظة بعينى صبى آخر على مسافة أقدام منها. كان أشعث الشعر أسوده، يركب سيارة قديمة بغطاء بلون ذهبى قابل للطى. أطال فيها النظر ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة. وردت كونى عليه بنظرة شزراء سريعة. ولكنها ما لبثت أن عاودت النظر إليه وكأنه ما زال يراقبها. أشار بأصابعه وهو يضحك وقال: هل تذهبين معى يا حبيبتى؟ تحولت عنه كونى مرة أخرى دون أن يلحظ إدى شيئًا.

قضت ثلاث ساعات بصحبة الصبى، أكلا الهامبورجر وشربا الكوكاكولا فى كئوس شمعية كانت ترشح طوال الوقت. وعندما رجعا فى الحادية عشرة كانت أبواب المحلات موصدة ما خلا دار السينما. وجدت صديقتها تحادث صبيا. تبادلت الفتاتان النظرات والابتسام وسألتها كونى: كيف كان الفيلم؟ وردت الفتاة: أحرى بكِ أن تخبرينا عنه. ركبا مع أبى الفتاة وهما منتشيتان يداعب الكرى جفونهما. ولكن عينى كونى تعلقت بالسوق المظلم ومكان انتظار السيارات وأنوار.

التى خبت الآن، والمطعم هناك على الطريق حيث كانت السيارات لم تزل تحوم دون ملل. لم تستطع سماع الموسيقى من تلك المسافة.

وفى الصباح سألتها جونى: كيف كان الفيلم؟ فردت كونى ردا مقتضبًا: (نص ونص)

كانت تخرج مع هذه الفتاة وأحيانًا تصحبهما فتاة أخرى ثالثة عدة مرات فى الأسبوع بالطريقة نفسها، وتقضى باقى الوقت فى البيت. كانت ـ فى إجازة الصيف – تخلو إلى نفسها بعيدًا عن الأم وتجتر ذكرياتها، تحلم بالصبية الذين قابلتهم. ولكن وجوه الصبية لم تلبث أن تراجعت وذابت فى شىء واحد لا يمت للوجوه بصلة. إحساس اختلط عندها بقرع الموسيقى اللجوج، وهواء صيف يوليو الندى. وما زالت الأم بها تحاول ردها إلى واقع اللحظة بأن تغريها بشىء تعمله أو تسألها فجأة: ما أخبار بنت بتنجر؟

وكانت كونى تجيب فى نفاد صبر: آه، هذه المغفلة.

كانت تتظاهر بأنها تمقت هؤلاء الفتيات، وكانت الأم تصدقها. كونى نفسها تعتقد أن أمها غاية فى البساطة، وأنه من القسوة أن تظل تخدعها على ذلك النحو. ظلت الأم تتمشى حول البيت تجر قدميها على الأرض فى (شبشب) نومها القديم. وفى التليفون أخذت تشكو من أخت لها لأخت لها أخرى، وبعد ذلك اتصلت هذه الأخرى وراحتا تشكوان من أخت لهما ثالثة، وعندما كان يذكر اسم جونى كان صوت الأم يشى بالرضا والقبول، وعندما كان يذكر اسم كونى كان صوتها يكتسى

بمسحة من النفور. والواقع أن ذلك لم يكن معناه أن الأم كانت تكره كونى، بالعكس كانت كونى تعتقد أن أمها تفضلها على جونى لأنها أحلى منها، ولكن كلتاهما كانت تعمد إلى الإبقاء على قدر من الحنق فيما بينهما، وهو أمر كانتا تحرصان على إظهاره بصدد أمور ذات قيمة ضئيلة، كأن تتشاجرا على القهوة مثلاً. ولكنهما كانتا صديقتين فى الأغلب الأعم، ما خلا تلك اللحظات التى تنطلق فيها أسباب الحنق مثل ذبابة تدور فجأة حول رأسيهما فتضفى على تعبيرات وجهيهما علامات السخط.

فى يوم من أيام الآحاد استيقظت كونى فى الحادية عشرة – ليس منهم من يهتم بالذهاب إلى الكنيسة – وعمدت إلى شعرها فغسلته لتعرضه للشمس طوال اليوم حتى يجف. كان والداها وأختها يستعدون للذهاب تلبية لدعوة إحدى خالاتها لتلك المناسبات التى يقدم فيها لحم الخنزير المشوى، وكانت كونى قد رفضت الذهاب معهم، قالت ذلك لأمها وهى تدحرج عينيها. ردت الأم بحدة: "ابقى وحدك فى البيت إذن". وعادت كونى إلى مقعدها فى المرجة لتلقى نظرة عليهم وهم ينطلقون بسيارتهم. كان الأب هادئ الطبع مكشوف الطوية. رأته وهو يرجع بسيارته قليلاً للخلف حتى يتمكن من الخروج من الباب. كانت نظرات الأم لم تزل تحمل علامات الغضب. وفى المقعد الخلفى جلست جونى، الأخت الكبرى الطيبة ترتدى أفضل ملابسها لمناسبة لا تستحق كل هذه الزينة. إنها مناسبة عائلية يكثر فيها الأطفال الذين يعدون

ويمرحون ويصرخون وراء طائرات الورق. جلست كونى وقد أغلقت عينيها توقيًا لأشعة الشمس التى أشاعت الدفء حولها وداعبت وجنتيها وكأنها قبلات الغرام، مما جعلها تغوص فى أحلامها الوردية التى لا تنتهى. طاف بخيالها الصبى الذى قابلته بالأمس. تذكرت ظرفه وعذوبة لقائه وحلاوة حديثه، ليس بالطريقة التى يمكن أن تتصورها فتاة مثل جونى، بل بالطريقة التى تصورها الأفلام والأغانى، وعندما فتحت عينيها استغربت المكان، فقد امتلأ الفناء الخلفى بنباتات الماء، وبدت السماء خلف سياج الأشجار غامقة الزرقة عميقة السكون. جفلت من مشهد خيوط الحرير الصخرى "مزرعة الماشية" التى مضى عليها ثلاث سنوات الآن – فبدت صغيرة. هزت رأسها كأنما تريد أن تنفض عنه آثار الكرى.

كان الجو متقدا بالحر. دخلت البيت وأدارت المذياع لتغرق بعد ذلك فى الخيال والصمت. جلست على حافة السرير عارية القدمين وظلت تستمع ساعة ونصف الساعة إلى برنامج غنائى يسمى منوعات الأحد الغنائية إكس واى زد، يرسل الأغنية فى إثر الأغنية بصوت صاخب عنيف وسريع. كانت كونى تردد الغناء لا يقاطعها سوى صوت المذيع بوبى كنج وهو يقول: انظرن يا بنات إلى بن نابليون وتشارلى، أريدكن أن تنصتن جيدًا لهذه الأغنية القادمة.

وظلت كونى تصغى باهتمام، سابحة فى عالم المتعة المتألق القادم من تلك الموسيقى الصاخبة مع ذبذبات الهواء البطيئة لتملأ

جنبات الحجرة الصغيرة التى خلت من الهواء الطلق، يعلـو صـدرها وينخفض فى تؤدة ورقة مع كل شهيق وزفير.

ولم تزل كذلك حتى تناهى إلى مسمعيها صوت سـيارة قادمـة عبر المدخل. نهضت فزعة لا تتصور أن أباها رجع بهـذه السـرعة. أصاخت السمع لصوت العجلات وهى تسحق حصى المدخل. هرعـت إلى النافذة فإذا بسيارة لا تعرفها من النوع القديم مفتوحة السقف. كانت السيارة مطلية بلون ذهبى لامع يرتد عليه ضوء الشمس. بـدأ قلبهـا يخفق بقوة وتوجهت أصابعها على الفور إلى شعرها وهمست لنفـسها: يا إلهى! يا إلهى! وقد أقلقتها فوضى هيئتها. توقفت السيارة عند البـاب الجانبى، وسمعت البوق يطلق أربع صيحات، كأنما كانت تلك علامـة تعرفها كونى.

أمت المطبخ، واقتربت من الباب ببطء، ورفعت ستارته، ومشت على أصابعها العارية بخفة على الدرج. رأت صبيين داخل الـسيارة، ثم عرفت السائق بشعره الداكن الأشعث وملابسه الرثة، وقـد تطلـق وجهه بابتسامة عريضة. قال:

- هل تأخرت عليك؟

- من تظن نفسك أيها الحقير؟

- وعدتك أن نخرج معًا، صح؟

- أنا لا أعرف من تكون؟

كانت تتحدث مقطبة الجبين عابسة الوجه، حريصة على التحفظ ضنا بسعادتها أن تظهر. وكان الصبى يتحدث في اطراد رتيب في إخراج الكلمات والجمل. مدت كوني بصرها إلى الصبى الآخر، لفت نظرها شعره الجميل وقد أرسل منه خصلة على ظهره، له شاربان على وجنتيه منحاه تعبيرًا خجولا، ولكنه لم يلتفت إليها حتى تلك اللحظة. كلاهما كان يرتدى نظارات شمسية على عينيه. كانت نظارة السائق من النوع الذى يرى من خلاله كل شيء صغيرًا.

- هل تأتين معنا فى جولة بالسيارة؟

وشاعت فى وجه كونى ابتسامة مصطنعة، وأرسلت شعرها على أحد منكبيها بحركة سريعة مباغتة.

- ألم تعجبك سيارتى؟ قمت بطلائها حديثا؟ هه.

- ماذا؟

- أنت فاتنة.

وتظاهرت بالقلق والعصبية وشرعت تطرد ذبابا تداعى على الباب.

- ألا تصدقيننى، أم ماذا؟

قالت كونى فى قرف:

- أنا حتى لا أعرفك.

- إيلى لديه راديو.. انظرى.. كان لدىَّ راديو وتحطم.

ورفع ذراع صاحبه وأراها الراديو الصغير الذى كان الصبى يمسك به. وبدأت كونى تسمع الغناء. البرنامج نفسه الذى كانت تستمع إليه فى سريرها.

- بوبى كنج؟

- أنا أسمعه دائمًا، ممتاز؟

- يعنى، ممتاز. قالت كونى فى ابتسار.

- اسمعى.. هذا الولد رائع.. يعرف كيف يجد المتعة.

احمر وجه كونى خجلا ولكنها لم تر وجه الصبى الآخر من وراء نظارته الداكنة. لم تره حتى يحوز إعجابها أو استياءها. ترددت وهى فى المدخل بين الإقبال والرجوع. قالت له: ما كل هذا الطلاء على سيارتك؟

- ألم تقرئى؟

وفتح الباب بحذر خوفا أن ترتد راجعة. وانسل منه انسلالا حتى ثبت قدميه على الأرض وظل العالم يضمحل فى زجاج نظارته حتى بدا صغيرا متموجا تظهر فى وسطه بلوزتها الخضراء الزاهية. قال:

- لنبدأ.. هنا كتبت اسمى.

آرنولد فرند. كتب بحروف سوداء فى لون القار تجاوره صورة لوجه مستدير ينطلق بابتسامة عريضة ذكر كونى بالدبَّاء. دُبَّاء ترتدى نظارة شمسية.

- أريد أن أقدم نفسي: آرنولد فرند، هذا هو اسمي الفعلي، وأنا صديقك من الآن يا حبيبتي، أما الولد الذي يجلس داخل السيارة فهو إيلي، صبي خجول بعض الشيء.

رفع إيلي جهاز الراديو الذي يمسك به بمحاذاة منكبيه واستمر يشرح: هذه الأعداد من الآن شفرة سرية فيما بيننا ٣٣، ١٩، ١٧. ورفع حاجبيه ليرى أثر حديثه على وجهها. كتب على الحاجز الخلفي المحطم عبارة: هذا من فعل سائقة مجنونة. عندئذ ضحكت كوني مما جلب السعادة لآرنولد فرند ونظر إليها وكأنه يدعوها للقدوم.

- هل تقرئين ما كتبته في الجهة الأخرى؟

- لا.

- ولم لا؟

- ولم أفعل؟

- ألا تريدين قراءة المكتوب على سيارتي؟ ألا ترغبين في جولة بسيارتي؟

- لا أدري.

- لماذا لا تدرين؟

- عندي مشاغل.

- مثل ماذا؟

- مشاغل.

وضحك كأنها قالت ما يستوجب الضحك، وضرب بيديه على وركيه. كان يقف بطريقة غريبة معتمدًا بظهره على السيارة وكأنه كان يحفظ اتزانه. لم يكن طويل القامة، كان أطول منها ببوصتين لا أكثر. أعجبتها طريقته فى ارتداء ملابسه، طريقتهما معًا: البنطلون الجينز المحزق الذى نصل لونه الأسود، والحذاء البالى، والحزام الذى شد على خصره شدا وثيقًا، والقميص الضيق المتسخ الذى تظهر منه عضلات يديه ومنكبيه صغيرة نافرة. بدا كأنه كان يعمل فى الأشغال الشاقة، يرفع أثقالا ويحملها، حتى رقبته ظهرت بها العضلات. كان وجهه منطلقا لا يصطنع التكلف، تعلوه بعض الظلمة لأنه لم يحلق منذ يومين أو أكثر. ظل يتنشق بأنفه الصقرى وكأنها لقمة يريد التهامها.

- كونى، أنت تكذبين على، هذا يومك، جئت من أجلك لكى تخرجى معى وأنت تعرفين.

قال ذلك دون أن يتوقف عن الضحك والابتسام، تنم طريقته فى الضحك والحركة والتوقف والرجوع إلى الضحك مرة أخرى عن محاولة خداعة. سألته بشىء من التردد:

- كيف عرفت اسمى؟

- كونى.

- ربما، وربما لا.

- أنا أعرف كونى حبيبتى.

قال ذلك وهو يشير بإصبعه. تذكرته الآن. عادت بذاكرتها إلى المطعم، احمر وجهها خجلا عندما تذكرت كيف خفق قلبها عندما مر أمامها وكيف كانت تنظر إليه. "إيلى وأنا جئنا إلى هنا من أجلك، إيلى سيجلس فى الخلف. ما رأيك؟

- أين؟

- أين ماذا؟

- أين نذهب؟

حدجها بنظرة ذات معنى. خلع نظارته الشمسية فرأت الشحوب حول عينيه اللتين كانتا أشبه بفجوات تعرضت فجأة للنور. كانت عيناه أشبه برقائق الزجاج المكسور لا تأنس للنور. ابتسم وكأن الخروج معها فى جولة بالسيارة إلى أى مكان شيء جديد فى نظره.

- سنأخذ جولة فقط، كونى حبيبتى.

- أنا لم أقل إن اسمى كونى.

- ولكن أعرف اسمك، أعرف كل شيء عنك، أشياء كثيرة.

ظل ساكنا معتمدًا بظهره على السيارة وعاد يقول:

- أعرتك اهتمامًا خاصا، بنت جميلة مثلك يجب أن أعرف عنها كل شيء وعرفت كل شيء. أعرف مثلاً أن والديك وأختك

مدعوون للعشاء، وأعرف كم سيبقيان. وأعرف مع من كنت الليلة الماضية، وصديقتك المقربة هى بيتى، صح؟

كان يتحدث بصوت ناعم وكأنه يتلو كلمات أغنية. ابتسامته طمأنتها بأن كل شىء على ما يرام. فى السيارة رفع إيلى صوت المذياع، ولم يهتم بالنظر إليهما. قال آرنولد فرند:

- إيلى يمكن أن يجلس فى الخلف.

وأشار إلى إيلى بإيماءة من ذقنه وكأن إيلى لم يكن يهتم بشىء وأنها لا ينبغى أن تهتم به. قالت كونى:

- كيف عرفت كل هذه الأشياء؟

قال فى صوت غنائى:

- اسمعى.. بيتى شولتز وتونى فش وجيمى بتنجر ونانسى بيتنجر ورامون ستانلى وبوب هتر....

- أو تعرف كل هؤلاء؟

- أنا أعرف كل الناس.

- اسمع، أنت تهرج، أنت لست من هنا.

- طبعًا من هنا.

- ولكننا لم نرك هنا من قبل.

قال وهو ينظر إلى أسفل قدميه. لعله أحس بأنه أساء إليها قليلاً:

- طبعًا رأيتنى، أنت فقط لا تتذكرين.

- أعتقد أني لو كنت رأيتك لتذكرتك.

وأخذ يتفحصها بعينيه. كان سعيدًا. بدا أنه يستمع للموسيقى القادمة من مذياع إيلي؛ لأنه كان ينقر بقبضة يده على كف اليد الأخرى. نظرت كونى إلى السيارة التى كانت تلتمع فى ضوء الشمس. قرأت الاسم: آرنولد فرند، وقرأت عبارة أخرى تلفت الانتباه: انتبهوا للأطباق الطائرة. عبارة كانت تجرى على ألسنة الصبية فى العام الماضى، ولم تعد تسمعها منهم هذا العام. تطلعت إليه برهة لعله يفسر لها معناها. سألها آرنولد فرند:

- ما رأيك؟ هيه؟ ألا تحبين أن ترى شعرك يطير مع الريح وأنت فى السيارة بجوارى؟

- لا؟

- ألا تثقين فى قدرتى على القيادة؟

- وكيف أعرف؟

- أنت فتاة صعبة. كيف لا تعرفين؟ ألا تعرفين أنى صديقك؟ ألم ترينى وأنا أضع العلامة فى الهواء وأنت تمرين أمامى؟

- أية علامة؟

- علامتى التى رسمتها لك فى الهواء.

ورسم علامة × فى الهواء بينما يقترب منها. لم يكن يفصلهما سوى عشرة أقدام. وبعد أن أعاد يده إلى مكانها كانت علامة × لم تزل هناك فى الهواء تكاد تراها كونى. تركت كونى الباب السلكى موصدًا ووقفت خلفه ساكنة تنصت للموسيقى المنبعثة من مذياعها ومذياع الصبى وتطيل التحديق فى آرنولد فرند. كان يقف هناك متصلبًا يتظاهر بالاسترخاء وقد وضع إحدى يديه على مقبض الباب مما دل على نيته بعدم الابتعاد. لقد فهمت من يكون، ببنطلونه الجينز المحزق الذى يظهر فخذيه وردفيه وحذائه الجلدى الملوث بالشحم وقميصه الضيق وهذه الابتسامة الخليعة على شفتيه، تلك الابتسامة الحالمة التى كان الصبية يستخدمونها لتنوب عنهم فيما يريدون قوله. عرفت كل ذلك عنه، وكذلك طريقته الرديئة فى الحديث حيث يختلط عنده الجد بالهزل والحزن بالفرح، وعادته فى ضرب قبضة يده فى باطن كف الأخرى علامة على الإعجاب. ولكنها لم تعرف كل ذلك مرة واحدة.

سألته فجأة :

- هيه، كم عمرك؟

وغابت ابتسامته هنيهة، وظنت فى الحال أنه لم يكن صبيا صغيرًا، لعله فى الثلاثين أو أكثر مما جعل دقات قلبها تتدافع بشدة.

- هذا سؤال أحمق، ألا ترين أنى فى مثل سنك؟

- اذهب للجحيم أنت وسنك.

- أو ربما أكبر منك بعامين. أنا فى الثامنة عشرة.

- الثامنة عشرة! قالت بنبرة شاكة.

وعادت ابتسامته العريضة التى ظهرت معها أركان فمه وأسنانه البيضاء الكبيرة وعيناه اللتان تشبهان الشقوق وأهدابه الكثيفة الداكنة كأنها طليت بالقار. مدت بصرها إلى إيلى فقال لها آرنولد :

- يا ربى، إنه معتوه، أليس كذلك؟ مخبول، شخص غريب الأطوار.

كان إيلى لم يزل ينصت للموسيقى، يرتدى قميصًا لم يغلق أزرار النصف الأعلى منه، مما أظهر صدره الذى كان شاحبًا ضاربًا إلى الزرقة خاليًا من العضلات التى تظهر عند آرنولد. انتصبت ياقة قميصه حول رقبته حتى مست حافته باطن ذقنه. وضع جهاز الراديو قريبًا من أذنه وجلس هناك كمن أصيب بدوار تحت أشعة الشمس المباشرة.

قالت كونى:

- فعلاً، غريب الأطوار قليلاً.

- عندئذ صاح آرنولد فرند:

- تقول إنك غريب الأطوار قليلاً!... قليلاً!

مال ناحية السيارة كى يلفت نظر إيلى، واستدار إيلى ناحيتها

للمرة الأولى، ورأت كونى أنه ليس صبيا صغيرًا أيضًا، له شعر جميل ووجه وخدان متوردان قليلاً، وعروق بانئ تحت جلده، ووجه طفل فى الأربعين. أحست كونى بالدوار مقبلا من داخلها إلى رأسها وأخذت تحدق فى الصبى كأنما تنتظر شيئًا يخفف من الصدمة، شيئًا يعيد الأمور إلى ما كانت عليه. كانت شفتا إيلى ترتعشان بكلمات لم تفهمها ضاعت فى الهواء. فقالت بصوت خفيض:

- ربما الأفضل لكما أن تذهبا.

عندئذ صاح آرنولد فرند:

- ماذا ؟ ماذا حدث؟ جئنا إلى هنا لكى نأخذك فى سيارتنا، إنه يوم الأحد.

كان صوته يشبه صوت المغنى الذى يرسل الأغانى إلى المذياع. استمر يقول:

- ألا تعرفين أن اليوم يوم الأحد يا حبيبتى؟ لا يهمنى مع من كنت بالأمس، اليوم أنت معى، مع آرنولد فرند! لا تنسى هذا!... ربما الأفضل أن تخرجى من هنا.

أطلق الجملة الأخيرة بنبرة مختلفة، فظة وكأن الحرارة سرت فى جسده آخر الأمر.

- لا.. عندى مشاغل كثيرة.

- هيه؟

- الأفضل لكما أن تذهبا.

- لن نذهب حتى تأتى معنا.

- عندى...

- كونى، لا تحاولى خداعى وتضييع وقتى، أعنى، أعنى، لاتضيعى الوقت.

ظل يهز رأسه أثناء الكلام ويصطنع الضحك. رفع نظارته الشمسية بحذر على قمة رأسه كأنه كان يخشى من شعره المستعار أن يسقط. وضع ذراعى نظارته برفق خلف أذنيه. حدقت فى وجهه وأحست بنوبة أخرى من الدوار تنطلق من أعماقها إلى رأسها. رأته شبحًا غامضًا يعتمد بظهره على سيارته الذهبية. كيف دخل البيت؟ وكيف اجتاز المدخل؟ وما هى تلك الأشياء التى عرفها عنها؟

- لو جاء أبى الآن ورآنا...

- لن يجىء، إنه فى حفل الباربكيو الآن...

- كيف عرفت ذلك؟

- فى بيت خالتك تيلى الآن، كلهم.. هيه... يشربون ويتسامرون. كان يتحدث بطريقة ملغزة وهو يرنو إليها كأنما كان يلقى نظرة على الفناء الخلفى فى بيت خالتها ثم فتح عينيه وقال متحمسًا:

- نعم، هناك.. يجلسون ويتسامرون، أختك فى فستانها الأزرق،

هيه؟ وحذائها العالى... بلا جمال... لا أحد مثلك يــا حبيبتــى، ياحلوتى! وها هى أمك تعطى سيدة أخرى بدينة كوز الذرة، إنهما ينظفان الذرة، يقشرانها... صاحت كونى:

- امرأة بدينة ؟ ما اسمها؟

- وكيف أعرف اسمها؟ طبعًا لا أعرف اسم كل امرأة بدينة فى هذا العالم.

ضحك آرنولد فرند وأحست كونى بعودة الدوار مع تدافع فــى أنفاسها. قالت :

- آه، إنها المسز هورنبى... من الذى دعاها؟

- إنها بدينة جدا، لا أحب المرأة البدينة، لا أحب غيرك يا حبيبتــى، لا أحب المرأة إلا فى جسمك أنت.

كان يبتسم بوجه ناعس. حدق كل فى الآخر برهة عبر البــاب السلكى ثم عاد يقول برقة:

- الآن سوف تفعلين الآتى: ستخرجين من هذا الباب وتجلسين على المقعد الأمامى بجوارى، إيلى سيجلس فى المقعد الخلفى، يــذهب إيلى فى داهية، صح؟ إيلى لم يكن صديقك، أنا صــديقك وأنــت حبيبتى، كل حياتى.

- ماذا تريد؟ أنت مخبول.

- نعم.. أنا حبيبك. أنت لا تعرفين معنى هذا، ولكنك ستعرفين، أنا متأكد من ذلك. أنا أعرف كل شيء عنك. لكن اسمعي، أنا شخص لطيف ولن تجدى أحدا أفضل أو أكثر أدبًا منى، ودائمًا على وعدى، سأخبرك كيف ذلك. أولا أنا شخص لطيف، حلو المعشر دائما. فى البداية سوف أضمك إلى صدرى بشدة ولن ترضى ببديل لى ولن تبحثى عن غيرى بعد ذلك؛ لأنك سوف تعرفين أنك لن تستطيعى. سوف تكاتمينني أسرارك وأكون جزءًا منك، وتحبينني.

قالت كونى:

- اخرس، أنت مخبول!

وعادت إلى الباب. ووضعت يديها على أذنيها وكأنها سمعت شيئًا بشعًا، شيئًا لا يعنيها هى. بدأت تتمتم:

- الناس لا يتكلمون بهذه الطريقة، أنت مجنون.

بدأ صدرها ينشق عن قلبها الذى تسارعت دقاته. وبدأ العرق يتفصد من أماكن كثيرة فى جسدها. نظرت لتجد آرنولد فرند يخطو نحوها بجسد مترنح يكاد يقع، ولكنه استطاع أن يحفظ اتزانه كشأن الثمل الحريص. تعثر فى حذائه العالى وأمسك بأحد أعمدة الشرفة وقال:

- حلوتى، أنت تسمعينني ولا شك.

- امش من هنا!

- كونى لطيفة يا حبيبتى، اسمعى.

- سأتصل بالبوليس.

وتعثر فى حذائه مرة أخرى وبصق على الأرض وهو يلعن بصوت خفيض حتى لا تسمعه كونى، ثم استأنف ابتسامته المصطنعة الغريبة التى بدت قادمة من تحت قناع. قالت فى نفسها إنه يضرب قناعًا على وجهه يصل إلى حلقه.

- حبيبتى...! اسمعى، أقول لك الصراحة؟ سأعدك... بصراحة لن أقتحم هذا البيت لكى أصل إليك.

- الأفضل ألا تفعل... سأتصل بالبوليس... إذا لم تتصرف...

قال لها مقاطعًا:

- حبيبتى، أنا لن أدخل البيت.. أنت التى ستخرجين، أنت تعرفين لماذا.

بدأت أنفاسها تتسارع بما يشبه اللهاث. بدا لها المطبخ مكانًا غريبًا لم تره من قبل، دلفت إلى حجرة لا تألفها، حجرة لا فائدة فيها. نافذة المطبخ ليس عليها ستارة منذ ثلاث سنوات، والحوض ملىء بالأطباق المتسخة، والمنضدة لزجة يعلوها الشحم.

- هل تسمعيننى يا حبيبتى؟ هيه؟

- سأتصل بالبوليس...

- بمجرد أن تلمسي سماعة التليفون لن أكون مضطرا للإبقاء على وعدى لك، سأضطر لاقتحام البيت. هل تحبين ذلك؟

اندفعت إلى الداخل وحاولت إغلاق الباب. كانت أصابعها ترتجف. قال آرنولد فرند في همس وهو يحدق في وجهها مباشرة.

- ولكن ما الفائدة في إغلاقه؟ إنه مجرد باب منخلى هش، لا يشكل عقبة.

كانت إحدى قدميه تتخذ وضعًا غريبًا كأنها ليست داخل الحذاء، تتجه ناحية اليسار محنية عند كاهله. أردف:

- أعنى أن أى شخص يستطيع أن يحطم بابًا هشا كهذا زجاجًا أو خشبًا أو حديدًا، أو أى شيء إذا أراد، أى شخص خاصة آرنولد فرند. إذا أضرمت النار في البيت الآن يا حبيبتي فهل يكون أمامك سوى إلقاء نفسك بين ذراعى على الفور ثم تعودين إلى بيت أهلك فيما بعد؟ أنت تعرفين ذلك مثلما تعرفين أنى حبيبك فكفى عن خداعي.

جزء من هذه العبارات كان يقوله بصوت غنائى رشيق يرجع صدى أغنية تعرفها كونى من أغانى العام الماضى عن فتاة ألقت بنفسها بين ذراعى صديقها ثم عادت إلى بيت أهلها فيما بعد.

وقفت كونى عارية القدمين على الأرض المفروشة بالمشمع تمعن النظر فى الصبى. قالت بصوت خفيض هامس:

- ماذا تريد؟

- أريدك أنت.

- ماذا؟

- رأيتك تلك الليلة وفكرت، قلت إنك من أبحث عنها. نعم يا سيدتى. ومن ساعتها لم أشغل نفسى بالبحث عن أخرى.

- ولكن أبى قادم، سيعود ليأخذنى، ويجب أن أغسل شعرى قبل أن يصل...

- لا، أبوك لن يأتى الآن، واعتبرى أنك غسلت شعرك لى، شعرك جميل ويعجبنى، شكرا لك يا حبيبتى.

ثم بدرت منه انحناءة مشوبة بالسخرية، ومرة أخرى كاد يفقد اتزانه. انحنى ليحكم رباط حذائه. بدا الحذاء محشوا كأنه كان يريد أن يبدو أطول من الواقع. حدقت فيه ثم مدت بصرها إلى إيلى القابع فى السيارة، بدت عيناه تنظران إلى بعيد، فى الفراغ. قال إيلى وكأنه يسحب الكلمات من الهواء الواحدة تلو الأخرى:

- هل تحبين أن أنزع هذا التليفون؟

- قال آرنولد الذى احمر وجهه من بعد انحنائه على الحذاء أو ربما من الخجل لأن كونى رأت حذاءه.

- هذا ليس من شأنك.

- قالت كونى:

- ماذا.. ماذا تفعل؟ ماذا تريد؟ لو اتصلت بالبوليس سوف تفران فى الحال.. سيقبض عليكما الآن..

- لقد وعدتك ألا أقتحم البيت حتى تلمسى هذا التليفون.

واستمر فى وضعه المتشنج ورجع بمنكبيه قليلاً للوراء. بدا مثل بطل فى أحد أفلام الكاوبوى يهم بإعلان شيء ما. تحدث بصوت عال يشبه الصياح وكأنه كان يتحدث إلى شخص آخر يقف بعيدًا عن كونى.

- ليس لدى خطة لاقتحام البيت الذى تنتمين إليه. لقد جئت من أجلك لكى تخرجى لى وبالطريقة التى تختارينها. إنك تعرفين من أنا.

- أنت مخبول!

همست وتراجعت خلف الباب دون أن تتجاوزه إلى داخل البيت حتى لا يغريه ذلك بتعقبها.

- ماذا.. أنت مجنون.. أنت..

- هيه ؟ ماذا تقولين يا حبيبتى؟

انطلقت عيناها تستكشف أرجاء المطبخ دون أن تدرى أين تقف.

- نعم هذه هى طريقتى يا حبيبتى.. ستخرجين، وسوف ننطلق

بالسيارة فى جولة ممتازة، ولكن إذا انتظرت حتى يـأتى أهلـك فسوف تكون المتاعب جمة.

- قال إيلى وهو يمسك بالراديو بعيدًا عن أذنيـه ويلـوى قـسمات وجهه:

- هل تريدين منى أن أفصل التليفون؟

- عندئذ قال له آرنولد فرند:

- قلت لك: أغلق فمك يا إيلى، ألا تسمع؟ اذهب عالج أذنيك، صح؟ اسمع.. هذه البنت الجميلة ليست مزعجة على الإطلاق، سـتكون لطيفة معى. لذا، إيلى كن فى نفسك، هذه ليست فتاتك.. صح؟ لا تكثر الكلام معى. اعرف حجمـك، لا تحـشر نفـسك، لا تثـر حفيظتى.

كان يتكلم بصوت هامس خال من المعنى كأنــه كـان يلاحـق العبارات التى حفظها غير مطمئن بتأثيرها على سامعه. ثم ما لبث أن تلفظ بعبارات جديدة يحاول تجربتها مع الإبقاء علـى عينيـه نـصف مغمضتين.

- لا تزحف تحت سورى! لا تدخل فى جحـرى! حـك بأصـابعك المتسخة جسدك فقط!

ووضع يديه فوق حاجبيه توقيًا للضوء، وخص كـونى بنظـرة جعلتها تتراجع إلى المطبخ وقال:

- لا تأبهى بكلامه يا حبيبتى، إنه مجرد شخص تافه، مغفل، صح؟ أنا حبيبك، وكما قلت لك ستخرجين إلىَّ بإرادتك مثل أيـــة ســـيدة محترمة، وسأتناول يدك، ولن أسبب لك أى أذى، لن أسبب الأذى لأحد، أعنى أباك الأصلع وأمك وأختك ذات الكعب العالى، لأنه.. اسمعى لماذا أسبب لهم الأذى؟

- قالت كونى هامسة:

- اتركنى وشأنى.

- هيه، هل تعرفين العجوز التى تعيش على الناصية هناك؟ الـسيدة التى تربى الدجاج وأشياء... هل تعرفينها؟

- لقد ماتت!

- ألا تحبينها؟

- إنها ميتة... إنها لم تعد هنا...

- ولكن ألا تحبينها؟ أعنى هل تضمرين لها ضغينة أو حقدا أو شيئًا ما؟

ثم خفض صوته وكأنما لاحظ ما انطوى عليه من قسوة. مـــس بيده النظارة الشمسية الجاثمة على قمة رأسه وكأنه كان يريد أن يتأكـــد من وجودها.

- الآن كونى فتاة لطيفة.. مهذبة.

- ماذا أنت فاعل؟

- أمرين، وربما ثلاثة فقط... ولكن أعدك ألا يمر وقت طويل حتى تهيمي بى حبا، ستحببيننى حبك لأقرب الناس إليك. نعم، لقد شبعت من نصحك، والآن هلمى. أنت لا تريدين الأذى لأهلك، هل تريدين ذلك؟

عندما استدارت ارتطمت بمقعد أو شيء يشبه المقعد أصاب ركبتها. ولكنها استمرت تجرى إلى الحجرة الداخلية وأمسكت بالتليفون وسمعت صوتا صاخبا كالزئير، زئير نحيف. كان الخوف قد عقل لسانها فلم تملك إلا الاستماع إلى ذلك الصوت المنبعث من سماعة التليفون التى بدت لها مثقلة بالرطوبة.

همت أصابعها أن تتلمس طريقها نحو الأرقام، ولكن الخوف أصابها بالشلل فلم تجد القوة على الحركة. بدأت تصرخ فى التليفون. فى ذلك الصوت الزئيرى النحيف. صرخت بأعلى صوت، تنادى أمها. أحست بأنفاسها تتدافع تدافعًا عنيفًا فى رئتيها وكأن آرنولد فرند كان يطعنها بشيء من الخلف طعنات متكررة لا ترحم. أصبحت حبيسة النحيب الحزين الذى غمر العالم مثلما كانت حبيسة ذلك المنزل الذى أصبح لها سجنًا.

وبعد برهة عاد إليها سمعها وبصرها ووجدت نفسها جالسة على الأرض معتمدة على الحائط بظهرها الذى بلله العرق. وكان آرنولد فرند يخاطبها من وراء الباب السلكى:

- فتاة مهذبة! أعيدى التليفون إلى مكانه.

عندئذ ركلت التليفون بعيدًا عنها.

- لا يا حبيبتى، خذيه مرة أخرى وأعيديه إلى مكانه كما كان.

تناولت التليفون مرة أخرى وأعادته إلى مكانه. توقف الزئير.

- أنت إذن فتاة مهذبة! الآن اخرجى.

كان الخوف قد عقد لسانها. أصبح العالم فارغًا أمامها. اضمحل صراخها، وانتهى عويلها، وجثمت على الأرض وقد وقعت إحدى ساقيها تحت فخذيها. ومضة من النور بحجم رأس الدبوس جالت فى قاع عقلها؛ قالت فى نفسها: لن أرى أمى مرة أخرى، لن أنام فى سريرى مرة أخرى، أحست ببلوزتها الخضراء الزاهية مخضلة بالعرق.

قال آرنولد فرند بصوت واضح رقيق أشبه بصوت ممثل على المسرح:

- انسِ هذا البيت، هذا البيت بيت أبيك، مثل صندوق كرتون أستطيع أن أقلبه رأسًا على عقب. أنت تعرفين ذلك، وكنت تعرفين ذلك، هل تسمعيننى؟

قالت فى نفسها: يجب أن أجد حلا. استمر يقول:

- سنذهب معًا إلى مكان رائع، فى الخلاء حيث الشمس المشرقة

وأريج الأزهار الجميل، سأضمك إلى صدرى، ولن تكونى فى حاجة لأحد سواى وسوف تعرفين الحب على يدى وماذا يفعل، ليذهب هذا البيت فى داهية! يبدو جامدًا لا حياة فيه.

ومر بأظافره على الباب السلكى، ولم ترتجف هذه المرة بسبب الضوضاء.

- الآن ضعى يدك على قلبك يا حبيبتى، اشعرى بما أقول، ماذا أمام بنت جميلة مثلك غير أن تكون لطيفة وحلوة وتستسلم؟ وتأتى إلىَّ قبل أن يأتى أهلها؟

تسارعت دقات قلبها، ذلك الكائن الحى الذى تستطيع أن تمسك به الآن بيديها. أحست أنها لا تملك شيئًا من هذا العالم ما خلا تلك الدقات المتسارعة لقلب حزين يضطرب داخل جسد لم تعد تملك من أمره شيئًا. استمر آرنولد فرند يقول:

- أنت لا تريدين لهم الأذى، الآن انهضى يا حبيبتى، انهضى بنفسك.

ونهضت.

- الآن اتجهى ناحيتى. تمام. تعالى هنا. إيلى، نحِ هذا، ألم أقل لك؟ أنت غبى، أنت مغفل يا إيلى.

لم تكن عيناه غاضبتين: الآن تعالى إلى المطبخ، إلىَّ يا حبيبتى، دعينا نرى ابتسامتك، حاولى، أنت بنت صغيرة وشجاعة وحلوة، وهم

الآن يأكلون الذرة المشوية والسجق المشوى على نار نصبت فى الهواء الطلق، ولا يعرفون عنك شيئًا. أنت أفضل منهم يا حبيبتى، ليس منهم من يستطيع أن يفعل شيئًا من أجلك.

أحست كونى ببرودة المشمع تحت قدميها. طردت خصلة من شعرها بعيدًا عن عينيها. وغادر آرنولد فرند موقعه بجوار العمود، وفتح لها ذراعيه برسغين متداعيين علامة على أن العناق سيكون حنونا آمنا لا حرج فيه.

ألقت يدها على الباب السلكى وفتحته. راقبت نفسها وهى تدفع الباب فى تؤدة وتفتحه كأنها وجدت مأمنًا آخر الأمر، راقبت ذلك الجسد وتلك الرأس التى يزينها الشعر الطويل، يخرج ليلقى أشعة الشمس حيث كان آرنولد فرند يقف هناك ويقول فى تنهيدة طفق يتنغمها:

- فتاتى الحلوة الصغيرة ذات العينين الزرقاوين.

لم تكن عينا كونى زرقاوين بل كانتا سمراوين. تسمرت فى مكانها لا تجد قوة على الحركة وقد شخص بصرها فى امتدادات لانهائية من أرض وقعت تحت أشعة الشمس الساطعة، مساحات لا نهاية لها، لم ترها كونى من قبل ولا تعرف عن أمرها شيئًا غير أنها كانت مقبلة عليها الساعة.

## المفتاح (١٩٧٠)

### إسحاق باشيفز سنجر

كانت الساعة الثالثة وقت الأصيل حين استعدت بيسى بوبكن للخروج، والخروج عندها محفوف بكثير من المصاعب، لا سيما فى أيام الصيف الحارة؛ فهى مضطرة إلى أن ترتدى الكورسيه الضيق الذى تشد به خصرها وردفيها، وإلى أن تحشر قدميها المتورمتين فى حذاء ضيق، وإلى أن ترجل شعرها الذى كانت قد صبغته فى البيت، والذى أصبح الآن جامحًا ومخضبًا بألوان كثيرة: صفراء وسوداء ورمادية وحمراء، وإلى أن تطمئن آخر الأمر إلى أن الجيران لن يقتحموا شقتها فى غيابها ويسرقوا الملاءات والملابس والوثائق، أو أن يعبثوا بأشيائها ويخفوها.

وإلى جانب الذين كانوا يضايقونها من بنى البشر، كانت بيسى تعانى من اضطهاد الشياطين والعفاريت الصغيرة وقوى شريرة أخرى. كانت تخفى نظارتها فى الكوميدينو وتجدها بعد ذلك فى الشبشب. تضع زجاجة الصبغة فى خزانة الدواء، وبعد أيام تجدها بالمصادفة تحت الوسادة. ذات يوم وضعت قدر الحساء فى الثلاجة،

ولكن الخفى أخذ القدر، وبعد بحث طويل وجدته بيسى مصادفة فى دولاب ملابسها وعلى سطح الحساء طبقة كثيفة من الدهن تنطلق منها رائحة شحم حيوانى زنِخ.

الله وحده يعلم ما كانت بيسى تعانيه، كم من عمل دنىء تعرضت له، وكيف اضطرت إلى الخصومة مع الجيران حتى لا تكون عرضة للهلاك أو نهبا للجنون. ضربت صفحًا عن التليفون لأن المبتزين كانوا لا يملون الاتصال بها ليلاً أو نهارا، ساعين لمعرفة شئونها الخاصة وأسرارها الدفينة. بائع اللبن فى محل بيرتو ريكان حاول اغتصابها ذات يوم. وحاول الصبى الذى يعهد إليه البقال توصيل السلع إلى الزبائن إحراق متعلقاتها بسيجارة. وسلط أصحاب شركة الإسكان ومديرها الجرذان والفئران والصراصير على شقتها التى تعيش فيها منذ خمس وثلاثين عامًا. كانت الشقة تخضع لقانون الإيجارات، وكانوا يريدون أن يضطرونها إلى تركها. أدركت منذ زمن بعيد أنه لا فائدة مع هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالحقد – لا الباب الحديدى ولا القفل الذى صنعته خصيصًا، ولا خطاباتها إلى الشرطة، والعمدة ووكالة الاستخبارات الأمريكية، ولا حتى إلى الرئيس نفسه فى واشنطن. ولكن المرء مضطر إلى أن يأكل طالما كان على قيد الحياة. وكل شىء يأخذ وقته: التأكد من إغلاق النوافذ وأنابيب الغاز وتأمين الأدراج. كانت تحفظ أوراق النقد بين صفحات دائرة المعارف، أو بين صفحات نسخ قديمة من كتاب الجغرافيا القومية، أو فى دفاتر سام

بوبكنز القديمة. كانت بيسى تخبئ أسهمها وسنداتها بين ألواح الخشب الخاصة بالمدفأة التى لم توقد أبدًا، وكذلك تحت المقاعد. أما المجوهرات فقد خاطتها فى ثنايا المرتبة. كانت لديها خزينة إيداع فى البنك فى وقت من الأوقات، ولكنها أقنعت نفسها منذ زمن طويل بأن الحراس هناك لديهم مفاتيح خاصة.

عند الخامسة تقريبًا كانت بيسى مستعدة للخروج. ألقت نظرة فاحصة أخيرة على نفسها فى المرآة – وجه ضعيف عريض، وجبهة ضيقة، وأنف منبسط، وعينان مائلتان، ونصف مغلقتين مثل عيون الصينيين، على ذقنها نبتت لحية صغيرة لا تكاد ترى. ارتدت فستانًا فاتحًا مزينا بزهور باهتة وقبعة قديمة مزينة بحبات كرز خشبية وحبات عنب، وحذاء باليًا رثا. وقبل أن تغادر الشقة قامت بفحص أخير للحجرات الثلاث والمطبخ. كانت الملابس والأحذية وأكوام الرسائل التى لم تفتحها تتناثر فى كل مكان. كان زوجها، سام بوبكنز، الذى رحل عنها منذ عشرين عامًا قد قام بتصفية تجارته فى العقارات قبل وفاته؛ لأنه كان ينوى التقاعد فى فلوريدا. ترك لها أسهمًا وسندات وعددًا من دفاتر التوفير وبعض صكوك الرهن. ظلت الشركات والبنوك ترسل لها الشيكات وكشوف الحسابات. طالبتها مصلحة الضرائب بضرائب على الدخل. كانت تتلقى كل بضعة أسابيع عروضًا من شركة تعنى بدفن الموتى عن بيع مساحات من الأرض فى مدافن فسيحة جيدة التهوية. فى الماضى كانت بيسى تجيب عن هذه الرسائل،

وتذهب لتودع شيكاتها وتتابع دخلها ومصاريفها. كانت قد أهملت كل شيء في الفترة الأخيرة لدرجة أنها توقفت عن شراء الجرائد وقراءة صفحة المال و الاقتصاد.

كانت بيسى تطبق البطاقات التى تحمل التوقيعات التى تعرفها فقط وتحشرها بين الباب و الحلق. كانت تحشو ثقب المفتاح بالمعجون. ماذا كان فى وسع أرملة مثلها دون أبناء أو أقارب أو أصدقاء أن تفعل أكثر من ذلك؟ فى الماضى كان الجيران يفتحون أبواب شققهم وينظرون إليها ويضحكون على حرصها البالغ، وكان آخرون يضايقونها. مضى هذا منذ زمن بعيد. بيسى لا تكلم أحدًا. وكذلك لا ترى جيدًا، أيضًا. النظارة التى كانت ترتديها منذ سنين لم تعد مجدية. ولكى تذهب إلى طبيب عيون ليصنع لها نظارة أخرى كان سيكلفها الكثير من الجهد – كل شيء كان صعبًا، حتى دخول المصعد والخروج منه، ذلك المصعد الذى كان بابه لا يغلق إلا بعنف.

لم تكن بيسى تمشى لأبعد من عمارتين من العمارة التى تسكن بها إلا فيما ندر. كان الشارع الواقع بين برودواى وطريق ريفرسايد يزداد صخبًا وقذارة يومًا بعد يوم. فئات من صبية الشوارع الفقراء يذرعون الطرقات جيئة وذهابًا فى مزقهم وأهدامهم. ورجال يملأ عيونهم الشر بشعور جعدة، وعيون مسعورة لا يملون من الشجار مع نسوة صغيرات تنتفخ بطونهن بالحمل على الدوام. كن يصحن بأصوات نحيفة مصلصلة فى وجوه هؤلاء الرجال. كانت الكلاب تنبح

والقطط تموء والحرائق تنشب وتهرع إليها عربات المطافئ والشرطة. في شارع برودواى حلت أسواق السوبرماكت محل دكاكين البقالة القديمة. البقالة توضع الآن فى عربات صغيرة، وعلى الزبون أن ينتظم فى طابور أمام المحاسب.

كان عالم بيسى يتداعى منذ وفاة سام فى نيويورك. المؤدبون من الناس تركوا الحى الذى اجتاحته أسراب من اللصوص والبغايا. محفظة بيسى سرقت منها ثلاث مرات أو أكثر. وعندما كانت تبلغ الشرطة كانوا يغربون فى الضحك ولا يفعلون شيئًا. عابر الشارع كانت حياته معرضة للخطر. كانت بيسى تفسح الطريق دائمًا للمارة. نصحها ناصح بأن تحمل عكازًا، ولكنها أجفلت من الفكرة؛ فلا هى عجوز ولا هى معوقة. فى بعض الأوقات كان الروماتيزم يتركها فى حالها، فكانت تعمد إلى ملابسها القديمة فى دولابها وتجربها وتتطلع إلى نفسها فى المرآة.

فتح باب السوبر ماركت كان أشبه بالمستحيل. كانت تنتظر حتى يأتى أحد الزبائن ويعينها على فتحه. السوبر ماركت نفسه مكان لا يبتدعه إلا الشيطان. اللمبات تتوهج فيه بضوء مبهر يؤذى العيون، والزبائن يدفعون أمامهم بعربات صغيرة محملة بالبقالة، ويصطدمون بالناس فى طريقهم. الأرفف مسرفة فى الارتفاع أو مسرفة فى الانخفاض، والضوضاء تصم الآذان، والفرق بين القيظ فى الخارج والبرد القارس فى الداخل يصيب المرء بالسل الرئوى. المعجزة أن

بيسى لم تصب بسرطان الرئة. الأمر الذى كان يعذب بيسى أكثر من أى شىء آخر هو التردد. كانت تتناول كل شىء بيد مرتجفة وتنظر فى البطاقة المدون عليها السعر، ليس هو الطمع ولكنه الشك الذى يملأ المرء فى تلك السن. وكانت بيسى تقول دائمًا إن التسوق يجب ألا يستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، ولكنها أمضت ساعتين دون أن تفرغ من التسوق فى هذا السوبر ماركت. وعندما أحضرت العربة أخيرًا ووقفت فى الطابور أمام المحاسب تذكرت أنها نسيت علبة الدقيق. وعندما عادت وجدت سيدة قد أخذت مكانها فى الطابور. وعندما دفعت الثمن ظهرت مشكلة جديدة؛ فقد وضعت بيسى الفاتورة فى الجهة اليمنى من جيبها ولكنها لم تجدها فيه، وبعد بحث وتنقيب طويلين وجدتها فى جيب صغير تضع فيه الفكة فى الجهة الأخرى من الحقيبة. نعم! من يصدق هذا؟ إذا أخبرت أحدا بذلك سيظنها ملتاثة.

عندما دخلت بيسى السوبر ماركت كانت شمس النهار ساطعة، خرجت منه قبيل الغسق. تحولت الشمس إلى اللون الأصفر أو البنى، وبدأت تغطس وراء نهر هدسون أو خلف تلال نيوجرسى الغائمة. بدأت المبانى فى شارع برودواى تطلق الأشعة التى امتصتها خلال النهار المتقد. وسمعت بيسى قعقعة القطار النفقى قادمة من تحت الأرض، وأحست بانبعاث الرائحة الكريهة لأدخنة تبعث على الضيق. كانت بيسى ممسكة بالحقيبة الثقيلة التى امتلأت بالبقالة فى يد، وفى الأخرى كانت تتشبث بمحفظتها بقوة. لم تكن برودواى من قبل بتلك

الدرجة من الفقر وسوء المنظر والقذارة. استنشقت الرائحة العفنة لغائط الكلاب والإسفلت اللين والبنزين والفاكهة النتنة الملقاة على الطرقات. كانت أسراب الحمام تحجل وسط أكوام من الجرائد الممزقة وأعقاب السجائر المتناثرة على رصيف المشاة. تعجبت كيف استطاعت تلك المخلوقات الضعيفة أن تنجو من أقدام المارة فى زحامها الرهيب. كانت السماء المتقدة بالحر تمطر الأرض بتراب أصفر غريب. وهناك أمام متجر زينت واجهته بزرع صناعى، وقفت فئات من الرجال فى قمصانهم النتنة يريقون عصير الببايا وعصير الأناناس على أنفسهم فى حركات عصبية وكأنما كانوا يريدون إخماد نار اضطرمت فى أحشائهم. كانوا يعلقون على رءوسهم ثمار جوز الهند وقد صاغوها على شاكلة الهنود الحمر. وفى شارع جانبى شاهدت بيسى صبية يجلسون تحت صنبور مفتوح ويتراشقون بالماء فى مزاح ثقيل. وفى ذلك الحر الملتهب كانت الشاحنات الضخمة تجوب الشوارع بمكبرات الصوت تطلق أغنيات صاخبة وصفيرا يصم الآذان دعاية لمرشح سياسى. وفى مؤخرة الشاحنة كانت تقف فتاة بشعرها الذى نصبته كالأسلاك تنثر وريقات الدعاية هنا وهناك.

كانت الأمور أثقل مما كانت بيسى تحتمل؛ عبور الشارع وانتظار المصعد والخروج منه إلى الطابق الخامس قبل أن يغلق الباب. وضعت بيسى الحقيبة على عتبة الشقة وبحثت عن المفاتيح. عمدت إلى مبرد أظافرها لتحفر به المعجون الذى كانت قد سدت به

ثقب المفتاح. وإنها لتدخل المفتاح وتديره في القفل فإذا به يقصف ولا يبقى في يدها غير مقبضه، وتدرك بيسى حجم مصيبتها؛ فالآخرون من قاطنى العمارة يحفظون نسخا من مفاتيحهم لدى المدير، ولكنها لم تفعل لأنها لم تكن تثق في أحد قط. كانت قد طلبت من صانع الأقفال أن يؤلف لها قفلا رقميا ليس من سبيل إلى فتحه إلا بتأليف رقم سرى معين. كانت تحفظ نسخة من المفتاح فى درج من أدراجها الكثيرة ولكنها لم تكن تحمل معها إلا ذلك المفتاح الذى قصف. همست بيسى فى نفسها: "حسنا، هذه هى النهاية إذن". لم يكن هناك من تلجأ إليه لطلب العون. كان الجيران أعداءها الألداء. وكان المدير ينتظر سقوطها. أحست بيسى باحتباس فى حلقها أعجزها عن الكلام وحرمها البكاء. ظلت تتلفت حولها علها ترى العفريت الذى وجه إليها تلك اللطمة الأخيرة. لقد دربت بيسى نفسها على استقبال الموت منذ فترة طويلة، ولكن الموت على عتبة الشقة أو على درجات السلم هو ما لم تكن تتمناه. إلى متى يستمر هذا الكرب إذن؟ راحت تقدح زناد فكرها. أكانت تجد صانع مفاتيح لم يغلق أبوابه تلك الساعة؟ وحتى إن وجدته أين المفتاح الذى ينسخ منه؟ سوف تضطره إلى القدوم إلى باب الشقة بأدواته لكى يعالج القفل، إنها فى حاجة إذن إلى حرفى من إحدى شركات الصيانة. لم يكن لديها من النقود ما يكفى. لم تكن تحمل من النقود أكثر من حاجتها الفعلية. كل ما أعطاه لها الصراف لا يتعدى ربع الدولار. همست لنفسها باللغة البيدية: آه يا أمى لا أريد أن أعيش

أكثر من ذلك. وعجبت غاية العجب لتذكرها تلك اللغة التى نسيها العالم أو كاد.

وبعد نوبات تردد طالت أو قصرت عقدت بيسى العــزم علــى العودة إلى الشارع علها تجد واحدًا من تلك المحلات التى تبيع الأدوات المنزلية أو الأكشاك التى تعنى بصنع الأقفال والمفاتيح. تذكرت كــشك المفاتيح القائم فى الحى الذى تقطن فيه، فلم يزل للناس مفاتيح تــتحطم أيضًا. ولكن ماذا كانت صانعة بحقيبة البقالة؟ كانت ثقيلة تعجــز عــن حملها. لم يكن أمامها من خيار إلا أن تتركها أمام الباب. وقالــت فــى نفسها: "السرقة فى كل مكان، ومن يدرينى فربما كان الجيــران هــم الذين عبثوا بالقفل عن نية مبيتة حتى لا أتمكن من دخول الشقة وتطلق أيديهم فى سرقتها وتخريب ممتلكاتها". وضعت بيسى أذنيها على الباب قبل أن تشرع فى العودة إلى الشارع.

لم تسمع إلا همهمة متصلة لا تعرف مصدرها أو سببها، أشــبه بتكات الساعة أحيانًا والأنين أحيانًا أخرى. لعله كان عفريتًا من الجــن محبوسًا بين الجدران يتحرق للفكاك، أو لعله كان صوت المياه الجارية فى الأنابيب. ودّعت بيسى حقيبتها التى كان يجب أن تكون محتوياتهــا فى الثلاجة الآن وليس أمام باب الشقة فى ذلك الحــر المتقــد. قالــت لنفسها: الزبد سوف يذوب واللبن سوف يحمض، إنهــا عقوبــة حلــت بى،اللعنة! اللعنة!. فى تلك الأثناء كان أحد الجيــران يهــم بــالنزول بالمصعد، أشارت له بيسى أن يمسك لها الباب. ولكن ربما كــان مــن

اللصوص. قد يسعى لإيقافها والاعتداء عليها. فتح الرجل لها الباب. همت أن تشكره ولكن الكلمات التصقت بحلقها فلاذت بالصمت. ولماذا تشكر أعداءها؟

عندما خرجت بيسى إلى الشارع كان الظلام قد غشى كل شىء. كان الحوض تحت الصنبور يفيض بالمياه. وكانت أضواء مصابيح الشارع تتساقط على مياه الحوض فبدا أشبه بالبحيرة الواسعة. شب حريق فى إحدى الضواحى مرة أخرى. صك أذنيها صياح صفارات عربات المطافئ وقعقعة آلات الحريق. ابتل حذاؤها فعمدت إلى شارع برودواى فلم تنج من غائلة الحر. كانت عيناها تخذلانها فى النهار أما فى الليل فقد كانت تقترب من العمى. كانت ترى الأضواء داخل المحلات ولكنها لم تكن ترى شيئًا من البضاعة. مشت قريبة من النوافذ ولكنها اصطدمت رغم ذلك بالمارة مما اضطرها إلى الاعتذار عن عدم وجود العصا. مرت أمام صيدلية ومخبز ومحل يبيع السجاد وقاعة مخصصة للمناسبات. لم تصادفها لافتة تشير إلى المحل المطلوب. مضت فى طريقها لا تلوى على شىء. بدأت عزيمتها تفتر ولكن عزمها كان قد صح على ألا تستسلم. ماذا تفعل امرأة قصف مفتاحها؟ أتموت؟ أتبلغ الشرطة؟ لابد من أن هناك من يصلح ما تحطم. ولكن أين؟

كان رصيف المشاة مزدحمًا بالمتفرجين. لابد أن حادثة وقعت هناك. سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف تسد الشارع. أحد الناس

ينظف الإسفلت بخرطوم مياه؛ ربما كان يزيل الدم. هُيئ لبيسى أن عيون المشاهدين تلتمع بتشف غريب كأنما كانوا يجدون المتعة فى مصائب الآخرين. إنها سلواهم الوحيدة فى تلك المدينة الشقية. لا، لن تبحث عمن يساعدها من بين أولئك الناس. ولم تزل ماضية فى طريقها حتى وصلت إلى الكنيسة. بضع درجات كانت تؤدى إلى الباب المغلق الذى تشمله الظلمة. لم تقو على الجلوس. كان ساقاها يرتجفان والحذاء يسحق أصابعها ويعض كاحليها. تحطمت قطعة من العاج فى الكورسيه وبدأت تعض فى لحم بطنها. قالت: حسنًا لقد اجتمعت قوى الشر كلها علىَّ الليلة. اختلط الغثيان بالجوع الذى راح يقرض أحشاءها وقفزت السوائل الحمضية من معدتها إلى فيها. قالت: يا أبى الذى فى السماوات، إنها نهايتى. ثم تذكرت المثل اليدى الذى يقول: إن المرء الذى يعيش دون أن يعمل حسابا للعواقب إنما يموت دون إيمان حقيقى. لقد أهملت حتى أن تكتب وصيتها.

لابد أن بيسى نامت. فعندما فتحت عينيها أحست بسكون آخر الليل. كانت الشوارع خالية أو تكاد. وكان الظلام يغشى الكون. لقد أطفئت الأنوار داخل نوافذ المحلات. لم يعد للحر وجود، والبرد يخترق ثيابها. ظنت لبرهة أن محفظة نقودها قد سرقت منها. كانت ملقاة على درجة أسفل قدميها. مدت بيسى يدها، ذراعاها فقدا الحس. أحست برأسها المستندة على الحائط ثقيلة كالحجر، بساقيها صلبتين كالخشب، وبأذنيها يمتلآن بالماء. رفعت أحد حاجبيها ورأت القمر يتهادى على ارتفاع منخفض فى ذراه الغائمة. وقريبًا منه كانت هناك

نجمة ترسل أضواءها الضاربة للخضرة. تثاءبت بيسي. كانت قد نسيت في الغالب وجود السماء والقمر والنجوم. مضت السنون من عمرها دون أن تنظر إلى النجوم. كانت تنظر إلى أسفل دائمًا. كانت الستائر المصنوعة من الجوخ مسدلة على نوافذ شقتها حتى لا تتمكن العيون المستطلعة في الشوارع من رؤيتها. حسنًا، فإذا كان هناك سماء فربما كانت هناك إله وملائكة وجنة. أين ترقد روح أمها وأبيها؟ وأين سام؟ إن بيسى لم تعرف الواجب أبدًا؛ لم تقم بزيارة واحدة لمقبرة سام في مدافن الأسرة. لم تضئ شمعة واحدة في ذكرى وفاته. ظلت مشغولة طوال الوقت بمنازعة القوى السفلية ولم تتذكر أن هناك قوى عليا أقدر منها على جلب الضرر والمنفعة. أحست بيسي بالحاجة إلى الصلاة للمرة الأولى منذ سنين. إن الله غفور رحيم، يشمل برحمته الجميع حتى من لا يستحقون. أبواها سوف يشفعان لها في الآخرة. تعلقت بضع كلمات على طرف لسانها ولكنها لم تتذكرها. قالت: يا رب، ارحمني فإني أستحق ما حل بي.

ازدادت الدنيا هدوءا وبرودة. تغيرت إشارات المرور إلى اللون الأحمر ثم الأخضر دون أن تحس بسيارة مارة. رأت فجأة زنجيا مقبلا من حيث لا تدري. كان يمشي مترنحا. دنا من بيسي وحدجها بنظرة فاحصة ثم مضى إلى حال سبيله. كانت تعلم أن حقيبتها مليئة بالأوراق المهمة، ولكن اهتمامها كان قد فتر بهذه الأشياء. لقد ترك لها سام ثروة طائلة، ماذا فعلت بها؟ كانت تدخر لكبرها وكأنها لم تزل في ميعة الصبا. سألت نفسها: كم عمري الآن؟ ماذا فعلت لنفسي خلال تلك

السنين؟ لماذا لم أرحل إلى مكان ما وأستمتع بمالى أو أساعد محتاجًا؟ أحست بمن يضحك فى أعماقها. كنت مشردة العقل وكأن مسنا من الجن قد ألم بى. لم أكن أنا البتة طوال تلك السنين وإلا كيف أفسر ما حدث؟ عجبت بيسى غاية العجب. أحست كأنها استيقظت من نوم طويل. فتح المفتاح المكسور بابًا فى عقلها كان موصدا منذ رحيل سام عن الدنيا.

انتقل القمر إلى الجهة الأخرى من موقعه المرتفع. كان كبير الحجم مخضبًا بالحمرة ومطموس الوجه. وكان الجو باردا بعض الشيء وبيسى ترتجف. أدركت أنها قد تصاب بالرئة ذاتها، ولكن الخوف من الموت كان قد غادرها كما غادرها خوفها من الإفلاس. هبت نسمات عليلة قادمة من نهر هدسون، وظهرت نجوم جديدة فى السماء. دنت منها هرة سوداء قادمة من الجهة الأخرى من الشارع. وقفت هنيهة على حافة الرصيف ونظرت بعينيها الخضراوين إلى بيسى ثم اقتربت منها ببطء وحذر. قضت بيسى عمرها تكره الحيوانات كلها؛ الكلاب والقطط... الحمام وحتى العصافير. كانت تعتقد أنها تنقل الأمراض وتجلب العفن للأشياء وأن الشياطين تتلبس القطط بالذات. وكانت تخشى أن تقابلها قطة سوداء مما ينذر بشؤم. ولكن بيسى الآن تشعر بحب لهذا المخلوق الذى يعيش فى ملكوت الله دون بيت أو أبواب أو مفاتيح. أقبلت الهرة على الحقيبة فتشممتها وحكت ظهرها بساقى بيسى وطفقت تموء. قالت بيسى: "المخلوق المسكين جائع،

أتمنى لو أعطيته ما يأكله، كيف للمرء أن يكره مخلوقا كهـذا؟ آه يـا أمى، لقد خدعت نفسى، خدعت نفسى، سأبدًا حياة جديدة". وسـاورتها أفكار خائنة. هل تتزوج؟

ولم يمض الليل دون إثارة ما. رأت بيسى فراشة فـى الهـواء. حامت لحظات فوق سيارة مركونة ثم أقلعت. أدركت بيسى أنها كانـت روح وليد لأن الفراشات الحقيقية لا تطير فى الليل. واسـتيقظت ذات مرة لترى كرة من النار فى حجم فقاعة الصابون المضيئة تنتقل مـن سقف إلى سقف ثم تغوص فى مكان مجهول. أدركت أن ما رأته كـان روحًا لميت مات حديثًا.

لقد نامت بيسى. استيقظت فزعة مع الفجر. أشرقت الشمس على الحديقة المركزية. لم تستطع بيسى رؤية أشعة الشمس من موقعها أمام باب الكنيسة. كانت الدنيا فى شارع برودواى فى لون الورد الـضارب إلى الحمرة. كانت نوافذ المبانى على شمال بيـسى تـضطرم بلهـب الشمس الطالعة. زجاج النوافذ يومض بالضياء مثل كُوى السفن. حطت حمامة على مقربة من بيـسى. حجلـت علـى قـدميها الـصغيرتين الحمراوين. شرعت تنقر شيئًا كأنه كسرة عفنة من خبز أو قطعة طين. تملكت بيسى الحيرة. كيف تعيش تلك الطيور وأين تنام عنـدما يجـن الليل؟ وكيف تقاوم المطر والبرد والثلج؟ قالت: سأرجع إلى بيتى، لـن يتركنى الناس وشأنى فى الشارع. ولكن النهوض كـان مـصدر ألـم لبسى. أحست أن جسدها قد التصق بدرجة السلم التى كانـت تجلـس عليها. آلمها ظهرها واستشعرت وخزا خفيفًا فى ساقيها. بدأت تـسير

ببطء إلى البيت. استنشقت هواء الصباح المشرب بالندى. شمت رائحة العشب والقهوة. لم تعد وحيدة. بدأت الشوارع الجانبية تقذف بالرجال والنساء من كل ركن ذاهبين إلى أعمالهم. منهم من يعرج على كشك الجرائد ليبتاع جريدة قبل أن ينزل إلى المترو. بدوا صامتين ومسالمين على نحو غريب وكأنهم قضوا الليل أيضًا فى وقفة مع أنفسهم ولم يصبحوا إلا وهى طاهرة نقية. قالت بيسى فى نفسها: متى استيقظوا حتى يكونوا الآن فى الطريق إلى أعمالهم؟ لا، لم يكن الناس فى الحى من قطاع الطرق والقتلة. أشار لها أحد الشباب بتحية الصباح. حاولت أن تبتسم له، ولكنها كانت قد نسيت تلك الإيماءة النسائية التى عرفتها جيدًا فى شبابها، لقد كانت الدرس الأول الذى لقنته لها أمها.

عندما وصلت بيسى إلى العمارة التى تسكن فيها كان المدير الأيرلندى، عدوها اللدود، يقف هناك يتبادل كلمات مع جامعى القمامة. كان عملاقًا طويل الشفة العليا بأنف قصير وذقن مدبب وخدين غائرين. شعره القليل الأصفر غطى الصلع الذى يغزو رأسه. حدج بيسى بنظرة مروعة وقال لها: ماذا حدث يا جدتى؟

تمتمت بيسى ببضع كلمات. أخبرته بما حدث لها وأرته الجزء المتبقى من المفتاح الذى كانت تمسك به فى يدها طوال الليل. صاح المدير فى وجهها: "يا ألطاف الله". سألته بيسى: "ماذا أفعل الآن؟" قال المدير: "سوف نفتح لك الباب". قالت بيسى: "ولكن المفتاح العمومى ليس لديك". قال الرجل: "لدينا وسائلنا لفتح الأبواب فى حالة الحريق". وغاب المدير فى شقته دقائق معدودة وخرج يحمل بعض الأدوات

وحزمة من المفاتيح فى سلسلة طويلة. أخذ المصعد مع بسى. كانت حقيبة الطعام لم تزل هناك على العتبة ولكنها بدت ناقصة. وبدأ المدير يعالج القفل. سألها: "ما كل هذه البطاقات؟"

ولم تجبه بيسى.

قال: "لماذا لم تأتى إلىّ وتخبريننى بدلا من التجوال فى الشارع. يا إلهى! امرأة فى سنك تفعل ذلك!" ولم يزل يثقب ويخرق بأدواته إذ بسيدة أطلت من شقتها فى معطفها البيتى وخفها وشعرها المعقوص وقالت: ماذا "جرى لك؟ كل مرة أفتح باب شقتى أرى هذه الحقيبة، أخذت منها اللبن والزبد ووضعته فى ثلاجتى".

وتعلقت الدموع بأهداب بيسى وما لبثت أن نزلت على صفحة وجهها وهى تقول بصوت متهدج: آه يا ناسى الأعزاء. لم أكن أعرف ذلك...

أخرج المدير جزء المفتاح المكسور داخل القفل ولم يزل يعالج القفل حتى أدار فيه مفتاحًا وفتح الباب. وهنا سقطت البطاقات المحشورة بين الباب والحلق، ودلف المدير إلى الصالة مع بيسى وإذا برائحة عفنة تنبعث من الشقة عجبت لها بيسى كما عجب لها المدير. قال المدير: "فى المرة القادمة عندما يحدث لك شىء كهذا تعالى وأخبرينى. هذا هو عملى الذى أنا هنا من أجله".

وهمت بيسى أن تكافئه ولكن الإعياء كان قد بلغ منها مبلغًا لم تستطع معه أن تحرك يدها لفتح الحقيبة. أحضرت لها جارتها الزبد

واللبن. دخلت بيسى حجرة نومها وتهافتت علـــى ســـريرها. أحـــست بضيق فى صدرها ورغبة فى التقيؤ. أحست بشىء ثقيل يتـــردد مـــن قدميها إلى صدرها. استمعت له بيسى دون قلق. أنصتت له مـــستطلعة لرغبات جسدها. كانت الجارة تتحدث مع المدير ولم تفهم شيئًا مما كانا يقولانه. حدث لها الشىء نفسه منذ ثلاثين عاما خلـــت عنـــدما أخـــذت المخدر فى المستشفى قبل عملية جراحية. كان الطبيـــب والممرضـــة يتحدثان ولكن قبل العملية بدت اللغة غريبة وبدا الصوت آتيا من بعيد.

وما لبث أن غشى السكون كل شىء. وما هى إلا ومضة حتـــى ظهر سام. لم يكن الوقت ليلاً ولم يكن بالنهار؛ إنـــه الغـــروب الـــذى خضب الأفق بحمرة الشفق. كانت بيسى تعلم أن ســـام فـــى ذمـــة الله. ولكنه تسلل من قبره فى تـــوجس الهـــارب وزارهـــا. كـــان ضـــعيفًا مضطربًا عاجزًا عن الكلام. جالا فى فضاء دون سماء أو أرض حتى ولجا نفقًا مليئًا بالأنقاض، وداسا على أطلال لمبنى مجهول، ودلفا إلـــى دهليز مظلم تملؤه التعاريج بيد أنه مألوف لهما. أتيا منطقـــة يـــتلامس عندها جبلان بينهما ممر يسطع بأنوار شمس لا تدرى أكانت مشرقة أم غاربة. وقفا هناك يستولى عليهما التردد وقليل من الحياء. كان الموقف أشبه بالليلة الأولى من شهر العسل الذى قضياه فى البيتفيل فى كاتسلر. أدخلهما صاحب الفندق بملابس العرس. سمعت الكلمات نفـــسها التـــى قالها لهما حينئذ بالصوت نفسه والأداء نفسه: لستما فى حاجة لمفـــاتيح هنا، ادخلا وخذا راحتكما.

# مدينة الكنائس
# (١٩٧٣)

دونالد بارثلمى

"أجل"، قال السيد فيلبس "مدينتنا مدينة كنائس ما فى ذلك ريب".

أومأت سيسيليا بالموافقة وهى تتابع بعينيها يديه المشيرتين. على جانبى الشارع كانت الكنائس مرصوصة لا يفصل بينها شىء. تقف يناطح بعضها بعضًا فى تشكيلة من الطرز المعمارية المتباينة. كنيسة البحارة المعمدانية تقف شامخة بجوار كنيسة المسيح المقدس المعمدانية الحرة. كنيسة القديس بولص الأسقفية إلى جوار كنيسة العهد الإنجيلى. كنيسة العلم المسيحى الأول، كنيسة الله وكنيسة الموتى وسيدتنا سيدة الانتصار وجمعية الأصدقاء وجماعة الله وكنيسة الرسل المقدسين. قمم وأبراج. المبانى التقليدية إلى جوار التصميمات الحديثة للمبانى البارعة الفسيحة قريبة الشبه بالمصاطب.

قال السيد فيلبس:

- الكل هنا يهتم بالأمور الكنسية اهتمامًا بالغًا.

تساءلت سيسيليا:

- ترى هل أتسق مع هذا الجو؟

جاءت سيسيليا إلى بريستر لتفتح فرعًا لمكتب تأجير سـيارات. قالت للسيد فيلبس الذى كان يعمل فى مجال العقارات:

- لست متدينة بالمعنى الحقيقى.

وأجاب:

- لا تقولى ذلك الآن. ليس هذا أوانه. ولكن عندنا الكثير من الشباب الرائع هنا. سوف تتسقين مع المجتمع سريعًا. المـشكلة الملحـة الآن هى إيجاد سكن لكِ. أغلب الناس، يعيشون فى الكنيسة التـى تناسب عقيدتهم. كل كنائسنا بها حجرات زيادة. عندى القليل مـن الشقق فى برج الجرس وفى وسعى أن أطلعك عليها. كم تريـدين أن تدفعى فى الشقة؟

واتجها ناحية ركن كان أمامهما فيه كنائس أخرى. مـرًا أمـام كنيسة القديس لوقا وكنيسة الغطـاس وجميـع القديـسين الأوكرانيـة الأرثوذكسية والقديس كليمنت وكنيسة الحـوض المعمدانيـة واتحـاد الطوائف والقديس أنارجيرى ومعبد عمانويل وكنيسة يسوع الإصلاحية الأولى. كانت أبواب الكنائس كلها مفتوحة. فى الداخل يمكـن رؤيـة بصيص من الضوء.

قالت سيسيليا:

- فى طاقتى أن أدفع مائة وعشرة. هل عندكم مبان هنا ليست كنائس؟

قال السيد فيلبس:

- لا يوجد، وكثير من مبانى كنائسنا البديعة تقوم فى الواقع بعمل مزدوج لأنها تؤدى وظيفة أخرى. ثم أشار إلى كنيسة جورجية بديعة وقال:

- هذه الكنيسة مثلاً تقوم بإسكان المنهجيين المتحدين وهيئة التدريس. والأخرى التى بعدها وهى كنيسة عيد الحصاد انتويا، بها محل حلاقة.

وكان هذا حادثًا فعلاً. عمود الحلاق المرقط باللون الأحمر والأبيض كان يلتصق على نحو غير واضح بواجهة كنيسة انتويا الخمسينية.

سألت سيسيليا:

- هل يستأجر الكثير هنا سيارات؟ أو هل يستأجرونها إذا وجدوها فى مكان قريب منهم؟

قال السيد فيلبس:

- أوه، لا أدرى. استئجار سيارة معناه أنك تنوين الذهاب إلى مكان ما. معظم الناس راضون تمامًا بإقامتهم هنا. لدينا الكثير من الأنشطة. لا أظن أنى كنت سأفتح مكتبا لتأجير السيارات إذا كان لى أن أبدأ فى بريستر. ولكنك سوف تعرفين بنفسك.

أطلعها على مبنى صغير غاية فى الحداثة بواجهة من الطوب الكئيب والصلب والزجاج.

- هذه كنيسة القديس بارنابا. هناك جماعة طيبة من الناس. ووجبات عشاء من الإسباجتى الرائعة.

استطاعت سيسيليا رؤية رءوس تطل من خصاص النوافذ. ولكن عندما رأوها تحدق فيهم توارت الرءوس فى الحال. سألت مرشدها:

- أو تظن أنها ظاهرة صحية أن تحتشد الكنائس الكثيرة جنبا إلى جنب فى مكان واحد؟ لا يبدو الأمر متزنا، إذا كنت تفهم ما أقصد.

أجاب السيد فيلبس:

- نحن مشهورون بكنائسنا. إنها لا تضر بنا. وها نحن كما ترين الآن.

فتح بابا وشرعا فى ارتقاء كثير من السلالم والبسطات. كانت الدرجات تعلو الدرجات. وفى نهاية الدرج دخلا حجرة ذات حجم معقول مربعة، بنوافذ على جوانبها الأربعة، يقوم فيها سرير ومنضدة ومقعدان ومصابيح وسجادة. علق فى وسط الحجرة أربعة أجراس من النحاس الأصفر. هتف السيد فيلبس متعجبًا

- يا له من منظر بديع. تعالى وانظرى.

سألت سيسيليا:

- هل يدقون هذه الأجراس كلها فعلاً؟

قال السيد فيلبس مبتسما:

- ثلاث مرات في اليوم. في الصباح والظهر والمساء. وطبعًا عندما تدق هذه الأجراس عليك بالابتعاد عن المكان سريعًا

قالت سيسيليا دون تفكير:

- "يا إلهي العلي القدير"، ثم أضافت "ليس من عاقل يعيش في شقق الأجراس هذه. عرفت الآن لماذا هي خالية؟"

قال السيد فيلبس:

- وهل تظنين أن ذلك هو السبب؟

قالت في نبرة اتهام:

- إنهم يؤجرونها للغرباء القادمين إلى المدينة.

قال السيد فيلبس:

- لن أفعل ذلك. هذا من شأنه أن يكون ضد الروح الكنسية.

- هذه المدينة مدعاة للخوف. هل تعرف ذلك؟

- ربما تكون كذلك. ولكن لست أنت التي تحكمين. أليس كذلك؟ أعني أنك جديدة هنا. ينبغي أن تأخذي حذرك فترة من الوقت. إذا

كنت لا تريدين شقة فى الأدوار العليا فعندى فى بـــدروم كنيـــسة المشيخية المركزية، ولكن عليك أن تشاركى فيها آخـــرين. فيهـــا امرأتان الآن.

قالت سيسيليا:

- لا أريد أن أشارك أحدًا. أريد مكانًا خاصا بى.

سألها الرجل الذى يعمل فى مجال العقارات مستطلعًا:

- لماذا؟ ما الغرض؟

- غرض؟ لا يوجد غرض. فقط أريد أن...

- هذا ليس بالمألوف هنا. أغلب الناس يـــشاركون آخـــرين. أزواج وزوجات وأبناء مع آبائهم وآخرين لهـــم رفقـــاء فـــى الحجـــرة الواحدة. هذا هو الأسلوب المتبع.

- ما زلت أفضل مكانًا خاصا بى.

- هذا غريب جدا.

- هل عندك أماكن كهذه؟ أقصد غير أبراج الأجراس تلك.

- أظن أنه يوجد القليل من هذه الأماكن.

ثم قال السيد فيلبس فى ابتسار:

- أظن أنى أستطيع أن أطلعك على واحد أو اثنين من هذه الأماكن.

توقف لحظة وأردف:

- الواقع أننا نتبنى قيمًا مختلفة ربما من بعض الجماعات المحيطة. وقد كتب عنا الكثير. لقد خصصت لنا محطة السى بى إس أربع دقائق ضمن أخبار المساء فى برامجها ذات مرة منذ ثلاث أو أربع سنوات. قالوا عنها: مدينة الكنائس.

قالت سيسيليا:

- مكان خاص بى وحدى. هذا ضرورى ومهم إذا كان لى أن أحيا هنا.

قال السيد فيلبس:

- هذا موقف غريب. من أية ملة أنت؟

لزمت سيسيليا الصمت. الواقع أنها لم تكن تنتمى لأية طائفة. كرر السيد فيلبس السؤال على مسمعيها:

- سألتك من أية ملة جئت؟

قالت سيسيليا:

- فى وسعى أن أستدعى أحلامى. فى وسعى أن أحلم بما أريد. إذا كنت أريد أن أحلم أننى أقضى وقتا ممتعا فى باريس أو فى أية مدينة أخرى، كل ما أفعله هو أن أذهب إلى فراشى وأحلم هذا الحلم. أستطيع أن أحلم بما أريد.

عندئذ قال السيد فيلبس وهو يحدق فيها:

- وبم تحلمين أغلب الوقت؟

قالت دون وجل:

- فى الغالب أمور تتعلق بالجنس.

قال السيد فيلبس وهو ينظر بعيدًا:

- بريستر ليست المكان المناسب لهذه الأمور.

كانت أبواب الكنائس مفتوحة على جانبى الشارع. خرجت مجموعات صغيرة من الناس ووقفت هناك أمام الكنائس يمعنون النظر فى سيسيليا والسيد فيلبس. تقدم شاب وصرخ بأعلى صوت:

- كل واحد فى هذه المدينة لديه سيارة! لا يوجد أحد فى هذه المدينة لا يمتلك سيارة!

سألت سيسيليا السيد فيلبس:

- هل هذا صحيح؟

قال السيد فيلبس:

- نعم. هذا حقيقى. لا أحد هنا يستأجر السيارات. ولا حتى منذ مائة عام.

- قالت:

- إذن لن أبقى هنا. سأجرب حظى فى مكان آخر.

قال السيد فيلبس:

- يجب أن تبقى. يوجد مكتب تأجير سيارات هنا فى كنيسة جبل موريا المعمدانية على أرض الردهة. هناك طاولة وتليفون وسلسلة مفاتيح سيارات وتقويم. قالت:

- لن أبقى ما دام السبب فى وجودى قد انتفى.

قال السيد فيلبس:

- نحن نريدك. نريدك أن تقفى خلف طاولة وكالة تأجير السيارات أثناء ساعات الدوام اليومية. هذا يجعل المدينة كاملة.

- لن أبقى هنا. لست أنا.

- يجب أن تظلى. هذا ضرورى جدا.

قالت:

- سوف أحلم بأمور لا تحبها.

قال السيد فيلبس:

- نحن قوم ساخطون. ساخطون حقا. ثمة خطأ.

قالت:

- سأحلم بالسر، وستندم.

- نحن كسائر المدن، عدا أننا نتصف بالكمال. سـخطنا يمكـن أن يعوض بالكمال. نريد فتاة تأجير السيارات، واحدة تقف خلف هذه الطاولة.

قالت سيسيليا مهددة:

- سأحلم بحياة لا تحبها.

أمسكها من ذراعها وقال:

- أنت لنا، فتاة لتأجير سياراتنا، كوني مهذبة، ليس فى وسعك عمل شيء.

قالت سيسيليا:

- انتظر وسترى.

## إيماءة (١٩٨٠)

**جون أبدايك**

أخبرته بإيماءة لم يرها تصدر منها من قبل. هاتفته جوان من المحطة بعد أن تناولت، وكان ريتشارد يعلم، الغداء مع صديقها. كان اليوم يوم السبت، ابنه الأكبر أخذ سيارته ذات الغطاء المتحرك... وكانت سيارة جوان الفولفو جديدة. عندما مر بوسط البلد كانت هي قد اجتازت - مشيًا - الشارع الرئيسي متوجهة إلى هناك. كان يومًا من أيام سبتمبر الذي تورق فيه الأشجار ويشيع الدفء في كل مكان وتمس الأشياء برودة خفيفة وصفاء ساحر. ابتسم كل للآخر عندما تقابلت العيون من بعيد. فتحت الباب واستقرت على مقعدها وشرعت تربط حزام الأمان لتوقف طنينه المؤنب. تخضب وجهها بلون الورد بسبب المشي. بدت ملابس الخروج عليها أشبه بالبذلة. كانت تحمل كيسًا أو اثنين مما يدل على قدومها من جولة تسوق. حاول ريتشارد اجتياز منحنى حاد في الشارع الضيق، وفي اللحظة التي استقرت بين توقفه ومحاولة الارتداد إلى الخلف أخبرته. قالت له بعد أن مست بأصابع يد كف اليد الأخرى على نحو عفوي سريع لم يحدث صوتًا؛ إيماءة تقع

بين تصفيق طفل مرح وإشارات الكبار على الإصغاء: "حبيبى.. لقد قررت الانفصال عنك، وأطلب منك الآن مغادرة المدينة".

خفق قلبه وامتلأت نفسه بكبرياء طارئة؛ ذلك ما كان يبتغيه. قال لها فى حرص واقتصاد: "موافق، إذا كنت متأكدة أنك ستدبرين أمرك".

ألقى نظرة فاحصة على وجهها المتورد وسمتها المتحفز ليرى ما إذا ما كانت تعنى ما قالت. لم يصدق أنها كانت تعنى ما قالته. توقفت خلفهما شاحنة بريد ذات ألوان حمراء وبيضاء وزرقاء أطلقت نفيرًا حادا للتذكرة لا للوم؛ أسرة مابل معروفة لدى الجميع فى تلك المدينة التى أنفقا فيها معظم سنوات حياتهما الزوجية.

تمكن ريتشارد من رد السيارة للخلف واجتاز المنحنى الحاد ويمم شطر المنزل. مرقت بهما السيارة فى خفة الطيور السابحة فى الفضاء. كانت جديدة وقوية أحسا فيها بنشوة مسكرة وكأنها تبخرت هى أيضًا بفعل إيماءة جوان المغناج. أردفت مفسرة: "الأمور انتهت بيننا إلى ركود؛ أسِنت، حياتنا أضحت بلا هدف". قاطعها قائلاً: "لن أتخلى عنها". قالت:

- لا داعى لتكرار ما قلته من قبل.

- ولا أحسبك متخلية عنه.

- سأفعل إذا كنت تريد. هل تريدنى أن أتركه الآن؟

- كلا، إنها فرصتى.

- إذن متفقان. اذهب إلى حيث شئت. أظن بوسطن أفضل مكان... بعيدًا عن الأولاد ولا تبعث على الملل بالنسبة لك.

- موافق، ومتى ترغبين فى أن يتم ذلك؟

اختلس إليها نظرة بطرف عينيه. بدت من صورتها الجانبية هشة مفعمة بالانفعال، وبدا انهيارها مرهونا بكلمة أخرى قاسية تصدر منه. حبس أنفاسه محاولا الإبقاء على ثباته أثناء تحليق السيارة التى كان يقودها وهى تجتاز ظهر الجسر الناتئ. أطلقت جوان العنان لدخان سيجارتها المرتجفة. قالت:

- بمجرد أن تجد المكان المناسب. ليكن الأسبوع القادم، أم تراه مبكرًا جدا؟

- ربما.

- هل يحزنك ذلك؟ أترانى قاسية لا أرحم؟

- كلا، بالعكس، أنت مدهشة وفى غاية اللياقة والإنصاف كشأنك دائمًا. جميل، إنه شيء لم أكن لأفعله دون موافقتك على كل حال، ترى كيف ستعيشين بدونى؟

دحرج نظرة أخرى بجانب عينيه. أحس بوجهها يسعى للتطلع إليه فاستدار ناحيتها ليرى. كان وجهها الذى شاع فيه الدم ينطلق بالدلال والتحدى. لا بد أنهما تناولا كأسا آخر من الخمر مع الغداء.

- الأمر هين.

كان يعرف أنها تغالط نفسها. إيماءة تحدى أقرب منه لطلب العفو، ولكنه آثر الصمت ولم يشأ أن يدخل فى جدال، فقد أصبح غرورها الآن تحت رحمته.

لاحت من منعطفات الطريق صناديق بريد وأشجار سفعتها شمس الخريف الغاربة. سألها:

- وهل هذه فكرتك؟ أم هى فكرته؟

- فكرتى. جاءتنى وأنا فى القطار. كل ما قاله آندى: "أخشى أن أظل أطعمك إلى الأبد".

منذ بداية الصيف وهما على حال الانفصال. كان ريتشارد يبيت جل لياليه فى شاليه مستعار على شاطئ البحر على مسافة ميلين من منزلهما. حاول النوم هناك ولكن الحنين كان يقض مضجعه بينما كانت ساعات الليل تطول. كان يحب أن يتناول ما أعدت جوان من طعام للعشاء. لقد اعتاد على طعامها؛ كل خلية فى جسده نمت على طعام من طهى يديها. كان العشاء ينتهى إلى شراب ما بعد العشاء بينما كان الأولاد (اثنان منهم فى المدرسة وآخران لم يزالا فى طور الطفولة) ينكبان على إنجاز واجباتهما المدرسية أو يحدقان فى التلفاز. كان الشراب ينتهى بحديث وإفضاءات، ثم كلمات قاسية، ودموع تذرف، وتوجه مباغت إلى الفراش. كانت على صواب. لم تكن الأمور بينهما تنبئ بازدهار أو تحسن قريب. عشرون عاما مضت على زواجهما دون أن يتمكنا من صناعة الحب خلالها.

وجد شقة فى بوسطن فى اليوم الثـانى مـن البحـث. كانـت سكرتيرة المكتب العقارى ذات شعر أحمر وعجيزة مـستديرة، تـضع قناعًا متداعيًا من الماكياج كمن تريد أن تخفى شبابها. داهمه إحـساس بالسعادة والخوف. سار خلفها أثناء صعودها ونزولهـا حتـى أحـس بتبرمها. أدارت المفتاح بعصبية فى القفل ودفعت الباب بكتفها لتفتحـه. أشارت إليه بالدخول بإيماءة استعراضية خفيفة من يد مبسوطة.

لم تكن الأرض مكسوة بالسجاد الخشن ولا بالخـشب المجـزأ؛ كانت مكسوة بالمطاط. من خلال النافذة المفتوحـة اصـطدمت عينـاه بناطحة سحاب فأدرك أن المشهد يكفيه. كانت ناطحة سحاب لم يكتمل بناؤها فاشتهرت بكونها كارثة جميلة. مشهورة لأنها كانت كارثة (كان الزجاج يتساقط منها) وسبب الكارثة أنها كانـت جميلـة. كـان لـدى المهندس المعمارى الذى شيدها رؤية فنية. كان يحلـم بتـشييد بنـاء لامرئى رغم ضخامة حجمه. جعل جدرانها من الزجاج حتى تعكـس مبانى وسط المدينة الهائلة كما تبدو فى الأفق وتذوب فى السماء. ولكن أمله خاب، فقد أخذ زجاج النوافذ الأشبه بالمرايا يتساقط فـى الـشارع فاستُبدل بالزجاج قطع كئيبة عتِمة من خشب الأبلكاش. بيد أن الواجهة الخارجية القديمة ظلت توحى، من خلال النافذة العتيقة المتداعية لهـذه الشقة المفاجئة، بزرقة هائلة قريبة الشبه بتلك الزرقة الهائلة للبحر التى كان ريتشارد يستيقظ على رؤيتها كل صباح فى ذلك الشاليه البحـرى ببرودته القارصة. قال لذات الشعر الأحمر: "جميل". رفعت حاجبيهـا

الأسودين. ارتعشت يداه وهو يوقع على عقد الإيجار عندما كتب "سب"[*] فى الفراغ المخصص للحالة الاجتماعية. ومن هاتف صيدلية أبرق الأخبار، ليس إلى زوجته التى كانت ستحزن، ولكن إلى صديقته على البعد نفسه. قال لها بصوت يشى بنبرة اتهام:

- حسنًا، لقد وجدت شقة ووقّعت العقد. لا أصدق. فى وسط الاستمارات التى ملأتها توجد هذه الجملة البسيطة: "غير مسموح بأسرة ماء".

- ولكنك تبدو مهتزا جدا.

- أخشى أن نكون قد فتحنا الباب لورطة قادمة.

- لا تفعل إذا كنت لا ترغب.

من البعد تقطع صوت روث وتضاءل قليلاً، تخيل أنها كانت تحاول الوصول إلى سيجارة أو طفاية، أو كانت تعتدل فى جلستها استعدادًا لجولة تدلل.

- بل أريد. هى أيضًا تريد. جميعنا يريدنى أن... حتى الأولاد أبدوا استعدادهم، أو تظاهروا بذلك على الأقل.

تجاهلت كلمة "تظاهروا".

- هلا وصفتها لى؟

(*) اختصار كلمة separate وتعنى أنه منفصل عن زوجته. (المترجم)

كل ما كان يذكره الأرضية، ومشهد الكارثة الزرقاء والسحب المعكوسة التى تتهادى على صفحتها وذات الشعر الأحمر. أخبرته أين يجد حاجته من المواد الغذائية وأين يغسل ملابسه. وهل سيكون له ملابس تحتاج إلى غسيل؟

جاءه صوت روث من البعد عندما فرغ من حديثه.

- تبدو جميلة.

كان يقف خلفه رجلان أحدهما ساعى بريد أسود ينز عرقاء ينتظران دورهما فى استخدام الكابينة. كره المدينة. كره زحامها ومظاهر الفقر فيها. رد بحدة:

- ماذا أعجبك فيها؟

- أراك مضطربًا. لا تفعل إذا كنت لا تريد.

- كفى عن هذا القول.

شكلية التزما بها مدعاة للضجر، الزعم بأنهما أحرار فيما يريدان فعله. تجنب الإحساس بالذنب كان الطريقة وروث خبيرة فى ذلك. لم يكن الصدق يفوح من كلماتها الأشبه بالطاولات الفارغة. عباراتها تدخل فى باب الإتيكيت. اثنان فى متاهة. بينما كانت كلمات زوجته لا تعرف التحفظ، صريحة المعانى. سألته روث:

- ماذا أقول غير أنى أحبك؟

وعلى الطرف الآخر سمع تنهيدة عميقة. تخيل سيناريو هذه العلامة: لقد استدارت بوجهها عن السماعة، وأطلقت زفرة حادة؛ بالطريقة نفسها التى اعتادها، وفى الوقت نفسه أطفأت سيجارة لم تدخن نصفها، سحقتها بين أصابعها الملولة كحشرة ظلت تقاوم إلى آخر لحظة طلبًا للنجاة. كان يؤلمه إسرافها الواضح. كان يؤلمه كل إسراف. عنَّ له أن يضع السماعة ولكنه رأى فى ذلك علامة على إسراف فارغ وظل على الخط.

وحده فى شقته اكتشف أنه أشبه بربة بيت بارعة بعيدة عن كل إسراف. عندما كانت تغادر روث أو جوان كان يبدأ على الفور فى ممارسة نظامه العزوبى؛ يفرغ الطفايات التى، إذا كانت روث هى الزائرة، تمتلئ حتى حافتها بأنصاف سجائر طويلة شاحبة أخمدت قبل الأوان. وإذا كانت جوان هى الزائرة، كانت تمتلئ بأعقاب قصيرة نادرًا ما تتجاوز الفلتر. وليس من السيدتين من نوهت بأكثر من إيماءة للحاجة لتنظيف المكان. كان يسره أن يلاحظ ذلك. أصبح السرير حطامًا والأطباق متسخة، وكانت طفاياته الثلاث (واحدة من الزجاج وأخرى من الفخار والثالثة أشبه بغطاء برطمان من الصفيح على شكل كعكة مسطحة) تخضع أيضًا للتنظيف على نحو مرتب أشبه بنقاط انطلاق لاعب بيسبول. كان يفرغها ويبتسم سواء لمعرض الجثث الفوضوى فى طفاية روث أو لمأوى الأعقاب القصيرة الذى يشبه فى أناقته البلورات الصخرية فى أصيص يمتلئ بأزهار النرجس. وعندما أنب روث ذات مرة لسحقها السجائر قبل الأوان، متكئة فى الواقع على

ظنها الجميل بقيمتها التى لا تنكر عنده، أشارت إلى أنه من الأسلم لهـا كثيرًا أن تقتل السجائر في المهد، وكانت طبعًا على حق؛ فقتل الآخرين خير من قتل الذات. كانت روث هى الحب وهى الحياة، لذلك أحبهـا. ولكن اقتصاد جوان المفرط ورغبتها الصامتة فى الموت أمور مألوفـة لديه مثل الخيوط على يديها النحيفتين. لهذا ابتسم ريتشارد وهو ينظف طفايتها أيضًا. كانت ابتسامته إيماءة بلا نظارة.

كانت "الكارثة" تقف مضيئة فى قلب المدينة. فى الليـل كانـت تبدو مثل صف باهت من أنوار خافتة أو سفينة نحيلة تمخـر عبـاب السماء. وأثناء هطول المطر وتكاثف الضباب كانت تختفى تمامًا، بينما كانت قدور المداخن القرميدية وأبراج الكنائس المبنية من حجر الحديد بالنسبة لريتشارد تعضد وجودها المادى الداكن. حاول تحليل المنطـق من وراء استبدال النوافذ كما يراها فى الفرجات وما يملأها من زجاج. لم يتوصل إلى أى منطق فيما عدا السعى بطئ الحركة لعمال لامرئيين يفرغون التجاويف المعدة للزجاج ويملأونها فى دأب النحل. وعنـدما كان يمعن النظر لدقائق يرى فضاءًا خاويًا أشبه بتكاثف قطـرة نـدى يضحى زجاجيا عاكسًا ذا لون أزرق ضارب إلى الخضرة. مرت أيـام قبل أن يدرك أن على الزجاج القديم، قريبًا من أنفـه، علـى الألـواح الزجاجية المتداعية لنافذته نقش مستأجرون سابقون طيبـون تسلحوا بقطع الماس، الحروف الأولى من أسمائهم وتواريخ. وكان أكثـر منـا نقشوه وضوحًا وعمقًا ذلك العهد المؤثر الباعث علـى الـضحك فـى سطرين بمقاطع ثلاثية.

بهذا الخاتم

أتزوجك

استغرب سعادته الحالية بينما كان يتمشى فى الشارع. كان يعد نفسه لحزن أكيد وإحساس بالذنب وسأم. غير أن الأمور جرت على النقيض من ذلك، امتلأت أيامه عن آخرها بقوائم مشترياته من الأطعمة والأوانى المنزلية، وبحثه عن بدائل ربة البيت مثل حجرة آلات الغسيل حيث كان يجد الطلاب يقرعون أخبار هس ويتمازحون بينما كانت ملابسهم تتقلب داخل الآلة فى حركة سقوط وصعود دائرية لا تتوقف، وربات بيوت زنجيات شابات يدندن فيما كن ينشرن ملاءاتهن الكتانية. يا لها من متعة لم يتوقعها؛ يتمشى إلى البيت فى الظلمة متأبطاً ملابسه النظيفة ساخنة كخبز طازج ويمضى تحت مشربيات الشقق المتألقة بالأضواء مثل نوافذ عرض. أحس بأنه أكثر عقلا وانتعاشًا وإقبالاً على الحياة وتحررًا من الإثم. وساعة يأخذ التعب منه من كثرة التنقل بين المدينة والضواحى كان يسعده أن يلجأ إلى جلسة شرابه بعد العشاء. أحب شراء الطعام وإحضاره إلى البيت، ووجد سعادة فى طهى وجباته وأكل الطعام كله بينما يشنف أذنيه بموسيقى باخ التى يبثها المذياع، أو يطالع كتابًا تركه مفتوحًا فوق حامل الكتب الذى اشتراه. استمرأ لعبته المنظمة الغريبة فى استهلاك الطعام قبل أن يفسد، وشرب اللبن كله قبل أن يحمض. أعجبته الطريقة التى تطوف بها الطائرات سماء الليل الداكن. الطائرة مدينة صغيرة أخرى فوق المدينة الأولى. أحب

الطريقة التى تشدو بها صفارات رجال البوليس منبئة بحلــول كارثــة غير كارثته. سعادة مؤقتة؛ فترة نقاهة. بيد أنها كانت سعادة كاملة على نحو غريب، سعادة مشروعة ومستقيمة الخطوط ومجللة بالوقار رغــم ما يشوبها من خوف مباغت واضطراب طارئ. عليه أن يعــيِّن لكــل ساعة هدفها دفعًا للإخفاق. كان يتحرك مثل بقة ماء أو مثل حجر يقفز من مكان إلى مكان فى خفة ورشاقة على السطح الزجــاجى المتــوتر لحياته الجديدة. داس كل الأمكنة. تمشى ذات مرة أسفل ناطحة السحاب الزرقاء رفيقته والشاهد عليه. رآها بشعة المنظر مثقلة بألواح الخــشب الضخمة والأنفاق التى تحوطها الأسلاك النحيلــة المطليــة بالزنــك، يحرسها رجال البوليس الذين يطلقون أصواتهم المنبهة ويحمون المارة من الزجاج المتساقط، وملاك المبنى من إقامة المزيد مــن الــدعاوى ضدهم أمام المحاكم لأن ملايين من أموالهم أصبحت فى مأزق حقيقى. كانت المساند الخشبية والنفايات تنتشر فى المنطقة فتجعلهــا متنــافرة النغمات. كانت الطوابق السفلية مكسوة بخشب الأبلكاش المــصمت ذى اللون الأسود الكئيب. جمال المبنى فى شقه عنان السماء على قواعــد شديدة التشابك. تجنب ريتشارد المشى تحته مرة أخرى.

عندما زارته روث تعاونا فى تنظيف بلاطات الأرضية البيضاء وتركا السوداء فبدت الشقة كلها غاية فــى النظافــة. داهمهــا الــزمن بسرعته المعهودة. لم يتبق وقت إلا لتبادل بضع كلمات فــى النهايــة ويدها على مقبض الباب. سألته:

- ألم تلاحظ أن هذا المبنى مدهش بشروق الشمس على صفحته.

- أنا أحب هذا المبنى وهو يحبنى.

- لا، أنا التى أحبك.

- ألا ترضين بالمشاركة؟

- كلا.

كانت تحس بأنها تمتلك الشقة. وعندما أخبرها أن جوان كانت هناك أيضًا وللمتعة لا غير نامت معه – زوجها – انتحبت روث في التليفون وهى تقول: على سريرى؟ فرد فى حزم غير معهود: بل على سريرى. فسألت مذعنة بصوت متهدج أشبه بصوت الطفل النائم: على سريرك؟

وعندما انتهت المحادثة وهدأت ثورة صديقته توجه برؤاه الخيالية لصديقته العملاقة الجامدة وقد اتشحت بلون معتم باهت فى جانب، وبنفسجى فاتح فى جانب آخر، ولون لازوردى فى جانب ثالث، تغشاها خطوط باهتة من جراء انعكاسات سحابات رقيقة كالعهن المنفوش على ارتفاع شاهق. حادثته، كما تفعل دائمًا، بنظرات وحش أخرس؛ عن الجمال والمعاناة، عن بساطة قدر لها أن تزول، وعن الخسارة المالية التى حلت على المقاول وحاجزى الشقق. نشر المساء ظلاله الزرقاء، وما لبث الليل أن حاصر أطراف النهار. تقلصت مساحة الرؤية لدى ريتشارد وشرع يقرأ بشىء من السخط للمرة المائة

ذلك النقش المشوه للحقيقة، تلك العبارة الابتهالية الكاذبة التى التمعت فى أضواء الشمس الراحلة.

بهذا الخاتم

أتزوجك

منذ شهور خلت خلعت روث خاتم زواجها. وعندما قامت باصطحابه فى رحلة لقضاء ليلة بطولها فى فندق وضعت على إصبعها العارى خاتمًا موروثًا من الماس. وفى الفندق أحست روث بالأسى لفقدانها اسمها وانتحالها الزائف لاسمه، رغم أنه شرح لها أن ذلك من قبيل تمشية الأمور. واحتجت قائلة: ولكنى أحب اسمى الحقيقى. وكانت تلك فى الواقع درتها التى تتألق سحرًا والتى لم تحب أن تنتهك: أن روث كانت تحب روث. غادرا الفندق كل لهدف وعندما عادت قبله طلبت المفتاح من موظف الاستقبال وأعطته رقم الحجرة.

سألها الموظف عن اسمها. إنها سياسة الفندق فهو لن يعطى المفتاح لرقم.

سألها ريتشارد أثناء توقفها:

- وما الاسم الذى أخبرته به؟

وأثناء توقفها ومن نظراتها الحزينة رأى ريتشارد حيرتها التى كانت عليها ساعة استوقفها الموظف تعود من جديد. ولما كانت، قبل زواجها، مدرسة من الدرجة الثانية فإن ريتشارد يرى الآن صفاتها

التي جبلت عليها؛ الجد المتكلف وإثارة الخوف في محدثها واللهجة الآمرة التي لابد أنه كانت تواجه بها الفصول المليئة بالأطفال الصغار.

- قلت له إن اسمي هو المسز مابل.

وابتسم ريتشارد وقال: هذا أحسن تصرف.

أصبحت دعوة جوان للغداء خارج البيت من الأمور الصعبة. عرضت عليه ذات يوم على سبيل الترويح لا أكثر، أن يخرجا في نهاية يوم من أيام الآحاد. مر شهر الآن على رحيله إلى بوسطن. عادات جديدة حلت محل أخرى قديمة. مما يغري بترك أطفالهما الذين أصبحوا فريسة للملل من التلفاز أكثر من مللهم من الأب، ذلك الزائر الدكتاتوري. عنف جون، أكثر أبنائه قبولا للتعلم وأكثرهم إحساسًا بالذنب بسببه: كف عند تكرار حكاية مللك هذه، أيكون سن الخامسة عشر سن ملل!!؟ عندما كنت في الخامسة عشر مثلك كنت أنفق الوقت في قراءة الروايات العالمية وأنت تقضي الوقت في مشاهدة الكونغ فو. على الأقل تعلمت كيف أقرأ.

"شيء جميل". قال الابن في اقتصاد يشي باحتجاج. كان صوت المراهق خشنًا يخشى أن يصرفه شيء عن لقطة مدهشة بالتصوير البطئ في الفيلم. عندما كان ريتشارد يعيش بينهم كان يشاهد البرنامج مع ابنه وكان يعلم أنه برنامج جيد، وأن سلبية البطل الشرقي التي تخفف منها موجات مفاجئة من عنف غامض من شأنها أن تدس في عقل الصبي نسقًا من القيم مثلما تأثر ريتشارد في سلوكه بالأفلام

الرخيصة والكتب الهازلة، وأخذ برودة أعصابه من بوجارت ولامبالاته من أرول فلن والازدواجية والخداع من السوبرمان. نزل من فوق الأريكة واستند بركبة واحدة على الأرض حيث كان يجلس جون. كان جون ذا زغب في الشفة العليا وحاجبين داكنين خليقين برجل، كان يحدق برواقية في الفيلم الخيالي. تهدج صوت ريتشارد وهو يسأل ابنه: ترى هل يقل الملل لو كان أبوك لم يزل يعيش هنا؟

"لا". جاءت الإجابة فورية تشي بنفاد صبر، وكأن السؤال كان متوقعًا. هل كان الابن يعني ما يقول حقا؟ لم تنتقل عيناه من مكمنهما في تلك اللحظة، ربما لخوفه من فضح نفسه، وربما لملل أصيل من الكبار وطرائق حياتهم. غادر ريتشارد موقفه المتضرع، خفف من حرجه وقع خطوات جوان على الدرج. كانت في ملابس الخروج، ترتدى الفستان الأسود الذى لا يبلى مع كر الأيام، بقب مزين بمحار مروحى وقلادة من فضة مكسيكية. على الأقل ربما كان ذلك علامة على سوء توافقهما المثير، لا هو ملها ولا هى، خشى أن يعترف بذلك، ملته. كان حذرًا غاية الحذر. تحملا كل شئ، وجربا كل شيء.

وعلى الرغم من ذلك فقد حل الكوكتيل وطعام البحر والنبيذ محل حذره وحرصه. سمع نفسه يقول للوجه المألوف والغريب جدا الجالس أمامه على الطرف الآخر من الطاولة:

- إنها جميلة وتحبنى، وأنت تعرفين.

أحس بالخجل مثل طفل شعر فجأة بأن أمه، رغم أنها كانت

منتبهة على سبيل المجاملة، لا تكترث بوصفه لمباراة رياضية مثيـــرة. ولكنه أردف:

- غير أنها تتحدث كثيرًا عن كل شيء وكأنها تحن لوظيفتها القديمة كمدرسة من الدرجة الثانية. الأسوأ من ذلـــك، رغـــم كـــل هـــذا التفسير، ورغم كل هذه المغامرات الرائعة التى جرت بيننا، لـــم تزل بعيدة عن الإخلاص لى. مثلك.

تغيرت نبرات صوته. لقد ذهب إلى أبعد ممـــا يريـــد. بـــسطت جوان يدها اليسرى، كانت لا تزال ترتدى خاتم الزواج، على مفـــرش المائدة فى إيماءة مفهومة صادقة. وقالت:

- ستخلص لك. إنها مسألة وقت لا أكثر.

المثال القديم لم يزل هو المرئى أمام الأعين. حيتهم النادلة التى كانت تدرس لأطفالهما فى مدرسة الأحد، وكأن زواجهما لم يزل قائمًا. كانا يأكلان فى المطعم ثلاث أو أربع مرات فى العام. كانـــا يعرفـــان المقاول الذى بناه محاكيا أثرًا قديمًا، منذ اثنى عشر عامًـــا ثـــم غـــادر المدينة مفلسًا مطرودًا يلحق به العار، ورغم ذلك لم يحمل حقدًا لأحـــد. ما زالت ذكراه تتردد فى غمرة الأضواء. زوجان آخران، أكبـــر ســـنا من ريتشارد ميبل وزوجته، عمل الزوج يوما مع ريتشارد فـــى لجنـــة بلدية، جلسا إلى مائدتهما وقد تطلق وجهيهما بالابتسام وطفقا يتلاطفان ويتعانقان على تلك الطريقة الأمريكية المعهودة. هل كانا يعرفـــان؟ لا يهم، فى هذا النادى ذى الترتيبات الطارئة. تلاطف ريتشارد وزوجتـــه

بالمقابل، وتوقفا بعد أن غادر الزوجان الأكبر سنا. رمت جوان ظهريهما بنظرة فاحصة وقالت: ترى ماذا لديهما وليس لدينا؟ ورد ريتشارد: ربما كان لديهما القليل، ولا يطمحان فى المزيد.

كانت كأنها تقاوم إطرائه المبطن، وكان ممتنا. يقاوم الرجاءات. سألها:

- ما شأن الأولاد الآن؟ يبدو جون منطويًا.

- هذه طبيعته. كف عن انتقادك له.

- فقط لا أريده أن يظن نفسه قد أصبح زوجك الصغير. فالمنزل يبدو ضخمًا الآن.

- أنت الذى تخبرنى؟

- أنا آسف.

كان آسفًا حقا. رفع كفا يديه على المنضدة. قالت له جوان:

- أليس غريبًا أن زجاجة ممتلئة لم تعد تكفى اثنين؟

- هل أطلب لك أخرى؟

وكان فزعًا فى قرارة نفسه من التبذير. وفهمت ذلك منه وقالت: لا... فقط اعطنى نصف ما فى كأسك. وقال وهو يصبه لها: خذيه كله. قالت: إذن جماعك معها كان رائعًا؟ وفاجأته الملاحظة، شعر بالحرج وخشى أن تؤسس لاتجاه بغيض فى الكلام عن المعاشرة.

وكشأنه مع روث، ينبغي أن يكون هناك مع جوان أيضًا لغـــة خاصـــة بالاتصال. أخبرها بأن ذلك قائم بين غير المتزوجين.

- وهل هذا عدل أيها الرجل الطيب؟

مالت الخمر التى ابتلعتها جوان من كأس دافيد برأســـها فبـدأت تخف لقصف صاخب وشيك. مالت على المائدة حتى أقصاها وقالــت: يجب أن تعدنى ألا تخبر بذلك أحدًا، حتى روث. ثـم صـدرت منهـا إيماءة عند كلمة "تعدنى": بسطت يدًا محتجة. قال لها ربما كنت لـست مضطرة إلى أن تقولى ذلك. قالت: لست بحاجة.

فهم لماذا أبقت على تحفظها حتى تلك اللحظة. كانت تستبد بهـا الرغبة فى الحديث عن صاحبها الذى تبقى عليه دافئا كالرضيع. إنهـا تهم الآن بخيانته. قال لها ريتشارد: أرجو ألا تفعلى. قالـت: لا تكـن متزمتا على هذا النحو. أنت الشخص الوحيد الذى أسـتطيع التحـدث إليه. وهذا لا يعنى شيئًا.

- هذا ما قلته حين ذهبنا ونمنا فى شقتى.

- وهل اكترثت بالأمر؟

- وبشكل لا يصدق.

ضحكت جوان فانحسرت شفتاها عــن أســنان متقنــة أعجـب ريتشارد للمرة الألف باستوائها واكتمال بياضها الناصع. رآها ريتشارد علامة على اكتمال عقلها ونقاء روحها.

انعطف بها المرح إلى نوع من السعادة الطاغية بينما كانت تبثه حكاياتها عن آندى وكيف تشاجرا مع مديرة أوتيل لعدم وجود منشفة فى حجرة أخذاها ساعة أصيل، وكيف كان يستغرق فى النوم لسبع دقائق بعد كل جماع. كان ريتشارد يعرف آندى منذ سنوات. نحيل البدن داكن البشرة أخصائى فى قانون النقابات ومطلق، رغم أنه كان يعنى بدمج الشركات العملاقة مع تفصيلاتها الصعبة، عصبى شديد العناية بالتفاصيل وعضو فى كنيسة يصبح فى مناسبات عدة وقورًا إلى حد مفرط. لعله كان فى الواقع مفتونا برقة جوان السطحية وتحفظها الذى اتسم به أهل نيوإنجلاند، دون أن يطلع على شياطينها المؤذية الكامنة.

- إنى أراه سخيفًا.

- لا، ليس سخيفًا، إنه رجل طيب ومخلص وأنيق وكريم يدفع الضرائب ويحبك.

- قل إنه يحميك منى، هذا ما تقصده. وأزراره! كل مرة نضطر إلى الانتظار نصف ساعة حتى يفرغ من تثبيت كل أزراره. ويغسل! يغسل كل شىء فى كل مرة!!

- كفى، لا تزيدى.

ولكن كلماتها تناثرت. تخضب وجه النادلة بحمرة الخجل وأفتر ثغرها عن ابتسامة ودية وهى تصب للزوجين بيد مرتعشة. تورد وجه

جوان وأخذت عيناها زرقة واهنة أقرب للون الماس وشفافيته. عـرف من خلال كلماتها ما كانت تقصده؛ أن هذين العاشقين مهما كان حبنـا لهما ليسا كلانا، ليسا مقدسين مثل واقعنا المقدس. إننا الواقع والحقيقة. أنجبنا الأطفال ومنح كلانا جسد شبابه للآخر، وتواعدنا على الكبر معًا.

وصفت جوان حادثة جرت فى منزلها، الذى كان منزلهما يوماً؛ عندما جاء السباك دون توقع. وكان على ريتشارد أن يضحك معهـا؛ فمشاكل السباكة فى ذلك البيت مصدر قديم لسخرية ودعابـة، قـصة قائمة. تألقت عيناها بضوء غامض. وبإيماءة أشبه بتلك الإيمـاءة فـى السيارة منذ شأن مضى، رسمت عيناها حرف v في الهـواء وكأنهـا كانت تريد أن تكتب very. كانت حركة متلهفة حذرة رائعة حيية واثقة عرف معانيها الكامنة. وعرف أنها لن تتوقف عن الإيماء داخله ما دام حيا.. أبدًا؛ حتى لو فصل القدر بينهما، حتى لو كان المـوت، سـوف تواصل إيماءاتها النفاذ فى الزجاج.

# منستيونغ (١٩٨٩)

## أليس مونرو

I

*أزهار سوسن ودموية،*

ونعناع برى،

نجمع ملء الكفين،

ونرجع جذلين.

"تقدمات"، ذلك هو اسم الكتاب. كُتِب بحروف ذهبية على غلاف أزرق غامق. أسفل الحروف نُقِش الاسم الثلاثى لمؤلفته: ألميدا جويانت روث. كانت الجريدة المحلية الفيديت(*) تنعتها ب شـاعرتنا. يبـدو أن ثمة مزيجًا من الاحترام والازدراء لمهنتها وجنسها كليهمـا، أو لمـا

---

(*) الفيديت معناها حسب قاموس أكسفورد الكبير مكان للحراسة على تل مكان مرتفع يقع فى الخط الأمامى للجيش حتى يتمكن الحراس من مراقبة حركة العدو. وهى من الفعل اللاتينى "يرى" واسم الجريدة على ذلك النحو يعضد فكرة المراقبة والحراسة السائدة فى القصيدة كلها، وهى رمز لمراقبة الرجل بوصفه السيد للمرأة بوصفها المسود. (المترجم)

يوحى به الاسم والمهنة من أزمة متوقعة. على غلاف الكتاب صورة فوتوغرافية واسم المصور فى زاوية، وفى زاوية أخرى كتب التاريخ: ١٨٦٥. نشر الكتاب فيما بعد عام ١٨٧٣.

كانت الشاعرة ذات وجه أسيل وأنف يميل إلى الطول، وعينين بارزتين حزينتين سوداوين، يخيل للناظر إليهما أنهما على وشك السقوط على خديها مثل دموع عملاقة. اجتمع بعض من شعرها الأسمر حول وجهها فى ضفائر مرسلة أو ستائر مسدلة، مع وجود خيط من شعر أشيب ظاهر للعيان رغم أنها بدت فى تلك الصورة لم تتجاوز الخامسة والعشرين. ليست حسناء ولكنها من ذلك النوع من النساء الذى يعمر طويلاً ولا يزداد مع الأيام سمنة. ترتدى فستانًا مزينًا بثنيات ضفيرية من شريط عريض مطرز بحاشية من قماش أبيض، أهداب أو عقد، يؤنس القبَّة عند الرقبة. على رأسها قبعة مصنوعة، على ما يبدو، من القطيفة ذات اللون الغامق ليضاهى لون الفستان. القبعة عاطلة من الزينة لا تبعث على الإعجاب، أشبه ببيريه ناعم الملمس مما يجعل الناظر يحس بمقاصد فنية، أو على الأقل غرابة حيية تشى بطبع حرون لهذه السيدة الشابة ذات الرقبة الطويلة ورأسها المائل للأمام مما يدل على أنها كانت طويلة القامة ضامرة الجسم تعوزها البراعة. تبدو بدءًا من خصرها أشبه بشاب من النبلاء عاش فى قرن سابق، أو لعلها كانت الموضة.

جاء فى التصدير لكتابها: "فى عام ١٨٥٤ جاء أبى بنا – أمى

وأختى كاثرين وأخى وليام وأنا – إلى براري كندا الغربية (كما كانت تسمى حينذاك). كان أبى يصنع عدة الحرب للفرس والإنسان. كانت هذه مهنته التى امتهنها، ولكنه كان رجلا مثقفاً يحفظ عن ظهر قلب صفحات من الكتاب المقدس وصفحات من مسرحيات شكسبير وكتب إدموند بيرك. استطاع أن يحقق نجاحًا اقتصاديا بعد وقت قصير من هجرته إلى تلك البلاد الجديدة. أنشأ متجرًا كبيرًا لبيع السروج والمصنوعات الجلدية. وبعد عام شيد هذا المنزل المريح الذى فيه أقيم الآن... وحدى. كنت فى الرابعة عشرة، أكبر إخوتى، عندما جئنا إلى هذه البلاد من كنجستون، تلك المدينة الجميلة التى لم أعد أرى شوارعها الأنيقة، بيد أنها لا تبرح الذاكرة. كانت أختى فى الحادية عشرة وأخى فى التاسعة. وفى الصيف الثالث من إقامتنا الجديدة مرض أخى وأختى فجأة بحمى كانت منتشرة، وقضيا نحبهما لا يفصلهما إلا أيام قلائل. أما أمى الغالية فلم تستعد نشاطها وحيويتها بعد تلك الضربة القاصمة لأسرتنا. تدهورت صحتها ووافتها المنية هى الأخرى بعد ثلاث سنوات. أصبحت من ثم بمثابة ربة بيت بالنسبة لأبى، وكنت سعيدة لأن أساعده فى بيته اثنتى عشرة سنة حتى وافاه الأجل فجأة ذات صباح فى متجره.

منذ نعومة أظافرى وأنا أقرض الشعر. رحت أشغل نفسى، أو قل أسكن آلامى التى فاقت، على ما أظن، آلام البشر جميعًا، بمحاولات متعثرة فى نظمه. لم أوت براعة يدوية أستغلها فى أشغال الإبرة، وتلك

المنتجات الرائعة من أعمال الزخرفة التى يراها المرء هذه الأيام، ذلك الفيض الوافر من سلال الفاكهة والخضراوات التى تزدان برسومات لصبية هولنديين، أو عذارى متقلنسات يقبضن على كئوس ملأى بالماء، دليل آخر على أنها فوق طاقتى. ولذا فإننى أقدم، عوضنا عن ذلك، ثمار ساعات فراغى، هذه الأبيات، أو قل هذه الزهرات المتواضعات، أو هذه الأغنيات البسيطة، أو الدوبيتات، أو قل هذه التأملات".

وفى ضمن العناوين التى أعطتها لهذه القصائد: "أطفال فى لهوهم" و"سوق الغجر" و"زيارة لأسرتى" و"ملائكة من ثلج" و"قس عند مصب منستيونغ" و"جولة فى الغابة القديمة" و"لحن الحديقة". وقصائد أخرى عن الطيور والزهور البرية والعواصف الثلجية. وبعض الأشعار الهزلية عما يجول فى خاطر المرء وهو يستمع للمواعظ الكنسية.

"أطفال فى لهوهم": الكاتبة طفلة تلهو مع أخيها وأختها. من هذه الألعاب لعبة يتجاذب فيها الأطفال ويتوارون فى الأركان، ويحاول بعضهم الإمساك بالبعض الآخر. كانت تلعب فى ظلمة الشفق المتعاظمة حتى جاء يوم أدركت أنها أكبر سنا من لُداتها. لم تزل تسمع الأصوات الطيفية لأخيها وأختها وهما يناديان عليها: تعالى، هلمى، دع ميدا تأت. (ربما كانت الميدا تسمى ميدا بين أفراد الأسرة، ولعلها اختصرت اسمها ليوافق مقتضى القصيدة).

"سوق الغجر": كان الغجر يقيمون معسكرهم على أبواب المدينة. سوق يبيعون فيها القماش وأشياء أخرى بسيطة. وكانت الكاتبة وهى طفلة تخشى أن يسرقها هؤلاء الغجر من أسرتها. ولكن الأمور جرت على النقيض، فقد سرقت أسرتها منها، سرقها غجر لا تعرف مكانهم ولا كيف السبيل إلى مساومتهم.

"زيارة لأسرتى": وهى زيارة للمقابر، والقصيدة حديث مع النفس.

"ملائكة من ثلج": كانت الكاتبة تعلم أخاها وأختها كيف يرسمون ملائكة بالرقود على الثلج وتحريك الأذرع لتطبع أشكالا على الثلج أشبه بالأجنحة. كان أخوها ينهض دائمًا دون أن يكترث تاركًا ملاكًا بجناح واحد. هل سيمنح جناحه الناقص فى السماء؟ أم سيطير ببدائله؟

"قسيس عند مصب منستيونغ": هذه القصيدة تنوه باعتقاد شعبى بعيد عن الصحة بأن المستكشف أبحر صوب الشاطئ الشرقى لبحيرة هورون، واستقر عند مصب النهر الكبير.

"جولة فى الغابة القديمة": عبارة عن قائمة بكل أنواع الأشجار التى تم قطعها من الغابة الأصلية، بأسمائها وصفاتها الشكلية واستخداماتها، مع وصف عام للدببة والذئاب والصقور والغزلان وطير الماء.

"لحن الحديقة": يبدو أنها ذليل أو تكملة لقصيدة الغابة، وتحتوى على بيان بالنباتات التى جلبت من الأقطار الأوروبية مع شذرات من التاريخ والخرافات التى اتصلت بها، وما استنبت منها من نباتات كندية فى النهاية.

القصائد مكتوبة فى رباعيات أو دوبيتات. وثمة محاولتان فى السونيتة. القافية بسيطة فى الغالب أ ب أ ب أو أ ب ج. تستخدم القافية المذكرة أى التى تنتهى بمقطع منبور، وقليلاً ما تستخدم القافية المؤنثة أى التى تنتهى بمقطع غير منبور. ترى هل تستخدم هذه المصطلحات اليوم؟ لا وجود للشعر غير المقفى.

## II

أزهار بيضاء باردة كالثلج

تزدهر حيث يرقد أولئك "الملائكة".

هل يكتفين بالرقود تحت الثلج

أم يهمن فى ملكوت الله؟

فى عام ١٨٧٩ كانت ألميدا روث لم تزل تعيش فى المنزل الذى يقع على الناصية عند ملتقى شارعى دوفرين وبيرل، المنزل الذى شيده الأب لأسرته. لم يزل المنزل قائمًا هناك حتى اليوم، يعيش فيه الآن مدير متجر لبيع الخمور. كان البيت مكسوا من الخارج بألواح من الألوميتال، واستبدل بالشرفة مدخلاً مسقوفًا. أما مخزن الخشب والسور والأبواب والمرحاض والزريبة فلم يعد لها وجود. تظهر هذه الأشياء فى مكانها فى صورة ترجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر. يظهر البلى على البيت والسور حيث يبدو أن البيت كان يحتاج إلى طلاء، أو

لعل ذلك بسبب شكل الصورة الباهت ذى اللون الضارب إلى السمرة. بدت النوافذ ذات الستائر المصنوعة من شرائط، أشبه بالعيون البيضاء. لا ترى العين أثرًا لأشجار الظل. والواقع أن أشجار الدردار الطويلة التى كانت تغمر المدينة بالظلال حتى خمسينيات القرن التاسع عشر، كأشجار الجميز التى تلقى الآن بظلالها القصيرة، أضحت أشجارًا صغيرة ضامرة ضرب حولها سور لم يدفع عنها الماشية المعتدية. وخارج ذلك الحاجز من الأشجار توجد أفنية خلفية وحبال غسيل وأكوام خشب ومساحات صغيرة من النخيل وحظائر ومراحيض، كلها مكشوفة معرضة للجو. قليلة هى البيوت التى تهتم بتنمية الزرع حولها. لا تجد إلا مساحات صغيرة من نبات موز الجنة وكثبان النمل والقاذورات المكومة وبعضًا من نبات البطونيا الذى ينمو فى تجاويف جذوع الأشجار المقطوعة. الشارع الرئيس فقط هو المفروش بالحصباء، أما سائر الشوارع فليست إلا طرقات قذرة موحلة يعلوها التراب حسب الفصول. الأسوار ضربت حول الأفنية لتذود عنها الحيوانات المعتدية. أما الأبقار فقد شد وثاقها بمعاقل فى أماكن خالية من العشب، أو تركت لترعى فى الأفنية الخلفية، بينما تركت الخنازير وكذلك الكلاب حرة مطلقة السراح تنام بكبرياء على الجسور الخشبية.
لقد استقرت المدينة ولن تزول، بيد أنها لم تزل تأخذ طابع المخيم. ومثل المخيم أصبحت مشغولة طوال الوقت، تفيض بالناس الذين تراهم يمشون على أقدامهم أينما وجدتهم، مليئة بالحيوانات التى تترك مخلفاتها فى كل مكان؛ روث الخيل والأبقار وغائط الكلاب مما يدفع

السيدات لرفع أرديتهن تجنبًا للأذى. أصبحت المدينة تعج بالضوضاء التى تصدر من عمال البناء وسائقى العربات الذين يصيحون بجيادهم، والقطارات التى تأتى مرات عدة فى اليوم.

قرأت وصفًا لتلك الحياة فى جريدة الفاديت. كان الناس أصغر سنا من اليوم، وربما مما سيكونون فى المستقبل. الذين تعدوا الخمسين لا يهاجرون إلى البلاد الجديدة. كانت القبور تضم عددا قليلاً من الناس لاسيما من الشباب الذين لقوا حتفهم في حوادث، أو من الأطفال الذين قضوا نحبهم بسبب الأمراض المعدية. يشكل الشباب أغلب سكان المدينة، وأما الأطفال والصبية فإنهم يجولون الأرجاء فى جماعات أشبه بالعصابات. الذهاب إلى المدرسة كان إجباريا أربعة أشهر فى العام. توجد الكثير من الأعمال المؤقتة التى يستطيع الجميع القيام بها حتى الأطفال الذين تعدوا الثامنة أو التاسعة؛ جمع الكتان وربط الخيول توصيل البقالة إلى المنازل وتنظيف المعديات القائمة أمام المحال التجارية. وكثيرًا ما يشغلون الوقت بحثًا عن المغامرة. ذات يوم تبعوا سيدة ثملة تدعى كوين آجى. وضعوها على عربة يد وطافوا بها حول المدينة ثم ألقوا بها فى حفرة لإعادتها إلى وعيها. كانوا أيضا يقضون جزءا غير قليل من وقتهم حول محطة السكة الحديد، يقفزون فوق العربات الواقفة، ويندفعون بينها، ويراهنون على المخاطرة مما كان ينتهى بهم أحيانًا إلى العجز أو الموت. كانوا يراقبون الغرباء القادمين إلى المدينة. يتبعونهم ويعرضون عليهم حمل حقائبهم وإرشادهم إلى الفندق لقاء خمس سنتات للحقيبة الواحدة. أما الذين لا يبدو عليهم يسر

العيش فيصبحون عرضة للمهانة والمضايقة، يحيط بهم الصبية الذين يحتشدون مثل أسراب الذباب ويمطرونهم بالأسئلة أينما ذهبوا. هل جاءوا للبدء فى مشاريع جديدة؟ أو لإغراء الناس بالاستثمار فى مشاريع بعينها؟ أو لبيع الأدوية أو تلك الصناعات الجديدة؟ أو للوعظ فى أركان المدينة؟ كان ذلك يحدث طوال أيام الأسبوع. وتنصح الفيديت الناس أن يأخذوا حذرهم هذه الأيام من الانتهازيين والسراق والمومسات والمحتالين والباعة الجائلين والمحامين المشبوهين واللصوص الذين تقابلهم فى الطرقات ولاسيما عند السكة الحديد. كانت صفحاتها تتضمن إعلانات عن سرقات تمت، وأموال أعطيت بقصد الاستثمار ولم ترجع لأصحابها، وبنطلونات سرقت من فوق حبال الغسيل، وأكوام خشب نقصت، وبيض دجاج اختفى من حظائر دواجن. تكثر هذه الأفعال فى الطقس الحار.

الطقس الحار مجلبة للحوادث أيضًا. يزداد عدد الخيول الجامحة التى تقلب العربات وتهيج دون رادع. أيد تدهمها آلات الغسيل، ورجل يقطعه نصفين أحد لوح خشب سقط عليه فى مخزن الخشب. النوم العميق صعب المنال، الرضع يذبلون بسبب أمراض الصيف. وأصحاب الأجسام اللحيمة لا يقدرون على التقاط أنفاسهم. الموتى يدفنون على عجل. وذات يوم هام أحد الناس فى الشوارع وهو يضرب على جرس بقرة ويصيح: التوبة! التوبة! لم يكن من الغرباء هذه المرة، كان شابا يعمل عند قصاب. أخذوه إلى منزله ولفوه فى قماش

بارد مبتل وأعطوه بعض المهدئات، ومنعوه من الخروج، وصلوا من أجله، وعندما لم يبرأ وضعوه فى البيمارستان.

يقع شارع ألميدا روث على ناصية شارع دوفرين، وهو شارع معروف محترم. فى هذا الشارع تقع بيوت التجار وبيت صاحب الطاحونة وبيت صاحب مصنع الملح. وأما شارع بيرل الذى تشرف عليه نوافذ بيتها وأبوابه الخلفية فحكاية أخرى. هناك تجاورها بيوت العمال، صف طويل من البيوت الصغيرة ولكن المحترمة. إلى الآن والأمور مقبولة. ولكن الأمور تسوء عند نهاية ذلك الصف من البيوت المتلاصقة، وتزداد سوءًا فى الصف الثانى. لا يسكن هناك غير الفقراء وسيئو السمعة. كانوا يعيشون هناك على حافة مستنقع يسمى مستنقع شارع بيرل، تم ردمه فى ذلك الوقت. هناك تنمو الأشجار الكثيفة والنباتات الضارة. هناك أقيمت الأكواخ المؤقتة. هناك أيضًا تجد أكوام القمامة والأنقاض وأعدادًا غفيرة من أطفال أشبه بالأقزام. هناك يدلق الناس الماء القذر أمام البيوت. أجبرت البلدية الناس على بناء المراحيض، ولكنهم استمروا فى الذهاب لقضاء حاجتهم فى الأدغال القريبة. فئات من الصبية يذهبون إلى هناك بحثًا عن مغامرة ويعودون بأكثر مما كانوا يرجون. ويقال إنه حتى مدير شرطة المدينة لم يكن يجرؤ على النزول إلى شارع بيرل فى ليلة الأحد. لم يحدث أن مشت ألميدا أمام تلك البيوت. فى أحد هذه البيوت تعيش الفتاة الشابة آنى التى تساعد ألميدا فى تنظيف المنزل. هذه الفتاة الصغيرة نفسها لم يحدث أن ذهبت إلى المستنقع. فالسيدة المهذبة يجب ألا تذهب إلى هناك.

ولكن هذا المستنقع، وهو يقع إلى الشرق من منزل ألميدا روث، يعد منظرًا جميلا وقت الفجر. تنام ألميدا فى الجهة الخلفية من البيت. لم تبرح حجرة نومها القديمة التى كانت تشارك فيها أختها كاثرين. لا تفكر فى الانتقال إلى حجرة النوم الأمامية الأوسع، حيث كانت أمها تنام طيلة اليوم، وأصبحت فيما بعد مختلى أبيها حتى وفاته. من خلال إحدى نوافذها كانت ترى الشمس مشرقة تغمر ضباب المستنقع الخفيف بالضياء الكثيف، وتتأمل الشجيرات القريبة تطفو أمام الضباب والأشجار الخلفية وهى ترتد شفافة بيضاء. أشجار البلوط فى المستنقع وأشجار الجميز والطمراق والجوز المر.

## III

هنا حيث يلقى النهر البحر الداخل،

تنشر تنورتها الزرقاء من الخشب المهيب،

أفكر فى الطير والحيوان والذين ووروا التراب،

أطلالهم على الرمال الشاحبة لم تزل قائمة.

أحد الغرباء الذين وصلوا إلى محطة السكة الحديد منذ بضع سنوات كان جارفيز بولتر الذى يشغل المنزل المجاور لمنزل ألميدا روث – يفصله عنه قطعة أرض فضاء تطل على شارع دوفرين، اشتراها جارفيز فيما بعد. كان البيت أقل زخرفة من منزل روث،

لا تحيط به أشجار الفاكهة أو الزهور. وذلك، كما كان الظن؛ لأن بولتر كان عزبًا ماتت عنه زوجته ويعيش بمفرده. في وسعه أن يحفظ بيته نظيفا ولكنه لا يهتم بزخرفته خاصة إذا كان هو نفسه حسن الهيئة متأنقا في ملبسه. ولكن الزواج من شأنه أن يحمله على العناية بزخرفة البيت وبالجانب العاطفي من حياته كذلك، ويحميه أيضا من شطط الغريزة ومن البخل والكسل والفساد والنوم الزائد وإدمان الشراب والتدخين وحتى من التجديف في الدين.

في الشأن الاقتصادي، يُظَن أن وجيها جليلاً من مدينتنا يواظب على أخذ المياه من حنفية المدينة العامة، ويكمل مأونته من الوقود بجمع الفحم السائب من فوق خط السكة الحديد. ترى هل ينوي دفع حق البلدية وهيئة السكة الحديد بكميات مجانية من الملح؟

كتبت ذلك جريدة الفيديت، جريًا على عادتها في الدعابة الحذرة والتعريض المستتر، أو حتى الاتهام الصريح، وعلى نحو لا تستطيعه جرائد اليوم دون الإفلات من عقوبة. إنهم يتعرضون لجارفيز بولتر بطبيعة الحال، بيد أنهم يتناولونه في مواضع أخرى باحترام شديد بوصفه محاميا مدنيا، وصاحب عمل، وعضوًا في مجلس الكنيسة. رجل كتوم غريب الأطوار إلى حد ما. لعل ذلك بسبب حالة العزوبة التي يعيشها، فقد ماتت عنه زوجته ويعيش الآن وحيدًا؛ حتى جلبه الماء من حنفية البلدة العامة وملء جواله بالفحم السائب على قضبان السكة الحديد كان بسبب وحدته. ولكنه مواطن مهذب ثري متقدم البطن

قليلاً يرتدى بذلة غامقة وحذاء نظيفا، تزين وجهه لحية غزيرة، ويشيع برأسه شعر أسود يشوبه خط أشيب نحيل وثؤلول شاحب ظاهر في الشعر الكث وسط أحد حاجبيه. متجهم الوجه واثق النفس. يتحدث الناس عن زوجة شابة حسناء ماتت في أثناء ولادة طفلها، أو بسبب حادثة مأساوية كاندلاع حريق في المنزل، أو حادثة قطار. ولا يوجد دليل على ذلك كله، إلا أنه كان سببًا في إثارة محببة. كل ما قاله إن زوجته متوفاة.

جاء إلى هذا المكان بحثًا عن البترول. لقد تم حفر أول بئر بترول في العالم في مقاطعة لامبتون، جنوب هذه المدينة في خمسينيات القرن التاسع عشر. وأثناء الحفر اكتشف جارفيز بولتر الملح وراح يعمل بجد ليستفيد أقصى درجات الاستفادة. في إيابه من الكنيسة مع ألميدا روث كان يحكي لها عن آبار الملح التي يمتلكها. يقول إنها على مسافة اثني عشر قدمًا تحت الأرض. "تقوم بضخ الماء الساخن إلى الملح كي يذوب، ثم نرفع المحلول الملحي إلى السطح ونصبه في أوعية ضخمة على أجهزة تبخير مثبتة على نيران هادئة حتى يتبخر الماء ويترسب الملح الصافي النقي. إنها سلعة لا يستغني عنها أحد".

"ملح الأرض". تقول ألميدا.

"نعم". يقول جارفيز وهو يقطب جبينه. قد يظن أنها تحط من قدره. ولكنها لا تقصد ذلك البتة. يحكي لها أيضًا عن المنافسين في مدن أخرى من الذين حذوا حذوه، ويسعون لاحتكار السوق. ولحسن

الحظ لم يحفروا آبارهم بالعمق المطلوب، وحتى أجهزة التبخير لديهم لا تعمل بالطريقة الفاعلة. الأرض تحتضن الكثير من الملح فى باطنها، ولكن ليس من السهل استخراجه كما يظن بعض الناس.

تقول ألميدا: ألا يعنى ذلك أنه كان هناك بحرا هائل فى باطن الأرض؟

ويقول جارفيز: جائز جدا. جائز جدا. وراح يحكى لها عن مشاريعه الأخرى: مصنع طوب وفرن لحرق الحجر. ويشرح لها كيف أن هذه المشاريع تدر أرباحا طائلة، وأين يوجد الطين الجيد. جارفيز يمتلك مزرعتين بهما مساحات من الأشجار الخشبية التى توفر الوقود لهذه المشاريع.

من بين الذين يتمشون قادمين من الكنيسة صباح أيام الآحاد المشمسة، رصدنا ثنائيا: وجيه (ملحى) وسيدة (أديبة)، ربما تجاوزا سن الشباب الأول ودلفا الآن إلى مرحلة الكهولة. فهل لنا أن نحدس؟

مثل هذه القفشات تظهر فى الفيديت فى كل الأوقات.

هل يحدسون؟ وهل ينطوى مسلك جارفيز على تودد للسيدة؟

ألميدا روث تمتلك مبلغا قليلاً من المال ورثته عن أبيها، ولديها بيتها. ليست بالطاعنة فى السن، وفى وسعها أن تنجب طفلا أو طفلين. وهى ربة بيت جيدة، ولها غرام بعمل الحلوى الجليدية، والتورتة المزخرفة. وهو غرام نشهده غالبًا عند الآنسات ذوات الخبرة. جمالها

لا تشوبه شائبة، وهيئتها حسنة لا تتوافر للكثيرات ممن فى سنها من المتزوجات. فلم يرهق كاهلها تربية أولاد أو عناية بزوج. ولكن لماذا تجاهلت يفاعتها الأولى وضربت صفحًا عن الزواج فى بلد يستغرب فيه الناس امرأة دون شريك وأولاد. كانت فتاة تميل للتشاؤم. ربما كانت هذه هى المشكلة: موت أخيها وأختها ثم أمها التى فقدت عقلها قبل عام من وفاتها، وكانت تنام على سريرها وتهذى بما لا تعرف، كل ذلك كان ثقيل الوطأة على نفسها، وتركها شخصًا صعب العشرة. وهل كان غرامها بالقراءة والقريض إلا دليلاً على حاجتها وهى شابة، وليس عندما اكتهلت، إلى شىء تملأ به فراغها وتؤنس به وحدتها. لقد مضت خمس سنوات على نشر كتابها. وربما شجعها أبوها المتفاخر المولع بالكتب.

يعتقد الناس أن ألميدا روث تفكر فى جارفيز بولتر زوجًا لها، وأنها ستوافق إذا طلب يدها. هى تفكر فيه بالفعل. ولكنها لا تريد أن تشتط فى الآمال وتخدع نفسها. كانت تنتظر إشارة منه. فلو كان يذهب إلى الكنيسة فى ليالى الآحاد لكانت فرصة لمرافقته هذه المسافة إلى البيت فى جنح الظلام. يحمل هو الفانوس (لم تكن الشوارع مضاءة فى ذلك الوقت) ليضىء الطريق عند أقدام الآنسة ويلقى نظرة على قدميها الهزيلتين الرقيقتين. وقد يمسك يدها ليعينها على عبور المعدية الخشبية. ولكنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة ليلاً. ولم يكن يعرج عليها أو يصحبها إلى الكنيسة صباح الآحاد؛ فمن شأن ذلك أن يكون إعلانًا. قد

يسير معها وهى فى طريقها إلى البيت وعندما تصل إلى بـــاب بيتهـــا يرفع قبعته وينكفئ راجعا. لا تدعوه للدخول، فسيدة تعيش وحـــدها لا يمكنها أن تفعل ذلك. فالناس يعتقدون أنه ما يخلو رجل بامرأة، من أى سن، داخل جدران أربعة حتى يحدث المحظـــور: الاهتيـــاج الفـــورى والهجوم العاطفى والشهوة الحيوانية والزنا وانتصار الحواس. ترى ما هى الشواهد التى يراها الرجال والنساء كل فى الآخر حتى يخشوا هذه المخاطر؟

عندما تمشى بجواره كانت تشم رائحة صابون الحلاقة والزيـــت الذى استخدمه، ودخان غليونه ورائحة الصوف والكتان والجلـــد فـــى ملابسه الرجالية. الملابس المضبوطة المرتبة. كانت ملابسه ثقيلة أشبه بملابس أبيها التى كانت تنظفها بالفرشاة والنشادر. تاقت للمهنة ولتقدير الأب وسلطته الغامضة الحنون. إن ثياب جـــارفيز بـــولتر ورائحتـــه وحركته تجعل الجانب المجاور له من جسدها يستشعر وخـــز الأمـــل، ويسبب لها رعشة تسرى فى جسدها وتستثير الشعيرات الخفيفة علـــى ذراعيها. هل هو الحب؟ إنها تحلم به داخلا حجرة نومهـــا (أو حجـــرة نومهما) فى ملابسه الداخلية الطويلة وقبعته. إنها تعلم أن هذه الملابس مثيرة للسخرية. ولكنها فى الخيال لا تبدو كذلك، ويكون لديـــه جـــرأة رجل فى الحلم. يدخل حجرتها ويرقد على الفـــراش بجوارهـــا ويهـــم بأخذها بين ذراعيه. يخلع قبعته بثقة، وتأخذها فى تلك اللحظة نوبة من الإذعان له والتوق الغامر، ويصبح زوجها.

شيء واحد لاحظته على النسوة المتزوجات: كيف أن الكثيرات منهن يعمدن لرسم صورة ما لأزواجهن. يبدأن بأن ينسبن إليهم الأشياء المفضلة لديهم ثم الآراء والأساليب السلطوية. تقول الواحدة منهن مثلا: نعم، زوجي أنيق جدا ويدقق في كل شئ. لا يلمس اللفت ولا يحب اللحم المقلي (أو يحب اللحم المقلي). يحبني أن أرتدي الأحمر (أو اللبني) طوال الوقت. لا يطيق صوت الأرغن، ولا يحب أن يرى امرأة عارية الرأس. يقتلني لو رآني آخذ نفسا من سيجارة. بهذه الطريقة يتحول الرجال ضعاف الشخصية إلى أزواج، أصحاب بيوت. ألميدا روث لا تتخيل نفسها تفعل ذلك. تريد رجلا لا يحتاج إلى أن يصنع من جديد، واثقًا من نفسه وصاحب رأي ومكتنفًا بالأسرار. إنها لا تبحث عن مجرد رفيق. الرجال في رأيها – فيما عدا أباها – مفتقرون للحياة، غافلون. وترى أن هذه صفات لابد منها في الرجال حتى يفعلون ما يجب أن يفعلوا. فهل كانت – لو عرفت أن الأرض تختزن الملح في باطنها – تسعى لاستخراجه وبيعه؟ أبدًا. كانت ستفكر في البحر القديم. وهو نوع من التأمل. لا يجد جارفيز بولتر وقتا له بأي حال.

بدلا من المرور عليها في بيتها واصطحابها إلى الكنيسة فقد يأتي جارفيز بولتر بمغامرة أوقع. يستأجر حصانا ويأخذها خلفه في نزهة ريفية. عندئذ ستكون سعيدة وحزينة في الوقت نفسه. سعيدة لأنها بجواره، يأخذ بزمامها، وتلقى هذا الاهتمام منه أمام الناس جميعًا. وحزينة لأن الريف انتقل إليها. وصفه لها بحديثه واهتمامه. الريف

الذى صورته فى قصائدها لا تريده أن يصدر من رؤيتـــه ووصـــفه. بعض الأشياء تصرف عنها النظر: أكوام السماد ومساحات المستنقعات المليئة بجذوع الأشجار المحروقة، والأكوام الضخمة مـــن الأغـــصان المقطوعة فى انتظار اليوم المناسب لإحراقها. النهيرات المتعرجة التى تم تقويمها وتحولت إلى قنوات صغيرة للرى بضفاف موحلـــة كئيبـــة. وأخرى ضربت حولها السياج ذات القضبان المتشابكة. الأشجار أعيـــد غرسها فى المساحات المخصصة لزراعة الخشب، وأشجار الغابة كلها قصيرة جديدة. ولا يوجد على جوانب الطرق أو الحـــارات أو حـــول المزارع شىء خلا القليل من الغرس الحديث كثير الأغـــصان غـــض الأوراق. توجد أعداد كبيرة من مخازن الخشب – مخـــازن الخـــشب الكبرى التى ستغمر الريف خلال السنوات المائة التالية كانت فى بداية الإنشاء. ومخازن الخشب ذات المنظر المزعج. وكل أربعة أو خمـــسة أميال توجد قرية صغيرة بها كنيسة ومدرسة ومتجر ومحـــل حـــدادة. ريف صرف منبت الصلة عن الغابة ولكنه عامر بالناس. كل مائة فدان مزرعة وكل مزرعة بها أسرة وكل أسرة بها عـــشرة أو اثنـــا عـــشر طفلاً. ذلك هو الريف الذى سيرسل بموجة بعد موجة من المـــستوطنين إلى المدينة، وبدأ يرسلهم فعلاً إلى أونتاريو الشمالية والغرب. والحـــق أنك تستطيع أن تجمع الزهور البرية فى الربيع من مساحات الأشـــجار الخشبية، ولكن عليك أن تسير بين قطعان مـــن الأبقـــار ذوات قـــرون طويلة لكى تصل إليها.

## IV

رحل الغجر.

أرض مخيمهم أضحت عارية.

فهل لى أن أساوم بجرأة الآن

فى سوق الغجر؟

تعانى ألميدا روث كثيرًا من السهاد. وصف لها الطبيب دواء البروميد وعلاجا للأعصاب. ولكن قطرات البروميد توقظ أحلامها المزدحمة بالصور المزعجة. لذا ادخرت الزجاجة للطوارئ. قالت للطبيب إنها تحس بمقلتيها صلبتين كزجاج ساخن، وتحس بألم فى مفاصلها. قال لها: قللى من القراءة والدرس، علاجك فى التعب فى أعمال المنزل وممارسة بعض التمرينات الرياضية. إنه يعتقد أن مشاكلها ستزول إذا تزوجت. يعتقد ذلك رغم أن جل وصفاته لعلاج الأعصاب تذهب للمتزوجات. ولذا فإن ألميدا تعتنى ببيتها، وتساعد فى نظافة الكنيسة، وتمد يد العون لصديقاتها اللاتى يغطين جدران منازلهن بأوراق الحائط أو يستعددن للزواج، وتعد إحدى كعكاتها المشهورة لأطفال المدرسة فى نزهة الأحد. وفى يوم سبت حار من أيام أغسطس تقرر عمل حلوى العنب؛ عدة قوارير صغيرة من حلوى العنب تفيد كهدايا قيمة فى عيد الميلاد، أو حتى إعانات للمرضى. ولكنها بدأت فى وقت متأخر من النهار، والحلوى لا تنضج إذا حل الظلام. وضعت

العصير الساخن فى كيس الجبن لتصفيته. وتناولت ألميدا كأسا من الشاى مع شريحة من الكعك بالزبد الذى كانت تحبه منذ الطفولة، وهو كل طعامها للعشاء. ثم تأخذ حماما سريعا استعدادا ليوم الأحد. تلف ملاءة حول خصرها وتترك النافذة مفتوحة وترقد على السرير دون أن تشعل المصباح. وتحس بتعب شديد. وتحس بنسيم خفيف يداعب الحجرة. وتحس بشجار خفيف.

ولم تلبث أن تستيقظ. وعندما تستيقظ تحس بالليل متقدا بالحر منذرا بالخطر. وترقد من جديد وجسدها ينز عرقا. تحس أن الصخب الذى تسمعه يعمل فى جسدها عمل السكاكين والمناشير والفئوس، كل تلك الأدوات تقطع وتحز وتثقب فى رأسها. ولكن الأمر لم يكن كذلك. عندما تكتمل يقظتها تبدأ فى التعرف على مصدر تلك الأصوات التى سمعتها أو التى كانت تسمعها، أصوات الشجار فى ليالى الأحد الصيفية فى شارع بيرل. عادة ما يصدر الصخب من قتال حقيقى بين السكارى. تسمع احتجاجا وصياحا. تسمع من يهتف: "جريمة قتل! جريمة قتل!" حدثت جريمة قتل ذات يوم. ولكنها لم تكن نتيجة شجار. عثر على جثة عجوز فى بيته أردى طعنا. ربما كان السبب بضعة دولارات كان يخفيها تحت المرتبة.

وتنهض من فراشها وتذهب إلى المطبخ. كانت سماء الليل صافية افتقد فيها القمر وسطعت النجوم. بيجاسوس(*) تطل برأسها على

(*) كوكبة من النجوم فى نصف الكرة الشمالى بالقرب من أكواريوس وأندروميدا. (المترجم)

المستنقع. علمها أبوها كيف تعد النجوم فى تلك المجموعة. وبشكل تلقائى راحت تحصيها. تستطيع آذانها الآن أن تميز بعض الأصوات: إضافات جديدة للمشاجرة. بعض الناس، مثلها، استيقظ من نومه. تسمع من يصرخ قائلاً: "اخرس! كفوا عن هذا الشجار وإلا نزلت وأشبعتكم ضربًا على مؤخراتكم يا أولاد ال...".

ولكن أحدًا لم يتوقف. وكأن كرة من النار تتدحرج فى شارع بيرل تقذف الشرر فى طريقها، النار هى الجلبة والصراخ والضحك والسباب، والشرر هو الأصوات التى تنطلق نشازًا. صوتان يتميزان عن باقى الأصوات حتى الآن ويصدران صياحًا أشبه بالنباح وينخفض شيئًا فشيئًا ويتحول إلى ارتعاش متواصل. ثم تيار من السباب يحمل كل الألفاظ التى تربط ألميدا بينها وبين الخطر والحرمان والرائحة الكريهة والمناظر المقززة. شخص ما ينهالون عليه ضربًا ويصيح: "اقتلونى! اقتلونى الآن!". إنهم يضربون امرأة وهى تصرخ: "اقتلنى! اقتلنى!". ويظهر جانب من فمها مترعًا بالدم رغم ما فى صوتها من نبرة استخفاف وانتصار. شيء من التصنع فى صوتها. الناس حولهم ينادون: "كفى! كفى!". ومنهم من يصيح: "اقتلها! اقتلها!". يصيحون فى جنون وكأنهم على خشبة مسرح، أو يشاهدون مباراة مصارعة أو ملاكمة محترفين. أجل، تقول ألميدا فى سرها، رأيت ذلك من قبل. لعلها تمثيلية، أو لون كئيب من محاكاة ساخرة مبالغ فيها. وكأن ما يفعله هؤلاء القوم، حتى جرائم القتل، لا يؤمنون به، ولا يطيقون وقفه فى الوقت نفسه.

الآن تسمع صوت شيء يلقى على الأرض، مقعد أو لوح خشبي أو صوت كومة من الخشب أو جزء من سور ينهار وكم آخر من الأصوات مباغتة جديدة. صوت جري، أناس يفرون من الطريق، أصبح الهرج قاب قوسين. هذه هي المرأة. كانت تمسك بشيء مثل عصا خشبية أو لوح من الخشب. وتديرها وتدفعها نحو شخص آخر لامرئي يجري خلفها. وتهتف الأصوات: "آه، أسرع، الحق بها! الحق بها واضربها يا رجل!". أناس يقعون على الأرض الآن. شخص يمسك بتلابيب الآخر، ثم يتباعدان ويسقطان على سور ألميدا. يصبح الصوت الذي يأتي منها غامضًا مشوشًا كأنه يصدر من فم مكعوم، ثم صوت تقيؤ ونخير وضرب شديد. يتبع ذلك صوت طويل مرتجف متذبذب، صوت ألم مخنوق ونفس مذلولة أو روح مغادرة.

تركت ألميدا النافذة وجلست على سريرها. تقدح زناد فكرها. أليست هذه الأصوات التي سمعتها جريمة قتل؟ ماذا يجري؟ ماذا يجب أن تفعل؟ يجب أن تشعل مصباحًا. يجب أن تترك الدرج وتشعل مصباحًا. لابد أن تخرج إلى الفناء. الفانوس. تلقي بجسدها على الفراش. تضع وسادة على وجهها. في لحظات. الدرج. المصباح. ترى نفسها هناك. في الصالة الخلفية. تحكم رتاج الباب الخلفي. تصبح فريسة لنوم لا يقاوم.

وتستيقظ مروعة مع أول أضواء الصباح. ترى غرابًا كبيرًا يجثم على عتبة نافذتها يتحدث في نبرة مستنكرة وبطريقة غير

مستغربة، عن أحداث الليلة المنصرمة. يقول لهـا مؤنبًـا: اسـتيقظى وحركى عربة اليد. وتفهم أنه يقصد شيئًا آخر بعربة اليد. شيئًا بغيـضًا مجلبة لكرب عظيم. وتستيقظ بالفعل وتعلـم أنـه لا وجـود للطـائر. وتنهض على الفور، وتنظر من النافذة. وتلاحظ شيئًا يستند إلى سـور بيتها. شخصًا ضخمًا. جثة. عربة يد

وتضع مئزرها فوق قميص النوم وتنـزل الـدرج. الحجـرات الأمامية لم تزل مظلمة. الستارة مسدلة فى المطبخ. شىء ما يتحـرك محدثًا صوتًا كصوت شىء يغوص فى الماء على مهل، يذكرها بحديث الغراب. إنه عصير العنب ينضج أثناء الليل. تسحب المزلاج، وتخرج من الباب الخلفى. العناكب نسجت شباكها على المـداخل فـى جـنح الظلام. الزهور تخفض رءوسها مثقلة بالندى، وبجوار السور تغـرق فى زهور متشابكة وتنظر تحت رجليها وترى.

جثة امرأة مكومة هناك. نائمة على جنبها ووجهها منكفئ علـى الأرض. لا تستطيع ألميدا أن ترى وجهها. ولكن هناك ثديين عـاريين متدليين، وحلمة سمراء مشدودة مثل حلمة بقرة، وساقًا عارية وردفًا به أثر كدمة فى حجم قرص دوار الشمس. أما الجلد الذى خلا من آثـار الكدمات فلونه ضارب إلى الرمادى، أشبه بلون نقارة الطبل المقتلعـة توا. ترتدى ثياب نوم، أو ثيابا لكل الأغراض وتفوح منها رائحة قـىء وبول وشراب.

وتعدو ألميدا في قميص نومها ومئزرها الرقيق. تجتاز الفراندا وأشجار التفاح، وتفتح الباب الأمامي وتسرع خلال شارع دوفرين إلى منزل جارفيز بولتر، أقرب المنازل إليها. تضرب الباب بكف يدها مرات عدة.

وعندما يظهر جارفيز في النهاية تقول له:

- جثة سيدة.

كان في بنطاله الداكن المشدود بحمالتين، وقميصه المزرر نصفه ووجهه غير الحليق وشعره المنكوش.

- سيد بولتر، سامحني. هناك جثة سيدة أمام بوابتي الخلفية.

ويرميها بنظرة عنيفة وهو يقول:

- ميتة؟

أنفاسه رطبة. وجهه متجعد. عيناه محتقنتان بالدم. وتجيب ألميدا:

- نعم. أظن أنها ماتت مقتولة.

تلمح جزءا من الصالة الأمامية الكئيبة. قبعته معلقة على مقعد. ثم تضيف وهي تجتهد لتجعل صوتها خفيضًا مفهومًا:

- استيقظت في الليل على أصوات لغط وجلبة في شارع بيرل. سمعت اثنين. رجلا وسيدة يتشاجران.

ويلتقط قبعته ويضعها على رأسه. ويغلق الباب الأمامى، ويضع المفتاح فى جيبه، ويسيران على الممشى الخشبى وتلاحظ أنها حافية القدمين. وينتابها إحساس بأن هناك من سيلقى عليها ببعض المسئولية. كان يمكن أن تخرج بفانوس. كان يمكن أن تصرخ، ولكن من كان فى حاجة إلى مزيد من الصراخ؟ كان يمكن أن تضرب الرجل على رأسه. كان يمكن أن تسرع فى طلب النجدة، ساعتها وليس الآن. ويتجهان إلى شارع بيرل بدلا من دخول فناء روث. كانت الجثة بطبيعة الحال منكفئة على وجهها شبه عارية كما رأتها فى البداية.

جارفيز بولتر لا يسرع ولا يتردد. يتجه إلى الجثة مباشرة. ويمعن فيها النظر، ويمس الساق بمقدم حذائه مثلما تمس كلبًا أو خنزيرًا. لكزها مرة أخرى وهو ينادى فى جرأة ودون أن يرفع صوته: أنت.

وألميدا تحس بطعم الصفراء فى أسفل حلقها.

"حية!" يقول جارفيز بولتر. وتؤكد المرأة استنتاجه. إنها تتحرك حركة خفيفة. ويصدر منها شخير واهن.

تقول ألميدا: "سأحضر الطبيب". ولو أنها لمست المرأة. لو أنها وجدت الجرأة على لمسها، لما قالت ذلك.

قال جارفيز بولتر: انتظرى، لنرى إذا ما كان يمكن أن تنهض.

وهتف بالمرأة: قومى الآن، هلمى! انهضى الآن!

ويحدث شيء مذهل. الجثة تقوم على أربع. ترفع الـرأس أولا. الشعر كله ملطخ بالدم والقيء، وتبدأ المرأة فى ضرب رأسـها بعنـف على أوتاد سور ألميدا، ويخرج صوتها أثناء ذلك، ويصدر منها صراخ ملء الفم مثل العواء. صراخ قوى يشى بشيء من بهجة مكروبة.

ويقول جارفيز بولتر: أبعد ما تكون عن الموت. لا تحتاج حتى لطبيب.

وتقول ألميدا حين رفعت المرأة رأسها الملطخ:

- يوجد دم!

ويقول:

- الدم من فمها وليس جديدا.

ويقترب منها ويمسك شعرها البشع الغريـب، ويجـذبها بقـوة ليمنعها من ضرب نفسها فى الجدار وهو يقول:

- كفى عن هذا الآن، كفى. اذهبى لبيتك. اذهبى لبيتك الآن! من أين أنت؟

ويتوقف الصوت القادم من فم المرأة. ويهز رأسها برفق محذرًا إياها قبل أن يترك شعرها.

- اذهبى إلى بيتك الآن!

وبعد أن يتركها تندفع المرأة للأمام بشدة. وتنهض على قدميها،

وتشير وتترنح وتتعثر فى مشيها فى الشارع، وتصدر منها أصوات احتجاج متقطعة حذرة. ويتبعها جارفيز بولتر بنظراته برهة ليتأكد من أنها فى طريقها إلى بيتها. ثم يجد ورقة أرقطيون يمسح بها يده ويقول:

- ها هى جثتك تسير على قدمين!

كان الباب الخلفى مغلقًا. اتجه إلى الباب الأمامى الذى يظل مفتوحًا. ما زالت ألميدا تحس بالتعب. بطنها منتفخ وحرارتها مرتفعة وتحس بدوخة.

تقول بصوت ضعيف:

- الباب الأمامى مغلق. لقد خرجت من المطبخ.

لو تركها الآن لشأنها لذهبت إلى الحمام مباشرة. ولكنه يتبعها حتى الباب الخلفى والصالة. يتحدث إليها بلهجة قاسية لم تعرفها منه من قبل. يقول:

- لم يكن هناك داع لكل هذا القلق. هذه المرأة كانت ثملة. سيدة بنت ناس لا ينبغى أن تعيش بمفردها وسط جيران كهؤلاء.

ويمسك بذراعها فوق المرفق بقليل. ولا تستطيع أن تفتح فمها لتكلمه، لتشكره. فلو فتحت فمها لتقيأت.

ما يحس به جارفيز بولتر نحو ألميدا فى تلك اللحظة هو ما لم يحس به فى السابق خلال التمشيات الحذرة وخلال كل حساباته فى عزلته. قيمتها التى لا خلاف عليها، وجدارتها بالاحترام لا شك فيها،

وجمالها مقبول. لم يتخيلها زوجة من قبل كما يتخيلها الآن. أثاره شعرها المرسل الذى شاب قبل الأوان، ولكنه كثيف ناعم على أية حال. وجهها مخضب بحمرة خجل غامضة. ثيابها الخفيفة التى لم يكن ينبغى أن يراها بها أحد غير زوجها. طيشها وتسرعها وطيبتها... وحاجتها؟ يقول لها:

- سأزورك فيما بعد. سأذهب معك إلى الكنيسة.

عند ملتقى شارع بيرل بدوفرين صباح الأحد الفائت عثرت سيدة من سكان الحى على جثة امرأة من قاطنى شارع بيرل ظنت أنها ميتة. ولم تكن، كما تبين فيما بعد، إلا ثملة. ولم تستيقظ من نعيمها – أو قل سباتها – إلا بجهد السيد بولتر الحثيث وهو من قاطنى الشارع، ومحام مدنى معروف كانت السيدة قد استدعته. ذلك النوع من الحوادث غير اللائق والمزعج والشائن لمدينتنا أصبح فى الآونة الأخيرة كثير الوقوع.

## V

أجلس فى أعماق النوم،

وكأنى فى قعر البحر.

وأناس من سكان القاع

تحيينى بكرم زائد.

وما ذهب جارفيز بولتر وسمعت بابها الأمامى يوصد حتى

هرعت ألميدا إلى الحمام. ولكنها لم ترتح تماما. وتدرك أن تـراكم دم الحيض الذى لم يبدأ فى التدفق هو السبب فى انتفاخ بطنها والألم الذى تحس به. وتغلق الباب الخلفى بالقفل. ثم، وهى تتذكر كلمات جـارفيز بولتر عن الذهاب إلى الكنيسة، تترك له ورقة كتبت عليها: لست على ما يرام، وأرغب فى الراحة اليوم. وتثبت الورقة فى الإطار الخارجى للنافذة الصغيرة للباب الأمامى. وتغلق الباب بالقفل أيضًا. إنها ترتعش وكأنها تعانى صدمة عصبية أو خطرًا داهمًا. ولكنها تشعل النار لتصنع لنفسها كوبًا من الشاى. تغلى الماء وتضع أوراق الشاى فـى الإبريـق الكبير. بخار الشاى ورائحته يزيدان مرضها. وتصب كوبا من الـشاى الباهت لتشربه دون أن ترفع ستارة المطبخ. هناك على الأرض كـان كيس الجبن ما زال معلقا بين ظهرى المقعدين. وعصير العنـب قـد صبغ القماش المنتفخ بلون الورد الداكن. ألقت بـه فـى الحـوض. لا تستطيع أن تجلس وتنتظر شيئًا كهذا. وتشرب كأسها. وتـضع البـراد وزجاجة الدواء فى حجرة الطعام.

ولم تزل هناك حتى سمعت وقع حوافر الخيـل الذاهبـة إلـى الكنيسة مثيرة سحابات من التراب تسخن تـراب الطريق فيصبح مثـل تراب البراكين. وهى فى الفراندا يتناهى إلى مسمعيها صـوت البـاب يفتح ووقع خطوات واثقة لرجل. كأنها تسمع الورقة وهو ينزعها مـن النافذة، ويفردها ويقرأها. وكأنها تسمع رنين الكلمات فى عقله. ثم تأخذ الخطوات طريقًا آخر. ينزل الدرج ويغلق الباب. تقفـز إلـى ذهنهـا صورة الضريح. تجعلها تضحك. أضرحة تسير فى الـشارع بأقـدام

تنتعل الأحذية، وأجساد طويلة تميل للأمام. على سحنهم القاسية علامات استغراق. أجراس الكنيسة تقرع.

الساعة فى الصالة تدق معلنة الثانية عشرة. مضت ساعة. المنزل يتقد بالحر. تشرب كوبًا آخر من الشاى تضيف إليه قطرات من الدواء. تعرف أن الدواء يؤثر على قوتها. إنه المسئول عن كسلها الغريب، ولكنه ضرورى.

أشياؤها التى تحيط بها، فى حجرة الطعام فقط، جدران مغطاة بورق حائط أخضر غامق مزين بأكاليل الزهور، ستائر منقوشة بخطوط ملونة، ومنضدة عليها مفرش من الكروشيه، وسلطانية تمتلئ بالفاكهة الشمعية، وسجادة رمادية ضاربة إلى اللون القرمزى عليها نقوش باقات من زهور زرقاء وقرنفلية غامقة، وخوان مبسوط عليه أغطية مزخرفة وأطباق وأباريق، وأكواب شاى عليها زخارف شتى. أشياء كثيرة تراها. كل هذه الزخارف تبدو زاخرة بالحياة، على أهبة التحرك والتدفق والتغير، أو ربما الانفجار. كل شغل ألميدا الشاغل طوال اليوم هو أن تتأمل هذه الزخارف. لا لكى تمنع تغيرها بقدر ما كانت ترصده وتفهمه وتكون جزءًا منه. لا تحرك شيئًا مما فى هذه الحجرة.

وبالطبع لا طاقة لألميدا على الهرب من الكلمات. ربما تظن أنها تستطيع أحيانًا، ولكن هذا لا يحدث. ذلك التوقد لا يلبث أن يدفع بالكلمات فى ذهنها للخروج. قصائد. أجل، مرة أخرى قصائد تتضاءل

أمامها كل القصائد التي كتبتها في السابق. تصبح مجرد محاولة وخطأ، أسمالا بالية. النجوم والطيور والأشجار والملائكة على الثلج والأطفال الذين ماتوا في الغسق. كل هذا لا داعي لوصفه مرة أخرى. عليك الآن بالصخب الفاحش في شارع بيرل، ومقدم الحذاء اللامع الذي يرتديه جارفيز بولتر، وردف المرأة الأملس بالكدمات عليه أشبه بزهور زرقاء غامقة. ألميدا الآن على مبعدة من العواطف الإنسانية أو المخاوف أو اعتبارات الأسرة الحميمة. لا تفكر فيما يمكن عمله لتلك المرأة، أو في حفظ عشاء جارفيز بولتر ساخناً، أو نشر ملابسه على حبل الغسيل. فاض عصير العنب وجرى على أرض المطبخ يلطخ الألواح الخشبية ببقع لن تزول.

عليها أن تفكر في عدة أمور في وقت واحد. الشرائط المعدنية التي تفصل بين النقوش، الهنود العرايا، والملح في أعماق الأرض، والمال الذي يجلبه الملح، والسعي لجمع المال الذي تتقنه رءوس مثل رأس جارفيز بولتر، والعواصف القاسية في الشتاء، والأفعال الخرقاء في شارع بيرل. وعندما تفكر في تقلبات الطقس العنيفة فلا سلام حتى بين النجوم. يمكن احتمال كل هذه الأشياء إذا نظمناها في قصيدة. ونظمناها هي الكلمة المناسبة. لأن القصيدة سيكون عنوانها، أو هو عنوانها في الواقع: "منستيونغ". اسم القصيدة هو اسم النهر. كلا، إنها النهر نفسه: "المنستيونغ". ذلك هو اسم القصيدة، بكل حفره العميقة وأحواضه الهادئة تحت أشجار الصيف البهيجة وكتل الثلج المطروحة

عقب الشتاء، تحدث صريرًا أثناء الحركة، وفيضاناته الربيعية الكئيبة. ألميدا تمعن النظر في قاع نهر عقلها. وعلى مفرش المائدة زهور الكروشيه الطافية، تبدو ناتئة بلهاء، تبعث على الضحك. الورود التي نسجتها أمها يوما لا تبدو مثل الورود الحقيقية. ولكن الجمال كامن في الجهد المبذول، واستقلالها الزائف، والرضا بنفوسها البسيطة. علامة مفعمة بالأمل. منستيونغ.

وتلزم ألميدا الحجرة حتى الغسق عندما تذهب إلى الحمام وتكتشف أنها تنزف. الدم بدأ يتدفق. تناولت فوطة وشدتها حول بطنها كنطاق. لم يحدث من قبل، أيام صحتها، أن قضت الليل في ثياب النوم. لا تحس بقلق خاص بسبب ذلك. في طريقها إلى المطبخ عبر عصير العنب المسكوب. تعرف أنه سيكون عليها أن تزيل البقع. ولكن ليس بعد. ترتقي الدرج إلى الطابق الثاني مخلفة آثار أقدام وردية. تشم رائحة دمها الهارب وعرق جسدها الذي مكث طوال النهار في الحجرة المغلقة المتقدة.

لا داعي للقلق.

لأنها لم تظن أن الزهور المنسوجة يمكن أن تطفو بعيدًا، وأن شواهد الأضرحة يمكن أن تسير في الشوارع. لم تحسب أن ذلك كان الحقيقة، وأن أي شيء آخر كان المجاز، وبذلك كانت تعرف سلامة عقلها.

VI

أحلم بكم كلما أقبل الليل،

وأزوركم حين يأتى النهار.

أبى، أمى،

أخى، أختى،

لم لا تجيبون ندائى؟

٢٢ أبريل ١٩٠٣. فى مسكنها يوم الثلاثاء الفائت بين الثالثة والرابعة بعد الظهر رحلت عن دنيانا سيدة ذات موهبة وخلق حسن. أثرى قلمها فى الأيام الخوالى أدبنا الإقليمى بسفر من الشعر البليغ العذب. وإنها لبلية كبيرة أن يصبح عقل هذه السيدة المهذبة موضع ريبة فى السنوات الأخيرة، وسلوكها، نتيجة لذلك مندفعا خارجا عن المألوف حتى نال من مسلكها وعنايتها بتهذيب شخصها فأصبحت فى نظر الغافلين الذين لا يعرفون قيمتها وأناقتها السابقة، غريبة الأطوار أو موضع سخرية على نحو محزن. ولكن هذه الهنات قد نسيت الآن ولا يذكر لها غير شعرها الممتاز وخدماتها الماضية فى مدرسة الأحد، واهتماماتها الخيرية وعقيدتها الدينية الراسخة. كان مرضها الأخير قصير المدى من رحمة الله. أصيبت بالبرد بعد أن غمرها الماء أثناء جولة فى شارع بيرل. (قيل إن بعض الصبية الأشرار طاردوها فى

المياه، وهذه نتيجة وقاحة وقسوة بعض شبابنا الصغار، واضطهادهم المتعمد لتلك السيدة لدرجة أن السامع لا يمكن أن يكذب الحكاية برمتها)، وتطور البرد إلى التهاب فى الرئة توفيت على أثره تحت سمع وبصر إحدى جاراتها المسز بيرت آنى فرايلز التى شهدت نهايتها الهادئة المحزنة.

يناير ١٩٠٤. أحد مؤسسى مجتمعنا، أحد صناع مدينتنا وباعثى نهضتها، رحل فجأة عن دنيانا صباح الاثنين الفائت بينما كان منكبا على قراءة بريده فى مكتبه بالشركة. السيد جارفيز بولتر الذى كان يتمتع بموهبة تجارية قوية ونشاط ملحوظ مما مكنه من إنشاء عدة مشاريع تجارية محلية جلبت فوائد الصناعة والإنتاج والتوظيف لمدينتنا.

بحثت عن ألميدا روث فى المقابر. وجدت الضريح الخاص بالأسرة. لم يكن هناك غير اسم واحد مكتوب عليه روث. ثم تنبهت لوجود شاهدين على الأرض، على مسافة بضعة أقدام أو ستة أقدام من الشاهد القائم كتب على أحدهما كلمة "بابا" وعلى الآخر كلمة "ماما". وعلى مبعدة من هذين الشاهدين وجدت شاهدين آخرين على الأرض أيضًا. عليهما أسماء وليام وكاثرين، وكان علىَّ أن أزيح ما تراكم عليهما من حشائش نامية وقذارة لأرى الاسم الكامل لكاثرين. لا وجود لتواريخ ميلاد أو وفاة. لا وجود لعبارات ثناء أو رثاء. لون فريد من إحياء الذكرى لا يأبه بهذا العالم. لا وجود لورود ولا وجود حتى

لعلامات على شجيرات وورود ربما اقتلعت، اقتلعها الحارس لأنه لا يحب هذه الأشياء... لم يجد من يعترضه فاقتلعها.

اعتقدت أن ألميدا دفنت فى مكان آخر. عندما تم شراء هذه البقعة، عند موت الطفلين، كان يعتقد أنها سوف تعيش وتتزوج وترقد فى النهاية بجوار زوجها. لم يعملوا حسابها فى مكان بينهم. ثم لاحظت أن الشواهد التى كانت ملقاة على الأرض إنما سقطت من الشاهد القائم. شاهدان للأبوين وشاهدان للصبيين، ولكن الشاهدين الآخرين وضعا بطريقة تسمح لثالث بينهما لتكملة المروحة. خطوت من شاهد كاثرين عدد الخطوات نفسه حتى أصل من كاثرين إلى وليام. وعند تلك البقعة رحت أجذب العشب وأزيل القذارة بيدى العاريتين. وما مضت برهة حتى أحسست بالشاهد وأدركت أنى كنت على حق. اجتهدت فى الوصول إلى الشاهد كله نظيفًا وقرأت الاسم: "ميدا". كان مع الآخرين يتطلع للسماء. تأكدت من وصولى إلى نهاية الحجر. كان ذلك كل ما كتبته من الاسم؛ ميدا. إذن كان اسمها ميدا فى الأسرة، وليس فى القصيدة فقط. أو لعلها اختارت اسمها من القصيدة ليكتب على ضريحها.

كنت أظن أن أحدًا لا يعلم ذلك غيرى من بين الأحياء جميعًا، وأن أحدًا لن يستطيع الوصول إلى هذا التسلسل فى الأحداث فى المستقبل إلاى. ولكن الأمر ليس كذلك. فالناس مجبولون على حب المعرفة. أو قل فئة منهم. سيجدون الدوافع دائمًا لاكتشاف الأشياء.

حتى الأشياء التافهة. سوف يضعون الشيء جنب الشيء. ويعرفون أنهم ربما أخطأوا فى البداية. ألا تراهم يتجولون يحملون كراسات ويزيلون الأتربة من فوق الأضرحة، ويقرعون أفلاما، لا هم لهم غير وضوح الرؤية، والعثور على الأسباب، وإنقاذ شئ، ولو شيء واحد فحسب، من أنقاض الذكرى.

## في الغسق (١٩٩٤)

**أليس إليوت دارك**

هم ابنها بالحديث مرة أخرى.. فجأة. في النهار كان يجلس في سكينة ويطيل التفكير، مقطب الجبين عند حمام السباحة، من موقعه على الكرسي المتحرك الذى كان يجلس عليه، تغطيه البطانيات بالرغم من حر الصيف. في أوقات المساء، رغم ذلك، كان ليرد يعود إلى طبيعته القديمة - طبيعته القديمة... القديمة جدا. كان يصبح أكثر عذوبة ولطفا، أشبه بأيام طفولته الباكرة، قبل أن يبدأ في حجب نفسه وراء طبقات من الدعابة والتعليقات الساخرة. تكلم بصراحة أذهلتها. لا تعرف أحذا تحدث بتلك الدرجة من الصراحة.. رجلاً على الأقل. بعد أن كان يخلد إلى النوم، كانت جانيت تعود بذاكرتها إلى الحوارات التى دارت بينهما، عندئذ كانت تدرك ما كانت تتمنى أن تقول. كانت تعرف أنه كان يعتقد بصراحتها، ولكن ذلك كان يرجع لكونها مستمعة جيدة أكثر منه بسبب حديثها. كانت ملازمته عملاً شاقا، بيد أنه العمل الذى وقفت نفسها عليه طوال حياتها.

قبل شهر، بعد زيارة طويلة ومرهقة للغاية من جانب صديق

كان قد جاء بالقطار من نيويورك، أعلن ليرد بدء سياسة جديدة: لا زيارات ولا تليفونات. لم تلمه. فمن لم يره منذ فترة كان يصدمه المشهد حتى البكاء. بدلا من أن يجد من يشيع الأمل في نفسه، كان يضطر إلى تهدئة الناس. لقد استرقت السمع لقليل من تلك المقابلات. لم تكن أخراها أسوأ مما سبقها. ولكنه كان قد شبع. سئم. قال أكثر من مرة إنه لم يخلق ليكون أشجع رجل في العالم، وإنه ليس مضطرا إلى أن يجعل كل من يزوره يخرج من عنده أفضل حالاً، أو يهز راسه عجبًا. كان يحب أن يتذكر أنه كان أكثر الشباب وسامة. يأخذه الحنين. عندما كان الكيل يفيض كان يتراجع داخل ذاته، يفرض ذلك على نفسه فرضًا، تراجعًا كاملاً مع جدار سميك من الصمت وممارسات أخرى كانت تشغل وقته لأسابيع عدة.

بدأ ذلك في الليلة التي تناولوا فيها الغداء في الشرفة لأول مرة منذ بداية الصيف. يومها قام مارتن – أبو ليرد – ليتحدث في التليفون، ولكن جانيت بقيت في مقعدها المصنوع من الخيزران المجدول، تأخذ قسطًا من الراحة قبل أن تشرع في تنظيف المائدة. كانت لحظة من تلك اللحظات التي أحست فيها بحنين للسجائر. في ليال كتلك في الماضي، عندما كان الهواء يذعن للسكون، كانت تسلي طفليها بإطلاق دوائرها الدخانية في الهواء نزولا عند أوامرهما. كانت تطلق الدائرة تلو الأخرى، أو تطلق ثلاث دوائر حبلية كبيرة في طابور واحد يتمدد في هيامه في الأعالي. كانت تفعل ما كانا يطلبان. كانا يلحان عليها في

الطلب إلى أن تأتي أحيانًا على ربع علبة السجائر قبل أن يسمحا لهـا بالتوقف. والعجب أن آن وليرد لم يصبحا من المدخنين. بالعكس كانـا يلحان عليها بالإقلاع عن التدخين، وكانا سعيدين عنـدما أقلعـت فـي النهاية. كانت تريد أن يشعرا على الأقـل بالـضيق لأن جـزءا مـن طفولتهما قد ولى، رغم كل شيء.

بوحي من العادة المتأصلة راحت تراقب أول نجمة تعلـن عـن ظهورها. كان الظلام يغشى المرجة، وأطلقت شذاها الأزهـار التـي ظلت طوال النهار عابسة بسبب القيظ. أسندت رأسها على حافة المقعد وأغلقت عينيها. ولم تلبث أن بدأت تتسمع أنفاس ليرد، وجدت نفـسها تلتقط الإيقاعات الأساسية، الأنفاس وحدها. جل رضاها أن تكون قريبة منه على ذلك النحو. كم أم أنفقت تلك الساعات الطوال مع ابنها الـذي أكمل السنة الثالثة بعد الثلاثين من عمره؟ سألت نفسها. في قلبها منـه أكثر مما كان فيه عندما كان طفلا رضيعًا، أو أكثر، لأنها تملك ذكرى السنين الواقعة بين الفترتين مما يجعله مدار فكرها في اليقظة والمنـام. عندما كانا يخلوان كل إلى الآخر كانت تحس بقربها منه كما لم تحـس به من قبل. كأنه لم يزل هناك، داخلها، داخل القوقعة الضعيفة. تحـس بمتعة وجوده داخلها.. في بطنها.

"الغسق" قال فجأة.

أومأت برأسها إيماءة حالمة، آلية، ثـم اعتـدلت فـي جلـستها واستدارت نحوه وسألته: "ماذا قلت؟" رغم أنها كانت قد سمعته.

"أتذكرين عندما كنت صغيراً، أخذتِ بيدى إلى الشرفة، وقلتِ إن هذا الوقت من النهار كانوا يسمونه الغسق The gloaming في اسكوتلاندا".

استشعرت وخزاً خفيفاً في جلدها. تنحنحت، في هدوء، وحرصت على ألا تجعل من مناسبة عودته إلى الحديث معها مرة أخرى أمراً خارجاً عن المألوف. "كنت تظنين أنى قلت: حزين gloomy".

انفرجت أساريره بابتسامة، ثم رماها بنظرة فاحصة.

"كنت دائماً أعتقد أن انقضاء النهار يؤلمك بعض الشيء، ولكنك قلت إنه كان وقتاً جميلاً، لأنه فى لحظات قلائل يجعل اللون الأرجوانى الدنيا تبدو أشبه بمرتفعات سكوتلندا في ليالي الصيف".

"أجل، وكما لو كانت الأرض قد اكتست بالخلنج".

"أنا حزين لأنى لم أر اسكوتلندا".

"أنت اسكوتلندى على أية حال، على الأقل من ناحيتى".

تذكرت أنها عرضت عليه أن تصحبه إلى سكوتلندا في يوم من الأيام، ولكن ليرد لم يكن مهتما. في ذلك الوقت كان لم يزل طالبا جامعيا وواثقاً من غاياته وتوجهاته التى كانت مختلفة تماماً عن غاياتها هى.

"يدهشنى أنك تتذكر تلك المحادثة. لا يمكن أن تكون وقتها أكثر من سبع سنوات".

"إنى أتذكر الكثير فى الفترة الأخيرة".

"صحيح؟".

"أغلب ما أتذكره حول الفترة التى كنت فيها صغيرًا. أعتقد أن ذلك لأنك أصبحت تهتمين بى مرة أخرى. أحيانًا عندما أستيقظ وأرى وجهك، أحس أننى أستطيع أن أتذكرك وأنت تنظرين إلى عندما كنت فى المهد، أتذكر فساتينك".

"أوه، لا". وضحكت ضحكة خفيفة.

"كنت دائمًا فى أحلى هيئة".

كانت مذهولة... فوجئت... ثم تذكرت أيضًا عندما كانت تميل على مهد ليرد وتتذكر فجأة طفولتها فى المهد وهى تتطلع إلى أمها هى. "أعرف ماذا تقصد".

"فهمت؟ صح؟".

رماها بنظرة فاحصة حميمة جعلتها تنتبه لنفسها. تنبهت إلى أنها كانت تؤرجح ساقها بعصبية مثل رقاص الساعة.. وتوقفت. قال: "أمى، لا تزال هناك أشياء قليلة أريد أن أفعلها. يجب أن أكتب وصيتى، من أجل شىء واحد لاغير".

غاص قلبها. كانت فى حضوره تؤكد دائمًا، وبإيراد الدليل، على أنه سوف يتحسن. لم تكن تظن أن يأتى الوقت الذى تتحدث فيه عن الوجه الآخر. قال:

"شكرا"

"على ماذا؟"

"لأنك لم تقولى إن هناك فسحة من الوقت لمثل هذه الأمور، أو أية فكرة عاطفية أخرى".

"السبب الوحيد فى أنى لم اقل ذلك هو أنى أردت أن أتجنب الكلام المعاد، وليس لأنى أومن بما تقول".

"أو تظنين أن هناك فسحة من الوقت؟"

لاحظ ترددها. مال قليلاً للأمام. قالت: "أعتقد أن هناك متسعًا".

"حتى لو كنت فى صحة جيدة، فإنها فكرة جيدة".

"وأنا أعتقد ذلك".

"لا أريد أن أدعها إلى أن يفوت الوقت. إنك لا ترغبين فى أن أترك كل شيء فجأة للممرضات، أليس كذلك؟".

ضحكت، سعيدة لأنه يمازحها مرة أخرى. "حسنًا، حسنًا، سأتصل بالمحامى".

"عظيم". توقفا برهة ثم عاد يقول: "ألا يزال هذا الوقت من النهار هو الأفضل فى نظرك يا أمى؟".

قالت: "أجل، أظن أنه كذلك، رغم أنى لم أعد أومن بلغة الأفضل وغير الأفضل".

"لا يهم الأفضل وغير الأفضل إذن، ما الشيء الآخر الذى تحبينه؟"

سألته: "ماذا تقصد؟"

"أقصد ما قلت بالضبط".

"لا أدرى، أهتم بجميع الأمور العادية. أنت تعلم ماذا أحب".

"اذكرى شيئًا واحدًا".

"أحس بالحرج".

"أرجوك".

"حسنًا، أحب قطعة الأرض التى أملكها، المزروعة بأزهار السوسن هناك فى الوادى تحت الأشجار. الآن، هل نغير الموضوع؟".

"اذكرى شيئًا آخر".

"لماذا؟".

"أريد أن أعرفك".

"أوه، ليرد، ليس هناك ما لا تعرفه".

"لا أصدق ذلك".

"لكنها الحقيقة، الشيء الوحيد الرائع فى حياتى هو أولادى".

قال: "حسنًا، فلنتحدث عن شعورك نحوى".

"هل تغازل ممرضاتك على هذا النحو عندما أكون بعيدًا؟".

"لا أجرؤ، إنهن يجدننى حيث يتركننى". نظر إليها وقال: "أنت تغيرين الموضوع الآن".

مسحت بباطن يدها على تنورتها فى لطف وقالت: "أعرف شعورك تجاه الكنيسة، ولكن إذا أردت الحديث فأنا متأكدة أن القس سيكون سعيدًا حين يأتى إلى هنا. أم أنك تفضل الطبيب؟".

ضحك.

"فيم تضحك؟".

"لأنك ما زلت تسمين الأخصائيين النفسيين أطباء حقا".

هزت كتفيها علامة على اللامبالاة.

"لا أريد أخصائيين يا أمي". عقد على يديه وشد عليهما بينما كان يجتهد فى البحث عن الكلمات. سألته: "ماذا يمكن أن أفعل؟".

تقابلت عيناهما: "أنت من جئت بى إلى هذه الدنيا، أريد أن أعرف عنك الكثير".

ظلت مؤرقة تلك الليلة، تفكر فى طريقة لمساعدته فى شىء تقدمه بالإضافة إلى وقتها. لم تجد شيئًا.

فى اليوم التالى كانت قلقة عندما وجدته حرونًا متجهم الوجه

مرة أخرى، ولكن فى الليلة التالية، وفى كل ليلة بعد ذلك، كان للغسق سحره. كانت تعد مائدة العشاء فى الهواء الطلق. بعدئذ، عندما كان مارتن يغيب فى أعماق مكتبه، تبدأ هى وليرد فى الحديث. كان الهواء حولهما يفيض بالطاقة التى كانا يشحذانها فى سعيهما ليعرف كل منهما الآخر، سألت نفسها، لم يحدث أن اقتربت على هذا النحو من أحد. الواقع أن الصلة الحميمة لم تكن ديدن علاقتها مع مارتن، بعيدة عن كونها علاقة روحية. لم تكن تأبه بإخلاص أصدقائها أو عدمه. لم تكن تعول عليهم كثيرًا. كانت دائمًا تجد من الأسباب ما يصرفهم عنها. وكان فى وسع أصدقائها أن يختاروا مقاطعتها. وكان فى وسع مارتن أن يطلب الطلاق. بينما كان ليرد مشاهدًا مقيدًا. الأبوان والأبناء مشاهدون يلزم بعضهم بعضًا دائمًا، مشدود كل إلى الآخر بحبل متين. لذا كان يدهشها أن يكون فهم كل للآخر فهما قاصرًا. توقف الجميع عن الاهتمام بالمعرفة فى وقت مبكر، وهم يعتقدون أنهم فهموا كل شئ. كانت تقر بذنبها، شأنها فى ذلك شأن الآخرين. كانت لم تزل تتملكها الدهشة كلما ذهبت إلى بيت ابنتها وترى كيف أصبحت منظمة ومرتبة. فقد كانت آن فى نظرها لم تزل مراهقة مهملة، تلقى بملابسها فى أى ركن من دولابها، وأغلفة الحلوى تحت سريرها. الذى يدهشها أيضًا أن ليرد لم يكن يهتم بالجنس اللطيف. هل كان يهتم فى الماضى؟ تذكرت كيف كانت تبقى ساهرة تتنصت لوقع أقدامه عائدًا إلى البيت، متمنية أن يكون من الحرص بحيث يستفيد من كل ما تعلمه عن حقائق الحياة، أن يأخذ احتياطاته.

لديها الآن فرصة للتخلص من كل الأفكار القديمة. ليس لأنها كانت تحب كل ما يتعلق بليرد – فالكثير ظل غريبًا عنها – ولكنها أرادت أن تعرف كل شئ. بيد أنها كانت تعود إلى وعيها بعد أن تستيقظ تواقة إليه، تواقة لحبه وافتتانه بها. وكأنه ارتد مخلوقًا ضعيفًا حديث العهد بالدنيا، وتتطلع من ثم لليوم الذى تراه فيه يكبر أمامها شيئًا فشيئًا. لم تلبث أن أصبحت تتحرق شوقًا لتلك الأمسيات. استبدلت بالوقت الذى تقرأ فيه الطالع من أجل النذر اليسير من الأمل والطرافة، عادة استحدثتها فى مراقبة الوقت الذى يجئ بالغسق. تحس بالرضا من قدومه أبكر فيما الصيف يقصر. ذلك يعنى أنها لن تضطر إلى الانتظار طويلاً. اعتادت على النوم المتأخر إمعانا فى تقصير النهار. كان الأمر سخيفًا، كانت تعلم. كانت تتصرف – مثل فتاة عاشقة – بقلة عقل. إحساس تعتقد أنها لن تجربه مرة أخرى، هاهو ذا الآن. أغرقت نفسها فيه، تعيش حياتها انتظارًا للحظة الغروب. عندئذ تبدأ عيناه فى التألق علامة على يقظة وعيه. عندئذ كان يومها يبدأ حقا.

ذات ليلة قال: "أبى اختفى بسرعة". كانت تسأل نفسها كثيرًا متى سيذكر أباه. قالت بطريقة آلية: ذهب ليتكلم فى التليفون.

خصها ليرد بنظرة فى عينيها مباشرة. تنم تعبيرات وجهه عن لوم مهذب. كان يريد أن يضبطها متلبسة بأكبر كذبة فى حياتها، ظن أنها كانت تفهم غرام مارتن بعمله. حولت بصرها بعيدًا عنه. الواقع أنها لم تفهم ذلك البتة. لماذا كان يضن عليها بالجلوس معها نصف

ساعة بعد العشاء أو الغداء؟ إذا لم يكن معها، فعلى الأقل مع ابنه الذى يحتضر.

استدارت نحو ليرد بحدة. كلمة "يحتضر" تـــردد صـــداها فـــى أعماقها حتى إنها تساءلت إذا كانت قد نطقتها فعلاً، ولكنه لم يبد أى رد فعل. تمنت ألا تخطر هذه الكلمة لها على بال. تحاول التعلق بالنيـــات الحسنة فى حضوره. عندما لم تستطع، كانت تلوم نفسها، ففى وســـعها أن تستعرض بذاكرتها القوية كل الكتب والمقالات التـــى قرأتهـــا فـــى المجلات التى تؤكد على أثر العوامل النفسية فى مسيرة المرض. لـــم تكن تصدق كل شىء، بيد أنها تحس بضرورة إعطاء الفرصـــة لكـــل النظريات التى يرجى منها النفع. والتفكير الإيجابى لن يضر. لعل ذلك من شأنه أن يطيل فى عمره بضعة أشهر.

"لا أعتقد أن أبى يطيق البقاء بجوارى".

"ليس هذا صحيحًا". كان ذلك هو الواقع.

"مسكين أبى. كان دائمًا يعانى من وسواس المرض، نشترك أنا وهو فى هذا الأمر. لابد أنه لا يحب ذلك".

"هو يريدك أن تتحسن وحسب".

"إذا كان هذا ما يريده فأخشى أن أخيب أمله مرة أخرى. علـــى الأقل هذه آخر مرة أخذله فيها".

قال ذلك مازحًا، مع ذلك ظهر الضوء القديم المألوف المتألق فى

عينيه. سمحت لنفسها أن تضحك. كان يحب المزاح دائما، ولم ير قداسة فى شئ. وبوصفها صاحبة السلطة الفعلية فى البيت – لم يكن مارتن يقيم فى البيت الوقت الكافى حتى يتمكن من فرض النظام – كانت كثيرًا ما تضطر إلى تأنيب ليرد، وإن كانت، والحق يقال، تشاركه روح الدعابة. استجاب لها الساعة عندما مالت ناحيته لتصفعه على ذراعه. كانت استجابة عفوية مدفوعة بتفجر البهجة الذى لا يأبه بواقع الحال. وكانت غلطة إذ حتى من خلال ثيابه الوبرية فقد اصطدمت مفاصل أصابعها بعظم.

لم يتبق منه شيء.

قالت: "هو الخاسر على أية حال". فوجئت بنحافة ليرد مما أعاد إليها سمتها الجدى. ذلك أبعد ما كانت تذهب إليه فى انتقاد مارتن. كانت تتذكر دائمًا أن من واجبها أن تبقى على صورة مارتن طيبة أمام الأبناء. لقد أضحى شخصًا من ابتداعها، بسلسلة كاملة من العواطف والأحاسيس، كان وفقا لها يفتقدهم عندما يغيب فى رحلة عمل، ولا يفارقون فكره عندما تضطره الظروف إلى التأخر فى عمله خارج البيت. من بضع سنوات خلت اختلست زيارة إلى الطبيب النفسى، اقتنعت فى نهاية الأمر أن مارتن لم يكن ذلك الفارس الذى كانت تحلم به. كان رجلا مجبولا على منافسة الآخرين، رجلا تستغرقه شئونه الخاصة، ما كان له أن يتزوج من البداية.

كان مصدر ارتياحها أنها كانت قادرة على مواجهة الموقف

بعزم إلى درجة أنها أرادت أن يعرف أولادها كل شيء، لولا أنها خشيت أن يعرفوا أنهم كانوا يعولون على خرافة. وربما كرهوا عمله. وتخلت عن الموضوع.

"شكرًا يا أمي، إنه الخاسر من ناحيتك أيضًا".

تعلقت دمعة بأهداب عينيها. البكاء آخر شيء كانت تريد أن تفعله. ثمة فسحة من الوقت لهذا كله. "ليس الخطأ خطأه كله". قالت عندما استعادت قدرا من رباطة جأشها "لا أجيد الكلام عن نفسي. لقد نشأت على هذا".

قال: ولا أنا.

قالت: نعم، أعتقدْ ولاَ أنت.

"لحسن الحظ أنى لم آبه". قال مقطبًا.

"أتمنى ألا تهتم". قالت وهى تعنى ما تقول ثم أردفت: "هل أحضر لك شيئًا؟"

"جهاز مناعة جديد؟".

دحرجت عينيها محاولة أن تدارى وقع مزاحه على موضع أمانيها جميعًا "أنت مضحك جدا، كنت أفكر أكثر في اتجاه الشاى المثلج أو بطانية إضافية".

"أنا بخير، أحس ببعض التعب فحسب".

استيقظ جسدها كله. تفحصت وجهه باحثة عن شواهد على تدهور حالته. كان عصب ضرسها ينتصب ويخزها عندما كان يطلب شيئًا، يزيد لديها إفراز الأدرينالين، ينتابها إحساس جندي ليس أمامه إلا القتال أو الهرب. حدثتها نفسها كثيرًا بالهرب. اضطرت إلى البقاء، القتال بما لديها من أسلحة قليلة. استجابت لجميع احتياجاته. تأكدت من وجود ملاءات جديدة ونظيفة جاهزة إذا حل به التعب، ومن وجود طعام عندما كان يجوع. كان ذلك كل ما تستطيعه.

رجعت بمقعدها إلى الخلف بعيدًا عن المنضدة وقالت: "هل أستدعي لك الممرضة؟".

"نعم". قال ليرد بصوت واهن. مد لها يده. أضاءت جلده أضواء القمر الأولى فبدا في لون المرمر. علا وجهه شحوب كشحوب الموتى. أسلمها المشهد إلى حزن شديد. أسرعت في طلب ماجي، وعندما عادت كان ليرد قد أغلق عينيه، وتدلت رأسه على جانب من المنضدة. وعلى نحو تلقائي شرعت جانيت تبحث عن النبض في قلبه. ها هو! صدره يعلو وينخفض، كان لم يزل يتنفس. مرت ثانية، قبل أن ترى حركة صدره، تلوذ فيها بالصبر والهدوء بينما كانت تعد نفسها لذلك الاحتمال: اكتشاف موته.

وضعت ماجي أصابعها على رسغ يده تحصي نبضات قلبه على دقات الساعة في يده الأخرى. شفتاها ترتجفان. أعادت يده المتهالكة إلى حجره "سريع. لست مندهشة". قالت جانيت وهي تحاول أن تداري خوفها بالتظاهر برباطة الجأش "لقد تحدثنا طويلاً".

وقطبت ماجى جبينها وقالت: "الآن سأضطر إلى إيقاظه مرة أخرى ليأخذ أدويته. قالت الأم: "أجل، أعتقد أن هذا صحيح، لقد كنت نسيته".

ودفعته جانيت إلى حجرته البديلة فى الطابق الأسفل. ساعدت ماجى فى رفعه إلى السرير المستأجر من المستشفى. ورغم أنه لم يكن يزن شيئًا فى الواقع. فقد كان عملاً لا يقوم به إلا اثنان، كان وزنه وزن الميت. كانت تتظاهر أمام ماجى بقدرتها على تمالك نفسها، إلا أنها انزعجت عندما ضلت أصابعها ومست خد ليرد الشاحب، وخشيت أن تكون قد سببت له ضررًا.

ذات ليلة سألها: "من هو كاتبك المفضل؟".

قالت: "أوه، كثيرون جدًا".

"الذى لا تعدلين به أحدًا".

فكرت هنيهة وقالت: "الحق أن هناك بعض موضوعات تروق لى أكثر من كتاب بعينهم. أحب قراءة مجموعة من القصص والروايات التى تعالج موضوعًا واحدًا لكى أشبع توقًا عاطفيا".

"مثل ماذا؟".

"كتب حول الناس الذين ينزحون إلى إفريقيا أو أستراليا أو ما وراء البحار الجنوبية". ضحك وقال: "هذا واضح، وماذا أيضًا؟"

"عندما أكره الحياة حقا فإنى أجد متعة فى الكتب التى تتناول

جرائم القتل الحقيقية. كانوا يسمونها ذات يوم جـرائم واقعيـة. إنهـا تنطوى على قسوة واضحة".

"هل هذا ما يروق لك؟ لست مقتنعًا".

توقفت هنيهة ثم أردفت: "لا أحب القراءة فى كتب الجنس".

"مفاجأة كبيرة".

قالت: لا، لا، ليس للسبب الذى تظنه. أو قل لـيس فقـط لهـذا السبب الذى تظن: أنت ترانى امرأة محتشمة، أعرف، ولكن تـذكر أن ذلك جزء من وظيفة الأم. إنك يجب أن تجـدها علـى هـذا النحـو المحتشم، رغم أنى، ربما ذهبت بعيدًا بعض الشىء...

هز منكبيه فى ود: "مياه تحت الجسر. ولكن هات ما عندك فـى الجنس".

"أعتقد أنه يجب ألا يظهر للناس. أعتقد ان أولئك الكتاب يسعون للفت الانتباه عندما يصفون مشهدًا جنسيا. إنهـم لا يـصفون الجـنس الحقيقى، ولكنهم يريدون أن يثبتوا للناس أنهم لا يهابون الكتابـة فـى شيء. إنهم كمن يضعون أصابعهم فى فروج أمهاتهم".

أنتأ شفتيه استياء.

عادت جانيت تقول: "ألا تعتقد أن هناك شيئًا من الـصحة فيمـا أقول؟ إننى أتقصى دوافعهم لأنى لا أظن أن الجنس يمكن أن يوصف.

الإحساس والعواطف أشياء فوق اللغة. إلا إذا كنت تريد أن تصف الجانب التقنى منه. وتصبح النتيجة وصفا تحليليا علميا أو تصويرًا إباحيا. أما إذا سعيت لوصف الحميمية فسينتهى بك الأمر إلى أفكار مجردة. الجنس الوحيد القابل للوصف هو الجنس الردىء. ومن منا يريد أن يقرأ عن هذا النوع من الجنس إذا كان يمارسه فى بيته، صدقنى.

"أمى!"وضحك بإعياء. كان ذراعاه يتدليان بوهن على جانبى المقعد.

"إننى أعنى ما أقول. فى رأيى أنه أشبه بمن يقرأ فى دورة المياه."

قال: "كارثة!"

"الآن من فينا الذى يدعى الاحتشام؟"

"لم أقل أبدًا إنى كنت محتشمًا، ربما يجب أن نغير الموضوع".

ألقت نظرة خارج النافذة، على الناس والبيوت. كانت الأنوار تطل من داخل النوافذ مضفية على المساء جو الخريف المبكر. كانت الأوراق تتدلى فى حزن وقد أخذت لونًا مغايرًا أيضًا. جفت الأعشاب بالرغم من المياه التى تغمرها وعناية البستانى التى يوليها دون كلل. كان الصيف يوشك على الرحيل.

"لسنا مضطرين إلى تغييره. كنت دائمًا أسأل هل كنت أنت راضيًا عن هذا الجانب من الحياة؟"

"أمى، قولى إنك لا تسألينني الآن عن حياتى الجنسية".

تناولت فوطتها ووضعتها على حجرها فى تؤدة وطفقت تسوى حوافها وتمر بأصابعها عبر الأهداب. أحست أنها هادئة مستجمعة القوى كأنها استطاعت آخر الأمر أن تتحول إلى امرأة وقورة. لولبت أصابعها ووضعت يديها على حجرها. قالت:

"إنى أسألك عن حياتك العاطفية، هل أحببت أو كنت محبوبا؟"

"نعم".

"هذا يفرحنى".

قال: "لقد كان ذلك سهلاً".

"آه.. لقد تساهلت فى كبرى".

"وهل يعرف أبى ذلك؟". كانت عيناه تومضان فى خبث. قالت: "لا تكن مشاكسا".

"أنت البادئة".

"وأنا المنهية الآن".

استطاع أن يرسم علامات المزاح على وجهه، ولم يلبث أن حولها إلى الجد على نحو جعلها لا تملك إلا أن تبتسم. أعادتها طريقته المعتادة فى مداعبتها إلى ذكريات طفولته حين كان يسعى بشتى الطرق إلى إرضائها وجذب انتباهها. يحضر لها اللوحات المائية للمشاهد التى تهواها، وباقات من أزهار البنفسج يلقيها فى حجرها على استحياء،

وعندما كانت الواجبات المدرسية تنجز دون نصح. كان يشتط في تودده وكانت تقبله راضية.

فجأة أدركت. لقد أصبح ليرد عشق حياتها.

ذات ليلة انهمر المطر بغزارة، وقررت جانيت أن تعد الوجبات في المطبخ، فلم يكن مارتن في البيت. أكلا في صمت، تخففت من الالتزام بمواصلة ذلك التيار من الثرثرة الذي كانت تمارسه لكي تحرك مشاعره عندما كانت تراه محجمًا عن الكلام؛ عندئذ تدرك أنها تدخر حديثها لوقته. لم يأكل شيئًا سوى ما يسد رمقه. بطاطس مهروسة وبعض الأيس كريم بالفانيليا وحلوى البودينغ. لقد مضت أيام على ريجيمه النباتي القاسي، ودروس المطبخ التي كانت تدرسها لكي تساعده عليه. أصبح جسده نفسه في ذمة الماضي، كان يأكل لكي يبقى على ما بقي من عقله. بدا أنه كان يريد أن يسترد الإحساس المدلل الذي كان يلقاه عندما كان يمرض وهو طفل. كانت تعد له شراب الزنجبيل والخبز المحمص المغموس في الزبد، وتشاركه لعب الكوتشينة الذي لا ينتهي مستخدمة ساقيه المغطاتين بالبطانيات كمائدة. في تلك الأيام أيضًا، كان يجد في نفسه طاقة على المرض، كان يحس أنه يستطيع تحمله حتى النهاية؛ لأنه كان يدرك أنه لا يلبث أن يتماثل للشفاء ويقف على قدميه ويستقبل مليون شيء كان في انتظاره. الآن يعتوره إحساس بأنه يتحمل المرض.

وفي النهاية دفع بإنائه إلى منتصف المائدة علامة على أنه فرغ

من طعامه. عاداته الحميدة على المائدة تبددت، ومن كان يهتم؟ أحست بوكزة عصبية خفيفة، إحساس صادفته وهى فى طائرة تستعيد سرعتها على مدرج. رتبت شوكتها وسكينها على حافة طبقها ودفعت بمقعـدها أسفل المائدة. قالت: "حلمت حلمًا غريبًا الليلة".

كانت عيناه باهتتين يعوزهما البريق.

انتظرت مترقبة، ظننت أنها ربما بدأت الحديث مبكرًا. سـألته: "هل تريد شيئًا آخر؟".

هز رأسه. لم تحمل تعبيرات وجهه شيئًا. كان رفـضه جـسديا خالصًا، إيماءة قادمة من الشبع فى معدته. "حيوان متجاوز بطنه". قالت فى نفسها.

ولكى تمضى الوقت حملت الأطباق إلى الحوض وغسلتها جيدًا وأدخلتها فى المغسلة. حملت الأيس كريم إلى المطبخ وتناولت ملعقـة من الدرج ونزعت ملء فيها من فضالة الأيس كريم الملتصق بغطـاء الإناء والتهمته دون تفكير حتى إنها فوجئت بحلاوته على لـسانها، إلا أن أذنيها كانتا مع ليرد أثناء ذلك كله. وفى كـل مـرة تحـس فيهـا بعلامات على رغبته فى الكلام تعود مسرعة إلى المائدة، ثم تجد وجهه لم يزل محايدًا خاليًا من أى تعبير.

عادت إلى النافذة. أصبحت المرجة عرضة لأن تغمرها الميـاه. استقرت بها البرك التى كانت تتسع مع الوقت مما أضعف النباتات التى كانت دائمة الخضرة. لم يغير المساء لونها الرمادى الذى كانت عليـه

منذ الصباح. رأته يركز بصره على الخط الذى تلتقى عنده قمم الجبال مع صفحة السماء، وفهمت. كانت ليلة ماطرة لم تتخللها فسحة من صفاء. افتقد فيها اللون الخلنجي للغسق. امتدادات الطبيعة الرمادية سلبته البريق فى عينيه.

"آسفة". قالت بصوت عال، وكأنه خطؤها.

هز منكبيه هزة خفيفة يائسة. حامت حوله لحظات قلائل يحدوها الأمل. وجدت وجهه راكدًا لم يزل فارتدت بوجهها يائسة مخيبة الآمال يساورها إحساس المنبوذ، ونبذت فكرة الجلوس معه ومراقبة المطر.

"ولا يهمك، إنها ليلة جميلة لمشاهدة التلفاز".

دفعته إلى حجرته الصغيرة، مختلاه، وتركته مع ماجى. حارت فى أمر نفسها. لم تعد خططًا لطارئ كهذا. تلك كانت الفترة الوحيدة فى النهار التى لم تحتج فيها لمخدر مباريات التنس ودروس البروج، والعمل التطوعى والمهام الوجيزة. لم تفكر فى الاحتمال الماثل أمامها الآن. لم تفكر حتى فيما قد يسميه مارتن: "المشهد الكبير". لقد أغرتها حواراتها مع ليرد ببناء سيناريو من صنعها. أماسى الصيف تمتزج بالخريف وشيئًا فشيئًا يأتى الشتاء معلنا بداية الحوار أمام المدفأة وقد أراح ليرد قدميه على مسند قد من جلد الخنزير فى حجرته الصغيرة بينما شغلت هى نفسها، من منطلق الإحساس بالواجب، بحياكة سترات عيد الميلاد لأبناء آن. لقد وجدت الوقت لتصور المستقبل. كان ذلك خطأها. هذا المساء اللانهائى الصامت كان عقابها.

حارت أين تذهب فى بيتها. انتهى بها الأمر بالطواف بالحجرات مدفوعة بإحساس غامض، إحساس المطارد. استدارت غير مرة متوقعة وجود شخص ما، ولم يكن لأحد وجود فى الواقع. كانت وحدها تمامًا. أدركت فى النهاية أنها كانت تتخيل شخصًا لكى تخلع سمات الوجود المادى على مصادر جراحها. اخترعت وغدًا، مجرمًا. يجب أن يكون هناك مجرم، أليس كذلك؟ لابد من وجود عدو، شيطان، قوة شريرة يمكن أن تطرد. راح خيالها يخلق شيئًا ذا وجود جسدى حتى يتسنى لها الادعاء، ولو للحظة، أن هناك عدوا حقيقيا يحوم حولها، شخصًا تستدعى له البوليس ويقبض عليه. ولكن العدو كان جزءًا من ليرد نفسه ولم يكن فى وسعه ولا فى وسعها ولا فى وسع أى من الأطباء أو الأخصائيين أو القسس أن يفصل الجزء عن الكل.

صعدت إلى الطابق الأعلى وأخذت دشا. لم تعد تعنى بجسدها إلا فيما ندر، تنبهت بشرود إلى أن الماء كان شديد السخونة، وأن جلدها تحول إلى اللون الأرجوانى. استقرت، بعد الدش، على الشيزلونج فى حجرة نومها وحاولت القراءة. سمعت صوتًا، مالت برأسها نحو مصدر الصوت. هل كان ليرد؟ اعتقدت فجأة أنه شرع يتحدث رغم كل شيء. اعتقدت أنه كان يتحدث إلى ماجى. ارتدت ملابسها ونزلت الدرج. كان وحيدًا فى مختلاه. وحيدًا مع التلفاز. لم يسمعها، لم يرها. رأته يتناول شربة من كأس. كانت يده ترتعش بشدة. كان كأسًا من البلاستيك بماصة مغروسة فى فتحة فى غطائه. ذلك

النوع الذى يستخدمه الأطفال ليتعلموا كيف يشربون. المفروض أنه يمنع الحوادث، بيد أنه لم يمنع يديه من الارتعاش وإراقة العصير كيفما اتفق.

كان ليرد يعشق الدثر الكشميرية الوبرية التى كانت قد جمعتها عبر السنين من الأسواق الحرة فى المطارات البريطانية المختلفة. إنه يضع الآن أحدها فوق منكبيه وآخر على ركبتيه. تذكرت ليالى أخرى كان الجو صحوا وكان يعود إلى البيت بعد حلول الظلام وهو يعلق واحدة منها على رقبته. قال فجأة:

"أظن أن كل شيء يجب أن يكون فى الكنيسة".

قالت: "أظن ذلك، ولكن هذا يرجع لك".

"وأظن أن الوقت لن يكون مناسبا للحديث عن الأشياء التى لا أومن بها شخصيا. ولكن أريدك أن تنأى بالأمر عن الحزن الشديد. لا أريد أزهار السوسن على سبيل المثال".

"لا سمح الله".

"ولا بأس ببعض الموسيقى اللائقة".

"مثل ماذا؟"

"كان لدى فكرة ولكنى نسيتها".

وضع يديه على عينيه. كانت أصابعه شفافة حتى إنها بدت كأنه رفعها فى مواجهة نور كاشف.

"أرجوك اشترى ثيابًا جميلة، شيئًا حداديا بيد أنه أنيق".

"طيب".

"ولا تنتظرى حتى اللحظة الأخيرة".

ولم تجب.

تخلت عن فكرة إعادة التقارب بين مارتن وليرد، انتابها إحساس بالحرية عندما تخففت من الرجاء فى ذلك أيضًا. لم يعد مارتن يأتى إلى البيت إلا نادرًا. ربما تورط فى علاقة غرامية؟ أفكار لم تكن تسمح لنفسها الظن بها من قبل، بيد أن الأمر لا يعنيها الآن. "سيكون شيئًا مفيدًا له". همست لنفسها فى أكثر لحظاتها مروءة وأقواها. "ساءت حالته ولا بأس من شيء يحسن به معنوياته المحبطة".

كانت آن تختصر زياراتها التى كانت تحاول فيها إشاعة جو من البهجة، ولكن عندما كانت تعود إلى سيارتها كانت تطوق ضلوعها بذراعيها وتشرع فى بكاء مرير.

كانا البنت والولد اللذين كانت جانيت تتمناهما بالضبط، فتاة جميلة حلوة العشرة، وولد مزعج مشاكس. كانت سعادتها تتحقق فى اجتماعهما أمامها. لم تكن تسعى للاستماع إلى حديثهما، ولكنها كانت تراقبهما من بعيد، من المطبخ فى العادة، بينما كانت تعد لهما وجبة خفيفة تذكرهما بأيام الطفولة. أطباق البطيخ وأكواب الليمون. ثم كانت تشيع آن إلى سيارتها فيما كانت أحذيتهما المتشابهة تصطك بحصباء

الأرض. كانتا تتعانقان وتضغط كل على ذراع الأخرى. كان عناقهما المقتضب سندهما فى الملمات، التجمل بالصبر والدعاء كان ملاذهما الذى يتبادلان فيما بينهما مثل ثوب يتبادلان ارتداءه كلما دعت الحاجة عند إحداهما. العناق استهلال لوداع هادئ بعيد كل أصيل. وبعد أن تغادر آن كانت جانيت تبحث عن السكينة لحظة أو لحظتين وهى قافلة إلى بيتها عبر هواء سبتمبر الندى. ساعتها كان السكون يجلل الكائنات، لا يحطمه سوى طنين قاطعة العشب وفرقعتها، أو صيحات الأطفال العائدين من مدارسهم، والأصوات الخفيفة للطير والهوام. حياة بسيطة سهلة من اختيارها المحض. لم تكن تطمع فى الكثير وكانت تبغض البطالة. البساطة ملاذها حين يسوء الحظ وتدلهم الخطوب. وللحظة لم تطل قالت فى نفسها وهى تخطو فى خفة على الدرج ومن ثم إلى الباب، ولم تعد ساقاها بنشاطهما القديم: إن حظها لم يزل رفيقها.

ثم كان فى وسعها أن تنظر من خلال النافذة، هنالك كانت عيناها تجابه منظر ليرد الباعث على الحزن، لن يعرج إليها فى إلمامة قصيرة. عندئذ كان قلبها يؤلمها وتتدافع دقاته، كهف امتلأ بالخفاش.

ربما طمعت فى الكثير.

سألها ليرد: "ماذا كنت تريدين أن تكونى عندما تكبرين؟"

"كنت أريد أن أصبح زوجة وأما. قبلت ذلك. لم أكن ثائرة".

"لا بد أن هناك شيئًا آخر".

"لا، آه، أظن أنى مررت بجميع أحلام اليقظة المعتادة، كنت أحلم أن أكون إميليا إيرهارت مثلاً أو مارجريت ميد، بيد أنها كانت أحلاما لا أكثر. لم أكن حتى قريبة من الشجاعة. هل تتخيلنى أطير فوق المحيط بنفسي؟ ضحكت وتطلعت إلى ضحكه ولكنه كان قد أخلد إلى النوم.

أحد أصدقاء ليرد وصلته أخبار خاطئة بأن ليرد قد قضى. تلقت هى ومارتن خطاب تعزية. حكى الصديق قصة حدثت منذ سنوات قليلة عندما كان يستقل أتوبيسًا فى نيويورك مع ليرد. كانا يجلسان خلف سيدتين أكبر سنا منهما كانتا تعملان نادلتين فى فندق، أنشأتا تتحدثان عن ضرائب مستحقة على دخلهما، يحاولان معرفة كم يجب أن يصرحا به من دخلهما من (البقشيش) بحيث لا تلفتان نظر المحاسب. وأدلت كل منهما بمعلومات تنم عن جهلهما بالموضوع وأسهبا فى وصف موقفهما. وتحين ليرد هدوءًا تخلل المحادثة ونهض من فوق مقعده وخاطبهما:

"أرجو أن تعذرانى، فلم أملك إلا أن أسترق السمع إليكما، هل لى أن أدون اسميكما وعنوانيكما... أرجوكما؟ أنا أعمل فى مصلحة الضرائب على الدخل". وأطبق السكون على الركاب فى الأتوبيس إذ كان كل راكب يراقب الآخر ليرى النتيجة. تناول ليرد كراسة وقلمًا من جيب سترته الداخلى، وواجه المشاهدين المذهولين. أنا موظف فى مصلحة التهرب الضريبى، وفى غضون عشر دقائق سأكون قد دونت اعترافاتكم جميعًا. هل لدى أحدكم ما يريد أن يقوله؟

شاعت الابتسامات على الوجوه. وانطلق الناس فـي الأتـوبيس يتحدثون ويبدون الملاحظات عندما أدركوا أنه كان يمزح، ومـا كـان أخوفهم قبل أن يدركوا ذلك. كنت ترى أهل نيويورك المتجهمين فـي عزلتهم عادة، أناسًا مختلفين.

"كان ليرد أكثر الجميع نشاطًا، وأكثر من قابلتهم فى خفة الـدم". الآن هو على كرسيه المتحرك يذب الحشرات بطيئة الحركة، يحـاول طردها بتلويح من يديه.

"الغسق". قال ليرد.

كانت جانيت مشغولة فى الحياكة. رفعت رأسها عندما سـمعته. كان الوقت منتصف الأصيل، وكانت حجرة الجلوس تغمرهـا شـمس أكتوبر الساطعة. قالت: "قاب قوسين أو أدنى".

قطب جبينه. مر بعينيه وميض خفيف يشى بارتباك. أدركت أنه كان يظن أن الظلام قد حل بالفعل.

حاول أن يسوى شاله فوق منكبيه، كانت يداه ترتعشان. هرعت لمساعدته، ثم، عندما أشار إلى المدفأة، أسرعت بوضع الخـشب فيمـا كانت تسأل نفسها عن سبب ضيقه. هل كان بسبب الجفاف؟ تذكرت أن ضبابية الرؤية لديه كانت علامة على جفاف الماء منه. حاولت تـذكر أى شىء آخر كانت قد قرأت أو سمعت عنه إلا أنها حتى فى سـعيها لاسترجاع المعلومات والوقائع كانت تحس فى نفسها بما يقطع اطـراد

التذكر، شيء يتردد داخلها ويزعجها ويجعلها تتأوه لاهثة كما كانت تفعل كثيرًا عندما كانت تتذكر أخطاء اقترفتها، أو أشياء كانت تتمنى أن لا تقولها أو تفعلها وتمنت لو تتاح لها الفرصة لتعيدها من جديد. كانت تعرف الخطأ ومع ذلك استمرت فى الهرب من الحقيقة، كان عقلها يدور فى اتجاه احتمالات أخرى وهى تنفخ فى كيرها القديم.

كانت تفعل ذلك على نحو آلى شارد حتى كأنها أعدت المدفأة مائة مرة. رفعت الستارة ودفعت به قريبًا من النافذة ثم مالت إليه لتشد بيجامته حتى تصل بها عند الجورب وعظم الساقين. نشرت الشمس أشعتها حوله فبدا محاصرًا بين أصابع النور. شرعت يداها تستأنف الحياكة على نحو آلى.

"الغسق the gloaming" قال. خرجت منه الكلمات غير واضحة بسبب العى فكانت قريبة من كلمة "كئيب gloomy".

قالت: "عندما تصبح الدنيا فى اللون الأرجوانى".

أحست فى صوتها ببهجة زائفة. لم تكن متأكدة من رغبته فى الحديث. لقد مضى وقت طويل منذ حديثهما الأخير – ليس طويلاً، فى الواقع، فى حياة الآخرين، ربما أسبوعان – ولكنها واصلت الحديث وهما يقتربان شيئًا فشيئًا من الصمت حتى بدأت تحكى له القصص وهو يستمع. وأحيانًا، عندما يغلق عينه، كانت تتباطأ فى حديثها ثم تشرع فى التوقف. وإذا طال التوقف كان يستيقظ وينادى: "أمى".

بشيء من الذعر في صوته وكأنه استيقظ من كابوس. عندئذ تستأنف حديثها محاولة إيجاد جسر لا تقطعه الفجوات بين ما كانت تفكر فيه وبين النقطة التي توقفت عندها.

"لقد كان جدك، في الحقيقة، هو الذي علمني حب الغسق، هل تتذكر عندما كان يتحدث عنه؟" تطلعت إليه بلطف وترقب، فقد يرد بإجابة تنطوي على بذرة محادثة. بدا كأنه كان يحب الاستماع إلى صوتها؛ لذا واصلت الحديث مع طقطقة إبرتها. لم تستطع بعد ذلك أن تتذكر النقطة التي توقفت عندها عن الحديث، هامت في اضطراب أفكارها، تخشى الحركة وتخشى أن تعاود النظر إليه، وتخشى أن تدرك اللحظة التي أصبحت فيها وحيدة. كل ما كانت تعرفه هو أن النار أصبحت في طريقها للخمود تمامًا، وعندما نهضت لكي توقد الجمرات رمته بنظرة فاحصة جاءت رغمًا عنها. لاحظت أنه كان يشابك أصابعه على صدره على النحو الذي يصدر من شخص يحتضر. عرفت أنها لو ذهبت لإحضار الممرضة سيكون ليرد قد انتهى عند عودتها؛ لذا وقفت خلفه مقبلة عليه مسندة وجهها على وجهه وتسللت يداها إلى ذراعيه المشغولين تعينه على إنجاز رتقاته المضطربة، حتى يفرغ من تلك الشغلة الأخيرة.

وفيما بعد، بعد المكالمات الضرورية، وبعد نقل جثمان ليرد ذهبت جانيت إلى حجرته القديمة ونامت على سريره المزدوج. كانت قد حولت حجرته إلى حجرة استقبال عندما ذهب إلى الجامعة، مستبدلة

بأشيائه ديكورات حجرة الاستقبال، حوامل للحقائب عند حافة كل سرير ومكتبًا للكتابة مليئًا بالورق والأقلام، وحمالات خشبية ثقيلـة للثيـاب، وقوالب للأحذية. اجتهدت لتتذكر شكل الحجـرة عنـدما كـان صـبيا صغيرًا، كانت مزخرفة بألوان زاهية لم تعجب ليرد فأعادت طلاؤهـا. وعندما أخبرها أنه كان يريد رسومات أشبه بالأدغال، استأجرت طالبا من كلية الفنون ليقوم برسم صورة أدغال زيتية على الجـدران. ولـم تعجبه أيضًا ولكنه لم يرغب فى مضايقتها وانتظر حتـى رحـل إلـى الجامعة.

أتت آن، وعرضت أن تبقى معهما ولكنهما أقنعاها بالرجوع إلى أسرتها وبيتها.

دخل مارتن فى تلك الأثناء. كانت جانيت تراقب الأشجار التـى كانت تتحول تدريجيا إلى صور ظلية فى الظلمة المدلهمـة. قاومـت رغبة مباغتة لأن تتناول كتابا فى الجريمة وتقرأه. نام مـارتن علـى السرير الآخر. قال: أنا آسف.

قالت فى نبرة ملؤها الأسى: "إنه لظلم عظيم". لم تكـن تحـس بالغضب الكامن داخلها إلا فى تلك اللحظة، لقـد اسـتبقتها لحـضوره وعادت تقول: "الابن يجب ألا يموت قبل أبويه. الـشاب لا ينبغـى أن يضيع السنوات الأولى من عقده الرابع فى الحديث مع أمه. كان يجـب أن ينطلق إلى العالم. كان لا ينبغى أن يفكر فىَّ وفى آرائى وفيما أحب

وما أكره. كان لا ينبغى أن يقابل حبى له. لقد بدد طاقته العاطفية. الآن عاد لى كل شئ، لا أدرى ماذا أفعل الآن حيال هذا؟".

كان فى وسعها أن تسمع مارتن ينتحب فى الظلمة نحيبا جعلها تتجاوب معه. ثم ساد بينهما الصمت فترة.

سألها مارتن فجأة: "هل ستكون هناك جنازة له؟"

"نعم، يجب أن نبدأ فى عمل الترتيبات اللازمة".

"أظن أنه أخبرك بما يحب".

"لم يقرر شيئًا بشأن الموسيقى بصفة عامة".

سمعت مارتن يتحول إلى شقه الآخر حتى يستطيع أن يواجهها عبر الفرجة الضيقة بين السريرين. كان لم يزل فى ثياب العمل. قال: أتذكر أنه أعجب بمزمار القربة فى جنازة والدك.

كان عرضًا غريبًا فى الواقع ومتأخرًا، وبدا أنه يجئ من شخص يعيش خارج محيط حياتها، يعرفها معرفة سطحية. لم يكن يهم؛ كان عرضا جيدًا. قلبها يندفع نحوه.

"أظن أن ليرد كان سيحب هذه الفكرة كثيرًا". قالت.

كانا يشهدان اللحظات الأخيرة للغسق؛ آخر لحظة من لحظات النهار التى مات فيها ابنها. بعد برهة ستدول دولة النهار ويفضى القمر بأسراره للأشجار عندما يتبوأ مقعده من صفحة السماء. قالت فى نفسها

إنها ينبغى أن تنهض مع نهوض القمر. نهضت على رءوس أصابعها على بلاط الأرض العارية، تبحث عن حذائها. تحدث مرة أخرى بنبرة اعتادت عليها فى ليال مرت منذ زمن بعيد عندما كان لا يدخل البيت إلا نادرًا، وبعد أن ينام الأبناء متكلا عليها فى تزويده بالمعلومات عما عملوه طوال اليوم المنصرم. النبرة المستطلعة نفسها. نهضت تجرجر أصابعها على البلاط العارى، تبحث عن حذائها، عندما تحدث مرة أخرى. النبرة المستطلعة الحيية المراعية لرغبات الآخرين، تلك النبرة التى كانت تشعر معها دائمًا وكأن كل إحباطاتها ودواعى سأمها وأخطائها واندفاعاتها فى أيام أمومتها ترقى فى الواقع إلى درجة الأهمية، وقررت أن تؤجل الجولة الأخيرة من الاتصالات الهاتفية وتجيب على سؤال مارتن الذى سأله: "أزجوك – أخبرينى ما الشيء الآخر الذى كان ابنى يحبه؟".

## اللّذتان (١٩٩٥)

**جش جن**

هذا ما كانت تعنيه المسئولية في صناعة ضخمة متدهورة، على مقربة من فاصل آخر من الأخبار التى كانت تسير من سيئ إلى أسوأ. تعاود الاتصال بموظفة شركة السياحة، وحتى على الرغم من تـوافر حجرة في الدرجة السياحية في الفندق الذى كان سيقام فيـه المـؤتمر: حجرة تطل على أبراج التبريد، لم تلبث أن تسألها عن حجرة أرخص. وعندما تعود مارى الفتاة الجديدة، لتخبرك بوجود حجرة أرخص بكثير توافق لتكتشف آخر الأمر مثلما تكتشف الآن، أن الأبواب تغلـق بعـد التاسعة تمامًا. لم يكن الحى أرستقراطيا ولكنه لم يكن بالـسيئ أيـضًا. كان المبنى منسقًا يحتوى على أربعة طوابق من الطوب المربع، فـى مدخله تعلق السجل تضيئه شمس نافرة من البلاستيك تبتـسم بالـضياء المصنوع. ولكن ثمة قضيبًا مستعرضًا من الصلب انتـصب بعـرض الباب الزجاجي ملفوفًا في قطعة من السجاد في لون التـراب، فوقـه داخل الزجاج علقت لافتة صغيرة في لون الرماد. لو لم يكن التاكـسى قد غادر لما ضغط على الجرس كما تقول التعليمات.

ولكن التاكسي كان قد غادر بالفعل، وكلما ظل آرت رابضا هناك على مشهد من ثلج ديسمبر المتراكم، بدا له الشارع أكثر افتقارًا للناس وأقل إضاءة. استجاب لدعوته رجل أسود البشرة ضخم الجثة يرتدي "بوبيانة" حول عنقه. كانت درزات الخياطة في سترته الزرقاء المنسوجة على غرار كعكة الوفل ملتوية للناظر إليها عند الكتف. حول البوبيانة ارتدى رابطة عنق لم تتجاوز منتصف الطريق إلى صدره العريض، ثبتها قبيل نهايتها ببوصتين بدبوس أنيق عليه شارة الفندق. كان وجهه المدور حليقا باردًا، ظل يردد نظرات عينيه على الوجوه لا ليستعرض حدتها ولكن ليقول إنه لم يكن يروج للفندق. بوبيانة رسمية، قال آرت في سره، وسترة رسمية لابد أن تدفع وجه الرجل إلى عبوس بين الحين والحين.

لأن آرت توصل في عامه الثامن والثلاثين إلى جملة من الاستنتاجات بشأن الحياة، منها أن الناس لا تلبث أن تكفهر وجوههم عندما لا يرضون عن ملابسهم. هذا الرجل، رغم ذلك، يكذب القاعدة؛ كان دمث الطبع منطلق الوجه أغلب الوقت. بدت حجرة الاستقبال ضيقة عليه مثل سترته، بيد أنها أشبه بمحطة أوتوبيس، بسورها الزجاجي الملطخ بالدخان وأرضيتها المكسوة بالمشمع وخشبها الأبلكاش وآلات البيع المنتشرة هنا وهناك، ماذا يعني ذلك كله بالنسبة إلى آرت؟ بدت ساحة الجلوس في طور التنظيف. هناك من سحب المقاعد الاسكندنافية التي تنتمي للستينيات، والأريكة وطاولة القهوة كل

فى ركن، وكأن ثمة من يزمع مطاردة كتل التراب المتغلغلة فى الزوايا والأركان. ومع ذلك استمر آرت فى تسجيل بياناته كنزيل فى الفندق. ذهب إلى هناك مسلحًا بالشجاعة وخبرة السنين. كموظف خبير كان يهمه أن ينظر قبل كل شىء فى قلم المستخدمين، والرجل ذو البوبيانة بث الطمأنينة فى نفسه. دفع آرت الحساب وقبل أن يسترد بطاقة ضمانه استوقفته لوحة خشبية من اتحاد سكان الحى كانت معلقة فوق مكتب موظف الاستقبال: اختلس نظرة على صفحتها النحاسية وقرأ: أقل الإصابات بين الزبائن كانت بين عامى ١٩٧٢ و١٩٧٣.

وماذا عن السنين التى تلت عام ٧٣؟ هل أصبح الفندق أكثر خطورة منذ ذلك الحين؟ أم أن هناك من الفنادق الأخرى ما هو أهون منه خطرًا؟ ربما لا هذا ولا ذاك. كل ما كان يعرفه أن اتحاد الملاك لم يعد له وجود الآن ولم يعد يوزع اللوحات. تذكر أن الحياة مليئة باللافتات الفارغة. هذا ما كان يقوله لزوجته السابقة ليزا. ليزا التى اعتادت أن تقرأ كل شىء فى كل شىء، ليزا التى عاد إليها اتزانها النفسى أخيرًا. تركته يوم رأت شجرة يشطرها البرق نصفين. كان مشهدًا خارجًا عن المألوف. حدث العمر بالنسبة لها. قالت ليزا إن الشجرة أحدثت أزيزا لدى سقوطها. تمنى لو رأى المشهد أيضًا. ولكن ماذا كان ذلك يعنى غير أن الشجرة كانت أطول من كل أشجار الحى، ولم يعد لها وجود الآن؟ لا يعنى هذا شيئًا، كذلك الشأن مع اللوحة. أخذ آرت قراره، ربما لم يكن القرار الصائب. ربما كان عليه أن يبحث عن فندق آخر.

لكن الوقت كان قد فات. فى المطار ظلت طائرته رابضة على المدرج، ظلت واقفة ساعات وساعات حتى ظن أنها لن تقلع أبدًا. الله وحده يعلم كم كان سيأخذ منه صاحب تاكسى ليجد نفسه بعد ذلك فى مكان آخر غير الذى يريد. الضعف أو يمكن ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف ما كان سيدفعه لتلك الحجرة التى تطل على أبراج التبريد، طبيعى.

ولذا ضاعف من إغلاق الباب عوضًا عن ذلك. فحص باب المرحاض (الأبلكاش)، وفحص تحت السرير ذى الإطار الحديدى، وألقى نظرة على حوض الاستحمام الكروى الأخضر. فحص خلف اللوحات الزيتية ذات المشاهد البحرية ليتأكد من عدم وجود ثقوب. ذلك المعتوه – كم تمنى ألا يكون قد رأى ذلك الفيلم أبدًا. لماذا لم يخبره أحد أن الأفلام يمكن أن ترتد إليه أشباحا تلازمه؟ لم يحذره أحد. كانت النافذة تفتح على سلم الحريق؛ لا يستطيع فعل الكثير غير أن يتأكد من مصاريع النافذة، هذه المصاريع ذات فائدة كبيرة، مانع أكيد أمام اللصوص الذين يحطمون زجاج النوافذ هربًا. نسبة هؤلاء ضئيلة على كل حال، كم؟ عشرة فى المائة؟ خمسة عشر فى المائة؟ أحكم إغلاق الستائر ثم غير رأيه وأعاد إزاحتها لأنه قال إنه سيكون أكثر أمنًا مع الستائر المفتوحة. كان يريد أن يعرف وجه اللص حين يقترب. فصل جهاز التليفون من (الفيشة) مخاطرة محسوبة. من جهة لن يكون فى وسعه الاتصال بالبوليس عند اقتحام اللص. ومن جهة أخرى يكون لديه سلاح ما. قرأ قصة حدثت فى مكان ما عن امرأة قذفت بجهاز التليفون

فى وجه اللص فأردته قتيلا. لا داعى للقول إن هناك قدرًا كبيرًا من الحظ فى هذه الحادثة. رغم ذلك قال آرت فى نفسه (أ) يستطيع أن يقذف بالجهاز فى وجه اللص بالقوة نفسها التى قذفت بها المرأة، و(ب) حتى بدون وجود الحظ فإن رميته ستكون من القوة بحيث تعوق، على الأقل، تقدم اللص نحوه خاصة وأم الجهاز قديم ومن النوع الثقيل الذى يمنحك الإحساس بجدية الاتصال بين البشر. فى فندق جديد كان يمكن ألا يجد غير جهاز جديد بأزرار كثيرة لن يستخدمها أبدًا ولكنها تمنحك الإحساس بكثرة ثرواتك وأن هناك موارد كثيرة تحت يديك، رهن إشارة منك. كانت الأزرار كثيرة فى الفندق الذى سيعقد فيه المؤتمر، أزرار للبار وأزرار للبواب وأزرار للمطاعم الثلاثة وأخرى لخدم الحجرات. حاول ألا يفكر فى ذلك وهو فى طريقه إلى الفراش يقبض على جهاز التليفون.

ولكنه لم ينم تلك الليلة.

فى الصباح فكر فى أخذ الجهاز معه إلى المصعد. قلب الأمر على كل وجوهه. تمنى مرة أخرى لو لم يشاهد ذلك الكم الهائل من الأفلام. الأفلام تدفعه للتفكير الكثير، تدفعه لتخيل أشياء غريبة، فماذا لو واجه فى المصعد موقفًا؟ فى الواقع يبدو الأمر أميل للغرابة أن يخفى جهاز تليفون كهذا فى جيبه. فهو ليس سكينًا يخرجها بسرعة البرق من مكان خفى. حتى المسدس يمكن تثبيته فى الجيب. ولكن جهاز تليفون كهذا لا يوضع فى الجيب. رغم ذلك أخذه معه. أراد أن

يحمله فى يده بطريقة تبدو عادية، عرضية، وكأنما هو خارج فى جولة عدو ويحمله كثقل يوازن به جسمه، أو كأنه يعمل فى مصلحة التليفونات.

قطع الصالة بخطوات مسرعة. الضحايا من ثقيلى الخطى دائمًا. هذا ما كان يسمعه من الناس فى كل مكان. الصمت أيضًا مجلبة للخطر. كثير من حالات الهجوم الخلفى لها صلة بصمت الضحايا. وهذا ما كان يدفع ليزا لأن تكلم نفسها عندما تمشى فى الظلام، ترسل الكلمات فى الفراغ. بسبب ذلك اعتاد أن يضايقها بعبارات السخرية. إذا كان الخوف قد استبد بها إلى ذلك الحد، لماذا لا ترفع أثقالا مثله وتعدو على طريقته؟ أفضل طريقة للتغلب على الخوف. وقد وافقت. كانا قد تقابلا بعد ساعات العمل فى صالة الجمنازيوم، كان ذلك قبل أن يسقط ثقلا على إصبع قدمها قررت بعدها أن تحتسى الأناناس وتكتفى بالفرجة. وبطبيعة الحال راح يقبع كالخنزير. ولكن ما الفائدة؟ من يقدر كم الخوف الذى يخفيه فى صدره وراء بذلته ومعطفه؟ ليس للمشاعر قيمة دفاعية. ذلك ما كان يشغله فى تلك الأثناء. لم يكن قصيرًا أو طويلاً. واصل المشى وإرسال الكلمات. كان ذاهبًا إلى مطعم الفندق الذى سيعقد فيه المؤتمر، قرر أن يتناول الإفطار الأمريكى، لحم الخنزير المملح والبيض، لن يقرب الأطعمة الأوروبية التى لا غناء فيها.

فى الواقع كان يسرى فى منظر الرجال وهم يتناولون

"الكوروسون" مصدراً للضحك لاسيما في البداية وهم يهمون بالقضمة الأولى بعد مناورة طويلة مع حرف الكوروسون هلالي الشكل. ينتهي الأمر بالواحد منهم بملء فيه من الكوروسون فيضطر إلى ترحيله بلسانه إلى موقع آخر أكثر مركزية من الفم، مما يضفي على وجهه تعبيراً بعيداً عن الجدية، وهو ليس كذلك في الواقع. بالإضافة إلى أن الكوروسون أكثر ميلاً، من أي لون آخر، من أطعمة الإفطار إلى نشر رقائق صغيرة على كل أنحاء البذلة الداكنة النظيفة. آرت نفسه لم يطلب الكوروسون في أي موقع من مواقع العمل، وكان يعتقد أن اهتمامه بتلك التفاصيل الدقيقة هو السبب في أنه لم يفصل من عمله كما حدث للكثيرين من زملائه.

بعبارة أخرى كيف بقي إلى الآن في عمله في ذلك المصنع الذي تتدهور أحواله شيئاً فشيئاً؟ ويحمل الآن معه جهاز التليفون في المصعد. استجمع آرت قواه عندما فتح المصعد أبوابه في تؤدة. كانت الأبواب تهتز بعنف على طريقة مصاعد العالم الثالث. عندما تلف بسرعة وجد نفسه محاطاً بالأطفال. في الطابق الأول أيضاً قبل أن يصعد كان محاطاً بالأطفال، وقليل من النساء اللاتي عرف أنهن كن أمهات من نظرات السخط المتمكنة في عيونهن. فندق السعادة ! ضحك بصوت مرتفع. كان اللون الأسود هو الغالب على الأشياء. بدا الأطفال البيض أشبه بالفرص الضائعة، من النوع الذي دفع برئيس آرت المباشر في العمل أن يقذف بمضرب التنس عبر الحجرة. كان

المضرب بطبيعة الحال في جرابه المبطن الذي يقيه بعيدًا عن خطر الكسر، أما الذي يظل عرضة للخطر فهو الرجل الذي يقف في طريق المضرب. ظن آرت في البداية أن المضرب كسر جانبًا من أنفه ولكنه لم يلبث أن اكتشف أنها لم تكن سوى كدمة بسيطة أسفرت عن تغير طفيف في لون الجلد مما جعل الناس يرتابون في الحادثة من أساسها. ولكنها حدثت بالفعل. صاح به رئيسه في العمل في غضب: "لا تقل لي زلة، أهم ما في الأمر أنكم معشر اليابانيين مسئولون عن هذه الفوضى الملعونة كلها"- رغم أن الخطأ كان بسبب أجهزة الكومبيوتر الصغيرة، الشخصية بالأخص. ظاهرة أمريكية خالصة. كان آرت يستطيع في الواقع أن يرفع دعوى على الرئيس لو كان لديه الدليل على الحادثة: بعض الناس، وأولهم ليزا، كان يرى أن آرت كان ينبغي أن يستقيل على الأقل.

ولكنه لم يرفع دعوى ولم يترك الوظيفة. أخذ مضرب التنس على أنفه كما يقولون وعندما اعتذر له رئيسه في العمل في اليوم التالي مدعيًا أنه فقد أعصابه، قال آرت إنه تفهم الموقف. وعندما قال الرئيس إن آرت لا ينبغي أن يفهم ما بدر منه على أنه موجه إليه شخصيا، فقد كان يعرف بالطبع أن آرت ليس يابانيا، بل كان صينيا، بالإضافة إلى أنه أطلق على شخص آخر كلمة ووب أي الإيطالي الكسول في ذلك الصباح نفسه، كانت هذه طريقته فحسب، مرة أخرى قال آرت إنه يتفهم الموقف. ثم قال إنه يطمع أن يتذكر رئيسه تفهمه العظيم لهذه

المواقف عندما يحين وقت الترقية. وقد فعل الرئيس ما أراده أرث تكفيرا لخطيئته. وكان ذلك في نظر آرث نصرا كبيرا. كان يتطلع للترقية في الوقت الذي لم ينظر الآخرون إلا إلى هذه الإهانة. كان له وجهة نظره الخاصة به.

ولكن وجهة النظر هذه، بالإضافة إلى قصة الشجرة، هي ما دفع بليزا أن تهجره غير آسفة عليه. في تلك اللحظة كان يفكر في ذلك. تخلق حوله الأطفال وجهاز التليفون ما زال في يده، أطفال كثر. وكأنما كان يرى أمامه كل الأطفال الذين لن ينجبهم. وقف برهبة مشدوها، خائفا يترقب. طفل يرتدى بذلة عدو حمراء حام حوله وكاد ينتزع جهاز التليفون من قبضته. طفل آخر يرتدى سترة ألحق بها غطاء للرأس حام حوله. شخص ببصره فرأى حشدا من صبية المدرسة الابتدائية انتظموا حول ساحة الجلوس، يراقبونه. كان قد تعرض لهجوم جرىء، وعندما رأى انحسار عدد العابثين في الردهة أحس بنشاطه يعود إليه من جديد وشرع يضحك. في تلك الأثناء اندفع نحوه طفل صغير، ربما كان في الخامسة أو السادسة، يرتدى السروال الثلجي. كاد آرث يقذف بجهاز التليفون في وجهه، ولكنه عدل عن الفكرة، فمن يريد أن يدفع ثمن جهاز تليفون مفقود؟

الواقع أن آرث تساءل: لماذا لا يعيد جهاز التليفون إلى الحجرة بدلا من حمله معه أينما ذهب طوال اليوم؟ لأنه ماذا يريد أن يفعل به في الفندق الذي سيعقد فيه المؤتمر؟ يصلحه؟ تخيل نفسه مسرعا إلى

بيلى شور، نظيره فى إنفو إدج ومنافسه في سوق التأمين. رجل يفتقر إلى البراعة الإدارية والخبرة الفنية على السواء. ولكنه استطاع أن يقدم للزبائن أجهزة الكومبيوتر الشخصية لقاء أموالهم المستحقة وهو الأمر الذى لم يستطع آرت أن يفعله. الأكثر من ذلك أن بيلى كان الظهير الأيمن فى فريق الكرة أيام الجامعة. كان ذلك يعنى أنه يحق له أن يختال عليه وكأنه لم يزل ذلك اللاعب المهاجم فى فريق الكلية، ولو أن آرت لم يكن يعترف بذلك. وكان يعنى أيضًا أن بيلى بالتأكيد سيسأله: "ماذا تفعل بجهاز التليفون الذى تحمله فى يدك؟ تتحدث به إلى نفسك مرة أخرى وتجعل الجميع يغربون فى الضحك؟".

كان بيلى يحب الفكاهة والنكت. كان يطلق النكات فى كل مناسبة، نكات ذات طابع خاص عن الشرب أو الجنس أو كميات الشراء الكبيرة التى تقوم بها الزوجات حين يذهبن إلى الأسواق. والحق أنه لم يكن مسفًا ولم يكن يسمى الأشياء بأسمائها، كان يقتضب الألفاظ ويتخير الكلمات الغريبة مصحوبة بحركاته الجسدية. كانت ثقافته عادية جدا. ولكن الناس كانوا يفهمون ما يرمى إليه. كأن يقول مثلاً بطريقته التى تنم عن دماثة فى الطبع وهو يضع ذراعه على كتفك: "اسمع يا بطل، قل لى ماذا تظن الفقراء يفعلون الليلة؟" كان يتكلم لغة يسميها آرت الاتجاه السائد. وقال له آرت: إنك تتكلم بلسان الآلاف اليوم. ولم يرد إلا بقوله: "ماذا ؟" ثم مضى فى طريقه يدس يده تحت قميصه القطنى ويهرش فى صدره وكتفيه. كانت ليزا تقول: إن

هذه طريقة الحيوانات الثديية عموما. وكانت تعتقد أن أربطة العنق إنما اخترعت خصيصا لكي تحد من هذه العادة بالذات غير المتحضرة. كانت تعتقد أيضا أن هذا السلوك لا يصدر عن الآسيويين أبدا، على الأقل ذوى التربية الحسنة منهم.

هل كان ذلك صحيحا؟ لقد نشأت ليزا في الساحل الغربي وكانت تعرف تماما حياة الآسيويين. من ناحية أخرى يذكر آرت عندما قدموه لبيلي أول مرة قال بيلي على الفور: "آرت وو يا له من اسم بولندى جميل!!" وجعل الجميع يغربون في الضحك. والواقع أنهم كانوا يضحكون بالطريقة التي يضحك بها الناس في المؤتمرات وهي لا تعني أن هناك ما يستأهل الضحك فعلاً، بل لأنهم يريدون ألا يظهروا بمظهر من شذوا عن الإجماع.

التليفون، التليفون. لو يستطيع أن يحشوه في حقيبته! ولكن الحقيبة دائمًا محشوة بالأشياء.. دائمًا. حقيبة صغيرة أقرب لمحفظة أوراق ذات جوانب صلبة. إيطالية. اختارتها له ليزا وكانت تقول: الحقائب الأكبر تجعله يبدو مثل بائع متجول. وحسب رأيه لم يكن ذلك ذا أهمية تذكر. ليزا لم تكن تفكر في المال كثيرًا، كانت تفكر في مشاعرها فحسب. المال لا يكون شيئًا بالنسبة لها إلا إذا كان دعمًا نفسيا، وهو وسيلة للدعم النفسي أقل بكثير في الأهمية من الدعم الروحي والاهتمام الدائم. لم تكن تؤمن بالاقتصاد العصري الذى يلعب فيه الفرد جزءًا داخل كل ضخم ومعقد مما ينشط الفعاليات التي تعمل

نظريا على الأقل على رفع مستوى معيشة الأفراد. كانت تؤمن بحرية الانطلاق والاختلاف إلى جلسات العزاء التى كانت تذهب إليها، وغزل ملابسها بنفسها. ليس هناك شئ، كانت تقول، يعدل عندها تمشية بين الأشجار وقت الخريف وهى مرتدية سويتر من غزل يديها. الحق أنها كانت تبدو جميلة فى السويترات خاصة تلك البنفسجية منها، لونها المفضل. وبلمسة فنية من قلم الحاجب البنفسجى يبرز جمال عينيها، رغم أنها لم تفعل ذلك فى كل مرة تذهب فيها فى نزهة طويلة سيرًا على الأقدام.

اندفع ذوو السراويل الثلجية نحو آرت مرة أخرى، متجهين نحو ساقيه هذه المرة – إمساك الخصم الحامل للكرة وتوقيفه – قال آرت فى نفسه. أحاط به ذوو بذل العدو الحمراء وخطفوا جهاز التليفون ومضوا يعدون بأقصى سرعة، منتشين بالنصر. فريق عمل! أخذوا يتضاحكون بأصوات عالية، وكان آرت عاجزًا حتى عن الابتسام، حتى بعد أن وسخوا سترته نظف نفسه ومشى ببطء نحوهم وخاطبهم:

- ما هذا يا أولاد. هذه حركة ارتدادية لم أتوقعها.

وراح الصبية الصغار يهتفون:

- تشنج شانج بولى وولى وينج وونج.

- الآن، الآن ليس وقت الكلام يا أولاد.

- اذهب للجحيم.

أسبل سترته السمراء على جانب من فيه وقال:

- اسمعوا، تعالوا نتفق، لكم عندى صفقة.

والحق أنه كان يسعى لاسترداد التليفون من أيديهم لكى لا يضطر إلى دفع ثمنه لإدارة الفندق. ولكن كل ما أخذه بعد ذلك ضربة على رأسه بالجهاز سقط على أثرها مغشيا عليه.

كانت ليزا قد تركته بطريقة ودية جدا تقريبا. لم تذهب إلى محام، ولم تأخذ من أثاث البيت شيئًا. تناولت يده وضغطت بكل بساطة عليها وقالت له بصوتها الجميل كشأن أهل كاليفورنيا: "لنفترق بهدوء". ثم طلبت منه أن يساعدها فى نقل صناديقها، على الأقل الثقيلة جدا منها التى لا تستطيع حملها. وكذلك فعل. حمل عنها الصناديق الثقيلة والأقل وزنًا أيضًا بوصفه بطلا قديما فى حمل الأثقال. رتب الكتب وطوى ألواح الزجاج فى جرائد، تلازمه طبيعة موظفى الإحصاء طوال الوقت. طبعًا، عضو أصيل فى المجتمع العصرى، وفر قصة لأصحابها كى يتندروا بها؛ وكل ذلك لأنه لم يواظب على الذهاب إلى جمعية المواساة التى تذهب إليها، أو على الأقل كانت هذه البداية الحقيقية للمشاكل بينهما، أو ربما كانت البداية الحقيقية عندما واجه هو وليزا مشكلة فى الحمل. كانا قد قررا، كما يقال، إيقاف الخصوبة فترة. أو ربما هو الذى كان قد اتخذ القرار كما قالت ليزا فيما بعد. كان يقول إن القرار كان مشتركًا، وقام هو بعمل التحاليل الخاصة به والتى أدت إلى القرار المشترك. راح بعد ذلك يحسب حساب كل شىء؛ الربح

والخسارة واحتمالات المستقبل. رسم شجرة القرار ونظر إلى أفرعها وقرر أن الخسارة لن تكون كبيرة إذا استمرا.

ولكن كليهما لم يقدر مدى الورطة، الاختبارات والإجراءات والأدوية والفحص بالموجات فوق الصوتية. أصبحت ذراعا ليزا ممتلئتين بالبقع السوداء والزرقاء من كثرة استخراج عينات الدم من عروقها كل يوم. وقبل ذلك بمدة طويلة كان هو يتمرن على حقن برتقالة لأنه يعرف أنه سيضطر لحقن ليزا كثيرًا فيما بعد. كان يطلب منها أن تأخذ نفسًا عميقًا حتى يتمكن أثناء الزفير من دس الإبرة بسهولة فى ردفيها، ليس على سبيل التمرين الآن، كما أنها ليست برتقالة. فى المرة الأولى تصبب وجهه عرقًا حتى عشى بصره فكان يغمض عينيه ويفتحهما بسرعة، وكانت النتيجة أنه سحب الإبرة ببطء وبطريقة ملتوية جعلتها تصرخ بصوت غريب عال. فى المرة الثانية وضع على رأسه عصابة لامتصاص العرق. وفى المرة الأخيرة حقنها وكأنه لم يفعل شيئًا ولكنه اكتشف بعد ذلك أن مبيضيها تورما حتى إنه كان فى وسعه أن يحس بهما من خلال بنطلونها الجينز.

كان يستخدم السرنجات المستعملة. يقصفها فى المنتصف ويخزنها، كما قال له الطبيب، فى زجاجات من البلاستيك مليئة بالصودا. تركتها له، زجاجات من النفاية الطبية ليتخلص منها على مسئوليته، وهى تعنى أنه ربما يحتفظ بها، ها – ها، طوال حياته. ذكرى بسيطة من هذه المرحلة من زواجهما مع كومة من الغزل الذى

اضطرت إلى إنجازه أثناء المحنة. رغم كل شئ غزلت وكأنما وجدت في شغل الإبرة عوضا عن مأساتها. سويترات وسويترات وبطانيات للأطفال كانت تتخلص منها في الغالب، قد تحتفظ بواحدة أو اثنتين. ولم تحتمل، فقدان وعي وهذيان تبعه فقدان آخر للوعي. حدث الحمل مرتين ومرة ثالثة، ورابعة استمر خلالها أربعة أشهر ونصف قبل أن تظهر مشكلة. أظهر الحامض الأميني بوضوح وجود لين في العظام، مرض وراثي قد يعرض لأي إنسان.

راح يشحذ همته لمحاولة أخرى. وكان ذلك هو الفرق بينهما: أنه كان متشبثًا بالأمل، حتى لو كان أملاً واهيًا هزيلا، في حين كانت لا ترى غير الخسران. كانت تعد الجنين في شهره الثالث طفلها الغالي، رغم أنه لم يكن طفلاً، أو هو مشروع طفل كما كان يقول. قالت إنه لم يفهم، أو بالأحرى عجز عن الفهم. هي فقط التي كانت قادرة على الفهم، إنه شيء لا تفهمه إلا بجسدك، ولم يكن جسده هو الذي عاني الأمرين، كان جسدها هي، جسدها هي الذي عرف الطفل وأحبه وفقده. وفي جلسة الأحزان التي تذهب إليها وافقتها النسوة على ذلك. رحن يواسينها. كن يواسين بعضهن بعضًا، وكن يؤكدن على بيولوجيتهن المشتركة حين ينجزن نسبة ٨٥ % من الكلام في مقابل صمت الرجال. كانت الحجرة مدهونة باللون البنفسجي الزاهي، لون نسائي بدا أنه يدعمهن في شئونهن الخاصة. أزواج آخرون بدءوا يهملون الذهاب إلى تلك الجلسات – نادرًا ما كانوا يتحدثون على كل

حال فكان من الصعب أن تلحظ غيابهم – وفى النهاية فاته الذهاب إلى بعضها أيضًا. مرة أو ربما مرتين، لأسباب حقيقية، ولم يحدث شئ ذو بال. ولكن الحقيقة، كما رأتها ليزا، أنه اعتقد أنها فقدت القدرة على الرؤية السليمة. كان يمكن أن يحاولا مرة أخرى رغم كل ما حدث. ماذا يفيد اليأس؟ سيقول الناس إنهما كانا يستطيعان الحمل، والأكثر من ذلك أنهما كانا يستطيعان الإبقاء عليه، كان ذلك تقدمًا. ولكنها كانت حزينة كالجزيرة النائية.

الواقع أنه افتقدها كثيرًا جدا فى البداية. وهو يفتقدها الآن، ولكن على نحو متقطع فى الأوقات الحرجة بالذات، مثل الآن وقد بدأ يعود إلى وعيه فى حجرة غريبة ويتحسس الثلج فوق رأسه. كان يرقد على سرير حديدى قريب الشبه بسريره الذى ينام عليه فى حجرته، الفرق تلك الأكوام مما بدا له بطانيات وملابس. الملابس الوحيدة على الشماعة كانت جاكتته ومعطفه، علقا بعناية داخل دولاب فارغ إلا منهما. توجد منضدة زيادة فى الحجرة عليها موقد عبارة عن صفيحتين معدنيتين متقدتين وضع على واحدة منهما إناء بجوار كومة من الأطباق وثلاجة بنية اللون مكعبة الشكل. كانت الستائر مسدلة وعلى ضوء السرير أقبلت عليه سيدة تمسح له جبهته فى رفق. "لا تتحرك الآن". وكأنها ليزا فى لون أسود ترتدى مريلة بنية مزينة بزهور كثيرة، ترمقه بعينين حانيتين ووجه طويل تظهر فيه عضلات وجنتيها والفكان، وشفة عليا أشبه بقوس السهم. أمريكية إفريقية تميل للقصر

والسمرة، شم مع دنوها رائحة دخان. كانت نحيفة، أنحف مخلوقة رآها في حياته. ومع ذلك يبدو أنها كانت تطبخ شيئًا أو تحرق شيئًا. تلازمها رائحة شعر يحترق. ظلت واقفة لتعتني بشئ في إناء على الموقد. رأى شيئًا على المنضدة يشبه المسحوق الأبيض، ملء كيس كبير من البلاستك. اتسعت عيناه. تراجع في سريره، حاول أن يتبين موقفه. شئ يدق داخل رأسه. التيلونول، يحتاج لقرصين. كانت ليزا تتناول واحدة دائمًا لأنها كانت مقتنعة بأن الجرعات الموصوفة لا تناسب الوجبات الخفيفة التي اعتادت عليها، رغم أنها لم تقل له إنه يجب ألا يتناول أكثر من قرص واحد من التيلونول، لم يكن طويلاً إلى حد ملفت، كان يصر على القرصين في كل مرة. اثنين، اثنين، اثنين. أراد أن يتناول دواءه في تلك اللحظة.

"أولئك الصبية أشقياء للغاية في هذه السن". قالت المرأة، "قلت لهم إنكم في يوم من الأيام سوف تسببون الأذى لشخص ما، وقد حصل. لابد أنهم ضربوك بكرة بولنغ. لم أر في حياتي شقاوة كهذه. اتصلنا بالشرطة ولكن عندما جاءوا راحوا يبحثون عن شيء آخر بعيدًا عن الواقعة. قلت لهم: ليس عندنا أحد مضروب بالرصاص، فنزلوا إلى دنكن دونتس أملاً في أن يجدوا شجارًا هناك أو شيئًا من هذا القبيل". وطرفت بعينيها واستمرت تقول: "كيف حالك الآن؟ كيف هذه الرأس الثمينة؟" تحسس رأسه. أحس بنتوء في المنتصف، نتوء غريب مثل شيء جلبه الجليد إلى التلال. قال:

- أحس كأننى مت وعدت إلى الحياة من جديد، رأسى أولا.

- سأصنع لك شيئًا طيبًا يجعلك تتحسن.

- أوه، إذا سمحت أفضل أن آخذ قرص تيلونول الآن، هـل معـك تيلونول؟ معى بعض الأقراص فى الحقيبة، هل حقيبتى لم تـزل معى؟

- ماذا تقول؟

سأل بذعر:

"حقيبتى، هل حدث شئ لحقيبتى؟".

- هناك بجوار الباب. سأحضرها لك، لا تتحرك.

تناول حقيبته ووضعها فوق بطنه وهو يهمس لها: شكرًا.

- هل أساعدك فى فتحها؟

- لا.

ولكنه عندما فتحها انزلقت من بين يديه ووقعت محتوياتها على السجادة الحمراء التى تغطى أرض الحجرة، كراساته وملفاته وأوراقه.

- لا تتحرك، سأعيدها لك.

وبكل النعومة والرقة جمعت له أشياءه وأعادتها داخل الحقيبـة. فى حركاتها أناقة بعيدة عن التكلف. أوراق الملف فى يدها مثل أوراق

اللعب بين يدى لاعب ماهر. "كنت ممرضة طول عمرى". قالت له ذلك وكأنها قرأت ما يدور فى ذهنه. "هاك التيلونول".

- سآخذ اثنين.

- طبعًا، اثنان من التيلونول وكوب من اللبن الساخن المخلوط بالعسل. أرجو ألا تعترض على المسحوق، انتقلنا حديثًا إلى هذا المكان وليس لدينا شيء. كنت ممرضة طول عمرى. لا أحتفظ باللبن أو التيلونول، ضيوفى يحضرون كل شيء معهم. ما رأيك؟

وضحك آرت بملء شدقيه وقال:

- عندك عسل! كيف ذاك؟

- لا أدرى لعل نزيلاً تركه هنا، أتمنى ألا يكون نما فيه شيء.

- وضحك آرت مرة أخرى. ثم أعانته على النهوض ليتناول أقراصه. اسمها سندى.

ناولته اللبن المخلوط بالعسل، وجلست قريبة منه وخاضت معه فى كل موضوع. حدثته عن نيتها فى ترك الفندق، وعن أبنائها الذين سيختلفون إلى مدرسة جديدة، وكيف أنها لم تجد حرجًا فى استقبال رجل غريب جريح فى حجرتها. لقد عاشت عمرها فى الفنادق على أية حال وتستطيع أن تدبر أمورها وتحمى نفسها وأبناءها. وأرته مديتها التى تفتحها بسهولة وتضعها فى جيبها طوال الوقت، نقشت عليها الحروف الأولى لاسم شخص لا تعرفه، لم يحدث أن استخدمتها. قالت

له إن شخصنا أعطاها لها ولا يعرف لمن تلك الحروف المنقوشة. أشعلت سيجارة. حكى لها فى البداية عن المؤتمر وكيف جاء إلى هذا الفندق عن طريق الخطأ. قال لها ذلك ببعض التردد أملاً فى ألا يكون قد أساء إليها. ولكنها لم تستقبل كلامه على ذلك الوجه. ضحكت وسعلت وأطلقت دفعات من دخان سيجارتها في الهواء. وقالت: طبعًا هذه صدمة أن تنزل بمكان كهذا، هذا ليس مكانًا ينزل فيه ولد مهذب مثلك.

- وفاجأته كلمة "ولد" قليلاً. "وماذا عنك أنت، هذا ليس مكانك، لا أنت ولا أولادك".

- "لعلك صادق، ولكن هذا ما قدره العلى القدير، صح؟ أنتم القوم تزدادون رفعة ونحن نكتفى بالجلوس والفرجة".

قالت ذلك بقليل جدا من الحسد، بشىء أقرب للمودة حتى ظنه نوعًا من الإغراء الفج.

ولكن لعلها كانت تخلط الجد بالهزل أيضًا. ربما كانت تفترض أشياء مثلما كان يفعل بلى شو، كسائر الرجال فى كل العصور. يتصورون الرغبة وليس هناك رغبة. لم يُعْقِه أصيله الأسيوى من ذلك. أنتم القوم. كان آرت قد تأخر عن المؤتمر. ولكن هذا لم يكن يهمه كثيرًا، فهذا المؤتمر كان سيعقد متزامنًا مع مؤتمر آخر أكثر نشاطًا فى طرح الأفكار خلال اجتماعاته وفترات الراحة فيه عن أجهزة الكومبيوتر الشخصية. وكان ذلك فى الغالب يعنى العشاء.

كان الكساد هو السائد. كان آرت سيقوم بتقدير حجم التراجع في الأسواق الذى وصل إلى نسبة أعلى بكثير من الأعوام الماضية. وأكشاك العرض لم تعد كما كانت في الماضى. في الماضى كانت أرض المعرض مكتظة بالأكشاك المليئة بالبضاعة الفاخرة، وكان آرت يشرف على الكثير منها مما كان يستغرق أياما لإقامته في أرض المعرض. يرى الآن المواقع الخالية على أرض المعرض، لا يهتم العارضون حتى بالحضور، وهؤلاء أكثر مدعاة لتثبيط الهمم. كان آرت نفسه يشرف على كشك تستطيع منه أن تبتاع كاتالوج طائرة من ذلك النوع المحفوظ فى أكياس من قماش قطنى ذى طبيعة مخملية. لقد زهد الناس فى الكراسات أيضًا. ذهب زمن الكراسات القديمة ذات الاثنتى عشرة صفحة والألوان الأربعة، وجاءت الكتيبات ذات الصفحات الأربع واللونين مزينة برسوم توضيحية منضدة بحروف سوداء بغرض التأثير المتعمد، لا تتاح للجميع، لا يعطونها لغير الجادين.

استرد آرت نشاطه. وبدلا من الوقوف عند موقعه الخاص ظل ينتقل من كشك إلى كشك يرحب بالناس الذين كان يجب أن يراهم على مائدة الإفطار. كانوا سعداء برؤيته والحديث معه فى شئون السوق، سعداء لأنهم يقتطفون العنب من كرمة قديمة. كان حقيقًا به أن يحس بالاحترام التام لولا مكثه فى ذلك الفندق المنحط. أنتم القوم. أي قوم كانت سندى تعنى؟ أو ربما لم تكن تعنى شيئًا غير وجهة نظر ساذجة. ولكن كيف للمرء أن تكون له وجهة نظر سطحية فى أمر جلل كهذا؟

تعجب لذلك حتى عندما دلف بخياله إلى عالمها. بدأ الـدخول بطـرق على بابها، وبعد أوقات مثيرة انتهت به إلى أن أنقذها وأبناءها من حياة بلا مستقبل معروف. لم تكن قدرته الجنسية على ما يرام، كـان ذلـك جليا، أو على الأقل لم تكن كما هى عند بلى شور. حاول آرت تـدبير خطة. ولكنه لم يتحمس للأمر. لم يكن يعرف حتى ما الخيـار الثالـث الذى عساه يكون فى تلك الحالة. كل ما كان يعرفه أنها كانت راغبة.

ظل يلعب ببعض البرامج (السوفت وير) فى الكشك المجـاور. بدت له الألعاب جذابة ولكنه لم يلبث أن تركها عندما أحدثت ضـجيجًا صاخبًا لم يفهم معه شيئًا. عاد إلى موقعه حيث زاره عدد مـن النـاس الذين كان يعرفهم وكانوا يحملون له الود. أناس ربما حدث أن أراهـم صورًا لأطفاله. فكر أن يتحدث مع واحد منهم أو اثنين عـن أحـداث الصباح المنصرم. لا فى أمر الدعوة التى لم تكن دعوة فى الواقع، بل عن إقامته العرضية فى فندق السعادة ثم يعاقب فى النهايـة بتليفونـه الخاص. تدفقت إلى رأسه عبارات: "ليس الأمر سـيئًا كمـا تظنـون. سوف تدهشون من ود الناس هنا وبساطتهم وتواضعهم. رغـم عـدم وجود بار بالطبع". لكن الأمر لم يعرض على بـساط الحـديث فـى النهاية. أحس بأنه المقهور. السر لم يكن يحتمل، عرضة للتسرب منـه فى أى وقت عاجلا أو آجلاً. الأمل فقط فى ألا يكون انتشاره قريبًا.

الأمل فى ألا يعرفه بلى شور الذى يبحث عنه الآن لكى يسعى لصده.

سأل آرت عن بلى شور فى كل الأكشاك، لم يره أحـد؛ كـان

غيابه غريبًا. قذف الرعب في قلب آرت. وعندما توقف عنده بعض المؤتمرين لإلقاء نظرة على برامجه، في مواضع كثيرة كان يضيع منه الإمساك بخيط المحادثة. وكل ذلك لأن (السي بي يو) عنده كانت مليئة بالهراء المعاد. منذ وقت ليس بالطويل، عندما كان ينظر في بعض مواقع البيانات التي حملت معلومات بسيطة عن عاملين في المصنع، ألقى نظرة على موقع بلي شور، اكتشف أنه ولد في يوم مولده نفسه، آرت يكبره بأربع سنوات. بلي أصغر. كان ذلك مصدر ضيقه. ولكن آرت كان سعيدًا بالمعلومة. دوّنها في أجندته حتى يندفع إلى بلي في المؤتمر ويتخذ منها مادة للمزاح معه. الآن يجرى بروفة: "اسمع لقد ادخرت لك مفاجأة. كنت دائمًا أقول إنك من برج الأسد. أعتقد أن ذلك يجعلنا لدّتين". أي شئ غير أن يذكر فندق السعادة وكل ما حدث له ذلك الصباح هناك.

ولكنه لم يندفع إلى بلي أبدًا. راح يسأل عنه طوال النهار ليعرف في النهاية أن بلي انتقل إلى وظيفة أخرى في الوادي، مع رجل أعمال مبتدئ في مجال الكومبيوتر الشخصي. انتقال ميمون، بصرف النظر عن خسارته في الشركة.

قال له إرني فورد المرشد: الدنيا لا تعرف غير الأمد الطويل، دعنا نعترف بالحقيقة، الأمد الطويل هنا غير متاح.

ووافقه آرت بحماس. من جهة كان سعيدًا لأن منافسه رحل. كان ذلك يعني أن هناك كما لا بأس به من الفوضى في إنفو إدج، إذا

لم يكن هناك شيء آخر. سوق التأمين، لسوء الحظ، كان يمثل حوالى ٤٠ % من جملة نشاطه. يستطيع أن يستفيد من أية ميزة تتاح له. الميزة الأخرى أن آرت لن يرى بلى شور مرة أخرى، لذته، بنكاته ولغة التيار السائد التى كان يتحدثها. غير أن آرت لم يزل يحس بالانقباض. قال: "كان ينبغى أن نذهب جميعًا".

"الصراحة لم يتفوه بها أحد بعد". قال إرنى. لم يكن إرنى صديقًا مقربًا لآرت فى يوم من الأيام، ولكن لأمر ما كان الحديث عن بلى يجعله أكثر ودا مع الناس. وكأن بلى لم يزل ذا تأثير حتى فى غيابه. "تعرف أنى أزمعت الرحيل لولا زوجتى والأولاد – لا يريدون أن يتركوا زملاءهم؟ بالإضافة إلى أن أكبرهم فى الصف الأول الثانوى ولا نتحمل مصاريف انتقاله فى الوقت الحاضر، وبقاؤه يجعله يحافظ على معدلاته العالية، حتى يستطيع دخول كلية محترمة، هذا يعنى أنى سأبقى... ولكن أنت".

- أعتقد أنه يجب أن أذهب. قال آرت.

- طبعًا يجب أن تذهب، ما الذى يبقيك؟

- لا شئ، تعرف أنى مطلق الآن؛ لذا معك حق. حتى غير المطلقين يجب ألا يعلقوا الآمال.

- اذهب، خذ نصيحتى. إذا سمعت بشىء أفضل سأخبرك به.

- أشكرك.

ولكنه لم يتوقع فى الواقع أية مساعدة من إرنى. مر زمن طويل منذ اتصل به أحد معارفه. كثيرون هم الغرباء الذين عدموا المال الوسيلة التى تمكنهم من الرجوع إلى بلادهم واستولى عليهم اليأس. الكل يعرف ذلك. حتى الذين ظلوا يقاومون الظروف ما برحوا ضحايا الشك أينما ذهبوا. من قدر له النجاة قفز إلى سفينة مبكرًا، حكمة معروفة. ظل آرت هناك، يكافح لكى يبقى فى وظيفته ليكتشف فى النهاية أن هناك أوقاتًا تخبو فيها الرغبة فى الاحتفاظ بالوظيفة، أوقات يحتال فيها من أجل الحصول على مظلة الهبوط الذهبية لكى يقفز. ثمة شئ لم يخبره به أحد، لم يكن يعرفه، أن يخوض فى حوار ودى للغاية ليجد نفسه مفصولاً فى النهاية. من ذا الذى يمكنه أن يتنبأ بذلك؟ أحيانًا كان يبدو لآرت أنه لم يكن يعرف شيئًا البتة، أو أنه كان يحفر قبره بنفسه وهو لا يعرف أنه سيرقد فيه، كان لا يزال يحاول الوقوف على قدميه.

وفى نهاية اليوم وجد القليل من المؤتمرين غاية فى الأدب على الأقل. وبينما كان يستعد للعودة إلى الفندق وجد مفاجأة كبيرة فى انتظاره. اقترب منه مندوب دعاية، أخصائى فى استقطاب الأدمغة، صديق لإرنست.

- إرنست، آه، إرنى! فورد! طبعًا!

رجل متورد اللون مستدير الوجه، بشعره المعقوص أشبه بالقديس فرانسيس أسيسى(*)، يملأ يديه بكسر خبز على ما يبدو. قال:

---

(*) القديس فرانسيس أسيسى ١١٨٢- ١٢٢٦. اسمه الكامل فرانسيسكو دى بيترو دى-

"فرصة عظيمة". وقال إنه فى عجلة من أمره، ولكنه كان يعرف الفتى الذى يجب أن يقابله آرت، شخص كان قادما إلى المعرض ذلك المساء. جاء فى شأن له ولكنه كان فى حاجة لشخص مثل آرت. بحث عنه بالأمس. قال: "إن ذلك من أولوياته. هل يظهر على مائدة الإفطار قبل الظهر؟ هل يتصل فى بحر ساعة أو نحو ذلك؟ قال آرت فى نفسه: "بالتأكيد". وعندما سأله القديس فرانسيس عن رقم الحجرة تردد آرت. ولكنه أعطاه اسم الفندق فى النهاية. فندق السعادة. كيف للقديس فرانسيس أن يعرف طبيعة الفندق؟ أعطاه آرت اسم الفندق دون تردد حتى لا يظهر التردد شيئًا من طويته ويجهض مسعاه. لم يبح باسم الفندق لأحد فى المؤتمر. قال إنه كان مشغولا فلم يتمكن من الحجز فى فندق المؤتمر. كان ذلك هو السبب فى اختياره مكانا آخر.

نجاح طبعًا. طوال اليوم وعقل آرت يضطرب مثل القربة المخضوضة، وفجأة بدا فارغًا. لابد أنه بلى أيضا ولد فى اليوم نفسه، فى عام مختلف، وشهد بذلك نجم مختلف. كم تبدو الأشياء أبسط مما نتصور. لم يسبق أن فكر فى أمرين أو ثلاثة أو حتى ستة أمور فى وقت واحد. اليوم يوم انتصاره. لأنه أبقى فمه موصدًا. لم يتفوه بشئ. حافظ على برودة أعصابه ورباطة جأشه. عاد إلى الفندق بسرعة وحماس. اجتاز الردهة. رجل كتوم. لم يطرق باب سندى. سينتقل إلى الغرب. هناك سيجد وظيفة أفضل، حياة جديدة، ربما يحترف التنس

*بيرناردون، راهب إيطالى ومؤسس النظام الفرنسيسكانى. (المترجم)

ويصبح ثريا. ربما يتعلم أكل الأطعمة الغربية التى يأكلونها هناك، مثل الجيكاما وطحلب البحر، وربما يصبح نباتيا.

قبل أن يصل إلى حجرته تذكر أن جهاز التليفون ليس معه.

تهافت على سريره. سمع أصوات جلبة قريبًا من النافذة، تأكد من رؤية ظل شخص ما. لم يستغرب. الظل لم يقف أمام باب حجرته على الأقل حين رآه. ذلك كان من حسن الحظ. أنتم القوم، قالتها سندى وهى تعيد كيس الثلج إلى رأسه. استطاع آرت أن يرى وجهة نظرها، كانت على حق. كان أوفر منها حظا، حتى الآن على الأقل. ولكن الآن يرى الظل عند نافذته، فكر مليا فى خلو يده من السلاح. لو كان التليفون فى حوزته الآن لاتصل بليزا أو لاتصل بالبوليس. بحيرة كبيرة بدأت تتشكل حوله، فجأة، بدت له محيطًا. لكن كان يجب عليه أن يتصل بليزا أولا ويعرف إحساسها بصدد انتقاله إلى الغرب. لم يكن يريد أن يبدو كمن يتصل بلا هدف محدد.. لم يكن يريد أن يبدو كمن تتقاذفه الأمواج وقد يغرق. لم يكن يريد أن يبدو كالملتاث. لم يكن يريد أن يبدو كمن يتصل من فندق درجة ثالثة. منذ سنوات خلت كان يقول: "نعم هذا طفل، نعم سيكون هذا طفلا". يتصل بالطبيب ليطمئنه على الطفل... ولد... ظهر شبحه... كامل النمو عبر الموجات فوق الصوتية الشفافة. هلامى الرأس طرى اللحم سريع دقات القلب... وساعة خروجه تتحطم كل عظمة فى جسده.

## ببليوجرافيا الكتاب

**بنيامين روزنبلات (١٨٨٨- )**

هاجر من روسيا إلى نيويورك مع أسرته وهو في العاشرة من عمره. نشرت له أول قصة في مجلة بيدية عندما كان في السابعة عشرة. تخرج في جامعة نيويورك وعمل في بروكلين كمندوب لشركة تأمين.

**ماري ليرنر**

يقول محرر الكتاب إنه لا يعرف عنها شيئًا غير أنها نشرت الكثير من القصص القصيرة في المجلات القومية المعروفة.

**شروود أندرسن (١٨٧٦- ١٩٤١)**

بدأ حياته الأدبية في عام ١٩١٣ بعد أن خدم في الحرب الإسبانية الأمريكية كاتب مقالات دعائية ومديرا لمعمل تصوير. أشاد به النقاد بعد أن نشر كتابه المعنون: واينسبيرج، أوهايو. وهي أول مجموعة قصصية له تلتها مجموعات عدة. نشر أيضًا أعمالا شعرية ونقدية ومقالات وروايات منها "الضحك الكئيب" و"القار" و"طفولة في

الغرب الأوسط" و"قصة كاتب قصص "قال عنه فوكنر: كان الأب الروحي لجيلي من الكتاب الأمريكيين، والمؤسس الحقيقي لتراث الأدب الأمريكي الذي سيحمله من سيأتي بعدنا.

**جان تومر (١٨٩٠ - ١٩٦٧)**

ولد في واشنطن وتلقى تعليمه الثانوي في مدارس بروكلن ونيويورك وواشنطن، ودرس بعد ذلك في جامعة وسكنسون والكلية الأمريكية للتدريب المدني في شيكاغو. كان عضوا بارزا في إحياء الهارلم. أشهر أعماله الروائية الرواية التجريبية كين الصادرة عام ١٩٢٣. له أعمال قصصية ومسرحية وشعرية أخرى يصور فيها الناس في ريف جورجيا. اعتزل تومر الكتابة في السنوات الأخيرة من حياته.

**إرنست همنجواي (١٨٩٠- ١٩٦١)**

ولد في إلينوي وفي الثامنة عشرة تطوع في الحرب العالمية الأولى وجرح. بدأ حياته الأدبية بنشر مجموعتين من القصص القصيرة. نشر بعدهما عدة روايات منها الشمس أيضًا تشرق ولمن تدق الأجراس، وعدة مجموعات قصصية أخرى، وسيرة ذاتية، ومسرحية العمود الخامس. وفي ١٩٥٣ نال جائزة بوليتزر عن قصته العجوز والبحر، وفي ١٩٥٤ حصل على جائزة نوبل في الأدب.

## ويلا كاثر (١٨٧٣ - ١٩٤٧)

ولدت فى فرجينيا ونزحت إلى نبراسكا مع والديها وهى فى التاسعة. كتبت الكثير من الروايات منها أوه أيها الرواد! وصديقتى أنتونيا، والموت يحل على رئيس الأساقفة. لها أيضًا عدة مجموعات قصصية منها الخوف الذى يسعى فى الظهيرة، ومصائر غامضة، ودواوين شعرية منها أوقات الغسق فى أبريل وقصائد أخرى، ومقالات نقدية، حصلت على جائزة بوليتزر عام ١٩٢٣ عن روايتها واحد منا والميدالية الذهبية للمعهد القومى للفنون الآداب عام ١٩٣٣ وعضوية الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب منذ عام ١٩٣١.

## وليام فوكنر (١٨٩٧- ١٩٦٢)

من مواليد مدينة أوكسفورد بولاية ميسيسيبى. خدم فى الحرب العالمية الأولى فى القوات الجوية الكندية. كان من الكتاب غزيرى الإنتاج فى القصة القصيرة والرواية والشعر. من أشهر كتبه أبشالوم، أبشالوم!، وعلى فراش الموت، والملاذ والضوء فى أغسطس، والداخل فى التراب، وموسى والصوت والغضب. نال فولكنر جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٤٩ ثم نال جائزة بوليتزر مرتين، فى عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٢.

**كاترين آن بورتر (١٨٩٠- ١٩٨٠)**

ولدت فى تكساس وماتت أمها وهى فى الثانية وكفلتها جدتها التى أحاطت جفيدتها بالرعاية والكتب. حصلت مجموعتها القصصية على جائزة بوليتزر، وجائزة الكتاب القومى فى عام ١٩٦٥. لها رواية بعنوان "سفينة الحمقى" ١٩٦٢ حققت نجاحا تجاريا كبيرا. كما كتبت الكثير من المقالات النقدية.

**ألكساندر جودن (١٩٠٩- )**

ولد فى أوكرانيا وقدم إلى نيويورك فى عام ١٩٢٢. كان يعمل فى تعبئة الزجاجات فى مصنع كيماوى بينما كان يكتب روايته: "على أعتاب البدايات." يقول المحرر إنه لا يعرف عنه أكثر من ذلك.

**فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩-١٩٧٧)**

كتب أكثر من أربعين كتابا فى القصة القصيرة والنقد والشعر منها: دعوة لقطع عنق، والحياة الحقيقية لسيباستيان نايت، ولوليتا، وضحك فى الظلام، ونار شاحبة، وآدا. قام أيضا بترجمة أعمال بوشكين وكتاب روس آخرين إلى الإنجليزية. له شهرة عالمية كعالم فى الحشرات.

### إليزابيث بيشوب (١٩١١- ١٩٧٩)

شاعرة مرموقة ورحالة تحب السفر. ولدت فى ورسستر بولاية ماسوشستى. اشتغلت بالتدريس فى الكثير من الجامعات مثل هارفــارد وكامبردج. نالت جوائز كثيرة عن أشعارها. نالت جائزة بوليتزر عــام ١٩٥٦ عن مجموعتها القصصية شمال وجنوب – ربيع بــارد. مــن كتبها: مسائل الترحال والبرازيل (عاشت فى البرازيــل سـنة عــشر عاما)، ومجموعة قصائد بعنــوان جغرافيــا III والأشــعار الكاملــة والأعمال النثرية الكاملة.

### إي. بي. وايت (١٨٩٩- ١٩٨٥)

عمل محررا مشاركا وكاتبا فى مجلة النيويــوركر فــى عــام ١٩٢٦. ذاعت شهرته كأبرز كتاب المقالات فى القرن العشرين، كمــا أحرز شهرة واسعة ككاتب فكاهى وكاتب قصة قصيرة ومؤلف لكتابين شهيرين للأطفال: "ستيوارت القصير"، "وشبكة تشارلوت". نال جــوائز كثيرة مثل الميدالية الذهبية من الأكاديمية الأمريكيــة للفنــون والآداب ١٩٦٠. نال جائزة بوليتزر كإشادة بجميع أعماله عام ١٩٧٨.

### جون تشيفر (١٩١٢- ١٩٨٢)

أحد كتاب القصة القصيرة العظام فى القرن العشرين. نال جائزة أو هنرى التذكارية مرتين: فى عام ١٩٥٦ عن مجموعتــه " الــزوج

الريفى "، وفى عام ١٩٦٤ عن مجموعته " نزول الفراشات". نال أيضا جائزة الكتاب القومى فى عام ١٩٥٨ وجائزة بوليتزر، وجائزة جمعية نقاد الكتاب القومى، والجائزة الأمريكية للكتاب عن كتابه المعنون: " قصص جون تشيفر" المنشور عام ١٩٧٩. وفى عام ١٩٨٢ قلدته الدولة الميدالية القومية للأدب.

**جويس كارول أوتس (١٩٣٨- )**

كاتبة غزيرة الإنتاج فى القصة ( أكثر من خمسين مجموعة قصصية وعشرين رواية ) والشعر والدراما والنقد. نالت جوائز كثيرة منها جائزة الكتاب القومى وجائزة أو هنرى ثلاث مرات. حصلت على درجة الماجستير من جامعة وسكنسون ودرّست فى العديد من الجامعات بعد ذلك. تعيش الآن فى برنستون، نيو جرسى. قصة إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟ كانت موضوع فيلم كلام ناعم الذى أخرجه جويس تشوبرا مؤخرا.

**إسحاق باشيفز سنجر (١٩٠٤-١٩٩١)**

ابن وحفيد حاخامات. ولد فى بولندا ونزح إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥. كان يكتب باللغة العبرية وسرعان ما اتخذ اللغة اليديية لكتابة قصصه. من أعماله المنشورة بالإنجليزية: جمبل أضحوكة القصر، ساحرة لبلن، وقصص مختارة. نال سنجر عدة جوائز منها

جائزة الكتاب القومى مرتين. حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٧٨.

**دونالد بارثلمى (١٩٣١-١٩٨٩)**

ولد فى فيلادلفيا، بنسلفانيا، وخدم فى الجيش الأمريكى. وعمل أستاذاً زائرا فى عدد من الجامعات الأمريكية. معروف بولعه بالتجريب والخروج على القالب التقليدى فى الكتابة القصصية. ألف أكثر من اثنى عشر كتابا منها رواياته مثل: حزن والأب الميت وسنوهوايت. تحمل مجموعاته القصصية عناوين مثل: العودة والدكتور كالجارى، وأفعال شاذة، والمحبين، وأيام عظيمة. نال جائزة الكتاب القومى عام ١٩٧٢ ورشح للجائزة نفسها عام ١٩٧٤ عن كتابه: متع آثمة. ترجمت له قبل ذلك قصة "الزمردة" ونشرت ضمن مجموعة "نساء مفقودات" (٢٠٠٠).

**جون أبدايك (١٩٣٢ - )**

ولد فى شلنجتون، بنسلفانيا ودرس فى مدارسها العامة. تخرج فى جامعة هارفارد عام ١٩٥٤. درس لمدة عام فى مدرسة رسكن للرسم وللفنون بين عامى ١٩٥٤ و١٩٥٥. ثم كلف بمراسلة باب حديث المدينة فى مجلة النيويوركر انتقل بعدها إلى ماسوشوستى فى عام ١٩٥٧ ويعيش هناك من ذلك الحين. حصل أبدايك على جائزة

روزنتال ١٩٥٤ وعلى جائزة أو هنرى عام ١٩٦٦ ثم اختير عضوا في المعهد القومى للفنون والآداب. آخر رواياته: عند نهاية الزمن. متزوج وله ولدان وبنتان.

**أليس مونرو (١٩٣١-    )**

من مواليد أونتاريو، كندا. نالت جائزة الحاكم العام مرتين. ألفت عدة مجموعات قصصية من بينها: من تظن نفسك ؟، أقمار جوبيتر، رقص الظلال السعيدة، أسرار واضحة، صديقة شبابى، حب امرأة طيبة صدر أخيرا كتابها المعنون: قصص مختارة لأليس مونرو. من التيمات المتكررة فى قصصها العلاقة بين الآباء والأبناء. تعد من أبرز أعلام القصة الأمريكية القصيرة فى الوقت الحاضر.

**أليس إليوت دارك (١٩٥٣-    )**

صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان عارية حتى الخصر. تنشر أعمالها القصصية فى النيويوركر NewYorker ودوبل تيك Doubletake. قصة فى الغسق كانت موضوعا لفيلمين أنتجا مؤخرا. حصلت على منحة من المؤسسة القومية لمنح الفنون والآداب. تعيش حاليا فى مونتكلير، نيوجرسى.

**جش جن (١٩٥٦-    )**

لها روايتان منشورتان: الأمريكى الخالص، ومنـــى فـــى أرض المعاد. نالت جوائز عدة من كلية رادكليف والمؤسسة القوميـــة لمـــنح الفنون والآداب ومؤسسة جاجنهايم. تعيش حاليا فى ماسوشوستى. آخر أعمالها مجموعة قصصية بعنوان من الأيرلندى؟ وقصص أخرى.

# المترجم فى سطور

أحمد الشيمى

- مدرس الأدب الإنجليزى - جامعة القاهرة.

- صدر له:

١-نساء مفقودات: مختارات من القصة الأمريكيـة الحديثـة (تصدير الأستاذ الدكتور/ ماهر شفيق فريد)

٢-رواية يقظة امرأة لـ كيت شوبان.

٣-كتاب هل يوجد نص فى هذا الفصل؟: سلطة الجماعـات المفسرة لـ ستانلى فيش. عن المجلس الأعلى للثقافة.

- تحت الطبع (كتاب اللغة والثقافة لـ كلير كرامش - كتـاب: الشاعر والسلطة فى الشعر الإنجليزى فى القرن السابع عـشر (تأليف)

- له بحوث فى الإنجليزية نشرت فى مجلات محكمة.

# المراجع فى سطور

**طلعت الشايب**

كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢ (البتانون ـ منوفية)، حاصل على ليسانس أدب إنجليزى والتربية عام ١٩٦٢، يترجم من وإلى اللغة العربية والانجليزية والروسية، عمل بالتدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى كل من مصر والكويت وقطر (١٩٦٢ - ١٩٩٢)، عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، رئيس تحرير سلسلة «آفاق عالمية» التى تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، وعضو مجلس تحرير مجلة «أدب ونقد» وللفرع المصرى لنادى القلم الدولى.

**صدرت له الترجمات التالية:**

**دراسات:**

- حدود حرية لتعبير "تجربة كتاب القصة والرواية فى مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات"، تأليف: مارينا ستاج ـ دار شرقيات بالقاهرة ـ ١٩٩٥.
- "المثقفون" تأليف: بول جونسون ـ شرقيات ١٩٩٨.

- "صدام الحضارات" تأليف: صمويل هنتنجتـون ــ سـطور ــ الطبعة الأولى ١٩٩٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩.
- "فكرة الاضمحلال فى التاريخ العربى" تأليف: آرثر هيرمان ــ المشروع القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.
- "الحرب الباردة الثقافية "المخابرات المركزية الأمريكية وعـالم الفنون والآداب" تأليف: ف.س. سوندرز ــ المشروع القـومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافـة ــ الطبعـة الأولـى ٢٠٠٢، الطبعة الثانية فبراير ٢٠٠٢.

روايات:

- "البطء" تأليف: ميلان كونديرا ــ شرقيات ــ ١٩٩٦.
- "الملاك الصامت" تأليف: هينرش بول ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ ١٩٩٧.
- "فتاة عادية" تأليف: آرثر ميللر ــ شرقيات ــ ١٩٩٨.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

يصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة 1915 كتاب سنوى بعنوان "أفضل القصص القصيرة الأمريكية" ويضم مختارات مما تنشره الصحافة الثقافية من قصص يراها النقاد أفضل كتابات السنة، وقد صدر من هذا الكتاب السنوى على مدى القرن العشرين 84 مجلدا تحتوى على ما يقرب من ألف وسبعمائة قصة قصيرة، واحتفالا بانقضاء قرن وبداية قرن جديد قامت الناقدة الأمريكية "كاترينا كينسون" باختيار 200 قصة من تلك المجلدات وعرضتها على الكاتب جون أبدايك ليختار بدوره من بينها ما يراه "أفضل الأفضل" ووقع اختياره على 55 عنوانا لكتاب مختلفين من مراحل زمنية مختلفة هى فى نظره THE BEST OF THE BEST.

يجد القارئ على صفحات هذا الكتاب عشرين قصة تمثل تطور هذا الفن فى الولايات المتحدة بدءا من سنة 15
1995، أما عنوان المجموعة" ربما فى حلب ذا
قصة الكاتب الأمريكى (الروسى) "نابوكوف" ص



تصميم الغلاف: نسرين كشك